مذكرات المرأة المصرية

د. محمد الجوادى

الثورة والحرية

مذكرات :

بنت الشاطئ ■ چيهان السادات

لطيفة الزيات ■ زينب الغزالى ■ إنجى أفلاطون

إعتدال ممتاز ■ إقبال بركة ■ نوال السعداوى

سلوى العنانى ■ ثريا رشدى



الثورة والحرية
الناشر: دار الخيال
الغلاف: محمد الصباغ
الطبعة الأولى



مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

د. محمد الجوادى

مطبوعات دار الخيّال

مـذكـرات المـرأة المصـرية
الثـورة والحـريـة

مذكرات المرأة المصرية

الـثـورة والـحرية

الطبعة: الأولى فبراير ٢٠٠٤

رقم الإيداع: ١٨٦٨ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: 0 - 39- 5979- 977

دار الخيّال: ٠١٢٣٢٩٠٦١٨ / ٠١٢٧٣٤١٥٠٧

فاكسيملى دار الخيال : ٧٩٦٢٢٤١

E- mail: Dar el Khial - egypt @ hotmail. com



دار الخيّـال



تصميم الغلاف : محمدالصباغ .

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

المشرف على الإنتاج : عماد حمدى .

طبـع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣

فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

إهداء

إلى شقيقتى زينب
حباً وتقديراً وعرفاناً بالجميل.

محمد الجوادى

فهرس مذكرات المرأة المصرية

الإهداء ٥
مقدمة ٢٣
الباب الأول: على الجسر للدكتورة بنت الشاطئ ٣١

• التعريف بالدكتورة بنت الشاطىء • حياة الدكتورة بنت الشاطئ حافلة بالإنجازات والمواقف المشرفة • المذكرات آخر قصة حياة لمن لاقوا العنت وذاقوا مرارة الحياة وهم يسعون إلى العلم • تركز حياتها فى بؤرة واحدة هى علاقتها بالشيخ أمين الخولى • لا تزال تعيش ذكراه الماضية والقادمة • هذا هو المعنى الذى تعبر عنه بأنها واقفة على الجسر • الكتاب يخلو تماماً من الحديث عن الجوانب التى جذبت هذه الفتاة فى هذا الرجل الذى أحبته • قد يكون السبب أنها سيدة نشأت وعاشت فى بيئة دينية شرقية محافظة ومتحفظة إلى أبعد الحدود • المذكرات تحفل بتعبير تام عن آثار هذه العاطفة فى نفس صاحبتها • الدكتورة بنت الشاطئ شُغلت بكثير من المواقف عن أن تروى للناس ، وللنساء بصفة خاصة كيف تتقد العواطف الصادقة • لا نجد تعبيراً كثيراً عن الجوانب غير العقلية فى هذا الحب الصادق الرهيب بين الزوجين • صاحبة المذكرات ترى نفسها وحياتها قد انتهت وانطوت من قبل أن تنتهى • بنت الشاطىء تستشرف مع قرائها هزيمة ١٩٦٧ وتعبر بقدرة لا متناهية عن حالة من التوحد المطلق مع الوطن فى محنته التى هزت أركانه ، وهى تشير على استحياء شديد إلى ما كان الوطن وأبناؤه يعانونه من حالات القهر واليأس والخواء والاغتراب • بنت الشاطىء تأمل أن يجدد الأمل فى الشباب خصوبة مصر • المذكرات تقدم قصة كفاح فريدة تستحق أن تروى مرارا • تروى شعورها فى الجامعة: فتحت قلبى وعقلى للجامعة ، عن يقين واثق بأن لديها ما تقدمه إلى من جوهر العلم ومنهج المعرفة • نعجب حين نرى أباها ، وهو المتعلم ، يحارب تعليمها بكل صورة ممكنة من صور الحرب الضروس ، على الرغم من وقوف والدتها إلى جوارها ، ومساندة جد أمها لها كذلك • مساندة شيخ والدها فى الطريقة وزملائه فى المعهد الدينى • ما ترويه صاحبة المذكرات عن بداية الدراسة فى المدرسة الأميرية الأولى • استعانت على إقناع أبيها بالسماح لها بالانتظام فى المدرسة بجد والدتها • أتممتُ الدراسة بمدرسة اللوزى وقد جاوزت سن العاشرة التى حددها والدى لحجزى فى البيت مع الحريم • كرهتُ أن تواصل زميلاتى تعليمهن فى المدرسة الراقية ، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير • لم يبق فى دمياط أى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية ، وإنما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالمنصورة وهى أقرب عاصمة • جازفت والدتى وتسللت بى من دمياط ذات صباح إلى المنصورة، حيث تركتنى بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات ، على أن أعود بعد أيام

الامتحان الأربعة ، مع زميلاتي من بنات دمياط • بعد فترة فوجئت بأن زميلاتي اللائى أدين معى الامتحان ، تلقين من إدارة المدرسة إخطاراً بقبولهن ، ومعه بيان بالملابس والأمتعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى ولم يصلنى إخطار مثلهن مع أن المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان ، وكنت أولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية! • اكتشفت أن والدى تقدم إلى المدرسة بوصفه ولى الأمر ، فسحب كل أوراق التحاقى بها • بعد شهرين من بدء الدراسة ، كانت أمى - رحمها الله - قد ظفرت لى بالإذن فى التعليم ، ممن لا يملك والدى أن يعصى له أمراً • نموذج الأم العظيمة التى تتصرف بتلقائية رائعة وبفدائية نادرة • نعيش مع صاحبة التجربة وهى تواجه القاهرة لأول مرة فى حياتها ، وهى تصدقنا الوصف الدقيق لحالتها فى هذه المدينة • المبنى الجميل الذى كانت تشغله المدرسة وحديقته ، والليالى التى قضتها فى القسم الداخلى لهذه المدرسة • وزارة المعارف رفضت رسمياً اعتماد قبولى طالبة بالمدرسة ، حيث لا تجيز اللوائح أن أقبل إلا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها • التحويل إلى السنة الثانية معلمات طنطا ، حيث علم قريبها أن بها أماكن خالية • لكن الظروف تأبى إلا أن تعاند • لابد من النجاح فى الكشف الطبى • كانت لعمى نظارة طبية طلبت منه أنه يعيرنى إياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة! • ترسب فى الكشف الطبى بسبب هذه الخطوة التى اتخذتها عن جهل • دور الشيخ موسى قمر فى رعايتها فى هذه المرحلة • أصبحت والدتى مضغوطة بين شقى الرحى: لا تستطيع أن تتخلى عنى ، كما لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت للخراب • بنت الشاطىء تستكين وتضحى من أجل أمها • ترى والدها لا يعبأ بما حدث لها • بنت الشاطئ تنجح فى الحصول على شهادة المعلمات • تقدمتُ إلى إمتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه - وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل - أولى الناجحات • صاحبة المذكرات تبدأ طريقاً آخر ينتهى بها إلى الجامعة • تفاضل بين درب التوظف ودرب الدراسة من أجل التقدم للامتحان الأعلى فى القسم الإضافى الذى يبدو لها وكأنه نهاية • حان الموعد المحدد رسمياً لتقديم طلب أداء الامتحان لإجازة القسم الإضافى • تجربتها فى مدرسة المعلمات فى بولاق • القانون يعاكسها لأن ما تطلبه هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن • يمكننى أن أتقدم إلى امتحان الشهادة الابتدائية ، وهو مباح لمن شاء أن يتقدم إليه من طلبة المنازل • المساعدة التى تلقيتُها بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة • دراستها الجديدة عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية • صاحبة المذكرات تدرك فى ذلك الحين حقيقة الآثار السلبية لهذا الازدواج التعليمى الذى كان الوطن يعانى منه • تروى كيف أتيح لها بالصدفة فقط أن تجتاز امتحان اللغة الإنجليزية بنجاح • بنت الشاطىء تسلك طريقها الطويل إلى التحضر الحقيقى • تجربة بنت الشاطىء فى كتابة خطاب رسمى باللغة الإنجليزية • رئيستها [وموجهتها] لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر «على كل ما أنفقت يومى فى

كتابته ، وردت الخطاب إلىّ ، آمرة أن أكتبه فى سطرين اثنين»! ● دعتنى «مس قربان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم ● لم أكن قبل هذا قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية ● بنت الشاطىء لا تجد أى حرج فى أن تروى تفصيلات هذه «المشكلة البروتوكولية» التى واجهتها فى بداية حياتها الجديدة ● تتعلم الطريقة العصرية لتناول الطعام ● تبدأ العمل فى الصحافة مبكراً جداً ● تجربتها فى «مجلة النهضة النسائية» ● الالتحاق بالجامعة بعد حصولها على شهادة البكالوريا ● تتحدث عن تهيبها لقائها الأول بالشيخ أمين الخولى بعبارات قصيرة ● تصف اللقاء الأول بين الحبيبين أو بين المحب وبين مَنْ أراده حبيبا فيبدو لنا وكأنه قد حدث لتوه وكأنها لا تزال تستعيد المشاعر المتضاربة التى غذت نفسها فى تلك اللحظات ما بين تهيب وتشوق ● تعبر عن إحساسها بالصدمة ، الصدمة التعليمية الحقيقية التى جعلتها تفيق وتتحول من طريق التحصيل إلى الطريق الذى كان لابد لها أن تمضى فيه ، وهو طريق التفكير ● كل هذه المعاناة لم تكن إلا طريقاً للوصول إلى الحبيب! أى إلى هذا الأستاذ الذى استنكر عليها ألا تعرف الفرق بين المصدر والمرجع ● الإقرار بدور القوى الخارجية فى تشكيل وجدانها وإحساسها بالتوفيق فى خطوات حياتها ● قصة اختيار صاحبة المذكرات لاسمها الجميل الشهير.

الباب الثانى: سيدة من مصر للسيدة جيهان السادات ٨١

● التعريف بالمذكرات وصاحبة المذكرات ● الكتاب نموذج ممتاز للصدق النفسى الممتاز الذى تُكتب به الكتب التى تتناول السيرة الذاتية ● الفصل الخاص بأوجاع مصر والذى يتحدث عن هزيمة ١٩٦٧ من الوثائق التى تجيد تصوير ما حدث ● صاحبة المذكرات أحسنت صنعاً حين تصدت لهذه المهمة أياً ما كان دافعها إليها ● هذا هو النتاج الفكرى غير الأكاديمى للسيدة جيهان السادات فى المكتبة العربية ● أبرز ما فى الكتاب من عيوب هو أنه ترجمة حرفية للطبعة الانجليزية [الأمريكية]● النتيجة أن المرء يفقد إحساسه بالتواصل مع المؤلفة.. أقصد ذلك التواصل الذى يكون بين المرء ومواطنيه ● فى وحدات القياس ومفردات التمييز ، نجد السيدة جيهان السادات تلجأ فى تعبيرها عن المسافات إلى الوحدات الأمريكية فتقيس المسافات بالميل والأوزان بالرطل والحرارة بالدرجات الفهرنهيتية لا الدرجات المئوية ● تتحدث عن دبل الخطوبة بمسمى الخاتمين ● هذا الخُلق فى الكتاب يعبر عما هو أخطر من ذلك كله وهو الإهمال ، إهمال القارئ العربى ● صاحبة المذكرات أضاعت فرصة ذهبية أتيحت لها حين ألفت هذا الكتاب ، فقد كان فى وسعها أن تتناول كثيراً من القضايا التى أحاطت ببعض تصرفاتها وسياساتها ● أسوأ الأخطاء التاريخية هى تلك التى فرضتها الترجمة غير الدقيقة لهذا الكتاب ● من العجيب أن تنهى جيهان السادات مقدمة كتابها متمنيةً أن يساعد القراء «على فهمكم لمنطقتنا بما يغريكم على زيارتها» وهى عبارة تليق بخطاب إلى

صديق أو بمنشور سياحى لا بكتاب سيرة ذاتية ● الملك فاروق يحظى باهتمام خاص فى كتاب السيدة جيهان السادات ، وهو اهتمام مكثف ربما لم يحظ به الرئيس جمال عبدالناصر ● أسلوب صاحبة هذه المذكرات فى تسجيل مشاعرها يعكس ، حتى من دون أن تدرى ، بعض المشاعر المعبرة عن انتمائها الدائم لما يسميه دارسو الاجتماع بالطبقة الوسطى الصاعدة وبعض معتقداتها الخاطئة ● الكتاب يعبر عن «التوجه نحو الأجنبى وثقافته» بقدر لا يتناسب على الإطلاق مع وطنية السيدة جيهان السادات وانتمائها ● الكتاب يعكس إحساس السيدة جيهان السادات بذاتيتها المتميزة فى كثير من المواقف ● لا يخلو الكتاب من بعض الأفكار التاريخية المغايرة للحقيقة وللواقع والتى يبدو أنه لم يكن للسيدة جيهان دور فى أن تقحمها على كتابها ● صاحبة المذكرات دخلت بإرادتها فى كثير من الأشراك ● تحرص على أن تتحدث عن عادات أهلها وقومها بلغة السائح العابر ● سمحت السيدة جيهان السادات لكثير من فقرات مذكراتها أن تصاغ بالطريقة التى تفرض على رؤيتها تسطيحاً للأمور وتبسيطاً غريباً لها (تحت مظنة الكتابة السهلة) وهو ما يتجلى فى كثير من المواضع بلا داع أو مبرر ● تجيد تصوير تجربتها فى عنابر الحروق المزدحمة بعد الحرب ، حيث كان الهواء ثقيلاً برائحة اللحم المحروق ● آراءها [المكثفة] فى انتحار المشير عبد الحكيم عامر قريبة جداً من آراء زوجها ومن آراء المصريين فى مجموعهم ● أما آراؤها فى موقف عبد الحكيم من عبد الناصر فتكاد تكون ناصرية تماما ● حديثها الممتاز [والمنصف للحقيقة أيضاً] عن الزعيم الليبى معمر القذافى وزوجته وآرائها فى كليهما ● انتقاداتها الواضحة لموقف الرئيس القذافى من حرب أكتوبر ١٩٧٣ ● تحكى بعض صور معاناة السادات والنظام المصرى من القذافى قبل هذه الحرب ● قصة أحد المواقف المندفعة التى قام بها العقيد القذافى فى أثناء فترة الوفاق المعلن بينه وبين السادات ● تبدو القصة متوافقة مع طبيعة الرئيس القذافى وحماسته لخدمة قضايا وطنه ● صاحبة المذكرات ، فى ذكاء شديد ، توظف العموميات المعروفة فى تفسير توثق العلاقة بين الزميلين القديمين عبد الناصر والسادات ، وهو ما أدى إلى استخلاف عبد الناصر للسادات ● بعض الآراء التى تصور بها «الجوانب الأخرى» للقرارات السياسية الكبرى ، من خلال المواقف التى عايشتها والتفاصيل التى ألمت بها بحكم قربها من الرئيس السادات ● تصف الحالة النفسية والذهنية للسادات ● تتناول الفكرة القائلة بمسئولية الولايات المتحدة الامريكية عن معاناة مصر والعرب واستمرار المشكلة الفلسطينية ● تروى انطباعاتها عن الساعات الفاصلة التى سبقت اندلاع حرب أكتوبر ● تجيد تصوير مشاعرها عن اللحظات التى بدأت فيها المعركة المجيدة مع إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ● انطباعاتها الباكرة عن الانتصار المصرى فى أول أيام حرب أكتوبر المجيدة ● استشهاد شقيق زوجها الشهيد الطيار عاطف السادات ● تروى تفصيلات انفعالات الرئيس السادات فنلمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف ● صورة الحياة

المتوترة الصعبة التى عاشتها مع الرئيس السادات فيما قبل اتخاذ القرار بالحرب • مدى الغضب الذى كان مسيطراً على الرئيس السادات وهو فى طريقه لإلقاء خطابه الذى أنهى فيه الوجود السوفيتى فى مصر • وصف مشاعر الجماهير الإيجابية تجاه قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت • تحرص دون مبرر ظاهر على أن تصور العلاقات المصرية ـ السوفيتية وكأنها كانت على الدوام فى حالة برود ، وأن تظهر مدى التباعد والتحفظ فى هذه العلاقات • لا يفوت السيدة جيهان السادات أن تلمس أوتاراً مهمة فى نفسيات الأمريكيين الذين يقرأون هذه المذكرات فنراها وهى تحدثهم بذكاء عن مدى معاناتها من عجرفة اليهود المؤيدين لاسرائيل • حديثها عن العلاقات مع الإسرائيليين بعد معاهدة السلام • تصل الرومانسية فى حديث السيدة جيهان السادات عن العلاقات بين المصريين واسرائيل إلى حدود خطرة تجعلها دون أن تدرى تذكر أن ابنتها جيهان كانت مفتونة بشعب اسرائيل!! • حواراتها مع الرئيس السادات فى أيامه الأخيرة • تروى تفصيلات أحد المواقف العائلية التى كان ينبغى عليها وعلى بعض أفراد أسرتها أن تستشف منها أن الرئيس السادات كان على وشك الرحيل • حقيقة مشاعرها فى الأيام الصعبة التى تلت رحيل الرئيس السادات • صاحبة المذكرات تشير بطريقة غير مباشرة إلى معاناتها من التصرفات التى كانت تنسب إليها وتستغل اسمها فى أنشطة أو تجاوزات لم تكن توافق عليها • الرئيس السادات كان على النقيض منها أكثر هدوءا حين يواجه مثل هذه الهجمات أو الشائعات.

الفصل الثالث: أيام من حياتى للسيدة زينب الغزالى ١٢٣

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • مذكرات صارخة تتناول فيها كاتبتها السيدة زينب الغزالى تجربتها مع المعتقلات فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر وتجربتها فى النشاط السياسى والإسلامى منذ منتصف الثلاثينيات • صاحبة المذكرات تبدأ الكتاب بما هو مطلوب يومها من الحديث عن خصومتها مع عبدالناصر وتجعل عنوان الفصل الأول من كتابها «عبدالناصر يكرهنى شخصياً» • كانت فيما بين الثورتين (١٩١٩ ـ ١٩٥٢) من أولئك الذين يرتبطون بعلاقة قوية بزعامة النحاس باشا وحزب الوفد ، وبتقارب فكرى أو وجدانى مع المغفور له حسن البنا والإخوان • حريصة ولكن على استحياء شديد على أن توضح طبيعة انتمائها وعقيدتها السياسية • انتهزت جماهير الشعب فرصة وفاة النحاس.. لتبدى رأيها صريحاً واعتقادها سليماً فهتفت معلنة مدوية تشق بهتافها سماء مصر: «لا زعيم بعدك يانحاس» • .... ولكن (شيئا ما) دفعها دفعاً منذ مرحلة متأخرة فى حوالى ١٩٤٨ إلى أن تسلك سبيل الإخوان المسلمين • لا تروى الكثير ولا القليل عن ديناميات اتخاذ القرار داخل جماعة السيدات المسلمات • قصة لقائها الأخير بحسن البنا حيث أنهت إليه انضمامها إليه • صاحبة المذكرات تضم جمعية السيدات المسلمات إلى رعاية حسن البنا بقرار فردى

● تدلل على وجود علاقة الانتماء بالإخوان من قبل قيام الثورة ● قصة حوار دار بينها وبين زوجها تذكره فيه بشروطها التى أعلنته بها حين تقدم للزواج منها وهى تطلب منه أن يتركها تمارس نشاطها ، بل يصل الأمر إلى حد أن تشترط عليه ألا يسألها عن أسماء من تقابلهم من الشباب أو من غيرهم ● الحوار الذى دار بينها وبين زوجها حين بدأ يستشعر قيامها بدور فعال فى تنظيم سرى ، ونحن نراه هو الآخر لا يعلم صلة لها بحسن البنا ● تتحدث عن التجارب النفسية المتعددة التى مرت بها وهى تترقب التعذيب ، و عن شعورها وهى تتلقى التعذيب ● ترى فى منامها النبى (ﷺ) وترى أيضاً الأستاذ سيد قطب يوم حكم عليه بالإعدام ● تفصيلات اعتقالها فى ٢٠ أغسطس ● المؤلف يلاحظ من روايتها مدى طول النفس الذى تمتع به النظام الناصرى إذا ما قورن بقصر النفس الشديد الذى أصبح سمة كل الناس فى جميع أنحاء العالم بلا استثناء فى عصرنا الذى نعيشه ● زينب الغزالى تذكر بلا مواربة كثيراً من الجهد الذى بذل معها فى سبيل استقطابها وتحييدها ● مكالمة تليفونية تسأل عن سبب عدم الحضور لاستقبال الرئيس عبدالناصر فى المطار ● رجال المباحث والمخابرات كانوا يعرضون عليها بدائل مغرية من أجل إعادة نشاط المركز الذى كانت تترأسه فى إطار مواكب للنظام وليس معارض له بالطبع ● تتأمل قصة لقائها بأحمد راسخ أحد رجال المباحث العامة كنموذج لما تريد أن تصوره لنا من تعاملها القوى الواثق مع هؤلاء الأمنيين الذين لا يجارونها فى قوة منطقها ● قصة حوار آخر دار بينها وبين أحد رجال المباحث ● تروى أن معتقليها ومعذبيها عرضوا عليها تعيينها فى منصب وزيرة الشئون الاجتماعية بدلاً من الدكتورة حكمت أبوزيد ● المؤلف يدحض الواقعة تاريخيا ● محاولات النظام الناصرى لضم (أو احتواء) زينب الغزالى لم تقف عند هذا الحد ، وإنما استمرت بعد القبض عليها ● بعض تفصيلات الحوار بينها و بين شمس بدران عن دور عبدالعزيز على فى حركة الإخوان المسلمين فى ١٩٦٥ ● المذكرات انتهجت النهج السائد فى الكتابات العربية المعاصرة والذى يحرص على التقليل من شأن الرأى الآخر وأصحابه ، بل واتهامهم بالعمالة ● صاحبة المذكرات تروى قصة طلاقها من زوجها الحاج محمد سالم سالم فى غموض شديد ● تذكر أنها وفقت ، دون قصد ، إلى أن تقتل رجلاً سلطوه عليها فى السجن ليفعل بها الفاحشة ● المذكرات تتحدث عن علاقات صاحبتها بأقطاب الإخوان المسلمين ، وتورد آراءها من وجهة نظرها ● توثق علاقتها بعبدالفتاح عبده إسماعيل وهو أحد أبرز المتهمين فى قضية الإخوان فى ١٩٦٥ ● توحى بأن عملها كان بإذن وموافقة المرشد العام للإخوان المسلمين ● تفعل هذا بوعى شديد للصورة التى تقدم من خلالها مذكراتها وذكرياتها ● تتحدث عن علاقتها مع الأستاذ سيد قطب وأسرته ● حديث السيدة زينب الغزالى عن المرشد الثانى للإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبى ● تبدو حريصة على اتهام على عشماوى بالعمالة للمباحث ● فى مقابل هذا التعريض الشديد بعلى عشماوى

تذكر بكل تقدير وفخر موقف عبدالفتاح إسماعيل فى مواجهة شمس بدران • حرص زينب الغزالى على التصوير الدقيق لميلها العميق إلى النزعة الإنسانية التى كانت تتملكها تماماً وهى تزامل اليهوديات فى السجن • تصوير كثير من المشاعر الانسانية واللحظات الصادقة فى حياة البشر • تصوير زينب الغزالى الصادق للحظات شعورية مهمة • رأى المؤلف فى أن الجزء الأهم من هذه المذكرات لم يكتب بعد.

الفصل الرابع: مذكرات إنجى أفلاطون ١٦٧

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • ملامح تميز الفنانة إنجى أفلاطون ، فهى أولاً الفنانة السياسية ، وهى ثانياً نموذج بارز للاقتناع الفكرى ، وهى ثالثاً وهذا هو الأهم نموذج للصلابة المحترمة ، وهى رابعاً ظلت ـ قدر ما استطاعت ـ مخلصة لفنها إلى أبعد الحدود • ملامح القدرة التى تمكنت بها هذه الفنانة من وسائلها الفنية • العنصر البارز فى نجاح كاتبة هذه المذكرات وهو «الفن» • حديث صاحبة المذكرات عن شجرة عائلتها بدءاً من الجد الأكبر وزير الجهادية والبحرية فى عهد الخديو إسماعيل ، والذى سماه الطلبة بأفلاطون • والدها عالم الحشرات الكبير وعميد كلية العلوم فى جامعة القاهرة • والدتها التى تزوجت فى سن الرابعة عشرة • البيوت التى تربت فيها فى شبرا • الشعور بالسعادة والفخر الذى كانت تحس به فى فترة مبكرة من حياتها • حياة والدها فى بيته بالمعادى ورحلاتهم معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وإلى دير سانت كاترين وإلى البحر الأحمر • تقدم انطباعات مهمة جدا عن المدارس الأجنبية فى مصر ينبغى لكل تربوى ولكل صاحب قرار (وصاحبة قرار) أن يطالعها • إنجى أفلاطون تصور كثيرا من الملامح الصعبة لبيئة هذه المدرسة التى قدر لها أن تقيد للدراسة فيها • صاحبة المذكرات كرهت مدرسة القلب المقدس بكل شعورها ووجدانها ، واكتشفت فيها نفس النظام غير العادى الذى يفرق بين الأغنياء والفقراء حتى فى سلك الرهبنة (!!) • تتحدث بسعادة واعتزاز عن دراستها فى مدرسة الليسيه حيث لاقت ما نشدته من حرية السلوك • لم تنجذب إلى حفلات الطبقة الراقية حيث يكون من الممكن لها أن تجتذب عريساً من بين شبان هذه الطبقة • انتباهها للحديث الاسترجاعى عن هوايتها المبكرة للفن • بداية تعرفها بأستاذها الأول كامل التلمسانى الفنان التشكيلى الطليعى • اهتمامه بها وتشجيعه لها إلى الحد الذى جعله يشركها فى المعارض الطليعية لجماعة الفن والحرية رغم صغر سنها وكونها لا تزال طالبة فى الليسيه!! • صاحبة المذكرات تتحول بفضل الرسم أو ترتقى لتجد نفسها كائناً مميزاً بين المثقفين المصريين على حد تعبيرها.. • تنتقل بنعومة شديدة إلى صفوف اليسار • حديثها عن انتماءاتها السياسية وانخراطها فى الحركة الشيوعية وتضحيتها فى المقابل بما كان متاحا لها من السفر لدراسة الفن فى فرنسا • نواجه مع الفنانة إنجى أفلاطون ما واجهته من خياراتها المهمة فيما يتعلق بأمرين جوهريين

هما: اللـغة والجنس • تحدثنا عن مشكلة أخرى واجهتـها وهى تمارس نشاطها اليسارى وهى الفوارق الطبـقية • قضية المرأة والحركة النسائيـة فى مصر : تمزج فى هذا الحديث بين تجربتها الشخصيـة وبين آرائها اللاحقة فى الهيئات التى مارسـت النشاط اليسارى • تجربة اليـسار المصرى فى توظيف النشاط النسائى المصرى من أجل تحقيق أهدافه • محاولتها هى وزميلاتها العمل من خـلال الجمعيـات النسائية الموجودة على السـاحة • تخـصص فقـرات للحـديث بالتفصيل عن «اللجنة التحـضيرية لأنصار السلام» • تروى قصة بيـان اللجنة الذى وقع عليه كل من: يوسف حلمى المحـامى، وسعـد كامل ، وسـيزا نبـراوى ، والدكتـور محـمد صبـرى السوربونى ، وحفنى باشا محمود ، وكامل البندارى باشـا ، ومحمد على عامر ، وعزيز فهمى • تروى قصـة إصـدار مجلة «الكاتب» • قصـة إصـدارها كتابـها الثالث «السـلام والجلاء» • مشاركتها فى مؤتمر السلام العالمى فى فيينا • دورها فى مرحلة الكفاح المسلح فى القناة فى ١٩٥١ • قـصة المظاهرة التى اشتـركت فى تنظيمـهـا فى ١٤ نوفمـبر ١٩٥١ فى ذكـرى يوم الشـهداء • دور جماعـة «صوت الفن» فى تنظيم هذه المظاهرة • تجربتها الدولـية فى مجال النشاط النسائى • رحلتها إلى باريس بالطائرة، طرائف زميلتها فى الرحلة السيدة سعاد زهير والدة الأستاذ لينين الرملى • مشاركتها فى أول مؤتمر عالمى للطلبة فى براغ • انطباعاتها عن حمـلة الحكومة فى ١٠ يوليـو ١٩٤٦ ضد الحـركة الوطنيـة حيث تم اعـتقـال ٣٠٠ من خـيرة المناضلين الوطنيين • مشاركتها فى العام التالى فى مهرجان الشباب الدولى (يوليو ١٩٤٧) ونشاطها فـى هذا المهرجان • قصة زواجها من زميلها فى الـنشاط اليسارى حمدى أبو العلا • كيف تعرفت بزوجها وكـيف أحست بالاقتراب منه • قصة لقاء بالمصادفـة مع خطيبها فى مقر نيابة الصحافة حيث كان يعمل • معرفة الناس بعلاقتها بخطيبها «وكيل النيابة» ورأيهم فى هذه العـلاقة • سخرية القدر حين يطلب مصطفى مرعى من حمدى أبو العلا أن يترافع ضد مَـنْ ستكون خطيبته • المذكرات حافلة بالامتنان للمساعدات القيمة التى وفرها لها زواجها من حـمـدى أبو العـلا • تجربتـها فى العودة إلى الرسم والتحـاقها بمرسم الفنانة السـويسرية مارجـو فـيون • إنجى أفلاطون تواصل تصـوير مـلامح حياتها فى الريف ومـا ترى أنه كان بمثابـة أثر لهذه الحـيـاة على وجدانهـا • نشـاطهـا الفكرى فى التـأليف من أجل الدعـوة إلى معتنقاتها • قصة إصدارها كتابها الأول «٨٠ مليون امرأة معنا» الذى كتبته فى ١٩٤٧ وصدر فى عـام ١٩٤٨ • طه حسين كتب مـقدمة هذا الكتاب • والدفاع الحمـاسى الجميل الذى تـولاه عنها عـالم أزهـرى محتـرم لم تكن تعرفـه ولا يعرفها وهو الأستاذ خالـد محمد خالـد • السبب الذى جعل رئيس تحرير جريدة المصرى يستغنى عن خـدماتها • الوعى السـيـاسى والأيديولوجى يشكل انطـبـاعـاتها عـن حريق القـاهرة • تشـيـر بأصـابع الاتهـام إلى الملك والبوليس السياسى • الفترة التى شهدت قيام الثورة فى ١٩٥٢ وانطباعات زملائها الشيوعيين • الأسباب التى بدأت تدفعها هى وأمثـالها إلى التحفظ على سلوك حركة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢

• التحفظ على سلوك حدتو تجاه التعاون مع هـذه الحركـة • طبيعة موقف الحزب الشيوعى المصرى وجـريدة «الراية» من ثورة ٢٣ يوليو • هذا الموقف الواضح دفعهـا هى وزوجها إلى الانضمام إلى هذا الحزب بعد استـقالتهما من تنظيم «حدتو» • بدايات متاعبـها هى وزوجها حـمدى أبو العـلا فى عـهد الثـورة • قضت عـاماً كـاملاً من الـسـعادة والهدوء والـتأمل فى الإسكندرية مع زوجها • التجربة التى عاشتها لمدة سنتين كزوج لأحد المعتقلين ، يعيش بعيدا عنها وهما فى بـداية زواجهما ، وتضطر إلى زيارته فى سجن الـقناطر كل أسبوع • تعـتـرف أنهما كانا يفتـقدان بعضهما ، ولكن هذا كله يهون إلى جوار ما سـيأتى مما يتوقعانه • قـصـة اعتقال زوج شقـيقتها الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله • موقفها ومـوقف زوجها وموقف اليسار المصرى فى حرب ١٩٥٦ • الانتخابات البرلمانية ١٩٥٧ • قصة ترشيـح سيزا نبراوى فى دائرة مصر القديمة • تشير إلى جهود أبو بكر سيف النصر ونبيل الهلالى وفتحى رضوان وجاكلين خـورى وحكمت أبوزيد فى تأييد سيـزا نبراوى • تروى تفـاصـيل الموقف الذى وقفته الحكومة بجوار مرشحها الأستاذ أحمد سعيد مذيع صوت العرب الشهير • تروى مـا تعـرض له الدكـتور عـبـدالعظيم أنيس مـرشح اليـسار فـى دائرة الوايلى من تعـذيب على يد المباحث والبوليس • المأساة التى تعتقد أنها أفقدتها حياة زوجها • الجزء الخاص بحـديثها عن وفـاة زوجهـا • الفترة الممـتدة مابين ١٩٥٧ (وفاة زوجهـا) و١٩٥٩ ، وهى الفترة التى شهدت تألق نشـاطها الفنى • مواجهتها لحمـلة اعتقالات ١٩٥٩ التى كانت تتوقع بالطبع أن تشملها • تحدثنا عن اختفائها وهروبها • كيف عرفت بمحاولة أجهزة المباحث القبض عليها • تروى قصة هروبهـا واختفائها فى بيت صـديقة لها فى القاهرة ثم فى السويس لمدة خـمسة وأربعين يوماً ثـم فى شبرا ، حيث كانت تتـخفى فى زى بنت البلد • تقع أخيـراً فى قبـضة الشـــرطة • تحدثنا عن قصة القـبض عليها وكيف استطاعت التخلـص من التقرير الذى كان بحوزتها • انطباعاتها عن الضباط ورئيس النيابة الأستاذ أحمد موسى ونبله وإنسانيته وتشيد به • حريصة على أن تفخر بواقعيتها وذلك فى مقابل تفاؤل زميلاتها بالإفراج القريب • نبل الدكتور محمد عـبدالمنعم المفتى الذى هيأ لها الإقامة فى مستشـفى قصر العينى بدعوى المرض • محاولات إدارة الـسجن التغلب على الإضـــراب التى شاركـت فيه • قـصـة الزيارة التى تمكنت والدتهـا من الحصـول على إذن بها حـيث التقت الأم مع ابنـتها إنجـى فى حضـور أحد الضـــباط • حرص إنجى أفلاطون عـلى أن تثرى معلوماتنا ومـعرفتنا بما أدركتـه من الخبرة والتجربة فى السجن • تحدثنا عن تفصيلات التفتيش والتأديب فى السجن ! ! .

الفصل الخامس: حملة تفتيش أوراق ذاتية للدكتورة لطيفة الزيات ٢٤٣

• التعريف بالمذكرات وبصـاحبة المذكرات • مغـزى عنوان المذكرات • أستـاذة الأدب استخدمت قدراتها وخبراتها الأكاديمية فيما قرأت ونقدت ودرست وحللت من قبل • يشعر

القارىء فى صفحاته الأولى أنه يفتقد « التركيز » ، فإذا ما وصل إلى صفحاته الأخيرة شعر أنه فى حاجة إلى « التخفيف » ● صاحبة المذكرات توهمنا بذكاء وخبرة أستاذة الأدب أنها «تعترف» بينما هى «تعبر عن رأى ذاتى» وواضح وصريح ● صاحبة المذكرات تؤكد أنها تخطت رحاب الجنس إلى الرحاب الإنسانية الأكثر رحابة وشمولاً ، وهى تعترف فى موضع آخر بهذا المعنى ● تتحدث عن انطباعاتها عن هذا الامتزاج الذى استمر فترة طويلة من الزمن ● حرصها على الاعتذار لنفسها ولقارئها عن تجربة زواجها الثانى ● لطيفة الزيات تتنازل عن الأسلوب والحبكة تنازلاً مقصوداً لأنها تنتبه إلى معطيات أخرى تجيد استخدامها ● صاحبة المذكرات تحدثنا عما كان بريخت يطلبه من الممثلين من الحيدة ● تصور البيت القديم الذى نشأت فيه فى دمياط ، وإن بدا أنها تؤرخ للمكان من خلال علاقتها به ● الدكتورة لطيفة الزيات تنتهز الفرصة للحديث عن جوانب فولكلورية فى نشأتها لأنها تؤمن فيما يبدو بأن كتابة السيرة الذاتية لا تكتمل بدون مثل هذا الحديث ، وهى عندما تروى قصة الثعبان تبدو متحاملة على أهلها بدون مناسبة ● تتأمل زيجتها الثانية مع قرار مسبق اتخذته تجاهها ● المذكرات تبدو وكأنها بحث عن الذات فى الآخرين ، وهو نوع أشق من البحث عن الذات فى الذات نفسها ● الطريقة التى تروى بها المؤلفة فى شىء من الارتياح والمباشرة والتفلسف الواضح قصة طلاقها ● حرص لطيفة الزيات على أن تعقد المقارنات الذكية بين صورتها أمام الناس وبين حقيقتها فى داخلها يوم طلاقها ● تروى بصدق شديد لحظات تفكيرها وتصميمها على الطلاق ● صاحبة المذكرات تبدو غير ناجية من التعالى على الطائفة الأخرى من السجينات الإسلاميات اللاتى زاملنها فى السجن ● لا تخلو مذكرات الدكتورة لطيفة الزيات وروايتها عن حياتها ومراحلها من طرائف كثيرة ● حديثها عن قدرتها وهى فى السجن على التهريب والتمويه ● لطيفة الزيات تستعيد ذكرياتها عن فترة الثلاثينيات التى عاشتها فى مدينة المنصورة ● تأمل أثر الزمن فى حياتها ، وكيف أثر على شخصيتها سلباً وإيجاباً .

الفصل السادس : مذكرات رقيبة سينما للسيدة اعتدال ممتاز ٢٧٥

● التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات ● المذكرات تتمتع بقدر كبير من الإخراج الممتاز جداً ● رأى المؤلف فى الغلاف الجميل الذى زين به الفنان عبدالسلام الشريف هذا الكتاب ● الكتاب أفضل سيرة ذاتية كتبت عن أداء الوظيفة التى قامت بها المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر ● اعتدال ممتاز لا تزعم أبداً أنها تحتكر الصواب ● أهمية الخبرة المباشرة كسبيل للنجاح ● عملها (ونجاحها بالتالى) كان نتيجة طبيعية لتعاونها مع زملائها على مدى الأعوام الطويلة ● حديثها عن زوجها الأستاذ أحمد رشدى صالح ● تعبر عن الانتماء الحميم للزوج ● اعتدال ممتاز أرجعت الفضل فى عملها فى هذا المجال إلى

والدهـا • المذكرات تروى تاريخ الرقابة على السينما فى مصر • تمصير الوظائف فى هذا الجهاز • المذكرات تدرب أذواقنا على الفهم السليم والذوق الرفيع • تروى قصة اتصال أحد المسئولين بالسراى الملكية (حوالى عام ١٩٥٠) للسؤال عن اسم الرقيبة التى سمحت بعرض فيلم عن مارى انطوانيت وقوله غاضباً متوعداً: «يجب أن تشنق، ونعنى كلمة تشنق» • قصة فيلم «الفرسان الثلاثة» وما حدث له فى عهد الملكية ثم فى عهد الجمهورية • الرقابة تطبق دستوراً غير مكتوب ـ يشبه الدستور الإنجليزى ـ أى أنها تطبق القواعد التى تلائم زمانها ووقتها وطبيعة الكيان السياسى والاجتماعى السائد فى كل مرحلة من مراحل التاريخ • قصة صاحبة المذكرات مع المغفور له الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون، ثم مع المغفور له الأستاذ عبد المنعم الصاوى وما تعكسه هذه القصة من أهمية إيمان المرأة المصرية بدورها فى الحياة العامة وكيف أن هذا الإيمان (ولا شىء غيره) هو المحدد الأول لنجاحنا كمجتمع • العلاقة بين الرقابة وبين الجهات التعليمية التى تقدم عروضاً فنية فى نطاقها المحدود : فى الجامعة الأمريكية ، وفى كلية آداب الإسكندرية • قانون الأحداث الصادر سنة ١٩٥٤ أدى إلى قيام الرقابة بتقسيم الأفلام إلى نوعين: للكبار فقط ، وللعرض العام • المذكرات حافلة بالشكوى من الأفلام المصرية التى أنتجتها مؤسسة القطاع العام • أسفها الشديد لعجز الرقابة فى ظل القوانين والقواعد التى كانت سائدة وقائمة عن أن تقوم بواجبها المفروض • المشكلات التى نشأت عن دخول الدولة فى مجال الإنتاج السينمائى فى الستينيات، وما ترتب على هذا من تزايد معاناة اللجان التى كانت تتولى فحص الأفلام • تروى قصة أفلام ممتازة كانت ضحية للضغوط المختلفة التى أثرت على ظهورها أمام المشاهد المصرى • من هذه الأفلام فيلم «كليوباترا» • آثار الأخذ بسياسة مقاطعة الأعمال الفنية على قرارات الرقابة • تفصيلات ما حدث عقب حرب يونيو ١٩٦٧ من التصريح بعرض هذا الفيلم فى القاهرة ثم إيقاف هذا التصريح • نواجه بمجمل آراء أعضاء مجلس الرقابة تجاه هذا الموضوع، ومن بينهم الأستاذ نجيب محفوظ • صاحبة المذكرات ظلت حريصة على موقفها المحبذ لعرض فيلم «كليوباترا» على الجمهور المصرى • فيلم «سانت باولو» مُنع عرضه لأنه كان يصور أمريكا والأمريكيين فى صورة إنسانية على حين كان يشوه صورة الصينيين • تروى نموذجاً للتدخل الحماسى لوزير التربية والتعليم الذى أدى فى النهاية إلى ضياع القيمة الخلقية التى فى فيلم «شقة العاشق» • تورد نموذجاً لتأثير علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى على السينما • تتعرض للفروق الجوهرية بين الأعمال الفنية المختلفة، وهى ترى أن بعضها متميز وأن بعضها الآخر غير متميز • موقف الرقابة من هذه الأفلام غير الممتازة : «قصر الشوق» ، «امرأة ورجل» • تستعرض صورة حية لاختلافات الأذواق والعوامل الحاكمة للتقييم واتخاذ القرار من خلال روايتها لموقف مجلس الرقابة من كثير من الأفلام المعروضة عليه • نستطيع بفضل المذكرات أن نتصور كل قضية من هذه القضايا الرقابية وهى تحتمل كثيرا من

الإجراءات التى لا تنتهى • صاحبة المذكرات كانت تعنى عناية شديدة بالناحية الفنية لا بالناحية الأخلاقية فحسب • الأثر الذى كان ينشأ عن كثرة التغيرات الوزارية حيث تعود مناقشة الملف لتبدأ من نقطة البداية • وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة أشر بخطه : «لايعرض فيلم شقة مفروشة إلا بعد مشاهدته بواسطة المجلس ومعاملته المعاملة الموضوعية بصرف النظر عن تمويله بواسطة المؤسسة ثم إخطارى بالنتيجة» • معركة مستمرة ومتواصلة بينها (أو بين الرقابة) من ناحية، وبين مؤسسة السينما التى هى مؤسسة الدولة (القطاع العام) المسئولة والمعنية بإنتاج الأفلام • نرى هذه المؤسسة وقد تحولت إلى أكبر كيان مخالف لأوليات القيم والذوق والفن • الحديث عن سلبيات المؤسسة المصرية العامة للسينما واستخفافها بالجمهور وبالقيم • موقفها كرقيبة تجاه نوع من الأفلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف وهو «أفلام الكاراتيه» • وصف المسارات الحكومية التى كانت الرقابة تجد نفسها مدفوعة إليها • نماذج لمشكلات الرقابة مع كل من الهيئة العامة للمسرح، والموسيقى، وإدارة العلاقات الثقافية الخارجية، وقصور الثقافة الجماهيرية • أسفها من أن تتولى بعض الجهات الثقافية القيام بأدوار تسىء إلى الوطن، فضلا عن إهدارها للمال العام • دراسة العلاقة بين «الرقابة ووسائل الإعلام» باهتمام شديد • أساها وأسفها تجاه سلوك بعض مَنْ ينتمون إلى مهنة الصحافة • علاقة الرقابة بالإذاعة • موقف الصحافة العدائى من الرقابة •علاقة الرقابة بالتليفزيون • ملخص رأيها فى أحد مشاهد فيلم «الخرساء» • علاقة الرقابة بأجهزة الفن والإعلام وأجهزة الإنتاج الفنى • احتكاك حاد ببعض الأجهزة السياسية والبرلمانية • إحدى قصصها مع الاتحاد الاشتراكى • تفصيلات ما دار بشأن فيلم «ميرامار» •رأى المؤلف فى تمتع الرئيس السادات بثقافة حقيقية • موقف السادات الذكى من صورة المرأة فى هذا الفيلم • نهاية صراعها مع الاتحاد الاشتراكى حول فيلم «ميرامار» • موقف الدكتور محمد حلمى مراد وهو وزير للتربية والتعليم من فيلم «شقة العازب» ، وهو الفيلم الذى تحول بسبب تشدده من فيلم يصور قيمة اجتماعية إلى شىء آخر • عصبية قرار الدكتور محمد حلمى مراد الذى صدر عن سماع، وترتب عليه نوع من تضييع القيمة الفنية دون مقابل تربوى يذكر • تجأر بصوت عال من الانتقاد للدور الذى قام به سلفها المستشار مصطفى درويش • تنتقد على سبيل المثال توسعه بل جرأته فى الترخيص بعدد كبير من الأفلام التى لم يكن غيره ليرخص بعرضها • قصة المطالبة بمنع عرض فيلم «الحب أقدم مهنة فى التاريخ» فلما صدر قرار وزير الثقافة بوقف عرضه طالب أعضاء مجلس (الأمة) بتأجيل رفعه يوماً إلى أن يتمكنوا من رؤيته!! • الفقرات التى تعبر فيها عن المشاعر القاسية التى كانت تنتابها وهى تؤدى وظيفتها فى حذف اسم « مصر» أيام الوحدة مع سوريا • تأكيدها على احترامها العميق لكل القيم السماوية وتمسكها بكتاب الله وأحكامه • علاقتها بالقضايا الدينية من خلال الرقابة • تفاصيل الضجة التى ثارت حول مسرحية «ثأر الله» للأستاذ عبدالرحمن

الشـــرقـــاوى • مـعاناة أصـحاب الأديان من الأخطاء المغلـوطة التى تقدمـها بعض الأفـلام السينمـائيـة • تقدم نموذجاً نفيلم دينى مـهم هو فيلم «زوجة القـسيس» • الاعـتـبـارات الاجتماعية والأمنية كثيـراً ما تكون ذات شأن بارز فى مواءمة عرض الأفلام التى تتعلق بالدين من قريب أو بعيد • تروى أنها عانت من أجل فهم هذا الفيلم بسبب لغته الإيطالية • الفيلم عـرض فى بلاد الفاتيكان نفسهـا • صاحبـة المذكرات تفاجأ باعـتراض القساوسـة المصريين عليه!! • تظلمت الشركة ووجدت من أحد أعضاء مجلس الرقابة وهو مسيحى سندا لها فى استمرار العـرض.. ومع هـذا فإن مجلس الرقابـة بإجمـاع الآراء وافـق عـلى اسـتمرار المنـع • الرقـابة فـى لندن وباريس • تنبيهـها إلى حقيقة الخطورة فى أفـلام العنف وإلى أنها تفوق بكثير خطورة أفلام الجنس.

الفصل السابع: مذكرات طبيبة للدكتورة نوال السعداوى ٣٣١

• التعريف بالمذكرات وبصـاحبة المذكرات • تتمتع الدكتورة نوال السـعداوى بشخصية قوية ، قـد تكون هـذه القـوة بمثابـة رد فعـل أو انفـعال ، وقـد تكون قوة غـريزية ، وقد تكون قـوة فطريـة لم يصبها الإضعاف أو التوهيـن • تجسد الشخـصية الرقيقة وغير القابـلة للكسر • حرصها على التعبير عن أنها ظلت تعيش القلق تجاه وضع المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر • بعض ملامح الطفولة التى تحرص صاحبتها على إبرازها • تصل بسرعة إلى دراستها بكلية الطـب • وإذا بها فى المشرحة ... وإذا بها تجـد الرجل عارياً أمامها • تفضل الحـديث عن قلبهـا بقدر أقل من الكبرياء الذى تحدثت به عن عـقلها • تحـرص نوال السعـداوى على أن تنشئ علاقة ارتباط قوية وحاسمة بين استجابتها للعاطفة وبين يقظتها • بعد تجربة طويلة ممتدة مع المجتمع ومع نظراته وكـلامه وتعليماته وآرائه نراها تحدث نفسـها مرة أخرى • تخـــوض المعركة وتحس النجاح المقبل عليـها فيها • عادت لتعـانى مرارة الوحدة • من باب مـا يطلق عليـه «إدعـاء الحكمة بـأثر رجعى» تروى الـدكتـورة نوال السـعـداوى نفورها من الـعلاقـة التـقليدية بالرجـل فى إطار الزواج التقليـدى • تجربة إقـدام ابن عمهـا على تقبيـلها فـإذا هى تقذف بذراعها فى الهـــواء وتصفعه • صـراع العقل والقلب فيما تواجهـه من تجربة التعبير عن الصـــراع بين الحب والإرادة • تبرز نفسـها وكأنها تكاد تخلط خلطا تامـا بين كل ما هو حقـيقى ومـا هو خـيال • نوال السعـداوى تهتـدى إلى مَنْ تظن أنه يستحـق أن يكون شريك حياتها أو هكذا هى تريد أن توهمنا أو تقنعنا • تكتفى بتصوير لحظة اتفاقهما من خلال الجدل • تكتـفى بأن تقدمه عـلى أنه الرجل الذى يقـول لها بكل حـنان : «لم أر امرأة مثـلك أبداً..» • تنتقل من الحوار إلى الاعتراف الذى تريد أن تقـدمه لاجئة إلى السرد • تترك تيار وعـيها يتحدث عما حدث يومـها من انفعال نفسى • تيار الوعى يحدثنا حديثـاً جميلا • صاحـبة المذكرات تقدم لنا عبارات محملة بكل ما تريـد أن تقوله • تثبت لنا ما أرادت إثباتـه من قبل

ومن بعد فى حياتها : إنها لا تتمرد على الطبيعة ، لكنها تتمرد على نظرتنا للطبيعة ومفهومنا لها ، وإنها تؤمن بالأسرة كما نؤمن جميعاً أو بأفضل مما نؤمن جميعاً • تصور بعض ما كانت تشعر به وهى التى تتوق فى بعض الأحيان إلى الآخر وإلى وصاله • صاحبة المذكرات صريحة فى تعبيرها عن الرغبة ، مع وعيها بأن هناك أساليب أخرى أكثر فعالية فى التعبير عن هذه الرغبة • صاحبة المذكرات تجيد تصوير أكثر من مظهر من مظاهر شعورها (المفاجئ) بالحب .

الفصل الثامن : يوميات أمرأة عاملة للسيدة إقبال بركة ٣٥١

• التعريف بالمذكرات ، وبصاحبة المذكرات • إقبال بركة تتمتع بقدرتين رائعتين : قدرتها على التعبير الواضح الصريح ، وقدرتها كذلك على التعبير القوى عن أفكار واضحة حاسمة وجريئة • تشرك الجمهور فى الخبرة والتجربة والرأى • حاجتنا إلى كتاب آخر يضم سيرتها الذاتية • الكتاب مزيج من تجارب شخصية بحتة ، ومن تجارب إنسانية لاقت صداها فى فكرها ووجدانها على نحو ما عبرت لنا فى فصول الكتاب • الكتاب يضم واحداً وستين مقالاً ما بين تجربة شخصية وإنسانية • الكتاب يتمتع بكثير جداً من الخصائص التى تجعل منه كتابا حقيقياً لا مجموعة فصول فحسب • كتابات إقبال بركة تعبر عما يموج فكرها به من فلسفة لا تيأس من أن تلحظ الاستقطاب حتى على سطح التجربة وذلك من خلال ما تدركه من آيات الحركة • المحاور الرئيسية التى تناولتها إقبال بركة • المحور الأول: المرأة والغواية • المحور الثانى: الأمومة فى حياة المرأة العاملة • المحور الثالث: فلسفة العلاقة بين الرجل والمرأة • المحور الرابع: المشكلات الاجتماعية العامة • المحور الخامس: تجارب ذاتية من الحياة اليومية • المحور السادس: المرأة العاملة ووظيفتها • المحور السابع : العلاقة الزوجية • المحور الثامن: العلاقات النسائية • أبرز ملامح الكتاب هو الرضا النفسى العميق حتى فى حالات الثورة • صاحبة المذكرات تتمتع بثقة شديدة وبقدرة أشد على إبراز هذه الثقة فى كل فقرة من فقرات الكتاب • إقبال بركة تؤمن بربة البيت ودورها إلى الحد الذى تشخص فيه مشكلات المجتمع المصرى بأنه يحتاج إلى ربة بيت .

الفصل التاسع : بعض أوراقى للسيدة سلوى العنانى ٣٦٣

• التعريف بصاحبة المذكرات ، وبالمذكرات • كتاب أدبى لأنه استكمل معظم مقومات العمل الأدبى ، ففيه من العاطفة صدقها ، ومن البيان جودته ، ومن المعانى توليدها ، ومن الأفكار استحداثها • الكتاب ينبض بحرارة أخرى ويجمع بين الأدب ، والمرض ، وحرارة الصبر • صاحبة المذكرات كانت من أولئك المتمردين البناءين • هؤلاء هم الأمثلة الفردية على الصدق مع النفس • جدوى أن يعبر الأدب عن كل الجزئيات الصغيرة التى قد تشغل حياة بعض البشر • الكتاب يحكى تجربة شخصية لابد أن نحترمها وأن نحترم قدرة صاحبتها على التعبير عنها • وقبل هذا قرارها بالتعبير عنها، فالإرادة هنا هى مفتاح مثل هذا العمل

الأدبى • الكتاب يجيد الحديث عن أثر الزمن فى الألم • سلوى العنانى تتحدث كثيراً إلى نفسها وتتحدث كثيراً أيضاً إلى أطيافها • رأيها الصادر عن تجربة : معظم الأطباء يفشل فى أن يقدم للمريض ما يحتاجه فعلاً ، معظمهم يفشل فى أن يصبح صديقاً لمرضاه • تتأمل قطرات الدم التى تنتقل إلى الإنسان فى عمليات نقل الدم وتتأمل بشىء من الاسترجاعات: لمن كان هذا الدم • صاحبة المذكرات تعود إلى ربها لتجأر بالدعاء وتسأله الغفران من اليأس • بعض المعانى التى يمكننا أن نفهمها من حديث سلوى العنانى عن طبيبها الراحل وهى تخاطبه • ما ترويه عن إحدى محاولاتها المتعددة للحصول على الشفاء • قصتها مع الطبيب الفلبينى الذى شاع أمر علاجه للناس بدون جراحات • عاشت هذه التجربة بشعور مزدوج كصحفية وكمريضة • المعايشة المزدوجة للتجربة جعلتها بالطبع تصل إلى ما لم تكن تصل إليه لو أنها كانت قد عاشت التجربة من جانب واحد فقط • نجحت فى تسجيل مشاعرها وتأملاتها وخبراتها على نحو كفيل بأن يثير فينا كثيرا من المشاعر والانفعالات الخصبة التى نتفاعل معها • حرص صاحبة المذكرات على أن تعبر عن الإيجابيات التى تجدها فى واقعها، وتجد هذا الواقع من أجل ذلك، يستحق حمد الله عليه .

الفصل العاشر: ثريا رشدى ومحاولة لتسجيل ومضات من حياة زوجها ٣٧٧

• التعريف بالمذكرات وبصاحبة المذكرات • المذكرات تروى قصة سيدة أحبت زوجها أقصى ما يكون الحب • صاحبة المذكرات تكتب هذه الصفحات التى تحكى قصتها الخاصة جداً مع زوجها الدكتور رشاد رشدى ، وما تمتع به من وعى متقدم فى المكانة الاجتماعية وفى الحياة الثقافية والفنية فى مصر المعاصرة • فارق السن بينها وبين رشاد رشدى • تستأنف إجاباتها عن الأسئلة المثارة فى وجدان القارئ عن هذا الزواج الذى قد يبدو غير متكافئ بالمرة.. ولكن السيدة المحبة تفاجئ قراءها بقصة الحب على نحو ما تمت فعلاً • تخرج بالقارئ سريعاً من جوهر العلاقة وشكلها إلى الصيغة التى انتهت إليها • الحديث عن ثمار هذه العلاقة • صاحبة المذكرات تجيد تناول النقاط التى تحب أن تتناولها • حديثها عن بداية معرفتهما • تتحدث بتقدير شديد لكل الخطوات التى مضت فيها هذه العلاقة سريعاً حتى تُوجت بالزواج • حديثها عن نقطة الذروة فى علاقتها بالرجل الذى أحبته • تتحدث بحب وهيام ووجد عن تعمق علاقتها بحبيبها وزوجها طيلة واحد وعشرين عاماً هى عمر زواجهما ، ثم طيلة الأعوام التى انقضت منذ رحيله وحتى كتابتها لمذكراتها • تجيد التعبير المتدله عن هذه العلاقة • صاحبة المذكرات ترى نفسها بحكم العشق ، ملزمة بأن تقدم لوحة كاملة تكمل بها اللوحات • لوحاتها ثرية بالصورة والانطباعات • تروى كثيراً من الجزئيات التى تحفل بها حياتها مع زوجها مازجة على نحو ما نتوقع ، بين العام والخاص، وهى منحازة تماماً لزوجها ولإنجازاته، وليس لنا ولا لغيرنا أن ينتقدها فى هذا الانحياز • طبيعة انفعالها هى وزوجها فى مواجهة أقسى هزيمة واجهت وطننا فى ١٩٦٧ ، وكيف كان زوجها الدكتور رشاد رشدى يرى الانفعال المناسب فى هذه الظروف • ثريا رشدى بذكائها تتدارك

الموقف ، فتجعل لهذه المعاناة بعض فائدة ، إذ خرجت بسببها واحدة من أروع أعمال رشاد رشدى وآثاره • ثريا رشدى تروى انطباع نزار قبانى حين حضر عرض المسرحية • ثريا رشدى لا تغفل الحديث عن إنجازات زوجها فى الميدان الأدبى والفنى • انطباعاتها عن النصر العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ • تروى كيف أن الدكتورشاد رشدى قد عُين مديراً لأكاديمية الفنون على غير رغبة منه كما تقول (سنة ١٩٧٥) ، فقد كان قد رتب حياته (الباقية) على التفرغ للكتابة والإبداع الفنى • أول لقاء لرشاد رشدى مع الرئيس السادات • تتحدث بلسان رشاد رشدى الذى قد يمنعه (البروتوكول) قبل أن يمنعه (الموت) من أن يقول كل هذا الذى قالته وصرحت به • ما ترويه عن رأى زوجها فى الرئيس عبدالناصر • توظيف الأدب والصحافة لتسليط الأضواء الكاشفة على عهد عبدالناصر • السر وراء العبارات الطويلة التى أوردتها لنا ثريا رشدى على لسان زوجها محدثا الرئيس أنور السادات عن الرئيس عبدالناصر • مع أن رشاد رشدى أكبر من أن يكون معولاً من معاول الهدم ، فإن الحقيقة السياسية التى تفرض نفسها لا تترك مهمة المعاول لمجرد الأنفار البسطاء فى دنيا الحياة العامة • المذكرات تساعدنا على فهم المعانى البسيطة والموحية التى أرادت السيدة ثريا رشدى التعبير عنها • دراما الحوار بين الرئيس والمفكر • رؤية مهمة وجديدة لنظرة كل من الدكتور رشاد رشدى والرئيس أنور السادات إلى الرئيس عبدالناصر • الرؤية تدعمها آراء الرجلين وما سجلاه من روايات مكتوبة أو مذاعة • التياعها وهى تحكى قصة خروج رشاد رشدى من رئاسة الأكاديمية والتى تعبر عنها بروح الحب • حرص السلطة على الصيغة التى يظهر بها إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية • الخبر ينشر فى الصفحة الأولى • فى لوعة شديدة تحكى السيدة ثريا رشدى أثر هذا الخبر المؤسف على زوجها • تتحدث باستفاضة عن رد الفعل على رشاد رشدى وخطوته الإيجابية فى هذا الصدد • أسفها لانهيار هذه الخطوة الأخيرة • تصل بنا ثريا رشدى إلى قمة «التراجيديا» فى قصة حياتها مع زوجها.

الثورة والحرية

يكاد هذا الكتاب أن يكون مخصصاً للفكرة التى يلخصها عنوانه وهى فكرة الثورة والحرية ، والواقع أن الحرية بمعناها الدقيق لا تقف عند حدود الحرية السياسية أو عند حدود ممارسة الحقوق السياسية للمرأة أو للرجل ولكنها فى حقيقة الأمر تنسحب إلى حرية الإرادة ، وحرية العمل ، وحرية الفكر ، وحرية التفكير ، وحرية الأداء ، وإذا أردنا أن نجد مجالا يشع بالتعبير عن مدى وجود وصمود هذه الحريات فان هذا المجال يتمثل فى المقام الأول فى موقف الأمة وموقف المجتمع من المرأة.

والشاهد أن البحث فى وضع المرأة كميدان لدراسة الحرية الاجتماعية والحرية بوجه عام يمثل نموذجا جيداً لدراسة هذه الظاهرة فى أفقها الطبيعى ، وليس مثل هذا التقرير بحاجة إلى براهين كثيرة للتدليل على صحة ما يقول به ، ذلك أن نظرتنا إلى الحرية لا يمكن أن تنمو إذا كانت الأمومة المسئولة عن تربيتنا تعيش طرازاً آخر من الحياة يفتقد الإحساس بمعنى الحرية من ناحية وبقيمتها من ناحية أخرى.

ويمكن لى أن ألخص الفكرة بأن أحاول وضع استطراد كان لابد منه كى يكمل قول زعيم أول ثورة مصرية فى العصر الحديث وهو أحمد عرابى حين قال: لقد ولدتنا أمهاتنا

أحراراً .. وقد قفز أحمد عرابى مباشرة إلى قوله ولن نورث أو نستعبد بعد اليوم .. بينما أرتنا السنوات والعقود المتصلة أن أمهاتنا ولدتنا أحراراً ، ولكنهن بما فُرض عليهن جعلننا لا نبحث عن هذه الحرية لأنهن كن قد افتقدنها .. وفاقد الشيء لا يعطيه .

لست أحب أن أعود إلى التراث الإسلامى فى عصوره الأولى لأذكّر القراء بمواقف السيدات المسلمات الأوليات اللائى تشبعن بروح العقيدة وفكرتها وأصبحن يدفعن بابنائهن دفعا إلى ساحات الوغى من أجل الحق والحرية.

لست أنكر بعد هذا ولا أظن أحداً ينكر مدى قسوة الفترة الحالكة التى ظللت حضارتنا على مدى بعض القرون ، وكيف تمكنت هذه الفترة الحالكة من أن تحجب نور الحرية عن المرأة المصرية وأن تذهب بها إلى وضع متدن من حيث قدرتها على تصريف أمورها ، والاختيار بين الطرق المتاحة لها ، والواقع أنّ هذا الوضع الذى شهدته المرأة المصرية فى عصور الانحطاط قد تكرس على أيدى حكام هذه الفترة من العثمانيين الذين آثروا أن يعمموا فى الممالك الإسلامية نموذجاً لحجاب المرأة كان أقرب إلى التأثر بالنمط الأوربى فى عصور الظلام بأكثر من تأثره بالنمط الإسلامى فى جماعات التشدد ، وانسحبت الإرادة العثمانية تجاه حقوق المرأة إلى أن تصبح مبلورة تماماً لكل قيود المرأة بدلا من الحقوق الطبيعية التى كانت تحظى بها من قبل.

وجاء الاستعمار البريطانى فى مصر ليكرس الوضع القائم لأنه وجد فيه خير طريق ممهد لسلب الشعب حقه فى الحرية ، وحلمه من أجلها ، وعمله فى هذا السبيل.

ولن أمضى فى هذا الطريق من دون أن أشير إشارات سريعة إلى مدى ما كانت تعانيه المرأة المصرية فى ظل هذا الوضع فى مجال التربية والتعليم على سبيل المثال .. فقد ظلت الفتاة المصرية حتى قرب منتصف القرن تعانى من تعسف حتى فى النظام التعليمى وعلى حين كانت الدراسة فى المرحلة الثانوية خمس سنوات للذكور فانها كانت ست سنوات للإناث ، وهكذا كان محكوماً منذ البداية بل من قبل البداية على المرأة أن تظل متأخرة عن الرجل لسبب واحد فقط هو أنها أنثى.

فإذا افترضنا أن توأما من ذكر وأنثى ولدا فى نفس اليوم وسلكا سبيلهما فى التعليم (الأولى ـ الالزامى ـ الابتدائى) معاً ثم ذهبا فى نفس اليوم إلى المدارس الثانوية فان أمام الفتى خمس سنوات حتى يدخل الجامعة ، ولكن أمام الفتاة ست سنوات حتى تبدأ هذا الطريق .. وتتكفل هذه السنوات الست بطولها أن تخرج الفتاة عن طريق التعليم لتبدأ حياة جديدة فى بيت الزوجية .. أو فى غيره.

بل إن هذا التعليم المصرى فى ظل التشريعات والنظم البريطانية كان يقف بالفتاة المصرية عند نقاط نهاية لا تتعداها فى أكثر من منظومة من منظومات السلم التعليمى ، كانت المدارس الأبتدائية على سبيل المثال تؤهل لنوع من الدراسة القصيرة يخرّج مدرسات لرياض الأطفال .. ولم يكن أمام هؤلاء المدرسات إلا أن يبقين فى هذه الوظيفة طيلة أعمارهن ، ولم يكن متاحاً لهن أن يسلكن السبيل إلى دراسة ثانوية ولا إلى غيرها.

وكان هناك سلم تعليمى آخر ينتهى بمدارس المعلمات الراقية ولم يكن فى وسع المتخرجات من هذه المدارس أن يعملن إلا بالتدريس فى المدارس الابتدائية فحسب دون أن يتقدمن خطوة أخرى فى سلم التعليم أو سلم الوظيفة ، وهكذا كانت هذه السلالم التعليمية أو الأوعية التربوية تستغرق السواد الأعظم من الفتيات المصريات بحيث تصرفهن عن السبيل الواسع الذى يمكن من دخول المدارس العليا أو الجامعة فى مرحلة لاحقة.

وسوف نرى بالتفصيل المعقول كيف سارت امرأة مصرية رائدة هى الدكتورة بنت الشاطىء فى هذه السبل المختلفة سبيلا بعد سبيل تبدأ كل طريق من بدايته بعد أن كانت قد وصلت إلى نهاية الطريق السابق المسدود ، حتى استطاعت أن تبدأ طريقها مرة ثالثة من البداية لتجتاز الابتدائية فالثانوية ولتدخل الجامعة ولتستكمل بعد ذلك دراساتها العليا من أجل الماجستير والدكتوراه فى هذه الجامعة.

ونحن نراها وهى تجاهد فى كل هذه السبل بكل ما تستطيع من قدرات عقلية وإنسانية وتحارب فى الوقت ذاته معركة «داخلية» مع والدها الذى لم يكن ليرغب لها فى أن تمضى فى أيٍ من هذا السبل ، ومع أن هذا الوالد كان يقف فى مواجهتها صراحة ، وفى غير صراحة أيضاً إلا أن أصدقاءه وأساتذته كانوا ينصفون ابنته منه ومن قراراته ، ولم يكن هذا العون الخارجى الذى أتيح لبنت الشاطئ على أيدى هؤلاء المشايخ إلا نتاج ثقافة إسلامية حقيقية كانت تؤمن بحق المرأة فى الثورة وفى الحرية.

ونحن نعرف أن نظيرات بنت الشاطىء فى الجامعة من شهيرات هذا الجيل كن قد وصلن إلى الجامعة بتشجيع آبائهن أو بموافقاتهم كما فى حالتى السيدتين أمينة السعيد وسهير القلماوى اللتين كانتا ابنتين لطبيبين مشبعين بالقدرة على تقدير الأمور ووزنها وبتحقيق حلمهما فى بناتهما .. نعرف هذا الجانب ولكن من واجبنا أن نستدرك لنذكر أنفسنا بما يمثله الجانب الآخر ، وهو أنه إذا كانت بنت الشاطىء قد نجحت فى هذا الذى نجحت فيه فإن كثيرات وكثيرات جداً من أبناء جيلها ممن كانت لهن نفس ظروفها

الاجتماعية قد فشلن فى أن يخضن غمار هذه المحاولة التى خاضتها بنت الشاطىء ونجحت فيها.

على أنى أود أن أسارع لأردف بالقول : إن الأمر فى ثورة المرأة وحريتها لم يتوقف عند حدود التعليم والشهادات والتفوق والتوظف ولكنه شأن كل ثورة وشأن كل كفاح تشعب وتفرع لتتحقق نجاحاته فى مجالات كثيرة تتعلق بالإرادة وبالمشاركة السياسية ، ولعلى أقفز هنا إلى نموذج مناقض لفكرة الشهادة والتعليم العالى أو الجامعى والدراسات العليا وقد جسدت هذا النموذج الفنانة إنجى افلاطون التى قادها إدراكها السياسى المبكر إلى أن تتخذ مواقفها الواضحة من التعليم ووجاهته فقد رفضت بكل إصرار أفضل الفرص التى أتيحت لها لاستكمال دراساتها فى الخارج حتى مع كون هذه الدراسة مرتبطة بمجال هوايتها الفنية ، وهى تؤثر أن تمضى فى طريق الحركة اليسارية لأنها تؤمن أن هذا هو واجبها تجاه نفسها.

وهكذا نرى الحرية الحقيقية فى عصر الليبرالية وقد أفسحت مجالا كبيراً للمرأة ذات الإرادة أن تثور من أجل التعليم واستكماله على نحو ما فعلت بنت الشاطىء ، أو أن تثور على التعليم واستكماله على نحو ما فعلت إنجى افلاطون.

وليس فى هذا أى قدر من المفارقة فهذه هى طبيعة الثورة وهذه هى طبيعة الحرية.

وإذا ما تأملنا هذا المعنى على نحو جيد فسوف نواجه أيضاً بنمطين يبدوان متناقضين من أنماط ثورة المرأة وحريتها ، ونحن نرى سيدة مثقفة أتيح لها أن تكون أولى السيدات اللاتى يتولين إدارة الرقابة كما كانت من قبل أول مصرية (وأول مصرى على الاطلاق) يعمل بالرقابة - فنرى ثورتها من أجل الالتزام بالقيم والنظام ونرى ثورتها هذه وهى تواجه أجهزة كثيرة من أجهزة الدولة والتنظيم السياسى والبرلمان والإعلام وذلك من خلال أدائها لعملها المرتبط بالقيم ومنظومة الأخلاق والحفاظ على المجتمع .. وفى مقابل السيدة اعتدال ممتاز التى تؤدى هذا الدور بقدر كبير من الثورة والتمرد على كل المستويات التى تحاول أن تحد من سلطانها نجد طبيبة [من الجيل الثانى أو الثالث من الطبيبات المصريات] وهى تحاول أن تفلسف نوعا من الثورة على التقاليد على مستوى العائلة وعلى مستوى بيت الزوجية وعلى مستوى علاقات العمل وتنطلق نوال السعداوى من هذه الثورة إلى محاولة لادراك الحرية معترفة فى أكثر من تجربة بأن هذه النتائج لم تكن هى ثمرة الحرية التى نشدتها على نحو أو آخر.

وعلى كل الأحوال فان المرأة المصرية التى تعيش هذه الأيام أزهى العصور التى تعترف لها بحقوق كثيرة ، كانت على مستوى المسئولية الكفيلة بالاحتفاظ لها بهذه الحقوق .

على أننا قد نظلم أنفسنا ونظلم المرأة على أنفسنا حين نهمل دراسة التراث الفكرى الذى أوصلنا وأوصل المرأة المصرية إلى الأوضاع المتميزة التى هى عليه اليوم ، والحاصل أنه لابد لنا أن ندرك مدى الجهد المتواصل الذى بذلته أجيال رائدة من السيدات المصريات حتى هيأن المجتمع لقبول الإنجازات الأخيرة التى تحققت للمرأة.

لابد لنا أن نتأمل جهد المربية المصرية الأولى نبوية موسى من أجل الدفاع عن حق المرأة المصرية فى إدارة المؤسسات التعليمية بل عن حقها قبل ذلك فى أن يسمع لها صوت فى العملية التعليمية .. لقد كانت معركة نبوية موسى الأولى مع الاستعمار البريطانى متمثلا فى دنلوب المستشار الانجليزى العتيد لوزارة المعارف ، ولولا وقوف سعد زغلول [وزير المعارف فى ذلك الوقت] فى صف نبوية موسى بصلابة وشموخ لكانت ثورتها الأولى قد انتهت إلى أن تكون أقرب ما تكون إلى زوبعة فى فنجان.

وسرعان ما حققت المرأة المصرية فى ثورة ١٩١٩ طفرة بارزة فى المشاركة السياسية.

ومن حسن الحظ أن المجد والجاه اللذين حظيت بهما اثنتان من زوجات زعماء الوفد الأوائل الثلاث قد خدم الحركة النسائية المصرية بل ربما نقول إنه صب كله فى خدمة هذه الحركة النسائية المصرية .

وعلى مدى ربع قرن على الأقل (هو الأعوام التالية لثورة ١٩١٩) ظلت هاتان السيدتان بجاههما ونفوذهما بمثابة منارات للحركة النسائية المصرية من خلال بيت الأمة حيث عاشت السيدة صفية زغلول ، ومن خلال قصر هدى شعراوى الذى رعى الحركة النسائية كما رعى الفنون والآداب وكما احتفى ببعض تقاليد عصر النهضة.

وإلى جوار هاتين السيدتين نشأت اتجاهات كثيرة وقيادات عديدة تولت قيادة العمل الأهلى أو ما يسمى الآن بالمجتمع المدنى وكانت قيادتها على نحو رائع.

ثم جاءت الثورة فى ١٩٥٢ ووجدت كل هذه التيارات وقد مهدت لها الطريق لإقرار إصلاحات اجتماعية لم يكن من الصعب قبولها على نحو واسع .. وهكذا فان أول برلمان للثورة ضم المرأة المصرية متجاوزاً بهذا الضم ذلك الجدل الطويل والممل حول حق المرأة فى الحرية السياسية ، وحول المدى الذى يمكن لها أن تصل إليه : هل ترشح نفسها أم يكتفى لها بأن تكون ناخبة لا مرشحة .. وكان المد الثورى بطبيعته أقوى من أن ينتظر السماح له

بمثل هذا النموذج من إشارات المرور ، وبعد سنوات كانت السيدتان المصريتان الشهيرتان كأستاذتين للأدب من أعلى المتحدثين صوتا فى المؤتمر القومى الذى واكب إقرار الميثاق (١٩٦٢) .

وهكذا لم يكن من الجائز أن تتأخر المرأة عن دخول الوزارة فدخلتها بالفعل فى سبتمبر ١٩٦٢ وإن كانت سرعان ما تركتها فى أكتوبر ١٩٦٥ ثم عادت لتكون موجودة فيها باتصال منذ نهاية ١٩٧٠ وحتى الآن.

على أن القاعدة الاجتماعية القائلة بأن الناس على دين ملوكهم قد جاءت لتكسر من حدة النجاح الذى أحرزته المرأة فى الثورة والحريات ، ذلك أن الرئيس جمال عبدالناصر وأغلب زملائه من قادة الثورة كانوا بحكم النشأة الاجتماعية والطبقية والتربية الفكرية أقرب إلى النمط المتحفظ فى بيوتهم .. وهكذا كانت هناك كوابح قوية أمام مشاركة المرأة فى الحياة السياسية أو الاجتماعية وإذا بالحضور الطاغى لزوج زعيم الوفد ينتهى إلى أن يتحول إلى نوع من اللوم اللاحق أو البعدى لسيدة مصرية تخطت الحدود فى حياة عامة لم تتعود مثل هذا الحضور.

ولكن الآثار المدمرة لهزيمة ١٩٦٧ فجرت طاقات المرأة فى العمل التطوعى ، ولم يكن من باب المصادفة أن السيدة المصرية التى أبلت أحسن البلاء فى هذا الميدان كانت هى نفسها زوج الرئيس «القادم فى ١٩٧٠» .. ولأن قاعدة الناس على دين ملوكهم تنتصر لنفسها دائماً فى المجتمعات فقد كان ما تحقق بوجود ونشاط والحاح ودينامية جيهان السادات أمراً واقعاً يفوق كل ما هو ممكن للآفاق النظرية أن تطالب به.

وهكذا لم يمض عقدان حتى كانت السيدة سوزان مبارك تحقق فى سهولة ويسر أمانى كثيرة من أمانى المرأة التى لم يكن من الممكن تحقيقها إلا فى إطار الحلم بالثورة والحرية.



هذا إذاً كتاب عن حياة المرأة المصرية فى إطار قضية أكبر هى قضية «الثورة والحرية» وفى هذا الكتاب يقرأ المؤلف للقارئ بعض ما كتبته المرأة المصرية عن نفسها فى عشرة كتب مهمة صدرت خلال العقدين الأخيرين ، وفى بعض هذه الكتب بعض ما أرادت المرأة المصرية أن تسجله عن نفسها ، وفيها كذلك بعض ما يمكن لنا أن نقرأه مما لم ترد أن تسجله بنفس الدرجة.

وفى الأبواب العشرة التى يضمها هذا الكتاب نستطيع أن نتأمل كثيراً من أحوال المرأة المصرية .

ونحن نرى البابين الأولين يتحدثان عن شخصيتين من أبرز شخصياتنا العامة وهما تمزجان حديثهما عن العام بحديث عن الخاص ، فهما تقدمان لنا جزءاً من ذكرياتهما ، لا الذكريات كلها ، وتخصان بهذا الجزء شركة الحياة التى كانت بينهما وبين زوجيهما الراحلين ، فنقرأ للسيدة بنت الشاطئ قصة حياتها من منظور علاقتها بزوجها العظيم الشيخ أمين الخولى ، ونقرأ للسيدة جيهان السادات قصة حياتها كزوجة لزوجها العظيم الرئيس محمد أنور السادات.

كذلك نرى نموذج السياسية التى جاهدت قدر ما استطاعت من أجل تحقيق ما اعتقدت أياً كان هذا الذى اعتنقته ، ونرى هذا الجهاد متمثلاً فى صور ثلاث ، فنرى صورة النشاط النارى كما فى حالة السيدة إنجى أفلاطون يبتدأ ناراً ويستمر ناراً وتظل النار تحت الهشيم .. وصورة النشاط العلنى يتحول إلى نشاط سرى ثم يعود ليتحدث عن نفسه كما هو فى حالة السيدة زينب الغزالى .. وصورة النشاط الذى يفتر ثم يعود إلى الانتظام وهو نشاط السيدة لطيفة الزيات التى تحدثنا عن الجوانب النفسية المنعكسة عن ممارستها للنشاط السياسى وعن انقطاعها عنه أيضاً فى مقابل حديث السيدتين إنجى أفلاطون وزينب الغزالى عن مشاركتيهما وممارستيهما الدائبة والمستمرة.

كما يستعرض الكتاب نماذج بارزة للمرأة المصرية التى تشارك الرجل عمله وحياته ونشاطه المهنى ، وتتعرض مثله لصعوبات الحياة ومشكلاتها وبيروقراطيتها وإنجازاتها ومكاسبها وشكوكها وضريبتها ووطأتها وعذابها ونعيمها وزخرفها وتقلباتها: هذه المرأة تطل علينا بصورتين: من خلال شريط سينمائى طويل وممتد وممتع ، ومن خلال شرائح سينمائية متعاقبة ، فأما الشريط فيمثله كتاب اعتدال ممتاز «مذكرات رقيبة سينما» ، وهو بلاشك أفضل كتاب يروى تجربة المرأة المصرية العاملة ، وأما الشرائح السينمائية المتعاقبة (Slides) فيضمها كتاب إقبال بركة «مذكرات امرأة عاملة».

كما نستعرض فى هذا الكتاب ملامح بارزة فى شخصية المرأة المصرية من خلال ثلاثة كتب مهمة تتناول تجارب خاصة جداً أو غير مسبوقة فى أدبنا العربى المعاصر ، فهذه السيدة ثريا رشدى تحكى قصة حبها وزواجها من منظور التجربة الإنسانية الخاصة جداً فتنجح فى ذلك نجاحاً كبيراً ، وتقدم لنا كتابة ذاتية فى صورة موضوعية ، وكتابة موضوعية فى صورة ذاتية ، وبالإضافة إلى تجربة الحب والارتباط نجد أديبة وصحفية لامعة هى السيدة سلوى العنانى وهى تروى لنا معاناتها مع المرض المزمن بروح الفنان وقلب المؤمن وعقل المرأة ، وقبل هاتين نجد الدكتورة نوال السعداوى تتناول حياتها فى كتابها «مذكرات طبيبة» وتتعمق مع القراء مشاعر الأنثى بفلسفة ثائرة.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

1

على الجسر

للدكتورة بنت الشاطىء

دار الخيّال

(١)

أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب بواكير الأعمال الكاملة لبنت الشاطئ.. وفى مطلع هذه الأعمال قصة حياتها التى كتبتها بعنوان «على الجسر» تقصد كما ذكرت هى فى العنوان الذى على الغلاف وفى الصفحة الأولى الجسر الذى «بين الحياة والموت».

ولعل القارئ يعلم أن بنت الشاطئ الأديبة المصرية الكبيرة التى حصلت على جائزة الدولة التقديرية فى أواخر السبعينيات كانت تلميذة الأستاذ أمين الخولى ثم زوجته ، ولها من العالم الكبير ابنتان توفيت إحداهما فى شبابها.. وهاتان غير مجموعة كبيرة من أبناء الشيخ من زوجته الأولى تبوأ كل منهم مكانة رفيعة فى دنيا التخصصات العلمية والجامعية.. ولقد كانت الدكتورة بنت الشاطئ واحدة من الذين صوتوا على منح الدكتورة سمحة الخولى ابنة زوجها وأستاذها جائزة الدولة التقديرية فى الفنون بعد حصولها هى على الجائزة فى الآداب بأربع سنوات.. وكثيراً ما كانت السيدتان تجلسان متجاورتين فى المجلس الأعلى للثقافة وغيره من المجتمعات الثقافية فى القاهرة.



وقصة حياة الدكتورة بنت الشاطئ حافلة بالإنجازات والمواقف المشرفة ، ولعلها تقريباً آخر قصة حياة لمن لاقوا التعذيب وذاقوا مرارة الحياة وهم يسعون إلى العلم ، فبعد الدكتورة بنت الشاطئ وعصرها كانت مظلة التعليم قد امتدت بحيث أتاحت لكل ذى

رغبة أن ينهل وأن ينال الشهادات والمراكز ، وساعد تقدم الحضارة والبنية الأساسية على إتاحة الحد الأدنى الذى يضمن تيسير وصول المرأة إلى منابع العلم ووصول منابع الثقافة إلى الناس فى سهولة وسرعة أيضاً .. وبالإضافة إلى هذين العاملين فقد كان هناك عامل ثالث هام جدا حين أصبح الأهلون على تباعد مستوياتهم (الفكرية والاقتصادية والاجتماعية و..الخ) مقتنعين بأهمية تعليم البنات أو على الأقل بعدم «حرمانية» هذا التعليم أو شذوذه .

ولقد كان والد بنت الشاطئ من الأصدقاء القريبين جداً لكثير من أفراد أسرة والدة كاتب هذه السطور ، التى كانت واعية تمام الوعى لمراحل كفاح سيدة من الجيل السابق عليها ، بذلت جهداً جهيداً حتى بدأت تأخذ مكانة فى المجتمع لا بخفة ظلها ، ولا بجمالها، وإنما بما حققت من نجاح فى الدراسة وما تلاها.. ولقد كانت هذه السيدة هى بنت الشاطئ نفسها التى مثلت ذروة فى معركة التحدى الحقيقية للمرأة العربية المسلمة فى القرن العشرين حين نزعت منها كل الأسلحة ، وسدت أمامها كل الطرق ، ولم يهيأ لها إلا ذلك الإيمان والطموح وهما كفيلان بتحقيق أعظم الانتصارات.



ومع هذا كله فإن الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها الممتع تأبى أن تفيض فى الحديث بصوت مرتفع عن هذه الحياة الطويلة العريضة التى بذلت فيها كل ما آتاها الله من قدرات وتوفيق ، تأبى الدكتورة بنت الشاطئ أن تأخذ منحى طه حسين فى الأيام أو أحمد أمين فى حياتى أو توفيق الحكيم الأكثر فناً وتفنناً حين عرض حياته بطريقة فنية فى أكثر من عمل مثل كل منها مرحلة من المراحل ، وتعمد الدكتورة بنت الشاطئ إلى أن تركز حياتها فى بؤرة واحدة هى علاقتها بالشيخ أمين الخولى ، وفى هذا تصدر الدكتورة بنت الشاطئ عن إيمان عميق بأن حياتها كانت قبل معرفتها بالرجل طريقاً إليه ، وبعد رحيله انتظاراً للقاء الثانى به فى الحياة الآخرة ، وهى تقول فى هذا المعنى :

«وتجلت فينا ولنا وبنا ، آية الله الكبرى الذى خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذى لا يتعدد ، والفرد الذى لا يتجزأ ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر».

وهى تعتقد بكل يقين أنها عرفت زوجها الحبيب قبل أن تتلمذ عليه وقبل أن تلقاه ، وأن إحساسها بتوحد شخصيتهما فى نفس واحدة قديم وأبدى ، وهى تكتب هذه المعانى المتوهجة تحت عنوان «معاً على الدرب الواحد» فتقول:

«وآن لى بعد كل تلك الرحلة الشاقة ، أن أعرف جواب ما طالما سألت عنه:

«أين ومتى ياترى لقيته ، وسمعت صوته من قبل؟».

«فمنذ قابلته ، تجلى لى السر المحجب الذى حيرنى أمداً طويلاً ، وكانت مجاهدتى الصعبة سعياً دائباً لكى أصل إلى مرتبة الكشف التى يفنى «أهل الحقيقة» أعمارهم فى سبيل الوصول إليها..».

«فلقد آمنت من اللحظة الأولى للقائنا ، أنه اللقاء الذى تقرر فى ضمير الغيب منذ خلقنا الله من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها».

«وأن عدتنا الدنيا اثنين فى الحساب الرقمى والواقع العددى».

«اثنين ، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته ، وعمله وشخصيته».

«وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الدنيا والناس».

«ولكنهما فى جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد..».

«لا كما تخيلت الأساطير عن النفس والقرينة».

«ولا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة فى جسدين».

«ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفناء فى ذات الحبيب».

«ولا كما تأمل الفلاسفة فى وحدة الوجود».

«ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم».

«وإنما هو سر وراء ذلك كله..».

«تجلت فيه آية الله الذى خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها!».

«وكنا أحياناً نفترق».

«يذهب كل منا إلى عمله ، أو يسافر فى بعض شأنه».

«وقد يمضى أحدنا إلى أقصى المشرق ، والآخر إلى أقصى المغرب».

«لأن الدنيا لا تعرف إلا أننا اثنان!».

«والحياة تفرض علينا أن نعانيها بهذه الثنائية العددية».

«ورغم هذا ، كنا النفس الواحدة».

«وذلك ما أعيا الدنيا ويعييها أن تفهمه أوتتصوره وتتمثله».

«إلا أن يقال فيه إنه من تآلف القلوب واندماج النفوس وتعانق الأرواح».

«وراء عالم الواقع ومقاييس المادة، ومنطق الحس وأبعاد المنظور».

«وكنا أحياناً نتخاصم!»

«وربما مرت علينا فترات مغاضبة يحسبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب ودلال العاشقين».

«ويلمح فيها أرهفهم حساً، وهج الضرام المتوهج فى أعماقنا يتلمس متنفساً!».

«دون أن يتصور أحدهم، أن المخاصمة أو المغاضبة، ليست إلا صراعاً حتمياً بين جوهرنا الواحد، وبين الثنائية المزدوجة التى يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا!».

«ومضى العمر كله وما كففت عن التساؤل:

«أكان يمكن أن أضل طريقى إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟».

«وحتى آخر العمر، لم يتخل عنى إيمانى بأنى ما سرت على دربى خطوة إلا لكى ألقاه.. وما كان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه، وقد عرفته فى عالم المثل ومجالى الرؤى وفلك الأرواح».

«من قبل أن أبدأ رحلة الحياة..».



وهكذا نرى بوضوح إلى أى حد كان التقدير الزائد المتزايد من الدكتورة بنت الشاطئ لقصة علاقتها بالشيخ الخولى فصاحبة هذه المذكرات تصمم على أن تجعل حياتها كلها داخل هذا الإطار الذى يجمعها بهذا الرجل، وحتى بعد مرور عشرين عاماً على رحيل هذا الرجل فإن الدكتورة بنت الشاطئ ظلت تعيش ذكراه الماضية والقادمة (انطلاقاً من شعورها الدينى العميق بالقدوم المحتم للآخرة)، وهو المعنى الذى تعبر عنه بأنها واقفة على الجسر، ومن المؤكد أن الدكتورة بنت الشاطئ ظلت على رأيها هذا بعد عشرين عاماً، حتى إنها لم تجد ما تود أن تضيفه إلى كتابها حين أعادت طبعه فى ١٩٨٦ غير كلماتها التى كتبتها فى تقديمه سنة ١٩٦٦ والتى قالت فى نهايتها:

«أستعيد هذا كله

وأستحضره وأسترجعه، بيقظة واعية..

فأترنح على الجسر:

ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى

ويختلط فى سمعى صدى النعى المصمى بنجوى الطيف الماثل».

وتمتزج فى صدرى ريح العدم ، بعبير الأنفاس الطيبة للراحل المقيم».

ويتصادم فى وجدانى نشيج الباكين وأنين المحزونين وتأبين الراثين ، ودعاء المعزين ، بإيقاع الشجى الساحر للصوت الحبيب».

وتتزاحم على الأفق من حولى مواكب المشيعين والمودعين ، متداخلة فى مشاهد حركاته ولفتاته ، وجولات نضاله ومواقف بطولته ، ومجالس أستاذيته وندوات مدرسته!».

وتتماحى الحدود والفواصل:

بين الحاضر المفجع

والماضى السعيد الحافل

والغد المحجب فى ضمير الغيب ، المطوى فى غيابة المجهول..

وتتداخل الأبعاد والآماد

حيث أقف على الجسر ، ما بين الحياة والموت

وما باختيارى أن تبطئ خطواتى عليه..

ولا بإرادتى تخلفت عمن عبر

ولا علم لى بموضع قدمى فى الخطوة التالية

قصارى ما أعلمه هو أن «كل نفس ذائقة الموت

وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت».

«وإلى أن يحين الأجل.

سأظل ممزقة بين الحياة والموت.

لا أدرى إلى أيهما أنتمى ، وعلى أيهما أحسب؟

وملء مسمعى صدى النعى مختلطاً بنجوى الطيف الماثل

وعلى دربنا المتألق بنور حبه وكرم سجاياه ، تلوح بصمة الزائر الرهيب الذى تسلل إلى دارنا خفية فى وضح النهار»

فلم يتلبث غير لحظة خاطفة ، ثم مضى عنا إلى حين..
وفى أرجاء دنيانا التى تزدهى بملامحه وتزهر بآثاره وتتشبث بذكراه
تبدو معالم الجسر المارد العجيب الممتد بين الوجود والعدم..
تتحدى أعتى القوى وأمنع الحصون
وتتطاول أبعاده فتطوى الآفاق من بر وبحر وهواء وفضاء..
وإن بدا للغافلين من تهاويل الأحلام ، وآفانين الوهم والخيال».

(٢)

وعلى خلاف ما يتوقع القارئ من كتاب أدبى لأديبة وكاتبة ملكت ناصية الكلمة فإن هذا الكتاب الذى هو قصة حب (مع احترامنا لسمو هذا الحب) يخلو تماماً من الحديث عن الجوانب التى جذبت هذه الفتاة فى هذا الرجل الذى أحبت ، وليس من الصعب على القارئ أن يفهم أن الحديث عن مثل هذا الجانب كان مستحيل التحقق فى كتاب سيدة نشأت وعاشت فى بيئة دينية شرقية محافظة ومتحفظة إلى أبعد الحدود .

ليس فى هذا الكتاب على طول فقراته ، وإطناب عباراته ، وكثرة تفصيل المشاعر ، وصياغة المعانى المختلفة فى جمل متساوية ، أو فى نظم جميل ، صورة من صور اندلاع العاطفة ، ولا مقدماتها ، وإنما هو كله تعبير تام عن آثار هذه العاطفة فى نفس صاحبتها ، وقد لا يرضى عن هذا الكتاب المتطلعون إلى التصوير الحسى الصادق للعاطفة الصادقة ، ولكن الذين يفهمون أن علاقة الحب التى كانت بين الزوجين لم تكن إلا تعبيراً «رقيقاً» عن علاقة التلميذ المحب للأستاذ المعشوق سيجدون فى وسعهم أن يتفهموا روح هذا الكتاب وهذه القصة على نحو أروع ، حين يدركون أن للعلم مكاناً سامياً فى دنيا العواطف التى قد لا تدور حتى الآن فى آداب العالم المعاصر إلا حول الآهات والنظرات.

ولقد افتقد طه حسين هو الآخر هذه الشجاعة حين خلت سيرته الذاتية «الأيام» التى صور فيها كثيراً من تفاصيل حياته المضطربة من حديث عن مغامراته العاطفية أو محاولاته (على الأقل) ، وانتبه إلى هذا الدكتور زكى مبارك حين نقد الأيام فى الثلاثينيات ، وعرج على مقارنة طه حسين بروسو وما فعل من رواياته لحياته وأحداثها بصراحة ممتازة ، اقترب من درجتها ومهاراتها طه حسين ولكنه ـ أى طه حسين ـ عجز فى رأى زكى مبارك ـ عن

أن يصف هيامه بالعذارى كما فعل الأديب الفرنسى ، والتفت إلى هيامه بالنعال (مشيراً إلى اضطرار الدكتور طه حسين إلى الحديث عن عبثه بنعال زملائه حيث كانوا يتركونها عند باب حجرة سيدنا.. إلخ) بدلاً من الهيام بالجمال.

وهكذا شُغلت الدكتورة بنت الشاطئ بكثير من المواقف والتأملات عن أن تروى للناس، وللنساء بصفة خاصة كيف تتقد العواطف الصادقة ، وكيف تتوجه هذه العواطف إلى تحقيق الغاية الإلهية من الارتباط الصادق الذى لا تدوم الحياة إلا به .

وفيما عدا عبارات قليلة غاية فى الاحتشام لا نجد تعبيراً كثيراً عن الجوانب غير العقلية فى هذا الحب الصادق الرهيب بين الزوجين ، ولقد كان أمين الخولى كما نعرف رائد مدرسة العقل فى أدبنا المعاصر ، وكانت للدكتورة بنت الشاطئ مكانة مرموقة فى هذه المدرسة بالطبع ، ومن المؤكد أن علاقة الزوجين قد تجاوزت هذه الدائرة .. ومع هذا فإن الآثار الأدبية التى تصور هذا الجانب تكاد تكون نادرة إلا فى عبارات قليلة كتلك التى تضمها قصيدتها التى عنوانها : «بعد عام» والتى نظمتها بعد عام من رحيل زوجها الحبيب حين تقول فى ٩ مارس ١٩٦٧ :

ومضى عام وما زلت هنا
أنقل الخطو ،
على الجسر إليك..
مرت الأيام يغذونى الجوى
كيف لم أهلك أسى
حزنا عليك؟
كلما قلت دنا ميعادنا
خاننى الظن..
ولم أرحل إليك
مزقت أيدى المنايا شملنا
وأرانى دائماً..
بين يديك!
هل مضى عام؟

أما كنت هنا
منذ يوم فات كالدهر الطويل؟
لم نزل فى حيرة من أمرنا
هل مضى عام على يوم الرحيل؟
وصدى نعيك فى أسماعنا
لم يزل يدوى ، فيغشانا الذهول
قد كان دهراً من عذاب
ولئن خلناه كالحلم الرهيب
دربنا ،
قد صار كالقفر اليباب
غير طيف منك ، عنه لا يغيب
دارنا ،
لم يبق فيها من ثقاب
غير رؤيا لمحة ، فيها تثوب !
طيفك الماثل يحدو خطوتى
نحو مثوى لك
دان ، وبعيد ..
هاتفاً أن أحتمى فى وحشتى
بيقين الملتقى ،
خلف السدود
لحظة تأتى فتنهى محنتى
بالتئام الشمل
فى دار الخلود..
لحظة تنسخ ما كابدته

من عذاب البين
من رفض الحياه
من وجود عافنى أو عفته
عاث فيه اليأس
واغتال مناه!».

(٣)

ونحن نرى صاحبة هذه التجربة فى قصيدة أخرى بعنوان «عود على بدء» وهى إحدى القصائد التى تضمها سيرة حياتها «على الجسر» ، نراها وهى حريصة على أن تؤكد على هذه المعانى شبه العدمية إن صح التعبير ، فهى تنطلق لتؤكد على استواء الخير والشر والرفض والصبر ، لأنها ترى نفسها وقد انتهت وانطوت من قبل أن تنتهى ، ولكن واقع الأمر أن الدكتورة بنت الشاطئ فى القصيدة التى نستعرضها بعد قليل تستشرف مع قرائها هزيمة ١٩٦٧ وتعبر بقدرة لا متناهية عن حالة من التوحد المطلق مع الوطن فى محنته التى هزت أركانه ، وهى تشير على استحياء شديد إلى ما كان الوطن وأبناؤه يعانونه من حالات القهر واليأس والخواء والاغتراب:

كلما قلنا : برئنا
من جراح القهر باليأس العقيم
واسترحنا
استوى خير وشر
واستوى رفض وصبر
حومت مصر على أشباحنا
تنبش الأنقاض عن جرح الهشيم
أحيت الهامد من أشجاننا
واستعرت ، موغلات فى الصميم

وكأنا ما يئسنا
وانطوينا ، وانتهينا
كلما قلنا : اكتفينا
بالذى قد كان
من وهم السراب
واستوى ليل وفجر
واستوى أمن وذعر
عادت الروح فشدتنا إليها
بوثاق ، من حنين وولاء
وأتانا صوتها عبر الخواء
ملؤه شجو ، ولوم وعتاب
فاشرأبت نحوها أرواحنا
وكأنا ما اغتربنا
وانسحبنا ، وانتهينا
كلما قلنا : فرغنا
من معاناة جنون وصراع
وأكاذيب الأمانى ،
ودعاء لا يجاب
وتمزقنا حطاما
إثر ما ولى وضاع
وغفونا ، أو غفت أشلاؤنا
بأكف الموج ، فى طى العباب
واستوى بحر وبر
واستوى مد وجزر

هبَّ من عمق الدياجى طيفها
يجمع الأشلاء من يم الضياع
وكأنا ما انحطمنا ،
وانسحقنا ، وانتهينا»

(٤)

ثم ها هى بنت الشاطئ تقترب مرة أخرى من جوهر مأساة الوطن فى هزيمة ١٩٦٧ وتجد نفسها تتوحد مع هذه المأساة التى جاءت على غير موعد لتضاعف مأساتها ، وربما لتكررها فى صورة أكبر وأضخم ، ونرى بنت الشاطئ فى أقصى آيات الألم والقهر لما أصاب الوطن من هزيمة ساحقة جددت إحساسها بالألم بينما هى تحاول أن تقنع نفسها بأنه قد آن الأوان للألم أن يتوقف ، ولكن ها هو الألم يتجدد على الرغم من أنها كانت تظن أن معينه قد نضب ، وأنها قد تعاطت كل الدواء المطلوب فإذا بها تواجه آثار الهزيمة التى حاقت بالوطن ، وجعلت أبناءه يعانون فى سيناء وعلى ضفة القناة كل ما عانته هى فى محنتها الشخصية من ألم وعذاب ، ولكنها مع هذا تأمل أن يجدد الأمل فى هؤلاء الشباب خصوبة مصر ، فتبدو هى والوطن فى حال جديد وكأنها (هى والوطن) قد نجوا من الشيخوخة والعقم والفناء ، وهذا فى رأيى أقصى ما يمكن لشاعر أن يصل إليه فى حديث باك وشكوى مرة حين يرى الأمل ويريه لمستمعيه ناصعاً يبدد كل ما أصابهم وأصابه من يأس .

وهى تصف أبناء مصر فى محنتهم على شط القناة وفى سيناء وتقول:

كلما قلنا ، جرعنا
كأسنا ، لم نبق قطرة
وأسغنا كل ما سيط بها
من نقيع السم ، من صاب وحنظل
وتداوينا منها بها ،
عللا نجرعها بعد نهل

واستوى صحو وسكر
واستوى حلو ومر
خايلتنا فى دياجير الغلس
برؤى النبع الإلهى المقدس
وبيمناها تراءت كأسها
ذوب نور ونقاء
ورحيق لم يدنس
وبها طافت على أبنائها
فى ثرى سينا ، على شط القنا
وسقتهم جرعة من ترياقها
عوذتهم برقاها الطيبات
أن يسيغوا ما أسغنا من قذى
أو يطيقوا ما أطقنا من عذاب
جددت فيهم خلايا خصبها
ورأت سحر صباها والشباب
وكأنا ما هرمنا ،
وعقمنا ، وانتهينا».

(٥)

أظن الأوان قد آن لنسترجع مع القارئ ما تقدمه بنت الشاطئ فى سيرة حياتها عن قصة هذه الحياة ، فها نحن قد أدركنا فيما سبق من فقرات هذا الباب معالم الحب الذى أضاء حياة صاحبته حين بلغت مرحلة النضج والاكتمال ، ولكننا لا نزال بحاجة إلى تأمل حياتها فيما قبل وصولها إلى هذا الحب ، وهى قصة كفاح فريدة تستحق أن تروى مرارا وتكرارا.

ولست أنكر أن كثيراً من الجيل الذى أنتمى إليه لا يعرفون من قصة الدكتورة بنت الشاطئ فى حياتها وجهادها الذى امتد لأكثر من ستين عاماً إلا قشوراً متفرقة ، أو

هم لا يعـرفون على الإطلاق ، وليس على هؤلاء حـرج بقدر مـا على الثقـافة التى نعـيش دنياها التى يوجهها أدباء مشغولون أو مغرضون أو غافلون.

ولقد قـرأت قصـة حياة بنت الشاطئ أول مـا قرأتها مما سمعته مـن والدتى حين كنت لا أستطيع القراءة بعد ، ثم قرأتها مرات عديدة كانت آخرها وأنا أعد لكتابة هذا الباب فإذا بى أحس أن والدتى فيما روته لى منذ زمن بعيد كانت قد أعطت بنت الشاطئ حقها بأكثر مما استطاعت بنت الشاطئ نفسها أن تحـصل على هذا الحق لنفسها فى هذا الكتاب ، وهذا هو بيت القصـيد فيمـا أكتب اليوم ، ذلك أنى أحب أن أقول أو أن أقـرر أن أهم ما فى هذا الكتاب هو ما ليس فـيه ، فقد كان فى وسع مؤلفـته أن تجعل من قصة حياتـها مادة لكتاب أعظم كثـيراً من هذا الكتـاب العظيم الذى جعلت محـوره زوجها العـظيم ، كان فى وسع الدكتورة بنت الشاطئ أن تفرد الصفحـات الطوال لما أجملته فى سطور وعبارات معدودة ، ولكن الحب الأعـمق أبعـد الدكـتورة بنـت الشاطئ عن حـب النفس وحب الذات ، وهذا شىء عظيم ، ولكنه أبعدهـا أيضاً عما يحب القـراء أن يقرأوه من سيـرتها ، وهذا هو الذى يستحق النقد.

كان فى وسع هذه السيدة أن تنتبه إلى إيجابيات كثـيرة فى تجربتها الفريدة ، فتحيلها إلى مادة لـلحوار الداخلى بينهـا وبين نفسـها ، وبـينها وبين قـارئها ، وللصـراع الذى يدور فى المسـرح ، وللعـقد التى تدور فى الـقصـة ، وللديالوج الذى يكون فى كل حـوار ، ولكنهـا تلتفت عن هذا كله ، ولعلهـا فيما فعلت كانت أصـدق تعبيراً عن حيـاتها التى مضت على هذا النحو من الإسراع حين أسرعت أو ضـاعفت السرعة فى مرحلة كفـاحها حتى دخلت الجامعـة ، ثم هى تسرع أيضاً حين تروى تفاصيل هذا الإنجـاز الذى حققته فى سـرعة بالغة بالنسبـة إلى ظروفهـا التى عاشـتها فى ذلك الزمـان ، بل إننا نراها حريصـة على الاكتـفاء بالحديث عن رأس الموضوع دون أن تتناول تفاصـيله على نحو ما سنرى من هذه الكلمات التى تكتبها بروح الألم:

«... وكان من الغريب حـقاً ، أننى حين فتحت قلبى وعقلى للجـامعة ، عن يقين واثق بأن لديها مـا تقدمـه إلى من جوهر العلم ومنهج المعـرفة ، واجهـتنى أزمة من عـجز البيئة الجامـعية عن فهم مـعنى التلمذة العلميـة ، بحيث اضطرتنى إلى أن أخوض مـعها معـركة عنيفة ، لكى أفرض عليها تلمذتى للأستاذ الخولى ، دون أن تكون مستعدة لقبولها».

«كانت البيئـة الجامعية تنظر إلى هذه القـضية ، من حيث هى علاقة شـخصية أو ظاهرة عارضة غـير مألوفة ، على حين كنت أنظر إليـها من حيث هى قضـية مبادئ خلقـية وقيـم

علمية ، وكرامة عقلية ، فكان صراعاً طويلاً مجهداً ، احتسبت كل أذى فيه امتحاناً لأهليتى لما تعلقت به وطمحت إليه ، وجهاداً فى سبيل ما آمنت أنه حق وواجب».

وتردف بنت الشاطئ معبرة عن أملها فى صراحة ووضوح بقولها :

«ولست الآن بحيث أقص حديث هذه المعركة ، وإنى لأدرى أن عدداً من زملائى خاضوها كذلك بصورة أو بأخرى ، نضالاً عن تلمذتهم للأستاذ الخولى ، فلم تعد القضية خاصة بى ، فيما أروى من ذكريات حياتى ، وإنما هى جزء من تاريخ جامعتنا ، يستكمله الزمن فى غد قريب أو بعيد ، دون أن يفلت منه شيئا ذا بال».



كان فى وسع بنت الشاطئ إذن أن تعمد إلى لحظات حرجة من حياتها فتبدع فى تصويرها بدلاً من أن تجيد إجمالها ، وتعنى بتفاصيلها قبل أن تخلص بالقارئ إلى الإنجاز الذى حققته ، ولكن بنت الشاطئ كانت وهى تسير هذه الخطوات المسرعة تتعجل النهايات التى حققتها ، فضاعت منها يومها بعض لذة الحياة ، و ضاعت من قارئها فى كتابها «على الجسر» متعة قراءة أدب الحياة الحق.

(٦)

ومع هذا كله فإنى لابد أن أحاول أن ألخص للقارئ ما حاولت صاحبة التجربة تصويره من تجربتها الثرية فى أيامها الأولى قبل أن تلتقى بزوجها العظيم ، وهى تتحدث عن معاناتها من أجل التعلم حديثاً يكاد يفطر القلب حين نرى أباها وهو المتعلم يحارب تعليمها بكل صورة ممكنة من صور الحرب الضروس ، مرة بعد أخرى ، على الرغم من وقوف والدتها إلى جوارها ، ومساندة جد أمها لها كذلك. بل ومساندة شيخ والدها فى الطريقة وزملائه فى المعهد الدينى ، وسنقرأ فقرات مختلفة نرى فيها كيف اجتازت صاحبة التجربة هذه العقبات واحدة وراء أخرى حتى استطاعت فى النهاية أن تصل بجهدها وكفاءتها إلى باب الجامعة باقتدار ، ولنبدأ معها ببداية الدراسة فى المدرسة الأميرية الأولى:

«عدنا (أى من قرية والدها فى المنوفية) من رحلة الصيف حوالى عام ١٩٢٠ ، وقد كانت مشحونة بأصداء الثورة ، فلم نكد ننفض عنا غبار السفر الطويل حتى سارعت إلى ملعب الأصحاب على شط النهر ، فألفيته فى عز النهار خالياً موحشاً!».

ومضى النهـار كله وأنا مطلة على الشط من النافذة البحـرية فى بيت جدى لأمى ، دون أن ألمح لأترابى أثراً ، وكأنما ابتلعهن الماء أو سحبتهن جن النهر إلى القاع!»

«وسعـيت فى الأصيل إلى دور الحى ، أسأل عن الخـبر ، ففوجـئت بأن الصغيـرات قد بدأن الدراسة المنتظمة فى «مدرسة اللوزى الأميرية للبنات»».

«وتطوعن جـمـيـعـاً فـعـرضن على أزياءهن المدرسـيـة الأنيـقـة ، والكتب المصـورة ، والكراسات المتنوعة ، والأدوات المدرسية التى وزعت عليهن».

«وطاب لهن كذلـك ، أن يسمعننى حـديثاً عـجباً عن «الأبلوات اللطـيفات ، وقـاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور ، وقاعة المائدة الفسيـحة المنسقة ، وعن «دادة أم حبيبة» التى تبيع لهن الحلوى فى فترات الفسح!»».

(٧)

وبعد فـقرات تصور صاحـبة المذكرات كـيف استعانت على إقنـاع أبيها بالسمـاح لها بالانتظام فى المدرسة بجد والدتها وكيف توصل الرجلان إلى حل وسط:

«ومضت أشهـر ذات عدد ، وأنا أتبع بنات الحى بصرى وقلبى فى رحلتهن اليـومية إلى المدرسة ، ثم أخلو فى ليالى المسهدة الطوال إلى الهم والحسرة».

«وزهدت فى الدنيـا بقدر مـا يحتـمل عمـرى الغض ، وبان على من الذبول والشـرود والانطواء ما جعل أمى تفزع إلى جدها ـ الشيخ محمد الدمهوجى ـ رحمه الله ورضى عنه ـ تلتمس منه النصيـحة والرأى ، فى مـوقفها الحـائر الصعب بين حرصهـا على ألا تتدخل فيما يريد لى أبى ، وفزعها من عواقب ما أكابد من قهر وحرمان».

«وتدخل الجد ـ رحمه الله ـ لحسم الموقف ، فمازال بوالدى حتى انتزع موافقته المكرهة على التحاقى بمدرسة اللوزى للبنات ، بشروط ثلاثة:

«ألا دخل لوالدى إطلاقاً بأى طلب للالتحاق أو إجراء من إجراءاته ، أو أى شأن يتصل بالمدرسة من قريب أو بعيد!»».

«أن أتابع دراستى الدينية فى البيت ، دون أن يتـرتـب على دخولى المدرسة أى تهاون أو تقصير فى دروسى الخاصة».

«أن أنقطع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة ، بمجرد أن أشارف سن البلوغ!».

«وفرجت ، وكنت أظنها لا تفرج!»

«وأصبح جدى فسعى سعيه حتى ألحقنى بالمدرسة بعد مشقة بالغة ، إذ كانت السنة المدرسية على وشك الانتهاء ، وقدم الأوراق المطلوبة بوصفه نائباً عن ولى أمرى!».

«وكان المفروض أن ألتحق بالسنة الأولى».

«ومازلت حتى هذه اللحظة ، أذكر أن يومى السعيد الأول بالمدرسة ، كان يوم خميس على التحديد ، وأذكر الحجرة الدراسية التى دخلتها فى نهاية الجناح الشرقى للمبنى الفخم».

« بل مازلت أتذكر كذلك المقعد الإضافى الذى جيء به فوضع لى أمام المقعد الأخير من الصف الأول ، حيث جلست أؤدى امتحان النقل إلى السنة الثانية مع تلميذات السنةالأولى ، ولم يكن قد مضى على دخولى المدرسة سوى الدقائق المعدودات التى استغرقها طريقى من «مكتب حضرة الناظرة» إلى حجرة السنة الأولى ، عبر فناء المدرسة الرحب النظيف ، والممر الممتد أمام الجناح الشرقى الذى يقع (فصلى) فى نهايته!».

«وأديت الامتحان فى أقل من ثلث الوقت المحدد له ، فما كادت معلمة الفصل «أبلة عزيزة الدمياطى» تلقى نظرة على إجابتى ، حتى هتفت دون أن تكتم دهشتها:

«عجيبة! هذه إجابة غير منتظرة من أى تلميذة».

«وكتمت ضحكة كادت تفلت منى ، فما كانت الأسئلة بالنسبة لى ، سوى لعب عيال!».

«وإن عجبت فعجبى للمعلمة التى تتصور أنى مبتدئة فى العلم ، فتستغرب ، مثل هذه الإجابة منى!».

«وأغرانى التفوق بالإقبال على دروسى الخاصة فى البيت ، التماساً لرضا والدى ، وحرصاً على أن يطمئن فلا يروعنى بالحرمان من الذهاب إلى المدرسة ، وقد أعاننى على مضاعفة جهدى فى البيت ، أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد ، فضلاً عما اكتشفته منذ اليوم الدراسى الأول ، من أن حصيلتى من دروسى الخاصة ، هى التى تبهر المدرسة فترى فى أعجوبتها النادرة».

«وقد ضقت أول الأمر بجفوة الزميلات ، غير أن الجفوة ما لبثت أن ذابت ، فى عالم صبانا الغض البريء».

(٨)

وبعـد صفحـات أخرى تحكـى الدكتـورة بنت الشاطئ بقـدر من الوجل الظاهر قـصة الخطوة التالية التى كان لابد منها لتتخرج فى المدرسة الراقية:

«عندما أتممت الدراسـة بمدرسة اللوزى وقـد جاوزت سن العاشـرة التى حددها والدى لحجزى فى البيت مع الحريم».

«كنت فى بداية الـطريق أتصـور أننى قـد أكـتـفى من التـعليم المدرسى بـتلك المرحلة الأولى، غيـر أنى لم أكد أجتـازها حتى كرهت أن تواصل زمـيلاتى تعليمـهن فى المدرسة الراقية ، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير».

«ولقد كـانت المدرسة الـراقية ، تشـغل الطابق العلوى من مـبنى مدرستنا ، فكنا طوال المرحلة الأولية نرنو مستشرفـات إلى ذلك الدور الأعلى ونرى فيه منتهى أملنا! والمفروض أن تختار المدرسة الراقية تلميذاتها ممن أتممن الدراسة بتفوق ، وقد كنت أولى الناجحات».

«ومرة ثانية لجأت إلى جـد أمى ، أستـعين به على إقنـاع والـدى ليسمح لـى بمواصـلة التعليم فى المدرسة الراقـية. فلما أعياه أن يقنعـه ، ذهب إلى جامع البحر ، يستـعين بشيوخ المعهد على عناد أبى ، وإصراره على حجزى فى البيت ، ولم أبلغ بعد سن الحجاب».

«وطالت المجادلة بينهمـا حتى صارت إلى خصومة حـادة ، دون أن يتزحزح والدى عن موقـفه. وخرج جـدى منفعلا بالغـيظ والغضب ، فلم يلتـفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه ، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية ، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط!».

«حملوه إلى البيت ، وجاء أكبر أطباء المدينة فشـخص الحالة بأنها اشتباه فى كسر عظم الفـخذ ، لا يرجـى جـبره فى تلك الشـيخـوخة العـالية ، وإن كـان لا خطر منه على حـياة الشيخ، لقوة بنيته وسلامة أجهزته الحيوية».

«ومـضت شهـور الصـيف وأخـوالى يطوفـون بالجـد على أطبـاء العظام ومـشهـورى المجبـرين ، إلى أن أنتهى به المطاف إلى فراشه ، لـيمضى ما بقى من سنوات عـمره كسيـحاً مقعدا».

«وعشت مـعه محنتـه ، وأرهقنى الشعور بعـقدة الذنب أن كنت السبب المبـاشر لتلك

الإصابة التى لا تجبر ، فلزمت غرفته لا أكاد أبرحها إلا لقضاء حاجة له ، حتى إذا حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية ، أصر على ذهابى إليها ، لا يبالى ما قد يلحق به من أذى ، وكان أهل البلدة لا يكادون يرتابون في أن ما حدث له ، ليس إلا كرامة من كرامات والدى التقى الولى الصالح».

«غير أن والدى رق للشيخ الكسيح في محنته ، فتخلى له عنى ، أقوم على خدمته وأعيش إلى جواره».

«وسكت على مضض ، حين أرسلنى جدي إلي المدرسة الراقية».

«وكأنه كره أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد ، فى الرغبة الوحيدة التى تعلق بها ، وزادته المحنة إصراراً عليها وتشبثاً بها».



عند هذا الحد قد يبدو للقارئ أن صاحبة المذكرات قد وصلت إلى تحقيق أمانيها فى الالتحاق بالمدرسة الراقية وكأن هذا هو نهاية المطاف ، ولكننا نجدها وهى مع ضميرها تدفع لهذا الوصول ثمناً غاليا من الشعور الشديد بالذنب الكبير ، ولربما يدفع هذا الشعور فى الحالات الطبيعية أمثالها أن تتوقف عند هذه المرحلة التى كابدت حتى بدأتها ، لكننا نجدها بعد ثلاث سنوات وقد عادت الكرة يغريها التعليم بالتعليم فإذا هى ترغب فى بداية رحلة جديدة من طلب العلم ولكنها تجد الطريق أمامها مسدوداً ومع ذلك فهى تحاول فتحه، ويأتيها العون فى هذه المرة على غير ما قد نتوقع من الأم المجاهدة المغامرة من أجلها:

«حتى أتممت المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح ، وبعدها بدا الطريق أمامى مسدوداً».

«فمن ناحية ، كنت قد بلغت من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وهى سن الحجاب التى تفرض حجزى فى البيت مع الحريم!».

«من ناحية أخرى لم يبق فى دمياط أى مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية ، وإنما كان على الراغبات فى مواصلة التعليم ، إما أن يقضين شهوراً أربعة فى «دراسة صيفية» تعدهن لوظيفة معلمات فى المدارس الأولية للبنات ، وإما أن يتقدمن لامتحان القبول فى مدرسة المعلمات بالمنصورة وهى أقرب عاصمة إلى بلدتنا ، من عواصم المديريات التى فيها مدارس للمعلمات».

(٩)

وتروى لنا بنت الشاطئ أنها عند مفترق الطرق الأولى لم تكن لتقتنع بدراسة هزيلة تؤهل لشىء هزيل ، وإنما هى تطمع إلى ما يبدو من الخيارات المتاحة أمامها على أنه الأعلى والأكثر تحديا لقدراتها:

«ولم أفكر بطبيعة الحال ، فى تلك الدراسة الصيفية الهزيلة التى ألجأت إليها ضرورة طارئة للتعجيل بتخريج معلمات من أدنى المستويات ، بل تطلعت متحدية كل دواعى اليأس والقنوط ، إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة. وشاءت الظروف أن يتحدد موعد امتحان القبول بها ، أثناء غياب والدى عن دمياط ، فى إحدى رحلاته المتتابعة لحضور موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين ، ما بين القاهرة وطنطا ودسوق. وكان من عادته فى مثل هذه الرحلات ، أن يعرج فى طريق العودة على قرية «أبى حريز» بمديرية الشرقية ، ليزور شيخه فى الطريق وإمامه فى التصوف ، العارف بالله «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» فتستغرق الرحلة الواحدة نحو عشرة أيام ، على حين لا يحتاج الامتحان إلى أكثر من أربعة أيام».

«ورقّ لى قلب أمى ، حين رأت إصرارى على أداء الامتحان ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، فجازفت وتسللت بى من دمياط ذات صباح إلى المنصورة ، حيث تركتنى بالقسم الداخلى فى مدرسة المعلمات ، على أن أعود بعد أيام الامتحان الأربعة ، مع زميلاتى من بنات دمياط».

«ولا أصف هنا مدى انفعالى بذلك الجو المدرسى فى مستواه العالى الذى لا عهد لنا بمثله فيما مضى. وقد رحت أطوف بأرجاء المبنى الكبير مأخوذة بالنسق البديع لعنابر النوم، وقاعة المكتبة ، وحجرات الدراسة. وكان نظام الامتحان يسمح لمن أتمت التعليم بالمدرسة الراقية ، أن تؤدى امتحان القبول للسنة الثانية معلمات مباشرة. أما اللواتى لم ينلن الشهادة الراقية ، فيتقدمن لامتحان القبول بالسنة الأولى».

«وأديت الامتحان الأول ، للسنة الثانية ، وأنا أقهر فى أعماقى شعور الخوف من والدى ، حتى إذا فرغت منه ، وأخذت أول قطار إلى دمياط ، عاودنى ذلك الخوف الذى أفلحت فى مقاومته لمدى أيام ، فعاد أقسى ضراوة وحدة».

«وتمهلت عند باب بيتنا فترة لم تطل ، ثم انطلقت إلى بيت جدى التمس الأخبار عن

بيتنا فى غـيبتـى ، وأتزود بمدد من التشجـيع يعيننى على مـواجهة والدى إن كـان قد علم بالخطوة الجريئة التى خطوتها فى غيبته».

«لكن الأزمات مرت بسلام..».

«أو هكذا بدا لنا ، حتى دنـا موعد الموسم الدراسى فـفوجئت بأن زمـيلاتى اللائى أدين معى الامـتحان ، تلقـين من إدارة المدرسة إخطاراً بقبـولهن ، ومعه بـيان بالملابس والأمتـعة الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلى».

«ولم أتلق معـهن مثل هذا الأخطار ، مع أن المدرسة أذاعت من قبـل نتيجة الامـتحان ، وكنت أولى الناجحات فى القبول للسنة الثانية!».

(١٠)

يتـصـاعد الخـوف والشك والقـلق فى نفس بنت الشـاطئ لهـذا الأمـر الغـريب الذى حدث، أتقـبل الناجحـات جمـيعا مـا عدا الأولى ، ومع هذا فـإنها تجـد العون من أسـرتها نفسها، وإن لم يكن من والدها:

«... وأشار جـدى بأن نبـعث خطاباً مسـجلاً إلى المدرسـة ، نستـفسـر فيـه عن الموقف الغريب ، وسرعان ما تلقينا الرد ، بأن والدى تقدم إلى المدرسة بوصفه ولى الأمر ، فسحب كل أوراق التحاقى بها!».

«فعلها أبى إذا ، دون أن يتكلف من جهد مجادلة أو مغاضبة!».

«وجن يأسى ، فأمسكت عن الطعام حـتى خيف على من الموت ، وتكاثر أهلى وزملاء والدى عليه ، فلـم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطاباً إلى إدارة المدرسة!».

«وما كان لى ولا لأحد سـواى أن نرتاب فى صدق كلمته ، غيـر أن الذى حدث فعلاً ـ كما أخبرنا بعد أن افتتـحت الدراسة ولا خبر من هناك ـ أنه وضع ورقة بيضاء فى مظروف كتب عليه عنوان المدرسة ، وألقاه فى صندوق البريد ، فتحلل بذلك الإجراء الصورى ، من تبعة الحنث بوعده!».



هكذا كان الأب المحافظ المتزمت لايزال يلجأ إلى كل الوسائل والسبل الكفيلة بالتوقف

بإبنته عن المضى فى هذا الطريق حتى ولو لجأ إلى مثل هذه الحيلة ، ولكن أمها المغامرة من أجلها تسعى سبيلاً آخر تنجح من خلاله فى أن تهيئ لابنتها السبيل إلى ما هى راغبة فيه ومقدمة عليه:

«بعد شهرين من بدء الدراسة ، كانت أمى ـ رحمها الله ـ قد ظفرت لى بالإذن فى التعليم ، ممن لا يملك والدى أن يعصى له أمراً: صحبت أبى فى سفره إلى إمامه وقدوته «الشيخ منصور أبى هيكل الشرقاوى» وعرضت عليه القضية ، ومازالت تستعطفه وترجوه ، حتى أذن لى فى التعلم ، على مسمع من والدى!».

«وعادت لى بالبشرى فردت الروح إلى ، ثم سارعت فجهزت لى ملابسى وأمتعتى المطلوبة للقسم الداخلى ـ وكأنه جهاز عرسى ـ وسافرنا إلى المنصورة لنفاجأ بأن المدرسة استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات ، فلم يعد لى فيها مكان!».

«وقبل أن نفيق من ذهول الصدمة المباغتة ، استطردت ناظرة المدرسة فأشارت علينا بتقديم طلب التحاق إلى مدرسة جديدة للمعلمات ، تقرر فتحها فى مدينة حلوان ، ومازال هناك فرصة لقبولى بها ، لأن الدراسة فيها لم تكن بدأت بعد».

«وتطوعت السيدة الناظرة ، فزودتنا بشهادة رسمية من المدرسة ، بأنى نجحت بتفوق فى امتحان القبول للسنة الثانية بها».

(١١)

ثم نأتى مع بنت الشاطئ فى روايتها إلى ذروة العطاء الحنون من الأم العظيمة التى تتصرف بتلقائية رائعة وبفدائية نادرة:

«... وخرجنا ، وفى ظنى أن أمى سوف تعود بى إلى دمياط ريثما تدبر أمر الرحلة إلى مدينة حلوان التى لم نكن سمعنا باسمها من قبل ، ولا كان لنا علم بطريق الوصول إليها وما يتكلفه من نقود».

«لكن أمى لم تلبث فى المنصورة إلا ريثما باعت سواراً ذهبياً كانت تتزين به ، وقطعت لنا تذكرتى سفر بالدرجة الثالثة ، فى أول قطار إلى القاهرة».

ثم نجد صاحبة التجربة وهى تواجه مدينة القاهرة لأول مرة فى حياتها ، فتصدقنا الوصف الدقيق لحالتها فى هذه المدينة الكبيرة:

«وألقى بنا القطار [أنظر إلى دقة هذا التعبيروروعته] فى ضجيج الزحام بمحطة مصر ، غريبتين ضائعتين ، لا نكاد ندرى موضع أقدامنا فى ذلك العالم الصاخب المجهول ، وأذكر أننى أغمضت عينى ، كأنى أتقى شبح الضياع ، على حين مضت أمى تسأل من تتوسم فيهم الخير ، عن طريق الوصول إلى «شارع زين العابدين» بالسيدة زينب ، حيث كان خالها يسكن فى بيت يملكه هناك».

«وصحبنا الخال إلى حلوان ، لنفاجأ بأن المدرسة الجديدة لن تبدأ الدراسة فى ذلك العام ، إلا بفصول الفرقة الأولى !».

«وتشاغلت ناظرة المدرسة عن لمح ما بدا علينا من بوادر الخيبة ، بقراءة الخطاب الذى حملناه إليها من المنصورة ، ثم أقبلت علينا بوجه باش ، فأعربت عن ترحيبها بقبولى ، لو أنى تنازلت عن حقى فى دخول السنة الثانية التى نجحت فى امتحان القبول بها».

«ووقع خالى إقرارا بالتنازل ، ونحن لا نكاد نصدق أن باب الفرج قد فتح أمامنا بعد يأس غالب !».

«وأحست أمى ، كأن عبئاً ثقيلاً أزيح عن كاهلها ، فاسترسلت ـ متأثرة بلطف حضرة الناظرة وأنس محضرها ـ تفضى إليها بما لقينا فى طريقنا من نصب ، فما كان من السيدة الكريمة إلا أن أذنت لى فى الإقامة بالمدرسة إلى أن يحين موعد افتتاح الدراسة بعد أسبوعين».

«وودعتنى أمى ، وهى مطمئنة إلى رعاية الله فى ضيافة هذه السيدة الطيبة ناظرة المدرسة. وعادت إلى دمياط لتقف وحدها فى مهب الإعصار ، وعلى وجهها نور الاستشهاد !».

(١٢)

وبعد أن تصف صاحبة التجربة على عجل ذكرياتها عن المبنى الجميل الذى كانت تشغله المدرسة وحديقته ، والليالى التى قضتها هناك فى القسم الداخلى لهذه المدرسة ،

حيث عاشت وحيدة حتى تبدأ الدراسة ، ثم وفود الطالبات على السكن قبل افتتاح الد راسة بيومين ، بعد هذا الجو الذى يتصور لنا من خلاله أنها مقبلة على الاستقرار فى دراستها إذا هى تفاجئنا بالصدفة الجديدة فى حياتها حيث لم توافق الوزارة على هذه الخطوة من جانب الناظرة:

«استدعتنى حضرة الناظرة ذات يوم إلى مكتبها ، ولم يكن قد مضى فى عالمى الجديد الآمن غير شهرين ، وأنبأتنى بأقصى ما تستطيع من عطف وترفق ، أن وزارة المعارف رفضت رسمياً اعتماد قبولى طالبة بالمدرسة ، حيث لا تجيز اللوائح أن أقبل إلا فى السنة الثانية التى نجحت فى امتحانها».

«وغشينى ما يشبه الدوار لحظة ، كانت نفسى خلالها تفتش عن خيط من الرجاء ، يعصمنى من الانهيار.

وتماسكت وأنا أردد ، وكأنى أخاطب نفسى:

«هل أستطيع الانتظار إلى العام التالى ، حيث تكون المدرسة قد افتتحت فصولاً للسنة الثانية؟ ولكن مَنْ يضمن لى أن يردنى والدى إلى المدرسة ، بعد عودتى إليه؟»».

«وقالت الناظرة وهى تبالغ فى مواساتى:

«بل تبقين هنا فى ضيافتى ، وعلى مسئوليتى ، إلى أن أراجع وزارة المعارف فى قرارها بشأنك ، فلعلها ترجع عنه ، أو فلتدبر لك مكاناً فى السنة الثانية معلمات طنطا ، حيث أعلم أن بها أماكن خالية».

«ورغم تأثرى العميق بهذه الرعاية الكريمة ، أشفقت على نفسى من الاغترار بأمل كان يبدو لى فى منطقة السراب ، فاستسلمت للقنوط وأمضيت أياماً تعسة ، منطوية على نفسى أجتر الصدمة».

(١٣)

وبعد اجتياز هذه العقبة التى لم تكن فى الحسبان يأتى الفرج متمثلا فى موافقة مدرسة طنطا ولكن الظروف تأبى إلا أن تعاند صاحبتنا:

« ... حتى جاء رد مدرسة معلمات طنطا بعد حين ، بقبول التحاقى بالسنة الثانية فيها ، بشرط النجاح فى الكشف الطبى ، حيث لم أكن قد أديت هذا الكشف فى المنصورة».

«وجاء عمى ـ وكان قد عين ناظراً لمدرسة البنين فى إحدى قرى إمبابة ـ فتسلمنى من المدرسة ، ومضى بى إلى القاهرة حيث أنزلنى فى ضيافة أسرة صديق لوالدى من كبار رجال التعليم «الشيخ موسى قمر ، الأستاذ بالمدرسة السنية للمعلمات ودار العلوم ، رحمه الله».

«وتقرر أن أجرى الكشف فى القسم الطبى بوزارة المعارف ، كى أذهب بعده مباشرة إلى طنطا ، مستكملة مسوغات القبول».

«ونصح الأستاذ الشيخ موسى لعمى أن يمضى بى إلى أحد أطباء العيون لإجراء كشف تمهيدى قبل إجرائه رسمياً فى الوزارة. وقد نجحت فى ذلك الكشف التمهيدى ، وإن يكن الطبيب قد أوصى بعمل نظارة طبية ، ضماناً للنجاح ، مع احتمال الشدة فى الكشف الرسمى».

«وإذ كان عمى يلبس نظارة ، سألته ونحن فى طريقنا إلى منزل الضيافة ، عما إذا كانت نظارته طبية؟ فلما رد بالإيجاب ، اقترحت عليه أن يعيرنى إياها يوم الكشف الطبى فى الوزارة!».

«قال وهو يقدمها إلىّ :

«جربيها أولاً ، لنرى هل هى على مقاس بصرك؟».

«فلم أفهم بالضبط ماذا يعنى بمقاس البصر ، إذ كنت لغفلتى وسذاجتى أتصور أن كل النظارات الطبية سواء! ومادام عمى يملك إحداها ، فأولى بى أن أستعيرها منه ، بدلاً من إرهاقه بشراء نظارة أخرى».

«وجربتها مع ذلك إجابة لطلبه ، فلم يشق على أن أميز المرئيات بها!».

(١٤)

وتقع صاحبتنا فى سوء الحظ ، فإذا هى ترسب فى الكشف الطبى بسبب هذه الخطوة التى اتخذتها عن جهل ، ولكن الله ييسر لها الأمور مرة رابعة:

«... وهكذا توجهت فى الصباح التالى ، يصحبنى عمى ، إلى القسم الطبى بمبنى وزارة المعارف ، حيث أدخلونى ، ومعى النظارة المستعارة ، إلى (خواجاية) ترطن بلغة أعجمية لا أفقه منها حرفاً ، وقيل لى إنها «المسز جارفس» رئيسة القسم الطبى للبنات بالوزارة!».

«ولم أسترح قط إلى هذه السيدة الأجنبية ، فى جفاف أساريرها وخشونة ملامحها ، وما يبدو فى حركتها ولهجة صوتها ، من مخايل الكبر والتعالى. وخيل إلىّ أنها ازدرت سحنتى الإقليمية وزيى البلدى ، فلم تستغرق معى فى إجراء كشف النظر سوى دقيقة واحدة التقطت فيها مؤشرا وأشارت إلى الصف الأعلى من لوحة علامات الإبصار ، مرة واحدة للعين اليمنى وأخرى للعين اليسرى ، ثم صرفتنى فى ضيق لم تحاول إخفاءه».

«وانتظرنا على باب مكتبها ، حتى خرج سكرتيرها الخاص فأعلن نتيجة الكشف: ٦ على ٦٠ لكلتا العينين ، وتأشيرة بسقوطى فى كشف النظر!».

«جرنى عمى جرا ، وأنا منهارة من اليأس ، فذهب بى إلى طبيب العيون ، الذى ما لبث أن اكتشف سر المأساة».

«وأمر فتوجهنا إلى متجر كبير للنظارات ، قرب ميدان «العتبة الخضراء» حيث استسلمت لعملية فحص وتجربة ، زودنى بعدها بنظارة طبية على مقاس بصرى ، استطعت أن أميز فتحات الدوائر السفلى من لوحة علامات النظر».

«وعدت إلى وزارة المعارف ، فى صحبة «الأستاذ الشيخ موسى قمر» هذه المرة ، فرفضت «مسز جارفس» أن تستقبلنى ، ولم تستجب لرجاء السيد مراقب تعليم البنات فى إعادة الكشف الطبى ، وذلك ـ فيما فهمت من الحوار حول الموضوع ـ حق مقرر لى بمقتضى اللوائح».

«ولم ييأس «الشيخ موسى» ، بل راح يطوف بمكاتب الوزارة ، مكرراً عشر مرات وعشرين ، قصتى مع نظارة عمى ، حتى استطاع آخر الأمر أن يظفر لى بخطاب من سعادة مراقب تعليم البنات ، إلى مدرسة معلمات طنطا ، لتقبلنى بالسنة الثانية ، بعد أن تعيد الكشف الطبى علىّ».

(١٥)

هكذا رزق الله صاحبة المذكرات بحنان هذا الشيخ ومثابرته معها واقتناعه بقضيتها وعمله من أجل هذه القضية إلى هذا الحد وكأنه تعويض من الله عن عناد الأب ومعارضته لرغبتها فى التعلم:

«وتطوع الأستاذ الشيخ فسافر بى إلى طنطا ، وانتظر حتى أتمت طبيبة المدرسة إجراء الكشف وأعلنت نجاحى فيه».

«وتركنى الشيخ الجليل فى رعاية زميليه مدرسى اللغة العربية بالمدرسة ، وودعنى بعد أن اطمأن إلى استقرارى فى القسم الداخلى ، واستكمل ما كان ينقصنى من حاجاته!».



وبعد أن ينتهى العام الدراسى تعود بنت الشاطئ إلى أسرتها وقد اجتازت امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، وإذا هى تفاجأ فى البيت بما يقوض عليها سعادتها ، وإذا هى فى هذه المرة أمام خيار أصعب من كل الخيارات السابقة ، لكنها تجد أن عليها أن تضحى عند هذه اللحظة.

«... وعدت إلى البيت بعد أن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، لأواجه ما طوته عنى أمى فى رسائلها إلىّ من مأساتنا:

«مات جدى الشيخ ، وواروه الثرى دون أن أتزود منه بنظرة وداع أخير».

«ومضى دون أن أشيعه إلى مثواه ، بكلمة ولاء وعهد ووفاء ، تؤنس وحشة رحلته إلى حى الموتى ، فى الطرف الأقصى من البلدة».

«وتعرض بيتنا بعده لهزة عاصفة كادت تقوضه ، إذ عاد أبى يصر على حجزى بالمنزل ، وردى إلى الطريق المستقيم الذى انحرفت عنه».

«وألفيت أمى مضغوطة بين شقى الرحى: لا تستطيع أن تتخلى عنى ، كما لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تعرض البيت للخراب ، وفيه شقيقات لى خمس ، وشقيقان أصغرهما رضيع فى الشهور الأولى من عمره!».

«وكلا الأمرين ، أحلاهما مر!».

«وكانت أمى أقرب إلى أن تحمينى بأى ثمن ، غير أنى ما كدت أذكر ما أصاب جدى بسببى ، حتى تهيبت التضحية الفادحة التى تريد أمى أن تتحملها من أجلى! وروعنى التفكير فى احتمال أن يصيبها مثل ما أصاب الجد ، إن هى جازفت بإغضاب أبى ، على ما نعلم من سره الباتع!».

«كما روعنى أن أتمثل إخوتى السبعة الصغار ، حطاما مبعثراً بين أنقاض البيت الموشك على الانهيار».

«هنالك قررت أن دورى قد جاء ، لأحتمل عن أمى العبء الباهظ ، فأكون قربان الفداء لسلامة البيت».

«وساعدت الظروف على حسم الموقف ، حين أصبت بانهيار عصبى أعيا الرقاة والأساة دواؤه ، فانقطعت عن المدرسة ، وتقرر شطب اسمى من سجل طالباتها ، لعجزى عن الانتظام فى الدراسة».

(١٦)

هكذا نرى صاحبة هذه المذكرات لأول مرة فى حياتها وهى تجد نفسها مضطرة إلى أن تضحى من أجل أمها ، وهى ترى والدها لا يعبأ بما حدث لها ، وهى تجيد إلى حد كبير وصف ما حدث بالضبط دون أن تتعمق مشاعرها فى تلك اللحظات ، إنما هى على العهد بها تسرع فى رواية هذا الذى حدث على هذا النحو الخاطف:

«... ولم يبد على والدى أى قلق من ناحيتى ، بل لعله كان بحيث يؤثر لى أن أموت ولا أحيد عن طريق العلم الحق ، وعد كل ما أعانى ، تكفيراً عن خطيئة خروجى إلى المدارس!».

«أمى هى التى كانت شقية بمحنتى ، وقد تضاعف همى بشقائها ، فإذا بنا معاً ، فى دوامة من العذاب!».

«ومن أجلها تماسكت!».

«ولأجلها رحت ألتمس منفذاً عبر الطريق المسدود ، بعد أن أراحنى اليأس من هم التطلع والطموح».

«رحت ألتمس منفذاً ، لتطمئن أمى إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الذى فات ، لم يذهب عبثاً».



ومع هذا كله أو رغم هذا كله فإن بنت الشاطئ تنجح فى الحصول على شهادة المعلمات بتفوق بارز :

«كان المنفذ الوحيد أمامى ، أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات ، حيث عكفت على تحصيلها ثم تسللت من البيت خفية ، وأبى غائب عن المدينة فى إحدى رحلاته ، فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه ـ وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل ـ أولى الناجحات

فى مصر ، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع ، عن الطالبة التى تلينى فى ترتيب النجاح!».

(١٧)

هكذا أصبحت بنت الشاطئ وفى يدها شهادة الكفاءة للمعلمات من مدرسة طنطا ، وقد حصلت على الأولية فى هذا الشهادة ، وأصبحت مؤهلة تماماً لأن تمضى فى سلك الوظيفة لو أرادت ، أو أن تكتفى من التعليم بهذه الشهادة المعتبرة يومها ، لكنها تحكى عن التحول الذى حدث فى حياتها وهى على وشك الحصول على هذه الشهادة ، وهو تحول رزقها الله به بالصدفة ، وجعلها تترك هذا السبيل الذى مضت فيه فى مدارس المعلمات لتبدأ طريقاً آخر ينتهى بها إلى الجامعة:

«... وقد بدا الأمر حينذاك ، أشبه بمصادفة عابرة ، لا تلبث أن تمضى دون أن تغير متجه خطواتى ، أو تترك فى دنياى أثراً ذا بال:

«حدث ذاك ، يوم أخذت مكانى فى جانب من قاعة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات ، أنتظر دورى لأؤديه بعد الطالبات الرسميات».

«وكان الأساتذة الممتحنون قد ضاقوا بتعثرهن فى تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة ، فلما جاء دورى وتلوت مجودة ما اختاروا لى من سورتى النساء والنور ، سئلت عما أحفظ من النصوص الشعرية ، فكان جوابى أن سألت: من أى عصر؟».

«وعجب الممتحنون من سؤالى ، ثم طلبوا نصاً من العصر الجاهلى فأنشدتهم أبياتاً من معلقة طرفة بن العبد ، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبى فى أخيه كليب».

«قالوا : أسمعينا شيئاً من شعر صدر الإسلام».

«فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير «بانت سعاد».

«ثم مازالوا ينتقلون بى من عصر إلى عصر وهم فى دهشة من حفظى ، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فاجأتهم بسوالى:

«من شعرى أو من شعر سواى؟».

«ولم ينسنى مر السنين ، ما بدا عليهم من عجب ، وقد قال أحدهم:

«إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك».

«وأنشدتهم قصيدة لى «فى الحنين إلى دمياط» مطلعها :

«دمياط حبك حركت أشجانه آلام قلب فى الغرام مصفد

ثم أتبعتها أخرى : صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة فى ليل عاصف».

«ولم يبق لديهم ما يمتحنوننى فيه ، فأقبلوا علىّ يسألوننى عن وجهتى فى التعليم بعد نيل هذه الشهادة لكفاءة المعلمات».

«وكان أقصى ما يقف عنده الشوط الذى سرت فيه ، إتمام الدراسة «بالقسم الإضافى فى معلمات بولاق» ومدتها سنتان ، تتخرج بعده الطالبات معلمات فى المدارس الابتدائية أو الأولية الراقية ، على حين لا يتاح لحاملات شهادة الكفاءة إلا التعليم فى المدارس الأولية والإلزامية».

«وأجبت عن سؤال السادة الممتحنين :

«فى نيتى أن أعكف على تحصيل المواد المقررة على القسم الإضافى ، ثم أتقدم من المنزل لأداء امتحانه النهائى».

«فأنكروا ما سمعوا من جوابى ، وزينوا لى أن أعدل عن هذا الطريق القريب ، إلى طريق الجامعة ، ففيها وحدها المجال الرحب الذى يستحق أن أتعلق به وأسعى إليه».

(١٨)

وتعترف بنت الشاطئ أن هذه كانت هى المرة الأولى التى تعرف فيها أن هناك شيئا يستحق الاحترام ، اسمه الجامعة ، فقد كانت معلوماتها المتناثرة عنها أنها ليست إلا كياناً غريباً وأن وجود هذا الكيان فيما سمعته لم يكن إلا مرتبطاً بالزيغ والضلال ، وهى تعبر عن هذا المعنى باستخدام فعل «الرجم» فى محل فعل «الوصف»:

«وفى ظنى أنى لم أكن حتى ذلك اليوم ، قد سمعت عن الجامعة إلا كلمات مبهمة ترجمها بالزيغ والضلال ، ولا تصورت أن هناك علوماً أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر ، وليس فى مكتبة بيتنا غير كتب علوم الإسلام والعربية ، وليس فى بيت جدى بدمياط ، سوى خزانة كتب ومخطوطات إسلامية ، من مخلفات الشيخ الدمهوجى الكبير».

«وإذ فهمت من كلام الأساتذة الممتحنين ، أن الطريق إلى الجامعة يحتاج إلى زاد من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، عجبت بدورى لشططهم فى تقدير طاقتى وعدتى ، وإنى لمن بيئة لم تدنسها كلمة من لغة الفرنجة!».

«وانصرفت ، وليس فى نيتى إطلاقا أن أشغل نفسى بالتفكير فى هذه «الجامعة» التى زينوا لى الاتجاه إليها».

(١٩)

ولكن.. ها هى بنت الشاطئ تبدأ بعد هذا طريقها الحق فى الحياة ، فهى تجمع بين درب التوظف ودرب الدراسة من أجل التقدم للامتحان الأعلى فى القسم الإضافى الذى يبدو لها وكأنه نهاية المطاف ، وهى فى هذه المرحلة لم تبدأ بعد الاقتناع بالطريق الآخر (طريق الجامعة) ، لكنها مع ما كانت قد بلغته من سن متقدمة تواجه أيضا بوالدها وهو يحارب هذا الاتجاه الجديد ـ القديم:

«أتاحت لى أولويتى فى شهادة كفاءة المعلمات ، فرصة اختيار المدرسة التى أعين للتدريس فيها ، وكان من المتوقع أن يرفض والدى احترافى للتدريس رفضاً باتاً ، لكن زملاءه من أصدقاء الأسرة ، تكاثروا عليه حتى أقنعوه بأن الوسيلة الوحيدة التى تجدى مع مثلى ، هى أن يدعنى أجرب مهنة التدريس ، فلن ألبث أن أزهد فيها وأصد عنها باختيارى دون إكراه منه لن يزيدنى إلا شغفاً بالممنوع!».

ونحن نجد ذكاءها يقودها إلى البعد عن مدينتها الحبيبة كى تنجح فى تخطيطها لمستقبلها:

«...وكان يسعدنى أن أعود إلى مدرسة اللوزى بدمياط ، معلمة فيها بعد أن كنت تلميذة بها ، لكنى آثرت العمل فى مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة ، فأقيم فى القسم الداخلى بها ، بمنأى عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ، ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى ، استعداداً للتقدم بعد عامين ، إلى امتحان إجازته».

«وأقبلت من اليوم الأول على التحصيل ، قانعة بالهدف الذى يبدو قريبا منى ، دون أن يساورنى أى طموح إلى الطريق الآخر البعيد ، الذى ألقيت به عمداً فى طوايا النسيان ، كى لا أبدد طاقتى بتطلع عقيم إلى منطقة السراب!».

«ومضى على عملى بالمنصورة عام وبعض عام ، ملأت كل دقيقة منها بالتدريس نهاراً والتحصيل ليلاً. وكنت كلما أجهدنى العمل المزدوج ، روحت عن نفسى بمطالعة كتب من صنف جديد ، غير الذى كان متاحاً لى فى مكتبة بيتنا».

«وأدين «لمكتبة السروى» فى المنصورة بهذا الأفق الجديد الذى فتحته أمامى بأيسر جهد وكلفة ، إذ كانت تتبع أسلوباً مبتدعاً فى تأجير الكتب!».

تشير الدكتورة بنت الشاطئ إلى الأساليب التى كانت بعض مكتبات بيع الكتب فى الأقاليم تأخذ بها فى تسهيل إطلاع القراء على الكتب وإعادتها من دون شرائها.

(٢٠)

ونصل مع الدكتورة بنت الشاطئ إلى مرحلة أخرى من مراحل كفاحها التعليمى ، حين تتأهل بما هو كفيل لها بالاستمرار فى التعليم ، فإذا بالنظم التعليمية المعمول بها فى ذلك الوقت تقف عائقاً أمامها وأمام استمرارها فى التعليم :

«وحان الموعد المحدد رسمياً لتقديم طلب أداء الامتحان لإجازة القسم الإضافى ، فبادرت بإرساله بالبريد المسجل إلى مدرسة المعلمات فى بولاق ، وبينى وبين الامتحان أربعة أشهر تكفى لتثبيت الدروس التى حصلتها.. واستيعاب المواد المقررة».

«غير أنى فوجئت بطلبى مردوداً إلىّ من إدارة المدرسة ، مع الاعتذار عن رفضه بأن اللوائح لا تجيز التقدم إلى امتحان القسم الإضافى من المنزل ، وإنما هو حق للمقيدات فى المدرسة وحدهن».

«ولبثت أياماً وليالى ، أغرى نفسى براحة اليأس وأروضها على الاستسلام».

«لكنى عدت فذكرت ما مر بى من أزمات ، وأطلت التفكير فيما صنع لى «الأستاذ الشيخ موسى قمر» عندما سقطت فى الكشف الطبى بنظارة عمى!».



وتسافر بنت الشاطئ إلى القاهرة هذه المرة بمفردها لعلها تجد حلاً لمشكلتها الجديدة كما وجدت من قبل حلولاً متعددة للمشكلات السابقة:

«وتعلقت به آمالى ، وأنا آخذ القطار من المنصورة إلى القاهرة ، فى إجازة مرضية ، وفى تصورى أننى ما أكاد أصل فى صحبة الشيخ الجليل إلى سعادة مراقب تعليم البنات ، حتى

يأذن لى فى دخول الامتحـان ، بصفة استثنائية ، إن لم تبررها ظـروفى الخاصة ، فلقد يكفى لتبـريرها أنى كنت أولى الناجحات فى شهـادة الكفاءة ، للفوج الذى يوشك على التـخرج من القسم الإضافى».

«لكن الأمر جـرى على غير مـا توقعت : صحـبنى عمى «الأستـاذ الشيخ موسى قـمر» [وهو صديق لـلأسرة ولكن بنت الشاطـئ تعبر عنه علـى نحو ما نعـبر عن أصـدقاء الأب بالعم] إلى سعادة المراقب الذى أصغى إلى قصتى فى عطف واهتمام ، ثم كان الحل البديل الذى اقتـرحه السـيد المراقب ، أن أعـدل عن التمسك بدخـول امتـحان القـسم الإضافى ، وأتقدم بدلاً منه إلى امتـحان الشهادة الابتدائيـة ، وهو مباح لمن شاء أن يتقـدم إليه من طلبة المنازل».

(٢١)

ونحن نرى بنت الشاطئ فى هذه اللحظة وقد تصورت نفسـها على موعد مع القدر فى هذا اللقاء ، فإذا هى تقبل من الرجلين ما عرضاه عليها لتوهما.

«ولـم يدعا لىّ فرصة للتـفكير أو التردد ، إذ كان موعد تقديم طلب الامـتحان ينتهى فى يومنا ذاك ، وأمر سعادة المراقب فجىء لىّ باسـتمارة من ديوان الوزارة ، وجلست فى مكتبه لكى أملأ خـاناتها ، فلما توقـفت عند «اسم التلميـذ باللغة الأوروبية» تطوع أحـد موظفى المراقبة فكتـبه على ورقة مستقلة ، وكـان علىّ أن أنقله إلى «استمارة طلب الامتـحان» كما أنقل الرسم!».

«سألت فى حيرة :

«لكن كيف أؤدى الامتحان فى هذه اللغة ، ولا علم لىّ بأى حرف منها؟»

«وأجاب الشيخ موسى :

«لا بأس عليك ، تستطيعين بشهـادة مرضية تأجيل الامتحـان إلى الدور الثانى فى شهر سبتمبر ، وبيننا وبينه سبعة أشهر تتفـرغين فيها لتعلم القدر المقرر على الشهادة الابتدائية من اللغة الإنجليـزية ، ولست فى حاجـة إلى بذل أى جهد لـتحصـيل بقية العلوم ، بـل تكفيك مراجعة سريعة لمواد الامتحان فى الشهادة الابتدائية».

(٢٢)

ثم تروى لنا بنت الشاطئ بامتنان بعض فضل الشيخ موسى قمر عليها وعلى استكمالها لتعليمها فتقول:

«وبادر ـ رحمه الله ـ فالتمس من سعادة المراقب أمراً بنقلى من مدرسة البنات الملحقة بمعلمات المنصورة، إلى إحدى المدارس الأولية بحى السيدة زينب فى القاهرة، قريباً من مسكن الأستاذ فى شارع الخليج المصرى، كى أمضى فترة الاستعداد للامتحان، مع ابنته «فتحية» التلميذة بالسنة الرابعة بالمدرسة السنية الابتدائية، ومعها أستطيع أن أراجع الدروس المقررة عليها للشهادة، على أن أنفرد بدرس خاص فى اللغة الإنجليزية».

«ولم تمض أيام حتى كنت قد أتممت إجراءات النقل من المنصورة إلى القاهرة، واستقر بى المكان فى ضيافة أسرة الشيخ موسى قمر، وفى صحبة ابنته الصديقة العزيزة. وقد ألزمت نفسى فى درس اللغة الإنجليزية، حفظ قدر معين من مفرداتها يومياً، وفى حسابى أننى كلما تزودت بقدر كاف من مفرداتها، أمكننى التصرف فى الإجابة عن أسئلة الامتحان، بما تهيأ لى من قدرة على الإنشاء!».

تتأمل بنت الشاطئ نفسها فى هذه اللحظة وقد أصبحت تسير على الطريق الآخر، الطريق الذى انتهى بها إلى ما نعرفه جميعاً، وقد جاءت أولى خطواتها على هذا الطريق أقرب إلى المصادفة:

«... وهكذا اتجهت، عن غير قصد، إلى ذلك الطريق الآخر البعيد الذى سمعت عنه لأول مرة فى طنطا منذ عامين، من أعضاء لجنة الامتحان الشفهى لشهادة المعلمات، فصرفت عنه بالى وقتئذ، يأساً من إمكان الوصول إليه».

«ثم لما وجهت إليه، لم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته، يسير فى اتجاه مواز لا يلتقى أبداً مع الطريق الموصل إلى الجامعة، عبر المرحلة الابتدائية فالثانوية».



وتعترف بنت الشاطئ بأنها لم تكن تدرك فى ذلك الحين حقيقة الآثار السلبية لهذا الازدواج التعليمى الذى كان الوطن يعانى منه:

«ولا أظن أننى التفت فى تلك السن الغضة ـ مع ضآلة خبرتى وتجربتى، وبعدى عن الحياة العامة ـ إلى لوم ذلك الوضع الثنائى للتعليم، بل لم ألتفت كذلك إلى دعمه الطبقية

الاجتماعية والاقتصادية بطبقية عقلية وفكرية ، تجعل المقدرة المالية وحدها جواز المرور عبر المراحل الابتدائية والثانوية والعالية ، وتتفاوت بها حظوظ أبناء الأمة وفرص تعليمهم ، ومجال عملهم بعد التخرج ، تفاوت ما بين الإقطاعيين والأجراء».

«ذلك لأنى ما قصدت إلى دخول مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، بعد أن صدتنى التقاليد عنها وانتهى بى موقف والدى إلى اليأس منها. كل الذى شغلنى هو تحصيل المقررات المدرسية على كل مرحلة ، ثم التفكير فى وسيلة أتسلل بها إلى لجان الامتحان للمراحل الموصلة إلى الجامعة ، كما فعلت فى طريقى الأول».

«هنالك أدركت أن المناهج التى درست عليها ، سواء منها ما تلقيته فى بيتنا على أبى وزملائه المشايخ ، وما حصلته باجتهادى من مواد الدراسة لكفاءة المعلمات والقسم الإضافى ، كانت قد فصمتنا تماماً عن الثقافة العصرية المتاحة لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ، كما حصنتنا ضد جرثومة لغات الفرنجة وزيغ العلم الحديث ، فبلغت أقصى الشوط فى طريقى الأول من الكتاب والمدرسة الإسلامية إلى المدرسة الأولية والراقية ، فمدرسة المعلمات والقسم الإضافى ، ولم أعرف حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، ولا شاهدت أى جهاز من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ العصريون دروسهم العملية فى الطبيعة والكيمياء ، ولا كان لى ولا لأمثالى ممن أخذوا طريق التعليم الأولى ، عهد بكتاب من كتب العلوم الحديثة التى كانت محرمة على غير من يأخذون الطريق إلى الجامعة!».

(٢٣)

وتتبلور أمام عينى بنت الشاطئ هذه المعانى المتعلقة بالسياسة التربوية بوضوح شديد حين تروى كيف أتيح لها بالصدفة فقط أن تجتاز اللغة الإنجليزية :

«كنت قد جازفت ـ بعد قياس مستوى تلميذات المدرسة السنية الابتدائية ـ فدخلت امتحان الدور الأول للشهادة ، وأديت امتحان اللغة العربية والحساب والجغرافيا والتاريخ ، واثقة من أن إجاباتى فيها تعطينى درجاتها النهائية ، بحيث يكفينى بعد ذلك ـ وقد ضمنت تجاوز الحد المقرر لمجموع الدرجات ـ أخذ أدنى درجة للنجاح فى اللغة الإنجليزية».

«وإذ كانت الفترة القصيرة التى تعلمتها فيها ، لم تكف لاستيعاب قواعد اللغة (الجرامر) والإملاء ، وضعت أملى كله فى موضوع الإنشاء ، اعتماداً على قراءتى لكتاب «السندباد البحرى» المقرر علينا ، واطمئنانى إلى إمكان إجابتى عن أى سؤال فيه».

«وجاء سؤال الإنشاء ، يطلب إلينا كتابة عشر جمل فى «كيف نجا السندباد من وادى الأفاعى؟» فألفيت الموضوع سهلاً ، غير أنى لم أكد أمضى فى كتابة جملة وثانية ، حتى توقفت بغتة ، أحاول عبثاً أن أتذكر كلمة «نسر» بالإنجليزية!».

«والنسر هو بطل ذلك الفصل كله من قصة السندباد ، بحيث كان من المستحيل أن أستغنى عن ذكره ، فى ست جمل أو سبع من العشر المطلوبة».

«وهممت بمغادرة قاعة الامتحان ، وقد رسخ فى بالى أن الله سبحانه لا يريد لىّ أن أمضى فى ذلك الطريق!».

«وفيما أنا ألقى بقلمى الرصاص من يدى فى حركة يأس وقنوط ، وقع بصرى فجأة على صورة نسر مبسوط الجناحين مرسوم على قلمى ، فما تمالكت أن هتفت فى دهشة وفرح :

«وجدتها!»

«وجدت كلمة نسر ، محفورة بالإنجليزية تحت صورته ، على قلمى!».

«وأقبلت على ورقة الإجابة أكتب الجمل العشر ، وفى يقينى أن الله معى.. على الطريق».

على هذا النحو تروى بنت الشاطئ كيف تهيأت لها معرفة «المفردة» اللغوية الإنجليزية التى كانت فى حاجة إليها للنجاح ، بعد أن أوشكت على اليأس من المعرفة فإذا بهذه الكلمة مكتوبة من حيث لا تدرى على القلم المصاحب لها فى الامتحان ، وهى تروى كل هذا بروح الإيمان بالله ، وقدرته على توفيق من يشاء.

(٢٤)

ويتأكد هذا المعنى حين نقرأ مع صاحبة هذه المذكرات قصتها فى امتحان العام التالى مع علم الطبيعة وكيف رسبت فيه:

«فمن بين الأسئلة المطلوب الجواب عنها ، فهمت سؤالاً واحداً فحسب ، وقدرت أنه يكفينى لأنجح به ، لو أنى أجبت عنه إجابة صحيحة كاملة ، تعطينى درجاته الست ، الحد الأدنى للنجاح فى المادة!».

«كان السؤال عن :

«طرق نقل الحرارة ، مع ذكر خاصية الترمس فى حفظ الحرارة».

«وأجبت عن الشق الأول ، بما حفظته عن ظهر قلب من كتاب الطبيعة ، عن: الحمل والإشعاع والتوصيل ، ثم وقفت عند الشق الثانى ، لا أفهم ما دخل الترمس ـ وقد حسبته البُقل (مفرد البقول) المعروف ـ فى سؤال عن الحرارة ؟».

«وسألت مراقب اللجنة عما إذا كان هناك خطأ مطبعى فى الكلمة؟».

«فأجاب فى حسم : وحينئذ استنتجت أن أهل العواصم والمدن الكبرى قد يستخدمون الترمس فى ترطيب المياه الحارة ، على نحو ما قرأت عن استخدام الحصى ونوى المشمش لتنقية المياه العكرة!».

«ولم أتردد فى الإجابة بهذا الاستنتاج الذى هدتنى إليه فطنتى!».

«وأيدته بالمشهود المألوف ، من حرص باعة الترمس فى (عصارى الصيف) على رص قلل المياه فوق عرباتهم ، اجتذابا (للزباين) بجرعات هنية من ماء رطبه الترمس ولطف من حرارته!».

«وخرجت من قاعة الامتحان ، وأنا لا أشعر بأى قلق مما أجبت ، إلى أن سألتنى إحدى الزميلات عن موضع اشتباهى فى كلمة «الترمس» التى سألت عنها مراقب اللجنة؟».

«ولم يفتنى أنها نطقتها بضم الميم ، فحسبتها كذلك لهجة قاهرية! وقلت لها إننى لم أكن أعلم أن الترمس ـ بكسر الميم ـ يستعمل فى المدن لتلطيف الحرارة!».

«صاحت الزميلة فى دهشة :

«أى ترمس؟ إنما السؤال عن هذا الترمس!».

«وأشارت إلى اسطوانة معدنية فى يدها ، ثم فتحتها وصبت لى منها جرعة من شراب الليمون المثلج!».

«ولم أكن شاهدت من قبل هذا الترمس ، ولا سمعت عنه قط».

«سألتنى الزميلة «تحية ماهر» :

«ففيم إذن تعملون الشراب فى الرحلات الطويلة؟».

«قلت وأنا أذكر متاع أبى فى رحلته السنوية إلى الحرمين الشريفين:

«فى الزمزمية!».

«ولم أصدق أن الشراب المثلج الذى قدمته إلى من ترمسها ، قد بقى فى حر يونية ، من مطلع الشمس إلى الظهيرة القائظة ، لكن الزميلة أضافت ، إنه لا يحتفظ بدرجة البرودة فحسب ، بل يحتفظ كذلك بدرجة الحرارة للشراب الساخن ، لمدى يوم كامل!».

«وتطوعت «تحية» بإعارتى الترمس إلى اليوم التالى ، لأجرب بنفسى خاصيته فى حفظ الحرارة!»·

«أنسانى العجب ، سوء موقفى فى الامتحان وما يحتمل من رسوبى فيه، وقضيت بقية نهارى وأكثر ساعات الليل ، أمام الترمس أجربه على سوائل متفاوتة فى درجة حرارتها ، وأنا أعتقد أنه جهاز مسحور!»·

«حتى إذا استيقنت من عجب خاصيته فى حفظ الحرارة ، تذكرت بغتة إجابتى المضحكة ، فتعللت بأن لجنة التصحيح سوف ترأف بى وتجبر درجتى فى الطبيعة إلى الحد الأدنى للنجاح ، إذا ما تجمعت فى كشف الرصد ، درجاتى فى المواد الأخرى ، وأكثرها يصل إلى النهايات الكبرى أو قريب منها!»·

«وبهذا التعلل ، استطعت أن أكمل ما كان باقياً من مواد الامتحان!»·

(٢٥)

وتبدأ بنت الشاطئ فى رواية مرحلة جديدة من حياة الفتاة ـ التى كانتها ـ حيث يتاح لها أن تبدأ تسلك طريقها الطويل إلى التحضر الحقيقى:

«وعشت على هذا الأمل حتى ظهرت نتيجة الامتحان ، وقد رسبت فى الطبيعة ، ولى حق إعادة الامتحان فيها بالدور الثانى ، لارتفاع درجتى فى المجموع»·

«وأديته فى شهر سبتمبر التالى ونجحت فيه ، لأروع بعد نجاحى بشائعة تناقلتها الزميلات ، عن احتمال إلغاء امتحانى جملة ، لأنى تقدمت إليه بعد عام واحد من نيل الشهادة الابتدائية ، والمدة المقررة بمقتضى اللوائح ، لا يجوز أن تقل عن ثلاث سنين!»·

«وأسرعت إلى ديوان وزارة المعارف ، أستعدى «سعادة مراقب تعليم البنات» على هذه اللائحة الظالمة التى لا يحل فى رأيى ، أن تطبق على تلميذة مثلى تحمل شهادة الكفاءة للمعلمات وتمارس بها التدريس فى مدارس الوزارة. وكنت قد عرفت الطريق إلى سعادة المراقب ، فى أزمتين سابقتين!»·

«وفى مكتبه بالوزارة ، وجدت عدداً من رجال التعليم ، لم يكادوا يسمعون قصتى حتى راحوا يتندرون ، بحكاية «الترمس» التى كانت فكاهة الموسم فى لجان تصحيح الامتحان!»·

«ورب ضارة نافعة!».

وتفسر الدكتورة بنت الشاطئ استشهادها بهذه العبارة فتقول:

«لقد كشفت هذه الفكاهة للأستاذ المراقب عن المشقة التى أكابدها فى عبور الطريق التعليمى ، فبادر من فوره وأمر بنقلى من وظيفة معلمة بالمدارس الأولية ، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات للجيزة ، وتفضل فاتصل بالكلية تليفونياً ، ليوصى ناظرتها السويدية «مدام برج» بتدريبى على اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وإتاحة الفرصة لى ، لدخول المعمل فى بعض ساعات فراغى من العمل. كما تم ترتيب إقامتى بالقسم الداخلى فى الكلية ، مقابل مشاركتى فى الإشراف على عودة الطالبات الخارجيات إلى بيوتهن فى سيارة المدرسة».

وعملت «مدام برج» بالوصية: فبدأت فى التحدث معى من اليوم الأول باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ولم يكن سبق لى أن عرفت أى أجنبى أو تحدثت إليه!».

«ثم كان أول ما عهدت إلى به من العمل ، كتابة خطاب رسمى باللغة الإنجليزية ، فى بعض الشئون الإدارية. فلما حملته إليها وأنا أتوقع أن أحظى بإعجابها لتفننى فى الإنشاء ، لم تزد على أن شطبت بقلمها الأحمر ، على كل ما أنفقت يومى فى كتابته ، وردت الخطاب إلىّ ، آمرة أن أكتبه فى سطرين اثنين!».

«وزادت فاستدعت سكرتيرة الكلية «مس فريدة قربان» وعهدت إليها فى أن تهذب من ملبسى شبه الريفى ، وتدربنى على أنماط السلوك فى الحضر ، لأتكيف مع الوسط العالى للكلية».

«ومضت بى «مس قربان» إلى حجرتى الخاصة ، فأمرتنى فوراً بانتزاع «المشط البراق» الذى يمسك شعرى أن يرسل. ثم فتحت خزانة ملابسى فاختارت منها ثوباً قطنياً بسيطاً كنت أنوى ألا أرتديه إلا فى ساعات خلوتى ، وقالت إنه وحده الذى يناسب الكلية ، دون ثيابى الأخرى التى تفننت خياطتنا بدمياط فى حياكتها وزخرفتها!».

«على أن الموقف لم يبلغ ذروته من القسوة ، إلا حين دعتنى «مس قربان» لتناول وجبة الغداء فى مطعم الكلية الأنيق الفخم ، حيث بهرنى البريق الساطع من أدوات المائدة الفضية والبللورية. ولم أكن حتى ذلك اليوم ، قد استعملت فى تناول طعامى أدوات عصرية ، ومن ثم اعتذرت عن عدم الأكل بوعكة صحية طارئة ، تحرجاً من ارتباكى فى استعمال أدوات المائدة ، وإشفاقاً على ميزانيتى الضئيلة ، من ثمن ذلك الطعام الغالى!».

(٢٦)

ثم ها هى بنت الشاطئ بعد كل نجاحاتها الدراسية والتحصيلية تواجه على حين فجأة بمشكلة من نوع جديد وهى مشكلتها مع التعامل مع أدوات المائدة ومع تناول الطعام بطريقة أخرى غير تلك الطريقة التى تعودت عليها ، وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية السامقة التى وصلت إليها بنت الشاطئ ، فإنها لا تجد أى حرج فى أن تروى تفصيلات هذه «المشكلة البروتوكولية» التى واجهتها فى بداية حياتها الجديدة وكيف أنها عانت من هذه المشكلة حتى أذن الله لها بالفرج:

«... وأقمت على ذلك نحو أسبوعين ، لم أذق فيهما طعام الكلية ، وإنما اكتفيت ببعض شطائر من الفول والطعمية والجبن ، تعودت أن أتزود بها فى طريق عودتى بعد توصيل التلميذات بسيارة المدرسة ، حيث كنت أتخلف ساعة فى منزل الشيخ موسى قمر ، لتلقى درس فى اللغتين الإنجليزية وآخر فى الفرنسية ، قبل أن آخذ طريقى إلى الكلية سيراً على قدمى ، من شارع الخليج إلى كوبرى قصر النيل فكوبرى بديعة ـ الجلاء ـ توفيراً لستة مليمات يتكلفها ركوب الترام».

«حتى استرابت «مس قربان» فى إصرارى على عدم تناول الطعام بالكلية ، مع ما يبدو من سلامة صحتى! وتطوعت فعرضت على أن تقدمنى إلى «مسز جارفس» كبيرة الطبيبات ، فى زيارتها الدورية القادمة للكلية!».

وأحسست كأن عقرباً لسعنى!».

«فما كنت قد نسيت قط صرامة موقفها منى فى الكشف الطبى ، ولعلها لو رأتنى موظفة فى الكلية ، لأمرت بفصلى فوراً من الخدمة!».

«ولم أجد أمامى سبيلاً إلى الفرار من «مسز جارفس» واتقاء مواجهتها ، إلا أن أصارح «مس قربان» بأن الجنيهات الستة التى أتسلمها مرتباً شهرياً ، يستهلكها حتى آخر مليم منها ، ثمن الكتب وأجر الدروس الخصوصية فى اللغتين الأوروبيتين. أما المبلغ الضئيل الذى تقتطعه أمى من مصروف البيت لتعيننى به ، فلا يكاد يقوم بالزاد البسيط الذى أتبلغ به ، فضلاً عن خجلى من الجلوس إلى مائدة الطعام بالكلية ، وليس لى أدنى خبرة باستعمال أدواتها الفاخرة».

«وكان الرد العجيب أن موظفات الكلية لا يدفعن أى أجر لما يتناولن من طعام! وأما

مسألة استعمال أدوات المائدة فيحلها أن نتناول طعامنا فى غير المواعيد المحددة للطالبات ، إلى أن يتم مرانى على الطريقة العصرية لتناول الطعام وسلوك المائدة!».

«وأحسست بفرحة الفرج بعد الضيق ، تشوبها حسرة على ما فاتنى من غذاء شهى وسخى ، طوال الأيام التى عشت فيها على الفول المدمس والطعمية والجبن القريش!».

(٢٧)

وهكذا تواصل بنت الشاطئ تعليمها وعملها من خلال كفاح شديد تضطر فيه إلى العمل فى الصحافة مبكراً جداً على نحو ما يعرف القراء ، وتعبر عن هذا العناء كله وتقول :

«وفيما كنت أمارس هواية الكتابة ، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وعبء تحرير «مجلة النهضة النسائية» وإدارتها ، تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا ، وتقدمت لامتحانها من المنزل».

«وهكذا مشيت على الدرب الوعر ، فكلما قطعت شوطاً منه تقدمت إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستى كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لى ، وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية واللوائح المدرسية ، التى أقامت الحواجز والسدود ، فى طريق مثلى ، إلى الجامعة!».

«حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب ، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة ، إلى باب الجامعة أحمل شهادة (البكالوريا أدبى) التى ظفرت بها صيف عام ١٩٣٤ ، مع قلة من الناجحين: من منازلهم».

(٢٨)

وعند هذا الحد تبدأ صاحبة هذه المذكرات تفكر بصورة جدية فى الالتحاق بالجامعة بعدما أصبحت مؤهلة لهذا الحلم بحصولها على شهادة البكالوريا :

«... وهناك ألفيت الباب موصداً فى وجهى بقضبان من فولاذ!».

«كنت على يقين من استحالة دخولى الجامعة طالبة منتظمة ، كى لا أبوء بلعنة من غضب والدى الذى ما شككت فى أنه (سوف) يبرأ إلى الله منى لو فعلتها!».

«لكنى طمعت فى أن ترق الجامعة لحالى بعد أن تسمع حكايتى ، فتأذن لى فى تحصيل مقررات قسم اللغة العربية ، على أن أؤدى تباعاً كل عام ، امتحان السنوات الأربع لدرجة الليسانس».

ولكنها تفاجأ بأن اللوائح الجامعية لا تعترف بنظام الانتساب! :

«وهؤلاء هم حراس اللوائح ، يتبسمون ضاحكين من قولى ، ويتندرون بسذاجتى التى ابتدعت فكرة التقدم للامتحانات الجامعية (من منازلهم)!».

ولمدة عام كامل ، بقيت واقفة تجاه الباب الموصد لا أتزحزح ولا أريم!».

«لم يكن قد بقى لى إلا أن أنكص على عقبى وأكر راجعة من حيث أتيت».

«لكنى لم أفعل!».

«فهل كان إصرارى على الوقوف هروباً أحمق ، من مواجهة صدمة الخيبة بعد كل الذى كابدت؟».

«أو كان استجماعاً لقواى ، تأهباً للجولة الجديدة فى المعركة ، بعد أن أجهدتنى الجولات السابقة».

«لم أكن أدرى على وجه اليقين».

«وإن أحسست أن هناك قوة خفية وراء أبعاد المنظور ، تقيدنى إلى ذلك الباب الموصد ، وتحول بينى وبين طريق الرجوع!».

(٢٩)

وتكتفى صاحبة المذكرات من حديثها المنتظر عن تهيبها لقائها الأول بالشيخ أمين الخولى بعبارات قصيرة لكنها ، لحسن الحظ ، تحمل كل المعانى التى تريد أن تعبر عنها وعن شعورها بها:

«... وأجهدتنى الحيرة ، فانقطعت عن مجلس أبى فى الأمسيات ، حيث كنت أقرأ عليه الكتب الأمهات فى التفسير والحديث».

«وانقطعت كذلك عن رحلتى اليومية كل صباح إلى دار «الشيخ دسوقى جوهرى» فى

أقصى الطرف الشمالى الغربى للقرية ، وقد كنت أسعى إليه لأقرأ عليه أمهات كتب البلاغة».

«ثم لم أجد مخرجاً من حيرتى ، إلا أن أفضى بهمومى إلى الشيخ الجليل ، وقد كان لى ـ رحمه الله ـ المعلم الصديق ، والمستشار المؤتمن ، والراعى الأمين».

«وهناك فى حديقة داره الخلوية على حافة الحقول المنبسطة إلى مد البصر ، جلست أشكو إليه ما أجد من حيرة وتردد ، بين الصدود عن الجامعة والزهد فى درجتها العلمية بعد أن عبثت الحزبية بكل ما بقى لها من حرمة ، وبين حرصى على لقاء أستاذ هناك ، أعتقد أن تجربتى مع الجامعة لا يحسمها إلا أن ألقاه».

«وبدأت أقص على شيخى بعض ما يتناقل الطلاب من حكايات ونوادر ، عن علم الأستاذ الخولى وقوة حجته وجبروت عقله وشخصيته ، فهز الشيخ الجليل رأسه وهو يقول بصوته الهادئ العميق:

«أعرفه يا ابنتى ، وإنك لجدير بالتلمذة عليه!».

«وقبل أن أهتدى إلى صيغة متواضعة لا تنم عن غرورى ، أسأله بها عما عسى أستاذ محدث أن يقدمه لمثلى فى علوم العربية والإسلام ، مضى الشيخ الجليل يحدثنى عن أمله الكبير فى أن أشارف الآفاق الرحبة لمنهج الأستاذ الخولى فى تجديد الفكر الدينى ، وتحرير العقل الإسلامى من أغلال الجمود والتقليد التى تخنق حيويته وتعطل انطلاقه مع الزمن!».

«سألت فى عناد :

«كذلك فعل الأئمة من السلف الصالح ، وآخرهم الإمام الشيخ محمد عبده ، فهل من جديد يضيفه المحدثون؟».

«وكان جوابه :

«أجل يا ابنتى! وكذلك تتتابع الأجيال على تلقى الأمانة الصعبة ، فيسير كل جيل من حيث انتهى سلفه ، دون أن يتجمد الفكر الإسلامى عند الذى وصل إليه جيل مضى!»

ثم استطرد يقول متمهلا :

«ولكن فيم تعجلك بالحكم؟ هلا انتظرت حتى تلقى الأستاذ الخولى ، وسوف يشوقنى أن أسمع حديثك عنه بعد أن تحضرى درسه ، فقد كان آخر عهدى به ، يوم انتقل من التدريس بمدرسة القضاء الشرعى ، إلى المفوضية المصرية فى روما ، إماماً لها!».

«وصكت الكلمة مسمعى ..».

«انتقل إلى روما ؟».

«العاصمة الدينية لبلاد الفرنجة ، أعداء العرب والإسلام؟».

«كيف خيل إليّ الوهم أن هذا الأستاذ ينتمى إلى مثل بيئتى ، وبينه وبينها تلك الهوة السحيقة؟».

«كيف تصورت أنى عرفته قبل أن ألقاه ، وإنى لمن قوم يتقربون إلى الله بلعن الفرنجة الذين عاش بينهم وخالطهم؟».

«وعدت أسأل شيخى فى إنكار :

«ومن روما تزود ببضاعة الفرنجة ، ليجدد بها الفكر الإسلامى؟».

«فتبسم ضاحكاً من قولى وأجاب معقباً :

«وإلى بلاد الفرنجة سافر الإمام الشيخ محمد عبده ، وفيها عاش. وفى بلاد الفرنجة تعلم ولدى محمود - الدكتور محمود فوزى عميد وزراء الخارجية - وفى روما نفسها ، كان يعمل قنصلاً للمفوضية المصرية مع الأستاذ الخولى إمامها ، بعيداً عن ديار الإسلام!».

(٣٠)

أما حديث بنت الشاطئ عن اللقاء نفسه ، اللقاء الأول بين الحبيبين أو بين المحب وبين مَنْ أراده حبيبا فيبدو لنا وكأنه قد حدث لتوه وكأنها ما تزال تستعيد المشاعر المتضاربة التى غذت نفسها فى تلك اللحظات ما بين تهيب وتشوق ، وهى لا تزال سعيدة باللقاء حريصة على أن تستعيد ذكراه ، مع أن الرجل قد رحل:

«من بعيد ، «أقف عند نهاية المطاف أستجدى الزمن رجعة إلى الأمس السعيد الذى ولى وراح»

«وأتسول غفوة حالمة تحملنى إلى حيث أفضى بى المسعى إلى دربه ، فى يوم ميلاد لى جديد!».

«هناك ..» «حيث أخذت مكانى فى قاعة الدرس بالجامعة ، متحفزة للجولة الباقية لىّ على الطريق ، ومستجمعة كل رصيدى المتضخم من زهو الطموح وإرادة التفوق ، ومتأهبة لعرض بضاعتى التى تزودت بها من مدرستى الأولى ، فى تحد واثق من النصر».

«ودخل «الأستاذ الخولى» بسمته المهيب المتفرد ، فألقى علينا التحية واقترح ، لكى نتعارف ، أن يعرض علينا مباحث المادة المقرر علينا درسها من علوم القرآن ، ولكل طالب أن يختار مبحثاً منها ، يعده ويعرضه للمناقشة فى الوقت الذى يحدده».

«وبادرت فأعلنت اختيارى للمبحث الأول ، فى «نزول القرآن»».

«وعندئذ سرت فى القاعة همهمة ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء ، فتوقعت أن يحسمها الأستاذ بالمشهور من جده وصرامته ، لكنه لم يلق إليها بالا ، واستطرد يعرض بقية المباحث ، وأنا أتشاغل عن غيظى المكظوم ، بالتفرج على عدد من الزملاء فى صراعهم المكشوف على المباحث الأخيرة ، إرجاء للموقف الصعب».

«وعاد الأستاذ يسأل كل طالب منا ، عن الوقت الذى يحتاج إليه فى إعداد بحثه ، فأجبت فى عناد وشموخ:

«يكفينى يوم أو بعض يوم!».

«قال فى نبرة إشفاق وتحذير :

«كذا!؟ فكرى ملياً ، فربما بدا لك أنك فى حاجة إلى مزيد من الوقت».

«وأبيت أن أتراجع!».

«ولماذا أتراجع ، ومبلغ علمى أن المادة مبذولة جاهزة ، ومصادرها الأصلية فى متناول يدى ، فلن يحتاج الأمر معى إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة ، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!».

«ولم يفتنى أن الأستاذ يرانى تورطت فى هذا التعجل ، فكأنى خشيت أن يأخذ عنى فكرة خاطئة ، فقلت أسأله مدلة [أى فخورة] بما أملك من ذخائر علمه:

«هل يكفى أن أراجع فى موضوعى كتاب «البرهان» للبدر الزركشى ، وكتابى «الاتقان ، واللباب» للجلال السيوطى ، مع الاستئناس بالسيرة الهشامية ، وطبقات ابن سعد ، وتفسير ابن جرير الطبرى؟».

أجاب :

«كتاب واحد منها يكفى الآن ، لو أنك عرفت حقاً كيف تقرئين!».

(٣١)

عند هذه اللحظة تبدأ صاحبة المذكرات إحساسها بالصدمة ، الصدمة التعليمية الحقيقية التى جعلتها تفيق وتتحول من طريق التحصيل إلى الطريق الذى كان لابد لها أن تمضى فيه ، وهو طريق التفكير:

«وكان هذا ، آخر ما توقعت أن أسمع!».

«ألمثلى يقال ذلك ، وما من كتاب من أصول العربية والإسلام يعيينى أن أقرأه؟».

«وكبحت غضبى وأنا ألتمس للأستاذ العذر ، فلعله يتصور أننى كغيرى من الطلاب ، وفيهم حقاً من لا يعرف كيف يقرأ!».

«ما ذكرت هذه الكتب إلا لأنى قرأتها واستوعبت ما فيها ، وإنما كان سؤالى عن مصادر أجنبية ، ظننت أن الأستاذ قد يضيفها إلى مراجعى!».

«فما زاد على أن قال :

«لو أدركت الفرق بين المصادر والمراجع ، لما تورطت فى مثل هذا السؤال المنكر!».

(٣٢)

على هذا النحو تصل بنت الشاطئ إلى ذروة «الصدام» المحبوب فى لقائها بأستاذها ، وهو اللقاء الذى تترجم بعد هذا مباشرة إلى العلاقة الرائعة التى بدأنا بتحليلها فى حديثنا فى هذا الباب ، وها نحن نراها وقد روت بعض ما مرت به فى حياتها الأولى من جهاد علمى ومدرسى واجتماعى ، وكأن كل هذه المعاناة لم تكن إلا طريقاً للوصول إلى الحبيب! أى إلى هذا الأستاذ الذى استنكر عليها ألا تعرف الفرق بين المصدر والمرجع.

فهل لنا الآن بعد كل هذا الطريق أن نتأمل فيما ترويه بنت الشاطئ عن المكونات الأخرى لوجدانها الثرى!

الحق أن بنت الشاطئ كانت حريصة على إبراز دور الميتافيزيقيات فى هذه الحياة فى جميع مراحل حياتها ، وهى على سبيل المثال تحكى عن رؤيا رأتها فى إحدى ليالى صباها فتقول:

«غير أنى عندما أويت ليلتها إلى فراشى ، رأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة ، وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكانى ، ويعطينى لفافة خضراء ثم يحلق عالياً فى السماء. ولما فتحت اللفافة ، وجدت فيها مصحفاً شريفاً لم تكن عينى قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء!».

«وكنت بحكم نشأتى فى بيئة بحرية نهرية تموج بالأساطير وتجسم تهاويل الخيال ، ثم بحكم بنوتى لشيخ متصوف يعد الرؤيا الصادقة من علامات صفاء البصيرة وإشراق الوجدان. أقول: كنت بحكم ظروف نشأتى وبيئتى ، أنفعل بالأحلام وأتأثر بالرؤى ، فلما صحوت من نومى ، أدركت عن يقين أن حياتى كلها مرتبطة بهذا المصحف ، هدية السماء إلىّ فى رؤياى».

«ومن يومهـا ، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ العلماء ، وصـار مكانى المفضل فى خلوة أبى بجـامع البـحر ، أحـاول أن أسبق عـمرى وأتجـاوز القـدر المدروس لى من علوم الإسلام».

«ومن رؤيـا الصـبا هذه ، امـتد الخـيط غيـر المرئى ، بين ذلك الشـوط الأولـى على شط النهر ، وبين ما انتهى إليه طريقى العلمى من تلمـذتى للأستاذ أمين الخولى ، وتخصصى فى دراسة النص القرآنى ، على منهجه».

«أقـول هذا وأنا أتمثل نفـرا من قومـى ، يهزون رءوسـهم حين يسـمـعون مـا أروى من حديث رؤياى ، استنكاراً لتأثرى بحلم عابر فى منام صبية لم تكمل العاشرة من العمر».

«ولعلهم لو نشـأوا فى مثل بيئـتى ، وتلقوا مـا تلقيتـه من ميـراثها النفسى والـعقلى ، لما أنكروا من الأمر شيئا».

«ومن عجب أنـهم لا يستغـربون قصـة أجنبية تقـوم عقـدتها على رواسب فى أعـماق الذات من عهد الطفولة».

«وإنهم ليقـرأون بشغف وتقدير ، بحوث علمـاء النفس المحدثين فى الأحلام وبواعـثها وآثارها وأصدائها وظلالها ، حـتى إذا قالها قائل منا ، من صميم واقعـه ، عجبوا وتندروا ، ناسين أننا بشر ، قد يغلب أثر الرؤيا فينا ، حكم الواقع».

(٣٣)

وفى موقف آخر تعود صاحبـة هذه المذكرات إلى الاعتراف أو الإقرار بدور هذه القوى الخارجية فى تشكيل وجدانها وإحساسها بالتوفيق فى خطوات حياتها:

«ففى استعدادى لامتحان الشهادة الثانوية ، قسم أول ، عام ١٩٣٢ ، أفرغت جهدى فى تحصيل المقرر علينا من دروس الإنجليزية والفرنسية ، وكتب الطبيعة والكيمياء».

«وسرقنى الوقت فغـفلت عن إحضار كتاب «تاريخ أوروبا الحـديث» المقرر على السنة الثالثة الثانوية ، ولم أنتبه إلى ذلك حتى افتقدته قبيل الامتحان».

«ولم يكف الوقت لاستيعاب كل ما فى الكتاب ، فـساورنى ليلة امتحان التاريخ شعور بالقلق ، لم أملك حياله إلا أن أفوض أمرى فيه إلى الله تعالى».

«وأخذتنى سنة من نوم ، فرأيت فـيما يرى الحالم أننى فى قاعة الامتـحان أقرأ من ورقة التاريخ ، أول سؤال فيها عن «مارتن لوثر وحركة الإصلاح الدينى».

«وصحوت مـن غفوتى ، فـلـم أتردد فى مـراجعة هذا الـفصل الذى كـان قد فاتنـى من الكتاب ، واثقة كل الثقة أن الامتحان فيه».

«وحين وزعـت علينـا أسئلة الـتاريخ فى الـصباح الـتالى ، لم أعـجب لصدق الـرؤيا ، وازددت يقيناً بأن الله معى.. على الطريق».

(٣٤)

ولابد لنا فى نهاية هذا الباب من كتابنا أن نعرض للقارئ قصة اختيار صاحبة المذكرات لاسمها الجميل الشهير الذى عرفت به طيلة حياتها:

«... فى تلك الأيام على التحديد ، عندما بدا لـىّ أن أتجاوز لقلمى نطاق المجلة الشهرية المحدودة التوزيـع ـ حيث لا احتمال لأن تصـل إلى محيط والدى والأسرة ـ إلـى الصحف اليومـية والمجلات الكبـرى ، فكرت فى الـتستر وراء اسم مـستعار ، لئـلا يعلم أبـى بالأمر فيغضب وينـكر ويصدر قراراً يحرم فيه علـىّ مكاتبة الصحف والاتصال بـها ، وذلك ما لم تكن تقاليد البيئة والجيل تسوغه لحريم العلماء!».

«ولم يطل بى التفكير فى اختيار الاسم المستعار ، بل كان أول ما خطر على بالى هو أنى أنتمـى إلى الشاطـئ ، مهد مولـدى وملعب طـفولتى ومـدرج حداثتى ومـجلى تأمـلاتى ، والمسرح الذى شهد مأساة فاجعة قيدتنا إليه بقيود لا فكاك منها».

وهكذا اختـارت عائشة عبد الرحـمن لنفسها هـذا الاسم الجميل الذى ظلـت تعرف به طول العمر «بنت الشاطىء».

«وإن كنت تعلمت من ذلك الدرس القاسى الـذى ألقاه على ، أن أتحاشى التفاصح فى القرية ، وأتجنب التشدق بالألفاظ الفخمة التـى لا تدور على ألسنة القوم هناك ، كيلا يظنوا بى أنى أتعالم عليهم وأغض من أميتهم!».

«بل لقد تعمدت كذلك أن أتكلم بلهجة ريف المنوفية ، كى أتقى سماع عبارة «ما نابك من غربتك إلا عـوج ضبنك» ، بما تثير فى وجدانـى من إحساس بجرح انتمائـى إلى البلدة الجميلة الطيبة».

«وإذا كنت قد حرمت فى القرية ، من يومئذ ، لـذة الزهو بما حصلت من مبادئ العلم ، فقد بقـى لى فى دمياط مجـال الزهو بما أتيح لى دون لـداتى وصواحبى ، من حـفظ القرآن الكريم والحديث الشريف والمدائح النبوية والأناشيد الصوفية».

مذكرات المرأة المصرية

الثورة والحرية

2

سيدة من مصر

للسيدة جيهان السادات

دار الخيّال

(١)

أتيح للقارئ العربى بهذا الكتاب أن يقرأ للسيدة جيهان السادات بعض ما كان يود قراءته لها ؛ لا سماعه عنها منذ زمن بعيد ، وهذه هى السيدة الأولى التى لم تُسبق إلى ما سبقت إليه فى عصرنا الحديث ، والأولى (سابقاً) فى البروتوكول المصرى ، تتحدث إلى القارئ العربى على مدى صفحات طوال حديثاً لا تعوزه الصراحة ، ولا يكتنفه الغموض ، ولا تحيط به المخاوف.. وهو مع هذا حديث متحفظ فى كثير من ثناياه لا يضيف أعماقاً ولا أبعاداً ولا أسراراً إلى ما عرف الناس عن صاحبته من خلال شائعاتهم التى قد يصدقونها بعد أن يرووها ، أو من خلال صحافةٍ تزين للناس ما تزين ، ثم تروى لهم عكس ما زينت بالأمس.

هذا كتاب يتمنى منه القارئ أن يتعمق ذات صاحبته ، فإذا هى لا تساعده على هذا حتى وإن فرضت ذاتيتها فى كثير من أرجائه .. كتاب يود القارئ لو طالت بعض فصوله عما هى عليه ليستقرئ تجربة سيدة أظهرت من الآثار الفاعلة والفعالة ما لم يظهره كثير من المتكلمين. ومع هذا فإن القارئ لا يجد من تجربتها إلا نتائجها ولا من أعمالها إلا ما يطالع الناس من انجازات .. وباستثناء موقف أو موقفين فهى لا تدلنا على الإطلاق على مفاتيح نجاحها وكأنما جاء نجاحها كما يظن كثير من الناس صدفة مع أنه لم يكن كذلك.

ومع هذا كله فإن هذا الكتاب نموذج ممتاز للصدق النفسى الممتاز الذى تُكتب به الكتب

التى تتناول السيرة الذاتية.. وهو نوع ثالث من الصدق غير الصدق الواقعى ، وغير الصدق الفنى ، صدق يتواءم مع ما فى نفسيات القراء الذين تتوقعهم المؤلفة حتى وإن لم يكن النقاد من بين هؤلاء القراء المتوقعين.

وهذا كتاب من أربعة عشر فصلاً شاءت مؤلفته (أو وافقت على) أن تجعل له ترتيباً كترتيب الأفلام السينمائية ، تبدأ الفصل الأول بما ينتهى به الفصل الرابع عشر ، ثم هى تختار من حياتها ومن حياة زوجها ـ الراحل العظيم ـ علامات هامة تجعلها محاور لفصول كتابها الكبير ، فهى تحدثنا فى الفصل الأول عن طفولتها فى القاهرة ، ولكنها لا تعطى هذا الحديث حقه بقدر ما تعطى الجانب الذى تريد إثباته للناس من عراقة جذورها وأصولها «البريطانية» دون أدنى حاجة عند القارئ المحب لها إلى هذا ليزداد حباً ، ولا عند القارئ المبغض ليقل كرهاً. وتنتقل السيدة جيهان السادات فى سرعة بالغة فى الفصل الثالث إلى تصوير علاقتها بحبيب عمرها ولا تنسى أن تدلنا فى هذا الفصل على خُطاب ثلاثة لها آثرت عليهم هذا الثائر ، وتروى لنا السيدة جيهان السادات فى الفصل الرابع قصة قيام الثورة بما لا يزيد ولا ينقص فى معلوماتنا ، ولكنها تستطيع أن تجدد فينا التقدير العميق لمكانة أنور السادات حين تضع فى أول هذا الفصل صورة رجال الثورة أجمعين فى صورة بروتوكولية يقف فيها أنور السادات إلى جوار عبدالناصر مباشرة .. وربما انطبق على هذه الصورة قول القائلين بأهمية الصور التى تغنى عن كتب أو فصول على أقل تقدير.

ثم تخصص السيدة جيهان السادات الفصل الخامس للحديث عما أسمته فترة عبدالناصر ، وهو تعبير سيئ حتى وإن كان مترجما ، ويأتى بعد هذا أعظم فصلين فى هذا الكتاب أو أعظم فصلين كتبتهما السيدة جيهان السادات على الإطلاق وهما الفصلان السادس «الحياة فى القرى» والسابع «أوجاع مصر» وقد أجادت السيدة جيهان السادات فى تصوير القرية المصرية فى الفصل السادس على نحو لا يتأتى إلا للأدباء المطبوعين ، وربما ساعدها على ذلك نضج تجربتها حين كانت تختزن فى عقليتها ما كتبته بعد ذلك من تجربة الحياة فى القرية المصرية ، وربما ساعدها أكثر تحررها التام من ذاتيها حين كتبت وهى (بنت المدينة) فكتبت وقد توفر لها الاطمئنان النفسى أنها تكتب من علٍ فهى تُنصف فى طمأنينة ، وتنتقد فى طمأنينة أيضاً.

أما الفصل الخاص بأوجاع مصر والذى يتحدث عن هزيمة ١٩٦٧ فلابد للمؤرخين الأفاضل أن يحتفظوا به بين الوثائق التى يريدون بها تصوير ما حدث فى ذلك اليوم الأغبر كما يقولون ، أو ما حدث من جراء ذلك اليوم الأغبر ، ولابد لنا أن ندرك كيف أن السيدة

جيهان السادات كانت هى الأخرى فى صباح ذلك اليوم وفى ضحاه مؤمنة تمام الإيمان أننا قد دمرنا من الطائرات الإسرائيلية فوق المائة ، فإذا كانت الزوجة «الأكثر دينامية» بين زوجات الثوار والمسئولين جميعاً على هذا اليقين فقل يومها إن على الدنيا السلام ، وقد كان بالفعل.

تخصص السيدة جيهان السادات بعد ذلك الفصل الثامن للحديث عن الفترة الأولى من حكم زوجها حين كان عليه أن يتخلص من مناوئيه ، وتجعل السيدة جيهان السادات عنوان هذا الفصل «الخيانة والغدر» ، وهو عنوان جميل جداً من دون أن تقصد السيدة جيهان السادات ، فأما الخيانة فكانت ـ كما تريد السيدة جيهان السادات أن تقول ـ من هؤلاء المساعدين ، وأما الغدر فقد سبق إليه أنور السادات حين غدر (وهذا حقه) بمن كانوا يريدون الغدر به فى الصباح ، فأبقاهم لليلتهم فى المعتقلات إلى أبد الآبدين ، حتى وإن خرجوا من المعتقلات المادية بعد حين.

وتحكى السيدة جيهان السادات فى الفصل التاسع قصة الحوادث التى سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتجعل لهذا الفصل عنواناً رومانسياً لا علاقة له بالموضوع أبداً «دم إبراهيم» ، ولكنها تبدأ هذا الفصل بالحديث عن رحلتها للعمرة!! وتحكى للقارئ (السائح) بعض معلومات من معلومات الأدلة السياحية عن الأراضى المقدسة والإسلام ، وبعثة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام.

تخصص السيدة جيهان السادات بعد هذا الفصل العاشر للحديث عن نشاطها فى المجتمع تحت عنوان «مكتب السيدة الأولى».. ثم عن جهودها فى مجال الأحوال الشخصية للمرأة المسلمة بوجه خاص تحت عنوان «المرأة فى المجتمع الإسلامى» وهو عنوان الفصل الحادى عشر.. ثم تقص علينا قصة السلام ومبادرته (الفصل ١٢) ثم قصة اغتيال زوجها (الفصل ١٣: باسم الله)... وهكذا.

(٢)

لعلنا نبدأ الآن فى مدارسة كتاب السيدة جيهان السادات ، وقبل أن نشرع فى هذا لابد أن نذكر لها بكل العرفان والشكر مبادرتها إلى كتابة هذا الكتاب على النحو الذى نراه اليوم وغداً فى المكتبة العربية.

وقد نجحت السيدة جيهان السادات بهذا الكتاب أن تضع نتاج قلمها بين حصيلة

الأقلام الكثيرة التى تناولت هذا الفترة من عمر هذا الوطن ، وقد أحسنت صنعاً حين تصدت لهذه المهمة أياً ما كان دافعها إليها ، وربما كان هذا هو النتاج الفكرى غير الأكاديمى للسيدة جيهان السادات فى المكتبة العربية ، ولعل فى هذا ما يشفع لها حتى وإن كانت حائزة للدكتوراه فى آداب اللغة العربية حين ننقد كتابها.. ومع هذا فلابد لنا أن ننقد هذا الكتاب على النحو الذى ننقد به كتب التراجم الذاتية حتى وإن كتبها الذين تمرسوا بالكتابة قبل أن يكتبوا ترجمتهم.

(٣)

ولأنى أحب السيدة جيهان السادات حباً حقيقياً فإنى أفضل أن أبدأ بالإشارة إلى أضعف ما فى هذا الكتاب.

وأضعف ما فى هذا الكتاب هو أنه ترجمة حرفية للطبعة الانجليزية [الأمريكية].. وللكاتب حين يكتب أن يختار اللغة التى يكتب بها ، وله فى ذلك أن يصدر عن تقديره للغة أو لأهلها ، وله فى ذلك أيضاً أن يصوغ عباراته ومجازاته (اللفظية واللغوية كذلك) على النحو الذى يروق لأهل اللغة التى كتب بها. وله أن يترك الأمر بعد ذلك لأى صديق قادر على الصياغة ليكتب تلك الفقرات مرة أخرى.

ولكن مشكلة كتاب السيدة جيهان السادات أننا نقرأ فيه بالعربية ما كتب فيه بالانجليزية على نحو ما تتحمله اللغة الإنجليزية ، أى على نحو ما تكون الكتابة بالإنجليزية حتى بعد أن أصبح المعنى مكتوباً بحروف عربية. وتزداد الطامة حين نجد أن هذه الروح لا تنحصر فى فقرة أو فقرتين ، وإنما هى تمتد طوال الكتاب كله: تسيطر على فصوله وصفحاته بل وفقراته.. حتى ليكاد المرء يفقد إحساسه بالتواصل مع المؤلفة .. أقصد ذلك التواصل الذى يكون بين المرء ومواطنيه.. أو كما يقول المصريون والايطاليون فى لغتهم الدارجة : بلدياته!؟

وتتضح صعوبة هذا الخلق (الذى قد ينفر القارئ من كتاب السيدة جيهان السادات) فى روح كثير من الفقرات وفى نص كثير من الفقرات.. والأدهى والأمر أن يتبلور هذا أيضاً فى وحدات القياس ومفردات التمييز ، فنجد السيدة جيهان السادات تلجأ فى تعبيرها عن المسافات إلى الوحدات الأمريكية فتقيس المسافات بالميل لا بالكيلومتر ، فالمسافة بين القاهرة وبورسعيد (١١٠ أميال) وبينها وبين الإسماعيلية ٨٠ ميلا ، وهكذا تفعل فى

المسافات الصغيرة أيضا : ألف ياردة من قصر عابدين .. بوسع القارئ أن يراجع الصفحات أرقام ٢٤ و٨٤ و١٤٧ و٤٧٢ على سبيل المثال.

وهكذا لا يأتى الحديث عن الأوزان إلا بالرطل ، ولا عن الحرارة إلا بالدرجات الفهرنهيتية لا الدرجات المئوية (انظر صفحة ٣٢٩) ، وكذلك تجد الحديث عن دبل الخطوبة: الخاتمين (صفحة ١٢٣) ، وعن المهر وتقسيمه.

على هذا النحو تتشكل أمامنا من نصوص هذا الكتاب مأساة ، ولكن هذه المأساة لا تعبر عن إحساس بالتبعية عند هذه السيدة كما قد يحب البعض (أو قد يسارع) أن يحكم عليها ، ولا عن إحساس هذه السيدة بضرورة مجاراة الأمريكان ، ولا عن شغفها بمجاراتهم ، ولكنه فى واقع الأمر يمثل ما هو أهون من ذلك كله وما هو أخطر من ذلك كله وهو الإهمال ، إهمال القارئ العربى ، مع أن بين القراء العرب مَنْ هو أهم بتوجيه هذا الكتاب إليه من كل القراء الأمريكان.. ولنذكر أن ما فى هذا الكتاب من تاريخ لن يندرج إلا تحت تاريخ مصر حتى وإن كتبه أو نشره الأمريكيون!!

ولكن الذى لا يجوز أبداً هو أن يهمل الكاتب أهل لغته الأصلية حين يقدم لهم نسخة (عربية) من الطبعة الإنجليزية فلا يكلف نفسه بضع ساعات يقرأ فيها الطبعة العربية ، ويشير بقلمه فقط على الفقرات التى يعرف بحسه العربى أنها لن تروق لمواطنيه ، أقول يؤشر فحسب ويترك التنفيذ لمن لهم القدرة على التعديل.



على أن السيدة جيهان السادات قد أضاعت فرصة ذهبية أتيحت لها حين ألفت هذا الكتاب ، فقد كان فى وسعها أن تتناول كثيراً من القضايا التى أحاطت ببعض تصرفاتها وسياساتها من دون أن يعرف الجمهور وجهة نظرها فى هذه القضايا ، على الرغم من تطلع الناس لسماع وجهة النظر هذه وترقبهم لرأى السيدة جيهان السادات شخصياً فيها.. فإذا بها تخذل محبيها الذين كانوا على استعداد لتبنى وجهة نظرها وإعادة رواية رؤيتها للقضايا على نطاق أوسع.. وقد كان فى إمكان السيدة جيهان السادات أن تحصر هذه القضايا وتبحث لها فى ثنايا كتابها عن مواضع مختلفة تضع فيها رؤيتها لهذه القضايا بحيث يجد فيها المؤرخون بعد ذلك بنوداً أو نصوصاً يدافعون بها أو يستشهدون بها فى مواجهة الحملات الأخرى التى لم ولن تتوقف ضد هذه السيدة لسبب وجيه هو أنها زوجة الرجل الذى استطاع أن يحول تاريخ المنطقة التى قادها على نحو لم يسبق إليه.

تحلت السيدة جيهان السادات حقيقة بالشجاعة فى كتابها هذا ، و استطاعت اختراق كثير من مناطق الخطر فى التاريخ أو فى الكتابة التاريخية ، بيد أن الفرصة كانت متاحة لها أن تمضى فى هذا الخط الشجاع إلى أبعد مما وصلت إليه إن لم يكن من أجل الحقيقة فمن أجل دفاعها عن معتقداتها وآرائها ، ومن أجل الدفاع عن نفسها تجاه ما قد تتوارثه الأقلام من شائعات محيطة بنشاطها واسع النطاق الذى لم تُسبق إليه ، وربما لن تُلحق لأنه يندر بعد وقتها أن تجد من يؤمن بما آمنت به بعدما أصاب سيدة اسمها السيدة جيهان السادات رذاذ كثير من جراء تصديها الشجاع لكثير من العمل الشجاع.

ومما يعجبنى فى هذا الكتاب [وأرجو أن يعجب القراء كذلك] أن هذه السيدة لم تنجح فى تغليف عباراتها الناقدة لبعض السياسات أو الساسة ببعض ما يحفظ على هذه الآراء ظاهرة الموضوعية ، ولعل هذا الخلق فى الكتابة الصريحة كان خيراً كله ؛ حين أتاح للقارئ مثل هذه الآراء الصريحة الواضحة من دون لف أو دوران ، ربما كانت طبيعة الأنثى فى السيدة جيهان السادات وراء مثل هذا الأسلوب ، ولكن الذى لاشك فيه أن تمرسها بمثل هذه الأدوار لم يكن إلا تمرس سيدة تحولت إلى سيدة أولى مرة واحدة .. فلم تعان ما عاناه زوجها على سبيل المثال من أجل الوصول إلى مكانة «السيد الأول». ولهذا فلم يتمكن منها خلق «التقية».. وهى اليوم تخوض الحياة أيضاً ، ومعها ماض لم يكن فيه لخلق التقية نصيب يذكر.

ولعل أبرز الأمثلة على هذا التوجه فى مذكراتها ما نراه فى صفحة ٢١ من حديثها إلى السيدة سوزان مبارك فى انتقاد وزير الدفاع المشير أبو غزالة ومقارنة العرض الذى يجرى تحت إشرافه بالعروض التى كانت فى عهد الوزير السابق المشير الجمسى.



أما أبرز الأخطاء التاريخية فى هذا الكتاب فهى تلك التى تتعلق بالأشخاص وسنعدد بعضها:

(١) الحديث عن الدكتور فؤاد محيى الدين نائب رئيس الوزراء على أنه رئيس الوزراء ثلاث مرات (حوالى صفحة ٣١ و٣٢).

(٢) الحديث عن مجمع الأديان الذى كان السادات ينوى بناءه فى سيناء على أنه يضم معبداً يهودياً ومسجداً (وتنسى الكنيسة!!!).

(٣) الحديث عن الدكتور يوسف رشاد رئيسا للمخابرات الملكية (تقصد الحرس الحديدى) صفحة ١٤٨ (ربما يكون القصور فى اختيار المترجم لهذا المصطلح ، أو فى افتقاد تعليق للمترجم يوضح قصده من الترجمة على هذا النحو).

(٤) الحديث عن إسماعيل شيرين على أنه عديل الملك السابق فاروق مع أنه زوج أخته (ربما يكون سبب العيب من الترجمة أيضاً).

(٥) الحديث عن على صبرى فى ١٩٧١ على أنه رئيس الوزراء (صفحة ٢٩٨) مع أنه لم يكن كذلك إلا فيما بين ١٩٦٢ و١٩٦٥ ، وفى ذات الصفحة الحديث عن الفريق فوزى وزيراً للدفاع (كان للحربية).

(٦) الحديث عن حكمت أبوزيد (صفحة ٣٠٦) على أنها السيدة فى الوزارة .. مع أنها كانت فى الظل تماماً وبعيدة عن الوزارة تماماً منذ ما قبل نهاية حكم عبدالناصر بخمس سنوات.. وستجد هذا الخلط دائماً فى أسماء الوزيرات الثلاث كأنهن لم يكن فى المكانة الأولى فى الدولة.

(٧) يأتى ذكر عبد الآخر محمد عبد الآخر (حلمى عبدالآخر) على أنه وزير للعدل (صفحة ٤١٨) ، بينما لم يكن كذلك أبدا ، وإنما كان وزيراً لشئون مجلسى الشعب والشورى.

(٨) يأتى الحديث عن وزيرة الشئون الاجتماعية وقت استصدار قوانين الأحوال الشخصية الجديدة (صفحة ٤٢٢ على أنها الدكتورة عائشة راتب) ، ويتكرر هذا الخطأ مع أن كل الناس يعرفون أن الدكتورة آمال عثمان هى التى كانت وزيرة الشئون فى ذلك الوقت ، حتى وإن بدأت عائشة راتب التفكير مع جيهان السادات فى هذه التعديلات قبل ذلك ، وإلى أن تركت الوزارة فى ١٩٧٧.

(٩) الحديث عن الميثاق (صفحة ٣٦٨) على أنه «القانون»، وهذا ناشئ عن الترجمة من الإنجليزية دون وعى بالمسميات الاصطلاحية العربية.

(١٠) الخلط الواضح الذى ينبئ عن خطأ فى الوعى بالتاريخ عند من كتب هذه المذكرات حين تروى السيدة جيهان السادات (صفحة ٤٣٥) أحداث يوم من أيام ١٩٧٧ فتقول إنه كان عليها أن تستعد لمحاضراتها من أجل طلبتها فى الجامعة.. بينما لم تكن السيدة جيهان السادات فى ١٩٧٧ قد تخرجت بعد فى الجامعة!!! كانت لا تزال طالبة!! وربما انطبع فى ذهنها أنها كانت تعد لمحاضرة عامة .. ولكنها لم تكن لطلبة على الإطلاق!!

نأتى بعد هذا إلى بعض الأخطاء التى فرضتها الترجمة غير الدقيقة لهذا الكتاب ، وهى الترجمة التى كان ينبغى لها أن تحظى بمراجعة أشد اهتماماً وأطول نفساً وأقدر على صياغة المعانى فى لغة عربية أكثر سلامة ودقة وتعبيراً :

(١) من الأمثلة الشاهدة على الجمل التى قد تترجم (هكذا) بحسن نية فيكون لها أسوأ الأثر فى صياغتها العربية حين تبدو كأنها تعبر عن معنى غير مقصود على الإطلاق، تلك العبارة فى صفحة ١٠٦ فى حديث جيهان عن خروجها مع أنور السادات قبل عقد قرانهما: «... ونخرج معاً وبدون أي ارتباط رسمي.. ولكننا لم نستطع أن نسيطر على أنفسنا. لقد فقدنا السيطرة على عواطفنا وملأ الحب قلبينا»، ماهو المقصود حقيقة؟

(٢) نرى التعبير عن الناس بألقابهم من دون الأسماء الأولى على نحو ما يحدث، مع ما يمثله هذا من خطورة على فهم الكتاب حين يقرأ بالعربية.. فالوزير عثمان فى هذه المذكرات ليس عثمان أحمد عثمان على نحو ما نتحدث العربية فى مصر، ولكنه هو أمين عثمان الذى قُتل قبل الثورة.

(٣) نرى قصة «الآمال العظيمة» وهى أثر أدبى عالمى مشهور، وأصبح لترجمته العربية وجود محسوس، ولكن القائم على ترجمة كتاب جيهان السادات يجهل ذلك، وعلى هذا النحو الاسم المترجم لهذه القصة هو: «التوقعات العظيمة» (صفحة ١١٤).

(٤) فى الحديث عما يقول الزوج لوالد العروس نرى ألفاظاً من قبيل «وآخذها تحت رعايتى.. وأعد بأن أعطيها حمايتى» (صفحة ١٢٦) وفى (صفحة ١٤١) مثل ذلك: القسم الذى أخذه مع والدى!!! وهذا هو منتهى التعبير عن عجز الترجمة عن الوصول إلى الكلمات البسيطة التقليدية التى يعرفها ويتداولها كل الأزواج والأصهار فى هذه المناسبة، وهى كلمات يحفظها كل العامة بحكم حضورهم المتكرر فى هذه المناسبة السعيدة .. أما هذه الكلمات الغريبة فتصدم قراءنا.

(٥) أما أسوأ أخطاء الترجمة فهو التعبير عن زوج عمتها بابن عمتى (من صفحة ٨٧ وحتى صفحة ١٠٣)، وهكذا يمكننا أن نتشكك هل كانت عمة «دينا» عروس جمال هى عمتها أم خالتها؟ فكلا الأمرين يعنيهما نفس اللفظ فى اللغة الإنجليزية، وقد أشرت فى موضع آخر من كتبى إلى الصعوبة التى تنشأ عن أن أولاد العم وأولاد الخال وأولاد العمة وأولاد الخالة (والإناث منهم كذلك) يجمعهم جميعا لفظ واحد فى اللغة الإنجليزية، بل إن الصعوبة تتضاعف أيضا حين نجد أزواج هؤلاء (إناثا وذكورا) يتمتعون بنفس اللقب.

ومن العجيب أن الكتب التى تكتب عن تاريخنا باللغة الإنجليزية لا تنتبه إلى التفريق،

فإذا ما تمت ترجمتها إلى اللغة العربية وقعت الترجمة فى المحظور فجعلت ابن العمة - على سبيل المثال - ابن خال أو ابن عم أو ابن خالة حسبما يتراءى للمترجم أن يترجم اللفظ الإنجليزى فى هذه اللحظة ، وربما جاز أن يترجم اللفظ على نحو صائب يتمشى مع الحقيقة فيجعله ابن العمة.

(٦) الحديث عن «المطوف» الذى يتولى إرشاد الحجاج بمسمى «الدليل الرسمى» (صفحة ٣٢٤).

(٧) فى وصف السادات مبتدعاً (صفحة ٣٥٤) وهى تقصد بالطبع مبدعاً أو غير تقليدى (مع التحفظ على المدلولات الثلاثة والفروق الأساسية فيها).

(٨) فى صفحة ٣٥٥ وصف سياسات عبدالناصر بالانعزالية وهى تقصد الانغلاقية (اقتصادياً).

(٩) طه حسين أصبح (صفحة ٣٦٥) أشهر فقهاء مصر فى الأدب العربى!! تعبير جميل ولكنه غريب!!

(١٠) مع هذا ينبغى أن نشيد بتعبير جميل جاء كنتيجة للترجمة الحرفية فأصبح أكثر دلالة على المقصود من التعبير الاصطلاحى المستتر ، أقصد تعبير «استئصال الأمية» بدلاً من «محو الأمية» (صفحة ٤١١).

(١١) هل سمع القارئ وصفاً لمحاربين قديمين حاربا بعضهما بأنهما شريكان قديمان فى المعركة (صفحة ٤٤٠)؟؟ وهل سمعت عن كنيسة تسمى كنيسة عيد الصعود؟؟ (صفحة ٤٤١) ربما تكون القيامة!!!



هل لنا بعد هذا أن ننتقل إلى مجموعة ثالثة من الملاحظات التى تتناول مضمون كتاب جيهان السادات مباشرة ، ولنستأذن القارئ أن نمضى فى تعقب بعض أفكارها المباشرة وغير المباشرة.

فعلى سبيل المثال تنهى جيهان السادات مقدمة كتابها متمنيةً أن يساعد القراء «على فهمكم لمنطقتنا بما يغريكم على زيارتها» وهى عبارة تليق بخطاب إلى صديق أو بمنشور سياحى لا بكتاب سيرة ذاتية. ومن المفهوم أن مثل هذا الهدف وارد ولكنه فى كل الأحوال هدف ثانوى وليس بالهدف الأول.

ويرتبط بهذا النهج ما نلاحظه من أن الملك فاروق يحظى باهتمام خاص فى كتاب

السيدة جيهان السادات ، وهو اهتمام مكثف ربما لم يحظ به الرئيس جمال عبدالناصر ، إذا أخذنا الأمور من منطق نسبية علاقتها بالرجلين اللذين حكما مصر فى فترتين متواليتين .. ويبدو أن السيدة جيهان السادات تجد لذة فى ظلم الملك فاروق بما كان يتردد من شائعات قديمة: ففى صفحة ٧٧ مثلاً نجدها تروى ببساطة أن فاروق كان لديه «تليفونات خضراء فى كل مكان من قصوره واستراحاته ، وأنه فرض قانوناً يحرم تركيب التليفون الملون لدى أى إنسان آخر» ، وهذه جزئية لا تستأهل الوقوف عندها مثلها فى ذلك مثل الحديث عن سياراته الحمراء.. إلخ ، ونجد كثيرا من الشائعات الشعبية التى تجد السيدة جيهان لذة فى روايتها فى حق حاكم سابق ، مع أنها تعلم أنها هى نفسها قد عانت بنفسها من مثل هذه الشائعات ، وبعد أربع عشرة صفحة نجدها تشجع الرواية المكررة من أن فاروق أخطأ فى توقيع اسمه على مرسوم التنازل فوقع مرتين ، وترد الأمر إلى جهله باللغة العربية!!! هكذا مع أن هناك أعذاراً أكثر منطقية ، فهناك مَنْ يقول إن هذه هى الأصول البروتوكولية ، وهناك من يقول إن السبب كان عصبيته.. إلخ!! وبعد عشر صفحات تعبر صاحبة المذكرات مرة أخرى عن سعادتها بالظلم الذى يتعرض له الملك فاروق وذلك بدون أى داع.

(٤)

وليس من الصعب علينا أن نكتشف أن أسلوب صاحبة هذه المذكرات فى تسجيل مشاعرها يعكس ، حتى من دون أن تدرى ، بعض المشاعر المعبرة عن انتمائها الدائم لما يسميه دارسو الاجتماع بالطبقة الوسطى الصاعدة وبعض معتقداتهم الخاطئة. وهى تقول ـ على سبيل المثال ـ فى وصف المدارس الأجنبية:

«إلا أن المدارس الأجنبية ظلت مفتوحة ومستمرة فى تقديم تعليم أفضل من المدارس الحكومية الجديدة».

ومن العجيب أن ترد هذه العبارة على لسان سيدة كانت فى ذلك الوقت من سيدات الصف الأول فى الحكومة الجديدة التى أجلت الإنجليز عن أرض الوطن ، ومع هذا فإن المذكرات لا تجد حرجاً فى أن تورد مثل هذا النص ، وأن تقول: إلا أن المدارس الأجنبية ظلت مفتوحة!! وأن تردف: لحسن الحظ .

طبعاً حسن الحظ هذا هو رأى السيدة جيهان ، ومع أن صاحبة المذكرات لا تتمتع بالوعى السياسى الذى يصور لها حقيقة الأمر شأنها فى ذلك شأن قادة الثورة أنفسهم ، فإن المفترض أنها وقد بلغت من العلم ما بلغت وأصبحت مدرسة للأدب القومى فى الجامعة الكبرى فى وطنها لابد وأن تكون قد وصلت إلى الحقيقة ، لكنها فيما يبدو لم تصل إلى مثل هذه الحقيقة وأشباهها فيما يتعلق بتاريخنا الاجتماعى وتطورنا التعليمى والتربوى على المستوى القومى!!!!



ويتكدس خلق «التوجه نحو الأجنبى وثقافته» بقدر لا يتناسب على الإطلاق مع وطنية السيدة جيهان السادات وانتمائها ، بل ومع توجهها الفعلى فى الفترات التى تألقت فيها على مستوى الوطن ، ونحن نراها حريصة على أن تورد كثيراً من الصور البيانية أو الأدبية لا لشىء إلا ليتمشى الكتاب مع طبيعة الكتابة الإنجليزية ، ويحدث هذا على سبيل المثال فى الإكثار من الجمل الاعتراضية التى تتحدث عن الطبيعة ، وليت هذا الخلق وجد فى مذكراتها على نحو ما هو شائع فى الأدب الإنجليزى ، ولو حدث هذا لأمكن ابتلاعه ، ولكننا نلاحظ بكل وضوح أن التشويه (أو التسنوء) هو السمة الغالبة لكثير من هذه الصور التى تقرؤها فى هذا الكتاب بالصياغة العربية فإذا هى بلا معنى وبلا مضمون ، وذلك كالحديث عن الكثبان الرملية التى تبدو متماثلة ، مع أننا قد نعرف أن كل حبة رمل مختلفة عن غيرها (صفحة ٦٧).. إلخ.

(٥)

يعكس هذا الكتاب إحساس السيدة جيهان السادات بذاتيتها المتميزة فى كثير من المواقف ، وللسيدة جيهان السادات أن تحس بهذه الذاتية وأن تعبر عنها ، لكن المشكلة أن بعض هذه التعبيرات تأتى صارخة أو زاعقة أو فاقعة بأكثر مما يحتمل الموقف نفسه ، وإليك نماذجاً منها على سبيل المثال:

(١) فهى أم الأبطال فى ١٩٧٣ ، وهى أم الشهيد فى ١٩٦٧ (صفحة ٣٤٣).

(٢) وقد كان لها شأن فى جماعات الإخوان المسلمين (صفحة ٧١).

(٣) وقد زودت الشيخ حسن البنا عن طريق جاره ببعض المال (صقحة ٧٦).

(٤) وتنبأ لها عرّاف بأنها ستصبح سيدة مصر الأولى (صفحة ١٣٦).

(٥) وكانت المحلات فى أول الثورة تضع لافتات تكتب عليها أن «حرم السادات تشترى حاجياتها من هنا» (صفحة ١٧١).

(٦)وقد رشحت نفسها فى انتخابات المجلس الشعبى بالمنوفية مستقلة (صفحة ٣٦٦) على الرغم من أننا جميعا نعرف أنه لم تكن هناك أحزاب بعد!!

(٧) ولا تنتبه إلى الخطأ الذى تقع فيه حين تنتقد ما تعبر عنه بأنه (تراخى القضاة) فى قاعة المحكمة (صفحة ٥٥٨).

(٨) وسيد مرعى الذى أنابه السادات لتسلم جائزة نوبل ليس إلا (حما ابنتى) وتنسى صفات الرجل وتاريخه السياسى كله (صفحة ٤٨٦).

(٩) بل إن السيدة جيهان السادات تتذكر تاريخ قيام وحدة مصر وسوريا بتاريخ ميلاد ابنتها نهى (صفحة ٢٠٦)!!!

(١٠) وقبل هذا كله فإنها هى بين أخواتها كانت بمثابة سيدنا يوسف بين إخوته (صفحة ٦٣).

(٦)

ولا يخلو الكتاب من بعض الأفكار التاريخية المغايرة للحقيقة وللواقع التى يبدو أنه لم يكن للسيدة جيهان دور فى أن تقحمها على كتابها:

(١) فهى فى صفحة ٧٧ تتعاطف مع المستعمر الإنجليزى لمصر ، مع أنه مستعمر ، حتى وإن كان قد بذل جهداً فى إصلاح أحوالها من أجل مصلحته.

(٢) وفى صفحة ١٨٨ نقرأ أن الأوتوبيسات وعربات الترام كادت تتحطم تحت ضغط السكان قبل قيام الثورة؟؟ ولست أدرى من أين جاءت بهذه المعلومة وكأن القراء لا يعرفون شيئاً عن هذه الفترة التى لم تكن الأوتوبيسات فيها تجد مَنْ يركبها.

(٣) تصف السيدة جيهان السادات مرتب زوجها فى أول حياتهما (نهاية الأربعينيات) بأنه كان ضئيلاً.. مع أن هذا المرتب كان ٣٤ جنيهاً (صفحة ٣٨). وكأنها بهذا تستنفر الناس ضدها وتستفزهم بأقصى ما تستطيع من درجات الاستفزاز.

(٤) تروى السيدة جيهان السادات أنها كانت فى أول الثورة تساعد الناس بأن ترسل لأصحاب العمارات متوسطة للمستأجرين فى تأجير الشقق (صفحة ١٧٣) وهى معلومة تتناقض مع ما كان سائدا أيامها من كثرة المعروض من الشقق.. وربما كان العكس هو الصحيح!!

(٧)

على الصعيد الاجتماعى نجد السيدة جيهان السادات وقد دخلت بإرادتها فى كثير من الأشراك حين تحرص على أن تتحدث عن عادات أهلها وقومها بلغة السائح العابر:

(١) فهى فى صفحة ١٢٥ تقول بالنص: «تقضى التقاليد فى مصر بأن تجلس العروس فى مواجهة زوجها أمام المأذون.. ولكن لسبب صغر سنى ناب عنى أبى ووضع يده فى يد أنور».. ومعنى هذا الكلام أن الزوجات فى مصر كبيرات السن فى العادة إلا السيدة جيهان!! مع أن الرواية خاطئة من جميع النواحى. ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أنه من النادر جداً أن تتولى العروس المصرية أمرها بنفسها من دون وكيل، سواء صغرت أم كبرت.

(٢) فى صفحة ٥٣ تتحدث عن أحد أفراد طائفة الرفاعية الذى يخرج الثعابين فتسميه «الصوفى» وتقول: «وبفضل (موسيقاه الجميلة) يستطيع الصوفى أن يخرج الثعابين دون ضرر»، وبودنا أن نعقب فنقول إنه لو أن هذا الانجاز يتم بفضل الموسيقى وحدها لأمكن أن يحدث هذا لنا عن طريق شريط تسجيل، ولكن هذا لا يحدث!

(٣) فى صفحة ٢٨ تقول السيدة جيهان السادات: «رأيت وزيرة الشئون تضرب صدرها بيديها صارخة إلى الله»، وتعلق وهذه طريقة التعبير عن الحزن التى ورثناها من أيام الفراعنة.. ربما لا نكون بحاجة إلى سؤال د. آمال عثمان عن مكان وقوع هذا التصرف، فهى كما نراها حتى الآن من أكثر سيدات مصر ثباتاً واتزاناً فى كل المواقف!!

(٤) تتحدث عن أحاديث الريفيات المكشوفة عن العلاقات الزوجية (صفحة ٢٤٠) وكيف كانت تحمر خجلاً حين تسمعها.. من دون أن تتعمق مثل هذه الظاهرة وهى التى تقدم نفسها فى صورة المُصلحة الاجتماعية البارزة، بل إنها تكاد تكون كذلك بلا جدال.

لست أدرى بعد هذا كيف سمحت السيدة جيهان السادات لكثير من فقرات مذكراتها أن تصاغ بالطريقة التى تفرض على رؤيتها تسطيحاً للأمور وتبسيطاً غريباً لها (تحت مظنة الكتابة السهلة) وهو ما يتجلى فى كثير من المواضع بلا داع أو مبرر ، والأمثلة على هذه كثيرة:

(١) فهى تقول بالنص فى صفحة ٣٩١: «كانت قوانيننا تجاه المرأة مزيجاً من القانون الوضعى والشريعة ، وهو ما أطلق عليه أنور الامتزاج بين العلم والإيمان».. هل رأيت قبل هذا ياسيدى القارئ مثل هذا الخلط الرهيب إلى أبعد الحدود فى عبارة سيدة محترمة ، وكأنما الشريعة هى الإيمان ، والقانون الوضعى هو العلم!! بينما الشريعة والقانون وجهان لشىء واحد ليس هو العلم وليس هو الإيمان.

(٢) كذلك ما نراه [دعك مما نقرؤه] فى روايتها لقصة إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام (صفحة ٣٢٩) ولمشاعر الحج (صفحة ٣٣٠).. وهو كلام لا يليق صدوره عن أحد إلا أن يكون صادراً عن السياح من قرائها الأمريكيين.

(٣) وتتحدث السيدة جيهان السادات عن خصوم زوجها فى ١٥ مايو بأنهم العدو (صفحة ٣٠٢) ، وهكذا تعطينا انطباعاً أن مثل هذا الاختلاف يتحول عندها إلى عداوة.. وتصرُّ السيدة جيهان السادات على هذا اللفظ ومشتقاته بعد ذلك.. عدونا.. الأعداء.. إلخ.

(٤) تعلق السيدة جيهان السادات كذلك (صفحة ٣٤٣) على نصر الله لجنده فى حرب ١٩٧٣ بالملائكة بكلام مبهم لا يليق صدوره ولا نسبته إلى سيدة مسلمة ظهرت فى نهاية الكتاب وهى محرمة بملابس الاحرام !.

(٥) تحكى لنا قصة أول عملها بالعمل الاجتماعى عن ضرورة الرشوة .. واضطرارها إليها لتسهيل بعض الأمور.. وتختم الحكاية بقولها فى بساطة شديدة وخطيرة (صفحة ٢٥٣): «إذا كانت هذه هى طريقة رجال الأعمال فليكن».. وللأسف يقع هذا الحديث اللاأخلاقى فى جوهره فى كتاب هو فى المقام الأول كتاب تربوى قبل كل شىء!!

(٨)

أعتقد بعد (أو قبل) كل هذه الملحوظات أنه كان ينبغى علينا أن نشير إلى بعض ما فى هذا الكتاب من جمال الفكر والبيان فى مواضع عديدة منها على سبيل المثال حين تحدثنا

السيدة جيهان السادات عن اعتناقها للسلام بعد ما رأت من أهوال الحرب فى ١٩٦٧ «إن أى إنسان يرى ما رأيته لا يمكن إلا أن يؤمن بالسلام» .. ونحن نرى هذا الكتاب يروى لنا كيف تمالكت هذه السيدة نفسها لفترات طويلة إلى أن جاءت اللحظة التى لم تستطع فيها المحافظة على توازنها حين رأت الديدان فى جرح الجندى فى فمه:

«وفى عنابر الحروق المزدحمة ، كان الهواء ثقيلاً برائحة اللحم المحروق مثل رائحة اللحم المتفحم ، ولم أكن أستطيع التغلب على مشاعرى إلا بالتركيز كلية فى وجوههم وأنا أحاول جاهدة التهوين عليهم ، وكنت أقول لكل واحد منهم إنه بطل من أبطال مصر ، وأجلس فى بعض الأحيان إلى جانبه ساعات إلى أن ينام قائلة له إنه أكثر حظاً منى ، لأنه سوف يحمل جرحاً يدل على شرفه ، وكان بعضهم يموت أمامى ، وكنت أردد الآية الكريمة: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى» (صدق الله العظيم)».

«ولم يحدث فى خلال هذه الفترة أن فقدت تماسكى إلا مرة واحدة فقط ، فقد كنت أتجول مع السيدات المتطوعات فى دورة روتينية ، وبدأت أغسل أرجل جندى شاب ، ثم صببت له بعض العصير ، وهو يقول: «الله يخليك يا أمى» ، وبينما كنت أقرب الكوب من فمه توقفت فجأة لا أستطيع حراكا ، فقد كانت شفته وأنفه مجروحين جرحاً غائراً ، وكانت الديدان تزحف فى الجرح ، وحاولت ألا أنظر إلى الجرح لكى أستطيع رفع الكوب إلى فمه ، ولكننى لم أستطع وشعرت بأننى على وشك أن أفقد الوعى. وأخيراً تغلبت على شعورى وسألته أن ينتظر لحظة ، وعدوت إلى حجرة مجاورة ، وقالت لى إحدى المتطوعات وهى السيدة عقيلة السماع: «ماذا حدث ، إنك تبدين شاحبة؟ هل أنت بخير؟»، وبعد أن استعدت قدرتى على الكلام قصصت عليها ما رأيت ، فسألتنى ألا أشغل نفسى ، وستأخذ هى على عاتقها تنظيف الجرح. وسألها الجندى عنى ، فأخبرته أننى متعبة وأننى شعرت بأنى سوف أفقد الوعى ، وأننى لم أرد أن يرانى متعبة ، وأننى أستريح الآن ، وطلب الجندى الشاب من السيدة عقيلة أن تبلغنى شكره».

(٩)

كذلك فإننا نعجب أيما إعجاب بصاحبة هذه المذكرات حين نقرأ آراءها [المكثفة] فى انتحار المشير عبد الحكيم عامر وهى آراء قريبة جداً من آراء زوجها ومن آراء المصريين فى

مجموعهم ، أما آراؤها فى موقف عبد الحكيم من عبد الناصر فتكاد تكون ناصرية تماما ، وهى حريصة مع هذا على أن توحى لنا بما ترويه عن هذه الواقعة بمدى قسوة عبد الناصر فى منع زملائه من تشييع جنازة زميلهم عبد الحكيم عامر ، ومن أنها دون الناس جميعاً تركت الاسكندرية وذهبت إلى الصعيد للعزاء فى وفاة ذلك الرجل :

«.... وبكيت وأنا أقف وحدى إلى جوار قبر عامر فى قريته «أسطال» وأقرأ الفاتحة على روحه. وقد شعرت بحزن عميق لأن عبدالناصر طلب من أعضاء مجلس الثورة ألا يحضروا جنازة زميلهم القديم نظراً لتهديده لنظام الحكم. ولكنى تركت بيتى فى الإسكندرية وذهبت مباشرة إلى قريته لأقدم عزائى إلى عائلته ، ولكنى اكتشفت أنهم غادروها إلى القاهرة ، وذهبت بدورى إليهم فى منزلهم فى الجيزة لتقديم عزائى ، ولكن لم يرحب بى أحد ، فقد صرخت بناته بمجرد أن رأيننى: «إنه لم ينتحر.. إن الحكومة هى التى قتلته» ، ولكنى لم أذهب إلى هناك كممثلة للنظام ولكن كصديقة ، وفى حديقة المنزل قابلنى أحد أبنائه وكان ضابطاً فى الجيش وصرخ قائلا: «لماذا.. لماذا؟» ، ولم أكن أقدر بالطبع أن أشرح له كيف تحول والده إلى رجل غير واقعى ، وأخيراً إلى عدو لمن كان أخلص أصدقائه. وإذا كان عامر قد شعر بمهانة الهزيمة فقد كان لابد أن ينتحر فى الخامس من يونيو ، وكان الكل سيفهم عندئذ أن كبرياءه لم تتحمل هزيمة مصر ، وكانت حادثة الانتحار وقتها سوف تكون مأساوية ، أما الآن فهى مثيرة للشفقة».

(١٠)

وقد استطاعت السيدة جيهان السادات بذكاء شديد أن تضمن هذه المذكرات حديثها الممتاز [والمنصف للحقيقة أيضاً] عن الزعيم الليبى معمر القذافى وزوجته وآرائها فى كليهما:

«... أما فى ليبيا فإن تصرف العقيد «معمر القذافى» كان غاية فى السوء. فبدلاً من مساعدة مصر قام بجميع المحاولات للإفساد علينا ، فقد تعهد لأنور قبل الحرب بتقديم قطع غيار لطائراتنا الميراج التى كان يبلغ عددها خمساً وعشرين طائرة ، وتقديم أربعة ملايين طن من البترول لتعوض خسارتنا من حقول البترول المصرية التى قرر أنور إغلاقها من أجل سلامتها ، كما تعهد بالسماح باستخدام ميناء طبرق فى حالة تدمير ميناء

الإسكندرية. أما بالنسبة للإسكندرية فإنها لم تمس ، ولكن كما قال أنور بعد ذلك فإن قطع الغيار والبترول لم تصل أبداً».



وتردف السيدة جيهان السادات بذكر انتقاداتها الواضحة لموقف الرئيس القذافى من حرب أكتوبر ١٩٧٣ :

«حتى نجاحنا المبكر فى الحرب لم ينل رضا القذافى. فقد غضب لأن أنور لم يخبره عن الموعد المحدد لقيام الحرب وقامت الإذاعة الليبية بعد عبور القوات المصرية للقناة بيومين بترديد أنه لا فرصة لنا فى النصر: «الجنود المصريون جبناء تعودوا على الهزائم ، وسوف تهزمهم إسرائيل للمرة الرابعة».

«وتصاعدت الهجمات الليبية عندما نجح الإسرائيليون فى اليوم العاشر من الحرب التى استمرت ثمانية عشر يوما فى فتح ثغرة فى خطوطنا فى منطقة الدفرسوار سمحت لبعض القوات الإسرائيلية بالدخول إلى الضفة الغربية للقناة ، كانت مصر فى حاجة للدعم من جيرانها العرب أكثر من أى وقت آخر ، لكن ليبيا لم تقدم سوى الإهانات».



وتصل السيدة جيهان السادات فيما ترويه من أصداء تصرفات العقيد القذافى إلى استشهاد جيد الدلالة تروى فيه انطباعات المشير أحمد بدوى قائد الجيش الثالث ووزير الدفاع فيما بعد هذا حين روى لها أنه بكى حين سمع الهجوم على الجيش المصرى من إذاعة ليبيا لا من إذاعة إسرائيل وهى تقول:

«وفى وقت لاحق قال لى قائد قواتنا فى الدفرسوار أحمد بدوى: «عندما سمعت الإرسال الإذاعى ، اعتقدت أن الشائعات آتية من إسرائيل ، ولكن عندما أدركت أنها من ليبيا فإنى أعترف بأننى بكيت ، كيف يمكن لإخواننا اتخاذ موقف معاد لنا؟».

(١١)

ولا تقف السيدة جيهان السادات فى انتقادها للعقيد القذافى عند هذا الحد ولكنها تشير بكل وضوح إلى مواقفه المبكرة من مصر ، ومنذ ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وهى تشير إلى تفصيلات كثيرة ومهمة على وجه التحديد ، كما أنها تحكى بعض صور معاناة السادات والنظام المصرى من القذافى قبل هذه الحرب فتقول :

«... قام القذافى فى شهر أغسطس عام ١٩٧٢ ، ودون اتصال بنا أو حصول على موافقتنا ، بإعلان نيته على قيام جمهورية مصرية ليبية جديدة بحيث يكون أنور رئيساً للدولة الجديدة ، بينما يتولى هو منصب نائب الرئيس ومنصب القائد العام للقوات المسلحة المشتركة. وعندما سمع أنور بهذه الخطة لم يملك إلا الضحك ، لأنه لن يسمح للقذافى بالتحكم فى الجيش المصرى. كيف سمح القذافى لنفسه بإعلان اتحاد كهذا دون الحصول على موافقة مصرية».

«التقى أنور لأول مرة بعد الثورة الليبية مباشرة فى عام ١٩٦٩ بالقذافى ، وكان القذافى عندئذ شاباً مندفعاً يريد الخير لبلاده. وكان يسأل أنور نصائحه وفى المقابل كان أنور يحترم المثالية فى هذا الشاب القائد الذى قام بالثورة الليبية على نمط ثورة الضباط الأحرار فى مصر».

«لقد كان أنور يعتبر القذافى كابنه وكان يدعوه دائماً إلى زيارتنا فى منزلنا فى القاهرة وفى ميت أبو الكوم ، وفى السنة الأولى من رئاسة زوجى كان القذافى يقول له دائماً: «إنك بمثابة أب لى ، فإذا ارتكبت أخطاء فانصحنى».

(١٢)

وفى هذا الإطار تحرص السيدة جيهان السادات على أن تروى بالتفصيل قصة أحد المواقف المندفعة التى قام بها العقيد القذافى فى أثناء فترة الوفاق المعلن بينه وبين السادات ، وتبدو القصة متوافقة مع طبيعة الرئيس القذافى وحماسته لخدمة قضايا وطنه:

«... بعد عدة شهور من طرح خطة الوحدة. قام القذافى مرة أخرى بتصرف غير مسئول ولكن بطريقة أكثر خطورة ، فبناء على طلب القذافى بزيادة الحماية البحرية وتكريماً له ، وافق أنور على إعارة غواصتين إلى ليبيا يديرهما مصريون. وكادت أول أوامر تصدر من القذافى للقطع البحرية المصرية أن تقترب بالعالم من الدمار ، فقد قام بتوجيه تعليمات إلى قبطانى الغواصتين قائلاً: «تسللوا إلى المياه الدولية فى البحر الأبيض المتوسط وقوموا بإغراق الباخرة البريطانية «الملكة اليزابيث رقم ٢» قبل وصولها إلى إسرائيل».

وهنا مباشرة تعلق السيدة جيهان السادات على نتيجة مثل هذا التصرف وتقول :

« إن إغراق السفينة عمل جنونى ، فقد كانت مكتظة بالسياح البريطانيين والأمريكيين فى طريقها إلى إسرائيل».

«وقد اكتشفت خطة القذافى هذه عندما قام قبطان إحدى الغواصتين بإرسال إشارة لقيادتنا البحرية فى الإسكندرية يخبرهم عن الأمر الذى تلقاه ، وقامت القيادة بدورها بإبلاغ أنور بما حدث. لم يستطع أنور أن يتصل بالقذافى شخصياً ليجعله يقوم بإلغاء أوامره ، فقد كان القائد الليبى قد ذهب كعادته ليستريح فى إحدى الخيام فى الصحراء ولينتظر حدوث أى أزمة دولية ، مما دفع أنور ليقوم بنفسه بإصدار أوامر للغواصتين بالعودة الفورية إلى قاعدتنا فى الإسكندرية».

«لم أر زوجى يشعر براحة أكثر مما شعر به عندما تسلم رسالة تفيد بأن الغواصتين قد عادتا بأمان إلى مصر. لقد قال أنور:

«إن القذافى له عقلية متهورة والمشكلة هى أن اللعب التى يلعب بها أسلحة حقيقية».

«إن الرجل الرشيد الحكيم يجب أن يضع فى اعتباره الآثار والنتائج التى تترتب على إغراق السفينة «الملكة اليزابيث». فلن تدمر غواصتنا وتغرق بواسطة الأسطول السادس الأمريكى فحسب ، ولكن الرأى العام العالمى لن يسامح العرب على قتل الرجال والنساء والأطفال الأبرياء الذين ليس لهم علاقة بالنزاع العربى ـ الإسرائيلى».

(١٣)

وعلى الرغم من أن القارئ كان يتوقع من صاحبة هذه المذكرات الإفاضة فى حديثها عن دورها كزوجة لنائب الرئيس ، وعن الرئيس جمال عبد الناصر نفسه فى أعوامه الأخيرة ، فإن السيدة جيهان السادات آثرت أن تكتفى بالحديث عن العموميات ، ولكنها فى ذكاء شديد توظف هذه العموميات المعروفة فى تفسير توثق العلاقة بين الزميلين القديمين ، وهو ما أدى إلى استخلاف عبد الناصر للسادات:

«... أما فى القاهرة فكان عبدالناصر يتقبل هذه الأخبار بمنتهى المرارة. فعدم إخلاص صديقه (عبد الحكيم عامر) وأخبار موت هذا الصديق وهزيمتنا كانت قد أنهكته. وارتفعت نسبة مرض السكر فى دمه. وكان يأتى إلى منزلنا للجلوس مع أنور ، وكان يزداد

ألمى كلما نظرت إليه ، كان جسده منحنياً كأنما يحـمل جبالاً من الحزن ، وأصيب بحساسية حتى إنه كان يـتعذب كلما لمست الملابس جـسده ، وكنت أتساءل إلى متى سـوف يحتمل ناصر؟».

(١٤)

وتحفل مـذكرات السـيدة جيـهان السـادات بكثيـر من الآراء التى تصور بهـا «الجوانب الأخرى» للقرارات السيـاسية الكبرى ، وذلك من خلال المواقف التى عايشتهـا والتفاصيل التى ألمت بها بحكم قربهـا من الرئيس ، ولابد على سبيل المثال أن نقرأ بأناة وروية حـديثها عن قبول السادات لوقف إطلاق النار فى حرب أكتوبر:

«مع ازدياد الدعم الأمريكى لإسرائيل لم يتبق لأنور [تقصد الرئيس السادات] إلا خيار واحد ، ففى التاسع عشر من أكتـوبر أعلن قبوله لوقف إطلاق النار ، وأرسل برقية للرئيس السورى حـافظ الأسد يقـول فيـها: «إننى قـد قبلت وقلبى ينزف ألما الدعـوة لوقف إطلاق النار.. إننى على استـعداد لمحاربة إسـرائيل مهما طال الأمـد ، ولكننى لا أستطيع مواجـهة الولايات المتحدة الأمريكية. إننى لن أسمح لقواتى المسلحة بأن تدمر مرة أخرى».



وتحرص صـاحبـة المذكرات على أن تصف الحـالة النفسـية والذهنية للـسادات فى هذه الفترة على نحو ما تصورتها أو على نحو ما أحست بها فتقول :

«لقد بدا حـزيناً وهو يرى أحلامه باسـتعادة سـيناء تذهب بعيداً أو تضـمحل ، وعند موعد الإفطار فى رمضان كنت أرجوه كل ليلة أن يأكل شـيئاً ، ولكنه كان يكتفى بهز رأسه بأنه ليست لديه شهـية للأكل ، لقد تألمت لألمه ، فهذا الرجل الذى ينام عـادة ثمانى ساعات أو تسعاً يعمل الآن لمدة ثمانى عشرة ساعة أو عشرين ساعة يومياً.. حتى عندما أحضرت له طبقاً من الحساء رفض تناوله. لقد كان يعيش على عـصير الفواكه فقط. لقد قلقت عليه فى صمت وأنا أراه يفقـد صحته ويزداد لونه شحوباً وانهـار وقف إطلاق النار وكانت القوات المصرية تشتبك مع القوات الإسرائيلية فى الضفة الغربية من القناة».

(١٥)

وتؤكد جيهان السادات فى هذه المذكرات على اعتقادها فى الفكرة القائلة بمسئولية الولايات المتحدة الامريكية عن معاناة مصر والعرب واستمرار المشكلة الفلسطينية ، وتبدو جيهان السادات أكثر شجاعة فى مواجهة الأمريكيين بهذا الرأى فهى تلقى عليهم بالعبء فيما هو أكثر من مجرد تأمين سياسة إسرائيل أو دعمها أو الانخداع بها ، وهى تصرح بأن وزير الخارجية الأمريكى الدكتور هنرى كسينجر قد أنذر أنور السادات فى ديسمبر ١٩٧٣ بأن الولايات المتحدة قد تهاجم مصر :

«... الأمريكيون هم الذين قاموا بتصعيد الحرب وهم القادرون على وضع حد لها. وفى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر جاء هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى لمقابلة أنور وذلك للمرة الثانية خلال أربعة أسابيع. وفى زيارته الثانية هذه أحضر معه ورقة عمل من الحكومة الأمريكية ، لقد علمت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) من خلال التصوير الجوى أن المدفعية والدبابات المصرية تطوق القوات الإسرائيلية الموجودة فى غرب القناة. كما أنهم كانوا يعلمون بأن أنور كان يجهز لتصفيتهم. وقام كيسنجر بإنذار أنور بأنه إذا قام بذلك فإن الولايات المتحدة سوف تضطر إلى أن تهاجم مصر. فالسياسة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تسمح بأى احتمال لانهزام الأسلحة الأمريكية بواسطة الأسلحة الروسية للمرة الثانية ، وأن القوات الأمريكية فى جميع أنحاء العالم قد وضعت على أهبة الاستعداد».



«وفى شهر يناير ١٩٧٤ تم التوقيع على الاتفاقية الأولى لفض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية ولعبت الولايات المتحدة دور الوسيط بيننا وبين إسرائيل ، بحيث تقوم مصر باستعادة الضفة الشرقية لقناة السويس بينما تنسحب إسرائيل من ضفتها الغربية ، وبصعوبة بالغة انتهت حرب أخرى بعد أن تركت آلافا من الجرحى والقتلى المصريين. لقد كان عدد ضحايانا أكثر من الإسرائيلين بخمس مرات».

(١٦)

ومن الممتع حقاً أن نتأمل فى الفقرات التى كتبتها صاحبة هذه المذكرات كى تصف بها انطباعاتها عن الساعات الفاصلة التى سبقت اندلاع حرب أكتوبر ، وهى تبذل جهدها فى أن تحمل هذه العبارات بالقدر الكافى من القلق والتعبير عنه ، ولكن يبدو أنها روت ذكرياتها عن هذه اللحظات فى ساعة كانت أبعد ماتكون عن جو المعركة ، ولهذا صارت العبارات مفتقدة نوعا ما الحماسة المتوقعة فى مثل هذا الموقف المجيد :

«وبينما كنا نتمشى أنا وزوجى فى الحديقة فى يوم الخامس من أكتوبر قلت له: «أنور.. إننى أعلم بأنك تبذل أقصى جهدك من أجل استعادة أرضنا ، فإذا ذهبت مصر إلى الحرب وفشلت فلن يدينك أحد. إن جميع قادة العالم سوف يفهمون حقنا فى أرضنا وسوف يقدرون محاولتك». لقد بدأت أبحث عن كلمات أقولها لزوجى حتى أشعره بأننى أؤيده بالرغم من الهزيمة العسكرية التى كنت أشعر بأنها حتمية. قلت له: «إننا نعيش مرة واحدة ونموت مرة واحدة ، فلنواجه مصيرنا بشجاعة ، فلا حياة بدون كرامة. إنه من الأفضل عمل شىء ، حتى ولو لم ننجح فهذا أفضل من هذا الاستمرار فى قبول عار الاحتلال الإسرائيلى».

«توقف أنور فجأة واستدار نحوى وقال: «إننى على يقين بأننى سوف أنتصر». لقد صعقت عند سماعى ذلك. لقد كنت أحاول تشجيعه ولكنى تبينت أنه لا يحتاج إليه. كيف يمكن لأنور بأن يكون متأكداً وواثقاً؟ ولكننى أدركت أن هذه الثقة قد جاءت من الله سبحانه وتعالى. فى تلك اللحظة بدأت أقتنع أنا أيضاً ، لأننى أعرف أن الله سوف يكون إلى جانبه».

«فى صباح اليوم التالى ، السادس من أكتوبر ، العاشر من رمضان ، وبعد انتهائى من حزم حقيبته سألته فى محاولة لمعرفة موعد إعلان الحرب: «هل أدع الأولاد يذهبون إلى المدرسة اليوم؟»».

«فأجاب: بالطبع ولم لا ؟».

«قمت باحتضانه أمام الباب الخاص وأنا لا أدرى أيكون هذا آخر وداع؟»

«وحتى أجعله لا يحس بشعورى بالتشاؤم قلت له: سيخرج الأولاد من المدرسة فى الساعة الواحدة ظهراً فهل سيكون مناسباً؟ فقال: دعهم يذهبون إلى المدرسة بصورة طبيعية».

«وعندما ركب سيارته أشرت إليه بالتحية وقلت: «ربنا يبارك فيك ويكون إلى جانبك». الساعة الواحدة لقد شعرت من أنور بأن الحرب لن تبدأ قبل الساعة الواحدة ظهراً، لذلك قمت بإلغاء مواعيدى المدرجة بعد تلك الساعة ، لأننى أردت أن أكون على انفراد [بعد] المقابلات الصباحية حتى أننى لم أسمع كلمة واحدة فى موعدى الأخير مع «نهلة» زوجة الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب. وعندما غادرت المنزل أسرعت بصعود السلم متجهة نحو قاعة الجلوس».

«وحالما وصلت نهى إلى البيت سألتها: «هل سمعت الأخبار؟»».

«أجابت نهى باستغراب شديد: «أى أخبار؟»».

«أجبت بطريقة كأنى ألوم نفسى على زلة لسانى: «لا ، لا شىء»».

(١٧)

وتستأنف السيدة جيهان السادات حديثها راوية باعتزاز وحب وفخر تفصيلات انطباعاتها ومشاعرها عن اللحظات التى بدأت فيها المعركة المجيدة مع إسرائيل فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ :

«أدرت الراديو فى غرفة نومى فى الطابق الثانى ولكننى لم أسمع سوى المسلسلات. لقد نحيت جانباً تفكيرى فى التنبيه على رؤساء الجمعيات النسائية فى الهلال الأحمر ليبدأوا فى الاستعداد لاستقبال الجرحى ، لأن التحركات المفاجئة فى مستشفياتنا سوف تكون إشارة واضحة للجواسيس الإسرائيليين الذين يعيشون بيننا دائماً ، وأنور حريص على سرية الموضوع حتى أننى لم أشرك بناتى فى أفكارى ، ولكنهن شعرن أنه ليس طبيعيا جلوسى وأنا أضع الراديو على أذنى ومضين يسألننى: «بماذا أنت مهتمة يا أمى» ولكنى لم أجب».

«وفجأة وبعد الساعة الواحدة والنصف ظهراً ، قام قسم الأخبار بقطع البرامج العادية وأصدر البيان الذى كنت أنتظر سماعه «انتباه»: لقد قامت قوات العدو بشن هجوم ضد قواتنا فى منطقة السويس ، وقواتنا مشتبكة الآن لرد المعتدين». لقد شككت فوراً فى أن البيان ادعاء ليعطينا العذر فى البدء فى هجومنا. وكنت على حق. فقد جاء بعد ذلك بقليل بيان آخر يقول: «يقوم السلاح الجوى المصرى بضرب المواقع الإسرائيلية فى سيناء ، وتقوم

قواتنا بعبور قناة السويس». إن الحرب التى أطلقنا عليها «حرب أكتوبر» ، والتى أطلق عليها الإسرائيليون «حرب يوم الغفران» قد بدأت».

«لقد شحنت عزيمتى وقمت بإنذار رؤساء الجمعيات النسائية فى الهلال الأحمر.. وطلبت إلى الشعب التبرع بالأغطية والمواد الطبية لجنودنا.. لقد كان الأمر الذى لا يصدق يحدث الآن بالفعل ، حيث يقوم جنودنا المصريون بالقضاء على المقاومة الإسرائيلية على طول خط بارليف الذى يبلغ ١١٠ أميال وارتفاعه ٤٧ قدما ، وبلغت تكاليفه ٢٣٨ مليون دولار ، وهو خط الدفاع الإسرائيلى الذى قال لنا الروس عنه بأنه لا يمكن تدميره إلا بقنبلة نووية».

(١٨)

وتحاول صاحبة هذه المذكرات أن تصور بطريقة سريعة وصادقة انطباعاتها الباكرة عن الانتصار المصرى فى أول أيام حرب أكتوبر المجيدة :

«لقد كان جنودنا يصرخون (لست أعرف كيف اضطر المترجم إلى استخدام هذا الفعل بالذات واللغة العربية حافلة بأفعال الصياح والجأر والتهليل) «الله أكبر» وهم يعبرون القناة خلال «عملية بدر». لقد اختار أنور اسم «بدر» ليطلق على العملية السرية للعبور العسكرى وذلك حتى يبعث الشجاعة فى قواتنا لأنها تذكرهم بغزوة بدر البطولية التى قام بها المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم ضد أعدائهم من كفار مكة فى شهر رمضان أيضاً من سنة ٦٢٤م حيث قام ثلاثمائة مسلم ومعهم ألف من الملائكة أرسلهم الله لهم بالتغلب على ما يقارب الألف من المشركين المدججين بالسلاح.

«لقد قام سلاحنا الجوى بقصف ٩٠٪ من الأهداف الإسرائيلية خلال عشرين دقيقة وقامت مدافعنا الميدانية بقصف أهداف إسرائيلية أخرى على طول الحاجز الترابى من خط بارليف. لقد قامت وحداتنا المتلهفة للانتقام من هزيمة سيناء عام ١٩٦٧ بعبور القناة بواسطة قوارب من المطاط ، وذلك قبل الموعد المحدد بذلك ، ثم قاموا فوراً بالوصول إلى خط بارليف حيث أقاموا سلالم من الحبال لتتمكن باقى القوات من اللحاق بهم بسرعة وقاموا بسد الأنابيب التى أقامها الإسرائيليون لقذف النابالم ، وصعق العالم عندما قام سلاح المهندسين المصرى بفتح فجوات فى رمال خط بارليف بواسطة مضخات مائية ذات قوة عالية ثم أقاموا الجسور المتحركة لتتمكن دباباتنا من العبور».

«خلال الساعات الست الأولى فقد الإسرائيليون توازنهم ، وكان عنصر المفاجأة تاماً ، فقد قمنا بعملية خداع لهم حيث نشرنا مقالات فى صحفنا تقول بأن القادة العسكريين يستعدون للذهاب إلى مكة لأداء العمرة ، وجعلنا الجنود المصريين فى ضفة القناة الغربية يتظاهرون بأنهم يستريحون ويمصون قصب السكر وكأنهم فى إجازة ، وذلك كله تحت نظر وسمع الإسرائيليين وخلال أربع وعشرين ساعة كانت المقاومة الإسرائيلية قد تحطمت ، وتحطمت معها أسطورة الجندى الإسرائيلى الذى لا يقهر ، فى الوقت الذى كانت فيه قدرة مصر ترتفع عالية فى عيون العالم».

(١٩)

ومن الفقرات المهمة فى هذه المذكرات ما ترويه صاحبتها عن استشهاد شقيق زوجها الشهيد الطيار عاطف السادات ، ورد فعل الرئيس السادات وحقيقة انفعالاته حين وصل إليه النبأ فى أثناء الحرب ، وهى تروى أنها علمت بالنبأ قبل الرئيس نفسه ، كما تروى أنها خشيت إبلاغه النبأ خوفاً على روحه المعنوية ، لكنها فى النهاية اضطرت إلى أن تسوق إليه الخبر بالتدريج:

«لعدة أيام شعرت كأننى أطير من الفرحة ، وكنت أشتغل ليلاً ونهاراً دون أن أشعر بالتعب ، فالنشوة جعلتنى أشعر بالنشاط الدائم. وكذلك كان أنور فى قصر الطاهرة فى قمة انفعاله. وكنت قد قمت بالانتقال إلى هناك لأكون بجانبه. الصدمة الأولى التى عكرت صفوى جاءت حين أخبرنى طيار جريح من الطيارين الذين قاموا بأول طلعة ضد إسرائيل بأن طائرة الميراج التى كان يقودها عاطف ، شقيق أنور والبالغ من العمر ستا وعشرين سنة ، قد أسقطت واحترقت بعد خمس دقائق فقط من ابتداء الهجوم. ذهلت للخبر ، فمن الذى يستطيع أن ينجو من حادث كهذا ؟ وأدركت الحقيقة على الفور وهى أن عاطف قد استشهد».



ثم تردف صاحبة المذكرات بذكر تفصيلات انفعالات الرئيس السادات فنلمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف على نحو ما حدث بالفعل:

«لم أخبر أنور بذلك فوراً ، فلم أجرؤ على ذلك ، وكذلك فعل حسنى مبارك قائد القوات الجوية. لم يكن هناك أحد يود تحطيم روح زوجى المعنوية ، أو يسبب الضيق له

وهو يعمل ليل نهار. عاطف مفقود. وبعـد ذلك بيومين قلت له إنهم يقومون بالتحرى عنه فى جميع المستشفيات. لقد أخبرت أنور شيئاً فشيئاً بالحدث الأليم».

وهنا تبدأ صـاحبة المذكـرات فى وصف علاقة الأخـوين وكيف كـان الرئيس السادات ينظر إلى شقيقه كابن:

«لقد كانا على صلة دائمـة ، كان عاطف يقوم بقضـاء عدة أسابيع فى زيارتنا كل سنة ، وفى معظم الأحيـان كان يشاركنا فى احتفـالاتنا الدينية ، وكان أنور مثـالاً وقدوة لعاطف. وكان فارق السن بينهـما كبيراً ، فقـد كان أنور يكبر عاطف بسبع وعـشرين سنة ، مما جعل أنور يرى فيه ابـناً له وليس أخاً ، وأخيراً وبعد مـرور ثمانية أيام على بدء الهـجوم واجهت أنور بالحقيقة المرة وأخبرته بأن أخاه قد استشهد».

وتذكر السيدة جيهان السادات مـا لحظته من انفعالات الرئيس السادات فنلمس صدقها وقدرتها على تصوير الموقف على نحو ما حدث بالفعل:

«صعق أنور عنـد سماعـه الخبر ووقف أمـامى يهز رأسـه لمدة دقيقـة كاملة قـائلاً: «لقد شعـرت بذلك ، لقـد شعـرت بذلك» ، ورأيت الدموع تملأ عـينيه وذلك للمـرة الثانيـة فى حياتى ، لقد بكى أنور مرة واحدة من قبل عندما ماتت أمه بين ذراعيه ، أما الآن فقد حاول تجميع شـتات نفسه قـائلاً: «إن جميع الذين قتلوا فى سـبيل وطننا ، وضحوا بأنـفسهم هم أبنائى ومنهم أخى» ، وبحـزنه الشـديد عاد فـوراً إلى العـمل ، محـاولاً ألا تكون حسـرته الشخصية أكثر من حسرة الآخرين الذين فقدوا أحداً من أسرهم».

(٢٠)

كذلك تحرص صاحبة هذه المذكرات على أن تنقل لقرائهـا صورة الحياة المتوترة الصعبة التى عاشتها مع الرئيس السادات فيما قبل اتخاذ القرار بالحرب حين كان الرئيس يعانى من تأخر الدعم السوفيتى الكفيل بخوض المعركة ، وهى تقدم فيما ترويه مبررات قوية لغضب الرئيس السادات الشديد من سـياسات السوفيت وكأنها بهـذا الذى ترويه حريصة على أن تصـور بدقة الأجـواء النفسـية التى سـبقـت اتخاذ السـادات لقراره الشـهيـر بطرد الخبـراء السوفيت حيث تقول :

«وفى ربيع عام ١٩٧٢ بدأ أنور يفقد صبره مع السوفييت ، فقد وعده ليونيد بريجينيف

بإرسال شحنة من الأسلحة كان من المفروض أن تصل قبل الانتخابات الأمريكية فى شهر نوفمبر ، لقد كان التوقيت فى غاية الأهمية لأن أنور كان يريد أن يطمئن على الاستعداد العسكرى المصرى ضد إسرائيل فى حالة تردد الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأمريكية فى إجراء محادثات للتسوية فى الشرق الأوسط ، ولكن بينما كان أنور فى انتظار صفقة الأسلحة طيلة الربيع ، عقد لقاء قمة بين بريجينيف والرئيس الأمريكى الجديد نيكسون ، وفى شهر مايو أعلنت القوتان العظميان عن قيام سياسة جديدة عرفت بالوفاق ، ونتيجة لذلك قام بريجينيف بتأجيل إرسال الأسلحة السوفيتية التى وعد بإرسالها إلى مصر وذلك خشية أن يبتعد عن نيكسون وأن تفسد روح السياسة الجديدة».

والشاهد أن صاحبة المذكرات قد نجحت إلى حد بعيد فى تصوير الأجواء النفسية التى كان الرئيس السادات يمر بها ، وكانت هى بالطبع تلاحظه وتشعر به:

«... فى القاهرة أصبح أنور كثير الصمت وشرود الذهن ، وكان يجلس بمفرده للتفكير فى حديقة استراحة القناطر ، وهى بيت حكومى يقع بعيداً عن التجمعات وضوضاء المدينة ، لم أسأله ماذا ينوى أن يفعل؟ لأن ذلك عمله ولا يحق لى التدخل فيه ، ولكنى قمت بتوفير جو هادئ ومريح له بعد أن أرسلت أولادى إلى بيتنا فى الجيزة ، وفى بداية الصيف كان يجلس يومياً فى الحديقة ولم تكن قد وصلت حتى ذلك الوقت الأسلحة السوفيتية ، وفى شهر يوليو ، وبعد مرور شهرين على إعلان سياسة الوفاق ، وقبل ثلاثة شهور فقط من الانتخابات فى الولايات المتحدة ، تسلم أنور رسالة جديدة من الروس يعلمونه فيها بأنه ليست هناك ضرورة لتسليح مصر لأنها سوف تكون عاجزة عن تحقيق نصر ضد إسرائيل فى جميع الظروف».

(٢١)

وفى هذا الصدد تحدثنا السيدة جيهان السادات عن مدى الغضب الذى كان مسيطراً على الرئيس السادات وهو فى طريقه لإلقاء خطابه الذى أنهى فيه الوجود السوفيتى فى مصر فتقول:

«لم أر أنور غاضباً إلا نادراً ، ولكن فى بيتنا الصيفى فى المعمورة كان وجهه محتقناً من الغضب وهو يخاطبنى ويقول: «يجب أن ألقى خطبة للشعب» وانصرف متوجهاً إلى

محطة التليفزيون وقال لى وهو يغادر المنزل: «إننى سوف أقوم بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر».

«لقد صعقت عند سماعى هذا القرار. فهناك ما يزيد على خمسة عشر ألف خبير سوفيتى يعيشون ويعملون فى مصر. إذا قام أنور بإغضاب الروس وأمرهم بمغادرة البلاد فإن الدولة الشيوعية العظمى قد تقوم بالقضاء على حكومة زوجى. كما أن هذه الخطوة قد تزيد من توتر العلاقات مع الولايات المتحدة. فقد شعرت بأن قرار الطرد سوف يدفع أمريكا لتقديم مزيد من الضغوط على مصر لصالح إسرائيل».

«وسألته بسرعة: «أنور هل أنت متأكد من حكمة القرار؟ ماذا سيفعل الروس لك؟ وما هو الموقف بالنسبة لأمريكا؟» ، ولكنه ذهب دون أن يجيب. وكنت كلما فكرت فى هذا القرار ازددت اقتناعا بأنه الصواب ولو أنه صعب».

والحاصل أن السيدة جيهان السادات لا تكف عن التعبير عن رأيها فى عدم جدوى صداقة لا تفى بما هو مطلوب من الصديق.

وتبالغ السيدة جيهان السادات فى وصف مشاعر الجماهير الإيجابية تجاه قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت ، مع أننا نكاد نتذكر أن حالة من الوجوم كانت تسود الأوساط العامة نتيجة مثل هذا القرار الذى كان فى ظاهرة كفيلا بأن يضحى ببعض القوة التى كانت متجمعة أو محسوبة لقواتنا المسلحة وذلك على الرغم من كراهية الشعب فى عمومه للاستعانة بأجنبى أو وجوده بين صفوف قواتنا المسلحة:

«وأنا أستمع إلى تصريح أنور على شاشة التليفزيون ، سمعت أول أصوات البهجة فى الشارع المجاور لمنزلنا ، حيث بدأ الناس بالرقص والغناء ، وأينما كنت أذهب بسيارتى فى الأيام القليلة التالية كان الناس يحيطون بها ملوحين بإشارات النصر. لم يكن أحد فى مصر يحب الروس لذلك كان قرار أنور بمعارضة الروس قراراً سياسياً ناجحاً ، فقد كان شعب مصر يمقتهم ولا يحبهم. وكان آلاف الروس فى مصر منعزلين وبخلاء مما أدى إلى انعدام شعبيتهم».

والشاهد أن السيدة جيهان السادات تحرص دون مبرر ظاهر على أن تصور العلاقات المصرية ـ السوفيتية وكأنها كانت على الدوام فى حالة برود ، وأن تظهر مدى التباعد والتحفظ فى هذه العلاقات ، بل إنها تؤكد على أن هؤلاء السوفيت كانوا منطوين على أنفسهم ، وتؤثر جيهان السادات أن تتحدث عنهم بالتسمية التى كان يفضلها السادات (الروس ، روسيا) على الرغم من أننا نعرف أن الاتحاد السوفيتى لم يكن روسيا وحدها:

«لم يختلط الروس بالمصريين لتناول وجبة طعام أو شراب بل انطووا تماماً على أنفسهم ، فباستثناء السفير السوفيتى وزوجته فإننى لم أقابل أى شخص روسى فى القاهرة ولا حتى فى الإسكندرية التى كان يقيم بها عدد كبير من الجالية السوفيتية. إن الصداقة والكرم يمثلان دعائم قوية فى عاداتنا وتقاليدنا وديننا ، لكن الروس لم يهتموا بذلك أبداً. لم يهتموا بحضارتنا ولم يشاركوا فى احتفالاتنا ولم يدعونا إلى بيوتهم» .

«ولم يكونوا حتى ضحوكين ، فالمصريون يحبون الابتسامة المشرقة فى الشوارع وفى الأسواق ، ولكن الاكتئاب كان يعلو وجوه الروس دائماً. لقد كان أصحاب المحلات يكرهونهم. فالروس هم الوحيدون بين الأجانب الذين كانوا يعيشون فى مصر فى حب مفقود. لقد كانوا يرفضون إعطاء قرش واحد كربح للشعب الذى يعانى الفقر الشديد ، وكلما أرادوا شراء شىء مما نجيد صناعته مثل أعمالنا النحاسية والمفروشات كانوا يقومون دائماً بالبحث عن الأشياء الرخيصة. هذا كله باستثناء الذهب ، فقد كانوا دائماً يتلهفون لشراء ذهبنا ؛ لأن أسعار الذهب فى مصر كانت أرخص بكثير عما كان فى الاتحاد السوفيتى. لقد قاموا بشراء الكثير من الأساور والقلادات والقطع الذهبية حتى أن المصريين كانوا يقولون إن الروس اشتروا الأسنان الذهبية».



هكذا تصل السيدة جيهان السادات بعد كل هذا التصوير الجيد إلى أن تبرر ما ذكرته من قبل من شعور البهجة الذى عمّ المصريين حين أصدر الرئيس السادات قراره بطرد الخبراء السوفيت وهى تقدم هذه الصورة وكأنها استنتاج طبيعى ، أو كأنها نتيجة حتمية للمقدمات التى سبقتها مما أجادت تصويره :

«.... وهكذا غادر الروس مصر فى شهر يوليو عام ١٩٧٢ ، حيث تركوا أنور فى الوضع الذى كان يتمناه غير تابع لأى جهة. لقد قال لى إن تزويدنا بالخبراء الروس فى الحرب التى كان يستعد لها سوف يدفع السوفييت فى حالة انتصارنا على إسرائيل إلى الادعاء بأنهم هم المنتصرون. لقد أراد أنور أن يخبر العالم بأن المصريين قادرون على تولى أمورهم بأنفسهم ، بالإضافة إلى هذا كله فإن طرد الروس كان بمثابة مناورة للتغطية حيث بدت القوى العظمى وإسرائيل تقنع بأن أنور قد تخلى عن خطته فى محاربة إسرائيل لاستعادة أرضنا».

(٢٢)

ولا يفوت السيدة جيهان السادات أن تلمس أوتاراً مهمة فى نفسيات الأمريكيين الذين يقرأون هذه المذكرات فنراها وهى تحدثهم بذكاء عن مدى معاناتها من عجرفة اليهود المؤيدين لاسرائيل وهى تقفز من هذا الحديث إلى الحديث عن تغير الوضع بفضل مبادرة زوجها ، وكأننا نحن (العرب أو المصريين) كنا مسئولين عن هذا السلوك الصهيونى كله :

«فى رحلته إلى الولايات المتحدة فى ١٩٧٤ عندما كان أنور يزور الأمم المتحدة رفض عمدة نيويورك إبراهام بيم لقاءه. وكان مستر بيم مثل كثيرين آخرين يساوى بين النزاع السياسى بين مصر وإسرائيل ، والنزاع الدينى بين كل اليهود وكل المسلمين. لكنه كان مخطئاً ، فبالرغم من أن بعض التعاطف الدينى لا يزال قائما بوضوح ، إلا أن اليهودى فى الولايات المتحدة أمريكى وليس إسرائيليا وكان بيننا شجار. وتساءلت وقتها عما إذا كان العمدة بيم يعتقد أنه عمدة تل أبيب أم عمدة نيويورك».

«وقد واجهت أنا نفسى موقفاً عدائياً فى نفس الزيارة من موظفة بروتوكول فى لوس أنجلوس ، وأنا أستقل السيارة قادمة من المطار . ردت بصعوبة عندما سألتها عن اسمها وعما إذا كان لديها أطفال وعما إذا كانت تستمتع بالطقس المشمس فى كاليفورنيا الجنوبية. وسألت مسئول المدينة الذى كان يرافق أنور عندما وصلنا إلى الفندق: «ما حكاية هذه السيدة ؟» ، وبدا عليه الحرج ، وقال موضحاً: «لقد رفضت فى البداية أن تقابلك تماماً مدعية أنها مريضة. وقلت لها إنها كموظفة بروتوكول ليس من شأنها أن توافق أو لا توافق على ضيوفنا. لكنها يهودية وكان الأمر صعباً عليها».



وتردف صاحبة المذكرات بعد هذا كله بالحديث عن أن الأوضاع قد تغيرت ، وتبدو وكأنها تفقأ عين الواقع لأننا حتى كتابة هذه السطور نعرف أن الحاجز لم يتلاش تماماً ، بل إن ممارسات بعض الصهاينة تعيد بناءه مرات ومرات:

«الآن انقضى كل ذلك والعكس يحدث فى الواقع ، فقد تلقينا دعوات كثيرة جداً لحفلات واستقبالات فى كل أنحاء أمريكا لتسلم شهادات تكريم من الجامعات ومفاتيح عشرين مدينة مختلفة على الأقل ، ومنذ تلك اللحظة وفى أى مكان من العالم أذهب إليه

كنت أرى أن أكثر الذين يتحدثون عن زوجى بتأثر شديد مصحوب عادة بالدموع فى أعينهم هم اليهود».

(٢٣)

ويحفل حديث صاحبة هذه المذكرات عن العلاقات مع الإسرائيليين بعد معاهدة السلام بقدر كبير من الرومانسية المبررة وغير المبررة أيضا:

«.... ففى ٢٥ مايو ١٩٧٩ وبعد شهرين من عودته طرنا إلى العريش ومعنا الوزراء للاحتفال بأول مرحلة لعودة سيناء. لم يكن قلبى قط كبيراً مثلما كان فى هذا اليوم. لقد وفى أنور بوعده للشعب المصرى لاستعادة أرضه. وقد وفى بالوعد دون سفك الدماء. كم بدت العريش جميلة وهادئة فى ذلك اليوم. أشجار النخيل كانت تلوح على الأرض المنبسطة ومن خلفها البحر الأزرق. كانت هناك ذكريات كثيرة. فهنا بدأنا أنور وأنا حياتنا الزوجية معاً قبل ثمان وعشرين سنة. وفيها ذاقت مصر أقسى ذل بفقدان هذه الأرض لمدة إحدى عشرة سنة. الآن وبطريقة سلمية تعود إلينا ثانية. وعندما حمل حرس الشرف العلم المصرى ليرفرف مرة أخرى على أرض سيناء انحنى أنور أمامه وقبله وفعل كل الوزراء نفس الشىء. وكثير من مخضرمى الحرب الذين تجمعوا معنا فى العريش لمشاهدة عودة الأرض التى حاربوا ببسالة من أجلها ، لقد دمعت عيونهم كما دمعت عيناى. إنه من أجل هذه اللحظة صلى زوجى وعمل لمدة طويلة. من يصدق أن ذلك كان سيحدث فعلاً ؟».

وتردف السيدة جيهان السادات بالقول:

«لقد شعرت بقيمة هذا الإنجاز عندما قبلنا زوجى وأنا فى سبتمبر دعوة بيجين لزيارة إسرائيل. وعندما وصلنا إلى حيفا عن طريق البحر تم استقبالنا بإطلاق إحدى وعشرين طلقة تحية لنا. وكان ينتظرنا على الشاطئ جموع من الناس يتزاحمون بشدة لدرجة أنك لا تستطيع رش الملح بينهم. كانت لافتاتهم تقول: «مرحباً بالسادات» و«مرحبا.. مرحبا» ، لقد كانت الإثارة واضحة فى أعينهم وفى ابتساماتهم بما يكفى لإدراك أنها لم تكن حفلة ترحيب أمرت بها الحكومة ، بل حفلة ترحيب حقيقية خالصة».

«وقلت لأنور بينما كنا نستعد للنزول إلى أرض إسرائيل: «لماذا قضينا كل هذه السنين نحارب هؤلاء الناس؟» ، وضحك أنور وقال: «ليس هذا ياجيهان وقت الكلام فيه».

«كانت إليزا بيجين كريمة جداً ، فقد صحبتنى لزيارة المستشفيات ومركز للمعاقين ومدارس تمريض وحتى لإلقاء محاضرة بالجامعة عن جهودنا فى مصر من أجل المعوقين. وفى إحدى المستشفيات تم استقبالى استقبالاً حاراً وجعلونى أشاهد جهاز فحص آلى «سى. إيه. تى ، وكان الإسرائيليون فخورين به للغاية بعد أن حصلوا عليه مؤخراً. ولم أستطع السكوت فقلت: «ونحن لدينا واحد أيضاً فى الوفاء والأمل». وحملق أنور فى وجهى قائلاً: «لا تقولى ذلك.. هذا جديد بالنسبة لهم وهم فخورون به» ، وقلت: «حسناً وأنا أيضاً فخورة بجهاز الفحص الآلى «سى. إيه. تى» الذى لدينا» ، وأضفت مؤكدة: «كنت سعيدة جداً لأننى قابلت «لسيه رابين» زوجة إسحق رابين رئيس الوزراء السابق فى حفل غداء. فقد التقينا من قبل فى عام ١٩٧٥ فى مؤتمر المرأة العالمى التابع للأمم المحدة الذى عقد فى مكسيكوسيتى لكنى لم أتحدث إليها ورفضت حتى مصافحتها لأنهم كانوا يحتلون أرضنا. أما الآن فقد احتضنت كل منا الأخرى».

«قلت لها: «اعتذر عن فظاظتى فى مكسيكوسيتى».

«وردت قائلة: «لا عليك».

«وأردت أن أبلغها بالارتياح الذى أشعر به الآن ، فقلت لها: «كسيدة أردت أن أجلس معك لبحث مشكلات مشتركة بيننا لكن السياسة منعت ذلك .. دعينا نجلس معاً الآن» ، وجلسنا».

(٢٤)

وتصل الرومانسية فى حديث السيدة جيهان السادات عن العلاقات بين المصريين واسرائيل إلى حدود خطرة تجعلها دون أن تدرى تذكر أن ابنتها جيهان كانت مفتونة بشعب اسرائيل !! أإلى هذا الحد تصل الأمور ، نعم إننا نستطيع أن نقدر رومانسية صاحبة المذكرات ولكن لابد لها أن تقدر أن الجماهير تنظر إليها على أساس أنها سياسية قادرة على التوفيق بين الاعتبارات المختلفة وهى تتحدث أو تكتب ، مهما كانت اقتناعاتها الشخصية ، ومهما كانت طبيعة الانفعالات الشابة وغير الشابة:

«وكانت ابنتى جيهان مفتونة بشعب إسرائيل ، أينما كانت تذهب للفرجة كان الناس يلتفون حولها فى الشوارع للترحيب بها. وفى أحد المحلات توقفت لشراء أشياء تذكارية

ورفض صاحب المحل أخذ أى ثمن لها وأصر قائلاً: «من فضلك اقبليها كهدية من بلدنا لأسرتك».

«كانت لا تزال هناك لحظات تبعث على الصدمة والذعر. فقد كنت أرتعد قليلاً كلما أرى هليكوبتر إسرائيلية تذكرنى بالرعب الذى كانت تحدثه فى الحروب. كانت الصدمة أقسى عندما طرنا بالفعل بالهليكوبتر مع عيزرا وايزمان فى الطريق إلى المطار ونحن نعود إلى مصر. قال هذا الرجل الرائع الذى أحبه زوجى كثيراً جداً جداً: «هل تحبين أن تأتى إلى المقدمة وتجلسى بجانب الطيار؟ يمكنك من هناك أن تشاهدى أفضل».

«ظللت أحملق فى الطيار فى زيه العسكرى وهو يشير إلى المناطق الزراعية التى نحلق فوقها والمناطق الصناعية والمناطق التى يقطنها عرب ويهود معاً. هذا الضابط نفسه بهذه الطائرة نفسها يمكن أن يكون واحداً من الذين كانوا يقتلون جنودنا قبل ذلك بسنوات قليلة. الآن يأخذنا فى جولة للفرجة وهو فخور بنا».

«وعدنا إلى القاهرة، وأسقطت من اعتبارى الانتقادات التى كانت قد بدأت تظهر فى الصحافة المصرية تتهم أنور بأنه دفع أكثر مما ينبغى ثمناً للسلام مع إسرائيل. هل هم غير مهتمين باستعادة سيناء؟ ولم أدهش أيضاً للمظاهرات المتفرقة ضد الحكومة من جانب المتطرفين الإسلاميين. بالليل عندما أعلن زوجى والرئيس كارتر معاً أنه تم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل اضطر البوليس لتفريق مظاهرة فى جامعة أسيوط بالغاز المسيل للدموع. أدركت أن هؤلاء المتطرفين لن يوافقوا أبداً على السلام، لكنى اعتقدت أنهم سيرون قريباً جداً أنه لم يكن لدى مصر بديل».

«وأخذت النيران التى كانت على وشك أن تلتهم زوجى تنتشر».

(٢٥)

وتخصص السيدة جيهان السادات عدة صفحات من كتابها للحديث عن حواراتها مع الرئيس السادات فى أيامه الأخيرة، وتحفل هذه الحوارات بقدر ملحوظ من التعبير عن مرارة صاحبتها تجاه تصرفاتها غير المنتبهة بالقدر الكافى إلى ما تخبئه الأقدار، وهى التى لم تتمكن من أن تكتشف حقيقة مشاعر زوجها فى أيامه الأخيرة بقرب منيته، ونحن نقرأ فى عبارات السادات نموذجا ما للحكمة البشرية المصفاة التى تدرك فى ذكاء أو إلهام بعض نعم الله وحكمته وإرادته:

«وثلاث مرات فى سبتمبر قال لى: إنه سيقابل ربه ، ورددت عليه وأنا أمزح فى أول مرة بينما كنا نسير معاً فى الحديقة وسألته «إنه أمر شيق يا أنور.. متى أخبرك الله إنك ستقابله»، وفى المرة الثانية أخذت أمزح أيضاً على الرغم من أننى أحسست باضطراب ، فهذا ليس السادات الذى عرفته ، الواقعى ، القوى الذى لم يعش مطلقاً فى الوهم ، وفى المرة الثالثة ، لم أقل شيئاً على الإطلاق».

«وفى بداية شهر أكتوبر وخلال جولة أخرى لنا معاً قال لى: إن الله منحنى أكثر مما كنت أحلم ، فلقد انتصرنا فى الحرب وانتصرنا فى السلام ، لقد وضعت أسس الديمقراطية فى مصر ، ووضعت مبادئ الرخاء الاقتصادى ، فماذا يريد إنسان أكثر من ذلك؟ لقد أنجزت مهمتى التى فرضها الله علىّ».

«وسألته: «لماذا تعتقد أنك أنجزت مهمتك؟ إن الله لا يكشف مطلقاً أسراره لأى قلب بشرى..».

«ولكن إجابته كانت جاهزة : «إننى لم أدع مطلقاً ياجيهان أنى أعرف أسرار السماء، ولكنى أشعر أن حياتى بفضل الله أدت دورها..».

«وبدأ يتحدث عن مكان الدفن ورغبته فى أن يدفن عند جبل سيناء ، ولكن كلما تكلم هو عن هواجسه وما يجول بداخله تحدثت أنا بإسهاب عن الحياة المستقبلية التى نتطلع إليها سوياً».

«وسألته بمرح: «إلى أين ستأخذنى أولاً ؟ إلى الغابة السوداء فى ألمانيا أم إلى فيينا حيث نستطيع أن نغنى على الدانوب؟ وأجابنى: «آه ياجيهان» ، وواصلنا السير ، ورفضت أن أستجيب أو أستسلم لهبوط معنوياته ، فلازلت على هذه الأرض وأريده أن يكون عليها أيضاً ، وفى الثانى من أكتوبر قلت له ونحن نسير فى حديقة منزلنا بالجيزة : أنور.. أنت تفسد (جمال) لماذا تدعه يذهب إلى أمريكا ، يجب أن تقول له لا».

«وابتسم أنور فى وجهى قائلاً: أريد أن أفعل كل شيء من أجله خلال وجودى على قيد الحياة ، وسوف ترين أنه ليس مدللاً ، فعندما أرحل فسوف يظهر لك أنه رجل بمعنى الكلمة وأنه قادر على تحمل المسئوليات».

«وسألته: «كيف تعدنى بذلك؟ إنك سترحل وأنا سأرحل معك».

«وردد: سوف ترين ياجيهان.. سوف ترين..».

(٢٦)

وتمضى السيدة جيهان السادات فى نفس الخط لتروى تفصيلات أحد المواقف العائلية التى كان ينبغى عليها وعلى بعض أفراد أسرتها أن تستشف منها أن الرئيس السادات كان على وشك الرحيل .. وتكاد السيدة جيهان السادات بهذه القصص والآراء تعبر تعبيراً صادقا ودقيقاً عن طبيعة أفكار المصريين وتصوراتهم وتأملاتهم فى مثل هذه المواقف المرتبطة بالقدر والحياة والموت:

«... وفى الثالث من أكتوبر غادر جمال القاهرة متوجهاً إلى كاليفورنيا ، وعانق والده وعانقنى مودعاً وهبط درجات السلم متوجهاً إلى سيارته ليعلم أن رحلته سوف تتأخر لمدة نصف ساعة ، فصعد السلم ثانية ليمضى الوقت المتبقى مع والده».

«وقال لى جمال فيما بعد: «إن أبى كان يتصرف بغرابة شديدة فى ذلك اليوم ، فعندما تركته قلت له: «لا إله إلا الله» ، لكنه لم يجب كالمعتاد «محمد رسول الله» ولم يقل أى شىء ، فقط ابتسم: «وقال لا تبق كثيراً فى الولايات المتحدة ياجمال وعد سريعا»».

«وسألته: «وماذا قال أيضا ياجمال؟» وأجاب جمال وعلامات القلق على وجهه قال: خذ بالك من والدتك ، وهو لم يقل لى من قبل على الإطلاق هذه الجملة ، وكان عادة يقول: خد بالك من شقيقاتك. وقلت له لأهدئ من روعه : «هذا ما ستفعله فقط»».

ثم تردف صاحبة المذكرات هذا كله بالحديث عن اليوم السابق على استشهاد زوجها:

«وفى الخامس من أكتوبر قضيت الصباح أعمل فى رسالة الدكتوراه ، وكالعادة لم يكن لدى لحظة أضيعها وحسدت أنور لجلوسه فى الحديقة يحاول أن يقرأ فى حين كانت ياسمين ابنة جمال التى تبلغ من العمر عامين ونصف العام تدور حوله. لكم كان أنور يبدو مستسلماً وسعيداً من نافذتى ، كان يتطلع كما أعلم للعرض العسكرى فى اليوم التالى ، واستعداداً لهذا اليوم أعددت حلته الجديدة وكويت وشاحه الكبير وأرسلت حذاءه «البوت» لتلميعه ، «وباستثناء جمال فقد كان كل أولاده وأحفاده يعتزمون الحضور ليشاركونا إحياء الذكرى الثامنة لانتصارنا على إسرائيل ، ولن يكون هناك خطر من أفراد القوات المسلحة فى العرض العسكرى فإن السادس من أكتوبر يوم عيد وفرحة لنا جميعا وهو يوم راحة من التوتر الذى كان يجتاح قلبى وفى هذا اليوم بالذات لا يجب أن تكون هناك سحابة واحدة فى سماء مصر تعكر صفونا فى هذا اليوم العظيم».

(٢٧)

وتصدقنا السيدة جيهان السادات الرواية عن حقيقة مشاعرها فى الأيام الصعبة التى تلت رحيل الرئيس السادات ، وهى فيما ترويه عن هذه الأيام تتواءم مع ما نعرفه عن طبيعة التجربة الإنسانية التى تدفع أهل المتوفى إلى زيارة قبره كثيراً فى البداية .. كما أنها من ناحية أخرى تعبر بدقة عن حالة الذهول التى كانت تجتاحها :

«وكنت كل يوم فى البداية ، أتسلل من منزلنا لزيارة قبره ، لأشعر بقربه ولأهدئ روحه. وكنت أواسى نفسى ، إن أنور فى الفردوس ، فلقد مات أنور شهيداً ، والشهداء فى الإسلام ينتقلون إلى الفردوس مباشرة ، ولقد بورك أنور مرتين: فإن الله قد أخذ روحه بسرعة وبأقل معاناة ، والله سبحانه يجنب الألم هؤلاء الذين يحبهم أكثر».

«وبالرغم من أنى كنت أعرف دائما أن زوجى سوف يقتل لشجاعته ولرغبته فى السلام ، فلم أكن مهيأة لذلك .. لقد تحطم قلبى».

«وكان الناس الذين يحبوننى يقولون وهم واقفون فى ذهول وحزن ، عند قبر زوجى ، كلما ذهبت حتى فى أوقات متأخرة من الليل:

«فليباركك الله ياسيدتى».

«الله معك ياسيدتى».

ومع أن هذه العبارات « الفصحى » لاتعبر تماماً عن العبارات العامية التى تقال فى مثل هذه المواقف من قبيل « البركة فيك ياسيدتى » إلا أن القارئ العربى يستطيع إدراك النصوص التى قيلت بالضبط :

«وكان بعضهم يصلى ، وبعضهم يبكى ، والبعض الآخر يحملق فقط فى ذهول».

(٢٨)

ولا تنسى السيدة جيهان السادات أن تصور مشاعر أسرتها الصغيرة بعد رحيل الرئيس السادات فتغلبها إحساساتها ومشاعرها ، وحسناً فعلت حين تركت هذه الأحاسيس والمشاعر تتغلب عليها فى هذه الفقرات التى منها قولها:

«وكان أولادنا محطمين».

«وقال جمال وهو فى أعماق حزنه ، وهو الذى كان يجلس دائماً خلف أبيه فى احتفالات السادس من أكتوبر:

«لو كنت معه فقط ، لكنت دفعته على الفور إلى الأرض ، وألقيت بجسمى فوقه».

«وكنت أحاول أن أهدئ من ولدنا قائلة:

«لا يا جمال ، إن حياته ليست فى يديك ، ولكنها فى يدى الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد كان يستطيع أن يفعل شيئاً لتأجيل أجله».

«ولكن جمال كان مكسور النفس وظل لمدة شهور بعد ذلك فى حزن عميق ، شاعراً أنه قد تخلى عن أبيه».

«وعانت ابنتنا الصغرى ، نانا ، أيضاً بشكل فظيع، فكانت تزور قبر أبيها كل يوم لمدة شهور ، وتأتى للبيت كل مرة والدموع تنهمر على خديها. ولم تستطع التخلص من حزنها، وكنت أخاف أن يكون هذا بداية مرض يلم بها ، فحثثتها برفق:

«لا تذهبى كل يوم يا نانا ، إن أباك لن يرضى أن يراك حزينة بهذا الشكل».

«ولكنها استمرت فى زياراتها حتى اضطررنا لمنعها».

(٢٩)

وتحرص صاحبة المذكرات على أن تشير بطريقة غير مباشرة إلى معاناتها من التصرفات التى كانت تنسب إليها وتستغل اسمها فى أنشطة أو تجاوزات لم تكن توافق عليها ، ومن حسن الحظ أن السيدة جيهان السادات كانت واعية لأن تتحدث عن هذه الجزئيات فى كتابها هذا المهم ، فمن الواجب الدينى علينا ونحن فى مواقع القدوة أن «نذب الغيبة عن أنفسنا» على نحو ما علمنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حسن الحظ أن السيدة جيهان السادات وجدت الشجاعة لأن تورد بعض ما تواتر عن استغلالها للنفوذ وأن تواجهه فى ذات الوقت بموضوعية وشجاعة حيث تقول:

«فجأة فى كل مكان أذهب إليه أسمع شائعة أخرى عن «فسادى» وفى وقت من الأوقات عرض «إبراهيم لطفى» رئيس مجلس إدارة بنك ناصر المصرى توحيد القوى مع «الوفاء والأمل» من خلال استثمار مشترك فى أسطول صغير من سيارات الليموزين يتم

تأجيرها لـلسائحين ، على أن تخصص نصف الأرباح للوفـاء والأمل ، ولكن عندما أرسل البنك السيارات الليمـوزين والسائقـين إلى الوفاء والأمل حـتى يتفقـدها أعضـاء مجلس الإدارة ، أخبر السائقون بطريق الخطأ الناس بأنهم سلموا السيارات شخصياً لى فى الوفاء والأمل ، وانتشـرت الكلمة بسرعـة عن طريق المعارضـين ورددوا أننى اشتريت السـيارات لاستـخدامى الخاص ، وحـتى عندما قـرر مجلس إدارة الوفاء والأمـل عدم الاستـمرار فى المشـروع على الإطلاق لعدم جـدواه المالية ، فـإن الشائعـة لم تمت ، واستـمر الحـديث عن «سيارات جيهان» ينتشر سريعاً ، وكان علىّ أن أنفى صحته فى حديث مع التليفزيون».

«لقد كـان وقتاً سـيئاً حـيث بدأ بعض الأفراد الذين قلمـا قابلتـهم فى استخـدام اسمى لتبرير تصرفاتهم غير القانونية ، وقـد قام أحد الموظفين السابقين بالوفاء والأمل بملء سيارة لورى ضـخمـة بأجهـزة التليفـزيون وأدوات أخرى من المنطقـة الحرة فى بورسـعيـد وأبلغ موظفى الجمارك بأنه يـحمل هذه البضائع من أجل أعمال الخيـر وبناء على أوامر من قرينة السادات ، ولحـسـن الحـظ ألقى القـبض على هذا الشخص بينـما كان يحـاول تكرار هذه الخدعة لثالث مرة ، وذلك عندما اتصل أحد مسئولى الجمارك بمكتبى للتأكد من الأوراق، ولو لـم يتصل بى أحد فإننى ما كنت قد عرفت مطلقاً ماذا حدث».

(٣٠)

وفى نفس هذا الإطار الذى تدافع فـيه صاحـبة المذكرات عن صـورتها تضرب السـيدة جيـهان السادات المثل بنمـوذج آخر أكثر تحـديداً من السلوك غير المسـئول كان أكثـر إيلاما لهـا:

« ... وحادثة أخرى كانت أكثر إيلامـاً ، ففى خطاب من ضابط بالبحرية فى عام ١٩٨٠ يقول: «لقد صدمـت وأصبت بخيبة أمل ، وإننى دائما مـعجب بعملك مع جنودنا ، ولكن ليس ذلك ولا اقـترانك بالرئيس يمنحك الحق فى أن تسـتولى على الأرض التى اشـتريتـها لأسـرتى فى الإسكندرية» ، وأحسـست باضطراب كـامل ذلك لأن الأرض الوحيـدة التى أمتـلكها كـانت ١٢ فداناً أمـتلكها مناصـفة مع ابنى جـمال فى «مـيت أبو الكوم» ، وازداد اضطرابى عندما أرسلت أحد الأشخاص من مكتـبى للتحقيق فى هذه المسألة ، وأبلغنى بأن الضابط على حق حـيث توجد لافتة كبـيرة على أرضه كتب عليـها أن هذه الأرض مملوكة لجيهان السادات».

«وسرعـان ما اكتـشفت الحـقيقـة ، فقد وضـعت هذه اللافتـة بواسطة «جيـهان طلعت السادات» ابـنة طلعت شقـيق أنور ، فقـد اشتـرى زوجها الأرض من ضـابط البحـرية ، ثم اختلـف الشريكان على مـساحـة الأرض المخصصـة وقد حـاولت ابنة شقـيق أنور أن تحل المشكل بتخويف الضابط فوضعت اللافتة ، ولغرض ما أسقطت «طلعت» من اسمها الذى كتبـته على اللافتة ، فـعندما يدرك الضابط أن حرم الرئيس مـعنية بهذا النزاع فإنه سـيتخلى عن موقفه ويستسلم».

«وشـعرت بالغـيظ والضـيق ، وكذلك أنـور ، وطلب أنور من جيـهـان ابنة طلعت أن تسوى نزاعـها على الأرض فـوراً فى المحكمة ، وبصـورة قانونية وتم حـل المسألة ، إلا أن الشائعات ظلت باقية».



وتعترف صاحبة المذكرات بأن الرئيس السادات كان على النقيض منها أكثر هدوءا حين يواجه مثل هذه الهجمات أو الشائعات فتقول:

«وكـان أنور أكثـر هدوءا منى فى مـواجهـة مـعظم الهجـمات الـتى كانت تشن ضـده وضدى ، وكان يقول لى: «لا تلقى بالاً لما يقولون ، فإذا لم يجـدوا أمراً تتورطين فيه فإنهم سيجدون شيئاً آخر ليرفضوه أو يشككوا فيه».

وهنا تعقب السيدة جيهان السادات بقولها:

«لقد كان على حق بالتأكيـد وكنت أعرف أننى لا أستطيع إرضاء كل شخص ، ولكنى أيضاً كنت أعـرف أننى لم آخذ أى شىء من مخـصصات أعـمال الخير ، وقـد حاولت أن أتجاهل الاتهامات الطائشة ضدى ، إلا أنها ظلت ضارية ، والهجمات استمرت».

(٣١)

ويحفل هذا الكتاب بكثير من الطرائف فى كثير من فصوله ، ومن هذا ما ترويه صاحبة المذكرات عن استقبال السادات لاليـزابيث تايلور فى مصر بعد أن قام بمبادرته ومضى فى سبـيل السلام وهى تحـرص ربما دون أن تدرى على أن تقدم لنا هذا المـوقف بطريقة نسـائية طريفة :

«ففى سبتمبر من عام ١٩٧٩ ، استفسرت الممثلة الأمريكية اليزابيث تايلور عما إذا كان بإمكانها زيارة مصر ، وتحمست ، فاليزابيث هى ممثلتى المفضلة لأنها لم تكن فقط جميلة ولكنها أيضاً كانت مفعمة بالروح الفنية الهائلة ، وكنت دائماً أتطلع إلى مقابلتها ، ولكن مثلها مثل الذين زاروا إسرائيل كان محظوراً عليها لعدة سنوات دخول دولتنا».

«وبالقطع بعد اتفاقات كامب ديفيد لم يعد هناك حظر بالنسبة للذين زاروا إسرائيل من قبل ، والقائمة السوداء العربية لم تعد تنطبق علينا ، ومن ثم فقد كانت سعادتى بالغة أن أدعو اليزابيث تايلور إلى احتساء فنجان من الشاى معى فى منزلى بالقاهرة ، واتفق كل أبنائى على الحضور لرؤيتها وقضينا معاً وقتاً جميلاً ، ولكن اليزابيث تايلور كانت تشعر بخيبة أمل لأنها لم تشاهد أنور الذى كان فى الإسماعيلية ، وقلت لها: «ربما أستطيع أن أرتب لك لقاء معه قبل أن تغادرى القاهرة».

«واتصلت بأنور تليفونياً فى الإسماعيلية وأبلغته «معى شخص هنا يريد مقابلتك» ، إلا أنه أخطرنى بأنه مشغول جداً بدرجة يتعذر معها مقابلة أى شخص ، فأجبته «يالسوء الحظ يا أنور.. سوف تصاب اليزابيث تايلور بخيبة أمل» ، وبعد برهة من الصمت قال ضاحكاً: «فى هذه الحالة دعيها تأتى ، مرحباً بها».



وفى نهاية هذا الباب يجدر بى أن أذكر ما كان يجب علىّ أن أبدأ به ، وهو أنى سعيد غاية السعادة بصدور هذا الكتاب الذى يروى بعض ملامح هذه السيدة العظيمة التى لا تتكرر كثيراً ، ولكننا نرجو الله أن تتكرر ، وإلى أن تتكرر فإنى أدعو الله لها بالصحة ، والسعادة ، وهناءة البال ، والمزيد من التوفيق ، وحب الناس.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

3

أيام من حياتى
للسيدة زينب الغزالى

دار الخيّال

(١)

هذه مذكرات صارخة تتناول فيها كاتبتها السيدة زينب الغزالى تجربتها مع المعتقلات فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر ، وتنطلق من هذه التجربة إلى الحديث عن تجربتها الأوسع والأطول والأعرض فى النشاط السياسى والإسلامى منذ منتصف الثلاثينيات .

كتبت هذه المذكرات فى بداية موجة الحديث الصريح عن المعتقلات فى عهد عبدالناصر وطبعت هذه المذكرات ونشرت فلاقت رواجاً شأنها شأن كل المذكرات والروايات التى نشرت عن هذه الفترة التى لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً مسجلاً ومكتوباً على صحائف ، ثم أعيد طبع هذه المذكرات مرة بعد أخرى على نحو ما يطالعنا به الناشر فى تعداده للطبعات الصادرة من هذه المذكرات فى ظهر الغلاف الداخلى ، ولكن قراءة هذه المذكرات اليوم قد يعطى الفرصة للاتجاهات المنتقدة للنشاط السياسى الإسلامى لتضع أيديها على ما قد يُسمى فى لغة الخطاب الإعلامى المصرى باعترافات كثيرة ، وعلى غاية من الأهمية ترويها بثقة شديدة السيدة زينب الغزالى .

وسوف نحاول ، بإذن الله ، أن ننظر إلى هذه المذكرات بعيون غير متأثرة بالهوى الجامح الذى تخلقه المعاصرة ، وكأننا نستعير سلفاً عيون منتصف القرن الحادى والعشرين حين يكون الخلاف السياسى والعقائدى الذى أدار كثيراً من محاور هذه المذكرات قد تباعد عن التأثير على حكم القارئ على ما يقرأ فى مثل هذه المذكرات ؛ إنما نريد فى هذا الفصل

أن نتحدث عن مجموعة من المعانى والمغازى المختلفة دلتنا عليها هذه المذكرات حين كتبتها صاحبتها على هذا النحو من السرد المتصل الذى لا يتوقف إلا ليتناول جزئية من الجزئيات التى ينبغى لها أن تتضح فى ذهن القارئ حتى يمضى فى التسلسل الذى أرادته المؤلفة لما تريد أن تتحدث عنه.

(٢)

نطالع السطور الأولى لكتابة هذه السيدة فلا نجدها تبدأ بتعريفنا بنفسها من حيث سارت حياتها طبيعية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، ولكنها تبدأ الكتاب بما هو مطلوب يومها من الحديث عن خصومتها مع عبدالناصر وتجعل عنوان الفصل الأول من كتابها «عبدالناصر يكرهنى شخصياً» ، وتروى لنا تجربتها الأولى مع أجهزة الأمن فى منتصف الستينيات ، وتدير حوارات متعددة إلى أن تصل إلى عبارة تضعها على لسان واحد من رجال الأمن يقول لها فيها إن عبدالناصر يكرهها شخصياً.. وهكذا يتناول الكاتب أو المحرر الذى صاغ عناوين الكتاب وترتيبه (وأغلب الظن أنه شخص آخر غير السيدة زينب الغزالى) هذا السطر فيجعله عنوان الفصل ومدخل الكتاب كله.

«... وجاءتنى السكرتيرة فى أمسية استجمعت فيها شجاعتها لتنقل إلىّ وبوجود زوجى ما أخفوه عنى. كان الأمر خطيراً على ما بدا من موقف زوجى المُذكِر بشجاعتى والمشجع على الصبر والاحتمال وقوة الإرادة ، وأخذت الأوراق من السيدة فإذا هى قرار «بحل المركز العام لجماعة السيدات المسلمات» ، وأخذت السكرتيرة تتحدث إلىّ قائلة: «طبعاً يا حاجة الأمر شديد بالنسبة إليك». قلت: «الحمد لله ، ولكن ليس من حق الحكومة أن تحل الجماعة ، إنها جماعة إسلامية» ، أجابتنى: «لا أحد يقدر أن يقول للحكومة هذا ، لقد بذلنا مجهوداً كبيراً جدا ، ولكن عبدالناصر مصرّ على حل الجماعة ، هو يكرهك شخصياً ياحاجة زينب!! لا يطيق أن يسمع اسمك على لسان أى إنسان. عندما يذكر اسمك يثور ويغضب وينهى المقابلة».

«قلت: «الحمد لله الذى جعله يخافنى ويبغضنى وأنا أبغضه لوجه الله ، ولن يزيدنا طغيانه ، نحن معشر المجاهدين ، إلا إصراراً على أن نرضى ضمائرنا ونعيش لدعوتنا ، إنها دعوة التوحيد وستنتصر بإذن الله ، وأرخص ما نبذله لها أن نستشهد فى سبيلها».

«ليس لعبد الناصر الحق فى أن يحل جماعة السيدات المسلمات. إن الله تبارك وتعالى هو الذى يعقد للمسلمين راياتهم ، والذى يعقده الله لا يحله البشر».

«قالت والدموع فى عينيها: «ياحاجة المسألة خطيرة ، ونرجو الله أن لا تنتهى بحل الجماعة ، ربما كانت كلماتك هذه تسجل ، أو أنها قد سجلت فعلاً ، ربما كان هنا جهاز تسجيل». كانت تسر فى أذنى بهذه الكلمات وكأنها تخشى تسجيل كلماتها ، واستمرت تسر إلىّ: «ياحاجة أنا أطلب منك شيئاً صغيراً وهو التوقيع على هذه الورقة ، فإذا وقعتها سيلغى قرار الحل». فسألتها أن تطلعنى على الورقة فإذا هى استمارة انتساب للاتحاد الاشتراكى ، فقلت لها: «لا والله ، شلّت يدى إذا وقعت يوماً على ما يديننى أمام الله بأننى اعترفت بحكم الطاغوت جمال عبدالناصر الذى قتل عبدالقادر عودة وزملاءه. إن الذين غمسوا أيديهم فى دم الموحدين ، خصوم لله وللمؤمنين. الأشرف لنا أن يحل المركز العام للسيدات المسلمات».

«قبلت رأسى وهى تبكى وتقول:

«أتثقين بأننى ابنتك؟»

«قلت : نعم».

«قالت : فاتركى هذا الموضوع».

«قلت: سنترك الأمر ، ولن أوقع هذه الورقة ، إن فيها ولاء للطاغية ، وهذا أمر مستحيل إتيانه والله يفعل ما يختاره لعباده».

«ومرت أيام المستشفى وتقرر خروجى مع استمرار العلاج».

على هذا النحو من المواقف «الفرادى» تقدم السيدة زينب الغزالى كثيراً من الحوادث والوقائع دون أن تربطها بخيط متواصل مع ما بعدها أو مع ما قبلها ، وكأنها تكتفى بالجو العام الذى تصوره ، وكأنما هى تعلم أن كتابها سيوظف على مستوى هذه الوقائع الفرادى دون أن ينتبه أحد إلى أن يسأل فى كل واقعة ذلك السؤال المنطقى الذى يقول: وماذا حدث بعد ذلك؟

(٣)

ومع هذا فنحن لسنا بصدد التحقيق فى مثل هذه الواقعة ، لأنها فى رأينا المتواضع لا تضيف إلى فهمنا لتجربة هذه السيدة التى عبرت عن كثير من ملامح تجربتها على نحو

جيد وموح بما أرادت التعبير به وعنه ، ، ويهمنا أن نذكر للقارئ أن السيدة زينب الغزالى كانت ككثير من شباب وشابات أمتنا العظيمة فيما بين الثورتين (١٩١٩ ـ ١٩٥٢) من أولئك الذين يرتبطون بعلاقة قوية بزعامة النحاس باشا وحزب الوفد ، وقد يرتبطون فى نفس الوقت بتقارب فكرى أو وجدانى مع المغفور له حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين .. وأحب أن أنتهز هذه الفرصة لأقول إن هذا كان شأناً طبيعياً جداً ، فكل هؤلاء أبناء وطن واحد وثقافة واحدة ، ولم يكن هناك أدنى مبرر لأن يتحول الخلاف السياسى إلى خصومة شديدة على الرغم من أن عدداً لا يستهان به من ممارسى العمل العام فى هذه الفترة قد انزلقوا إلى هذا الطريق من دون أن يدروا ، وما تزال أصداء مثل هذه الخصومات تتردد فى الكتابة عن هذه الفترة ، وليس من شك أن من الطبيعى أن يقدر المواطن المصرى جهود النحاس وزعامته الوطنية التى لا جدال فى عظمتها وسموها ، وأن يقدر أيضاً المعانى الإنسانية الجميلة التى بدأت بها جماعة الإخوان المسلمين دون أن يكون مضطراً إلى تأييد ما نسب إلى الجهاز السرى للإخوان أو الرضا به ، ويبدو أن زينب الغزالى كانت من هذه الأغلبية طيلة ما قبل الثورة ، ولكن الظروف فيما بعد هذا دفعتها إلى طريق آخر كانت فيه ـ فى نظر الحكومة وأجهزتها المختلفة ـ واحدة من أبرز نشطاء العمل السياسى السرى وأخطرهم على أمن الدولة.

للسيدة زينب الغزالى إذن أقنعة متتالية أو مركبة فى حياتها ، وهى إذن ليست شخصية تقليدية ، ولا سهلة المراس ، وهى كذلك فى حديثها عن نفسها ، سواء كتبته أو أملته أو أجابت به.

(٤)

والشاهد أننا نجد السيدة زينب الغزالى فى هذه المذكرات حريصة ولكن على استحياء شديد على أن توضح طبيعة انتمائها وعقيدتها السياسية ، وهى لا تفصل القول فى هذه النقطة المهمة ولكنها تتناولها تناولاً سريعاً جداً حين يأتى السياق إلى الموضع الذى لابد لها فيه من أن توضح هذا الانتماء ، ولكنها فى الحقيقة كانت قد سبقت وأشارت فى موقع متقدم من كتابها إلى جهودها فى الوساطة بين مصطفى النحاس وحسن البنا ، وذلك حيث تروى هى نفسه فى صفحة ٢٥ فقرة سوف نستشهد بها عما قليل ، ولكننا هنا لابد أن ننقل للقارئ انطباعاتها الأولى عند سماعها نبأ وفاة النحاس باشا حيث تقول:

«... وأرادت علية أن تغير الموضوع وأن تخرج بى خارج الأسوار ، ونقلت لى نبأ وفاة مصطفى النحاس باشا ، وخنقتنى عبارات الوفاء وأنا أدعو ربى «اللهم إنك غنى عن عقابه وهو فقير إلى رحمتك ، اللهم فارحمه» ، وعرفت منها أنه مات بعد دخولى السجن بيومين أو ثلاثة ، وحدثتنى عن جنازته ، عن الألوف المؤلفة التى كانت تسد جميع الطرقات ، عن المظاهرات ، عن خطف النعش حتى مسجد الحسين ، عن الهتافات بألا زعيم بعد النحاس، عن بعض شعارات الإخوان وسط مسيرة الجنازة ، عن محاولات أجهزة الدولة الوقوف أمام هذا الطوفان ، عن تعليق الإعلام الخارجى على ما حدث.. وكان حديثاً طويلاً مطمئناً صريحاً».

....

«لقد انتهزت جماهير الشعب فرصة وفاة النحاس.. لتبدى رأيها صريحاً واعتقادها سليماً فهتفت معلنة مدوية تشق بهتافها سماء مصر: «لا زعيم بعدك يانحاس» ، فكأنها بتلك الصرخات المدوية تعبر عن حرمان مكبوت فى النفوس والقلوب والمشاعر ، والوجدان ، فكأنها تقول:

«أيتها الزعامات الباطلة اسقطى ، أيتها الأقنعة الزائفة انكشف الغطاء ، ووضح خداعك وغشك ، أيها المنقذ أغرقك السراب والوهم ، ياحبيب الملايين أمرت الفجار فزيفوها فصدقتهم ، وما أنت إلا وليد إعلام مأجور وكاتب مأمور ، أيتها الخشب المسندة ستحرقك النار.. نار الحق فتصبحوا رماداً تذروه الرياح سراباً وأهل الحق ظمأى».

«وسألت علية وماذا بعد ذلك؟ قالت: يتهامس الناس على اعتقال عشرين ألفاً من المشيعين.»

«نعم لقد كانت جنازة النحاس أذان حق وإعلان صدق عن سريرة مصر والمشاعر الحبيسة فى نفوس أبنائها والحرية المكبوتة. وشدنى الحديث إلى ذكريات كثيرة عن مصطفى النحاس ، ذلك الرجل الذي لم يحقد يوماً على أعدائه ، وكان لا يعز عليه أن يعترف بالخطأ إذا أخطأ ، لقد كان زعيماً وطنياً».

(٥)

والواقع أن السيدة زينب الغزالى ـ حتى لو أرادت أن تصور غير ذلك ـ لم تكن فى

بداية حركتها السياسية ميالة تماماً إلى العمل السياسى الإسلامى الذى نعرف طبيعته فى الحركات التى تنسب إلى الإخوان المسلمين أو إلى جهازهم السرى ، ومن الواضح أنها كانت تنحو فى السياسة بنفسها وبجمعيتها منحى جمعية الشبان المسلمين مثلاً ، ولكن (شيئا ما) دفعها دفعاً منذ مرحلة متأخرة فى حوالى ١٩٤٨ إلى أن تسلك سبيل الإخوان المسلمين وهى تعبر عن هذا المعنى بوضوح شديد حيث تقول فى بداية الباب الثانى:

«..... لم تكن صلتى بجماعة الإخوان المسلمين حديثة كما توهمها العابثون ، إذ كانت تعود بتاريخها إلى سنة [١٣٥٧هـ] ١٩٣٧م ، فى ذلك اليوم البعيد المبارك ، وبعد ما يقرب من ستة أشهر على تأسيس جماعة السيدات المسلمات كان أول لقاء لى مع الإمام الشهيد حسن البنا. كان ذلك عقب محاضرة ألقيتها على الأخوات المسلمات فى دار الإخوان المسلمين وكانت يومئذ فى العتبة ، كان الإمام المرشد فى سبيله لتكوين قسم للأخوات المسلمات ، وبعد مقدمة عن ضرورة وحدة صفوف المسلمين واتفاق كلمتهم دعانى إلى رئاسة قسم الأخوات المسلمات ، وكان هذا يعنى دمج الوليد الجديد الذى أعتز به «جماعة السيدات المسلمات» واعتباره جزءاً من حركة الإخوان المسلمين ولم أعد بأكثر من مناقشة الأمر مع الجمعية العمومية للسيدات المسلمات ، التى رفضت الاقتراح وإن حبذت وجود تعاون وثيق بين الهيئتين».

(٦)

لا تروى لنا السيدة زينب الغزالى الكثير ولا القليل عن ديناميات اتخاذ القرار داخل جماعة السيدات المسلمات ، ولماذا آثر أصحاب القرار أو صاحبات القرار فى هذه الجماعة أن يرفضن الاقتراح وأن يتبعدن بأنفسهن عن الاندماج تحت زعامة حسن البنا حتى وإن قبلن فى ذات الوقت بالتعاون الوثيق؟ من حق القارئ أن يتساءل ولكن السيدة زينب الغزالى لا تجيب!

وهى تستأنف حديثها فتقول :

«وتكررت اللقاءات مع تمسك كل منا برأيه وتأسست الأخوات المسلمات ولم يغير ذلك من علاقتنا الإسلامية شيئاً ، وحاولت فى آخر لقاء لنا فى دار السيدات المسلمات أن أخفف من غضبه (ها هى أيضاً تحدثنا عن غضب الإمام حسن البنا دون أن تذكر سبب هذا

الغضب ولا مظاهره) بعهد آخذه على نفسى أن تكون السيدات المسلمات لبنة من لبنات الإخوان المسلمين على أن تظل باسمها واستقلالها بما يعود على الدعوة بفائدة أكبر ، على أن هذا أيضاً لم يرضه عن الاندماج بديلاً (هنا ينبغى لنا أن نتوقف لنسأل هل كان حسن البنا حريصاً كل هذا الحرص على اندماجها ولماذا ؟؟)ودارت الأحداث بسرعة ووقعت حوادث سنة ١٩٤٨ وصدر قرار حل الإخوان ومصادرة أملاكهم وإغلاق شعبها وزُجَّ بالآلاف فى المعتقلات وقامت الأخوات المسلمات بنشاط يُشكرن عليه ، وكانت إحداهن السيدة تحية الجبيلى زوجة أخى وابنة عمى ومنها عرفت الكثير من التفاصيل ، ولأول مرة وجدت نفسى مشتاقة إلى مراجعة كل آراء الأستاذ البنا وإصراره على الاندماج الكلى..».

«وفى صبيحة اليوم التالى لحل جماعة الإخوان كنتُ بمكتبى فى دار السيدات المسلمات وفى نفس الحجرة التى كان بها آخر اجتماع لى بالمرشد الإمام».

من هذا نفهم أن المرشد هو الذى كان يذهب إليها وليس العكس ، ويعطينا هذا فكرة عن مدى تمكن الأخلاق الحضارية من شخصية المغفور له حسن البنا ، فهو جنتلمان حقيقى.

«ووجدت نفسى أجلس إلى مكتبى وأضع رأسى بين يدى وأبكى بكاءً شديداً ، فقد أحسست أن حسن البنا كان على حق ، فهو الإمام الذى يجب أن يُبايع من المسلمين جميعاً على الجهاد لعودة المسلمين إلى مقعد مسئوليتهم ، وإلى وجودهم الحقيقى الذى يجب أن يكونوا فيه ، وهو مكان الذروة فى العالم يقودونه إلى حيث أراد الله ويحكمونه بما أنزل الله ، وأحسست أن حسن البنا كان أقوى منى وأكثر صراحة فى نشر الحقيقة وإعلانها ، وأن هذه الشجاعة والجرأة هى الرداء الذى يجب أن يرتديه كل مسلم ، وقد ارتداه البنا ودعا إليه».

«ثم وجدت نفسى أهتف بالسكرتير ليوصلنى بالأخ عبدالحفيظ الصيفى الذى كلفته بنقل رسالة شفوية للإمام البنا يذكره فيها بعهدى فى آخر لقاء لنا.. وحين عاد لى بتحيته ودعائه استدعيت أخى محمد الغزالى الجبيلى وكلفته بإيصال وريقة صغيرة بواسطته أو بواسطة زوجته إلى الإمام المرشد ، وكان فى الوريقة: «سيدى الإمام حسن البنا.. زينب الغزالى الجبيلى تتقدم إليك اليوم وهى أمة عارية من كل شىء إلا من عبوديتها لله وتعبيد نفسها لخدمة دعوة الله ، وأنت اليوم الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يبيع هذه الأمة بالثمن الذى يرضيه لدعوة الله تعالى ، فى انتظار أوامرك وتعليماتك سيدى الإمام..».

(٧)

وتروى صاحبة هذه المذكرات قصة لقائها الأخير بحسن البنا حيث أنهت إليه انضمامها إليه ، وللقارئ العادى أن يعجب الآن : لماذا رفضت الانضمام بحجة الأخذ برأى الجمعية العمومية ثم قبلته بشكل فردى من جانبها؟!:

«... وعاد شقيقى ليحدد لى لقاءً سريعاً فى دار الشبان المسلمين ، كان المفروض أن يحدث وكأنه مصادفة ، ولم أكن أعدم مبرراً لتواجدى هناك ، فقد كنت ذاهبة إلى صالة دار الشبان لإلقاء محاضرة ، والتقيت بالأستاذ البنا فقلت له ونحن نصعد الدرج: «اللهم إنى أبايعك على العمل لقيام دولة الإسلام وأرخص ما أقدم فى سبيلها دمى ، و«السيدات المسلمات» بشهرتها» ، فقال: «وأنا قبلت البيعة وتظل «السيدات المسلمات» الآن على ما هى عليه» ، وافترقنا على أن يكون اتصالنا بواسطة منزل أخى».



ها هى ذى السيدة زينب الغزالى شأنها شأن أبناء جيلها [ومن بينهم رجال ثورة ٢٣ يوليو بالطبع] تضم جمعية السيدات المسلمات إلى رعاية حسن البنا بقرار فردى ، فإذا ما احتاجت قبل هذا إلى رفض هذا الاندماج فيما يبدو ، بحثت الأمر على مستوى القاعدة وأخذت رأى الأعضاء فرفضوا ، ولكنها عند الوحدة والاندماج لا تسلك نفس السلوك ، إنما هى ورقة تكتبها نتنازل بها عن كل شىء!!:

«... وكانت أول رسالة من الإمام الشهيد تكليفاً بالوساطة بين النحاس والإخوان ، وكان رفعة مصطفى باشا النحاس خارج الحكم حينذاك ، وحدد النحاس المرحوم أمين خليل للقيام بإزالة سوء التفاهم ، ورضى به الإمام الشهيد وكنت أنا حلقة الاتصال ، وفى ليلة من ليالى فبراير سنة ١٩٤٩ جاءنى أمين خليل يقول لى: «يجب اتخاذ إجراءات سريعة ليسافر البنا من القاهرة ، فالمجرمون يأتمرون به ليقتلوه ، ولم أجد وسيلة للاتصال به مباشرة فقد اعتقل أخى ، فحاولت الاتصال بالإمام الشهيد شخصياً ، وأنا فى طريقى للاتصال بلغنى خبر الاغتيال (!!) ونقله إلى المستشفى ، ثم تواترت الأخبار بسرعة بسوء حالته وذهب شهيداً إلى ربه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

هكذا تنتهى رواية السيدة زينب الغزالى عن علاقتها بالمغفور له حسن البنا وبالإخوان المسلمين ، ومع هذا فإن الباحث المنصف لا يستطيع أن يأخذ الأمر على هذا النحو من دون

أن يناقش احتمالاً آخر يقول بأن زينب الغزالى كانت منذ بداياتها تنتوى ما بدأته صراحة فى ١٩٤٨ أو بعد الثورة مثلاً ، ولكننا نؤثر أن نمضى مع صاحبة المذكرات على نحو ما أرادته هى من تصوير حياتها ، وإن كنا مع هذا لانقبل الأمور على علاتها ، ولا نترك النصوص للقارئ من دون تعليق سريع ، وها نحن أولاء قد أوضحنا ما ينبغى توضيحه.

ومع هذا فليس هذا هو الاحتمال الوحيد ، فمن الوارد ألا تكون علاقة زينب الغزالى بالإخوان المسلمين قد بدأت إلا بعد هذا ، لكنها بذكاء السياسيين الذين يكتبون تجاربهم بعد حين ، وبحنكة هؤلاء السياسيين وحنكتهم فى الإيحاء بما يقصدون كانت السيدة زينب الغزالى واعية لأن تصور الأمور أو تعيد تصويرها على أنها بدأت فى عهد المرشد الأول ، وهكذا يصبح لها سهم قديم فى حركة الإخوان!

(٨)

ونحن نرى السيدة زينب الغزالى على سبيل المثال حريصة على أن تدلل على وجود علاقة الانتماء بالإخوان من قبل قيام الثورة من خلال ما ترويه فى هذه الواقعة:

«وجاءت حكومة اتحاد الأحزاب [تقصد الوزارة الائتلافية] وأصدرت أمراً بحل جماعة السيدات المسلمات واعترضت أمام القضاء الذى حكم لنا فى عهد حكومة حسين سرى باشا سنة ١٩٥٠ بالعودة للنشاط. وكان المحامى فى القضية الأستاذ عبدالفتاح حسن «باشا» وجاءت حكومة الوفد وعاد الإخوان إلى نشاطهم وهم على بيعتهم للإمام المرشد حسن الهضيبى ، وأحببت فى اليوم الأول لافتتاح المركز العام للإخوان المسلمين أن أعلن ولائى للدعوة بطريق غير مباشر إلى أن يقضى الله فى الأمر بما يريد ، فتبرعت بأغلى شىء كنت أعتز به فى أثاث منزلى وهو طقم صالون أرابيسك مطعم بالصدف ليؤثث به مكتب المرشد العام».

«وسارت الأمور هادئة مطمئنة ، وزارنى الشهيد عبدالقادر عودة وشكرنى على التبرع وقال: «يسعدنا إذا أصبحت زينب الغزالى الجبيلى من الإخوان المسلمين».

«قلت: «أرجو أن أكونها بإذن الله». فقال: «قد كانت والحمد لله».

«وصارت الأمور فى هدوء ومودة بينى وبين كثرة من أعضاء الجماعة حتى جاءت

حكومة الانقلاب العسكرى بقيادة اللواء محمد نجيب ، الذى كان قد زارنى قبل الانقلاب بأيام بصحبة الأمير عبدالله الفيصل وسراج الدين والشيخ الباقورى وشقيقى على الغزالى بمناسبة وجود الأمير عبدالله الفيصل فى مصر [هكذا تقول السيدة زينب الغزالى من دون أن تقدم لنا سببا لاجتماع هؤلاء الفرقاء فيما قبل الثورة وإجماعهم على التجمع معاً لزيارتها هى بالذات ، صحيح أن كلا منهم شخصية عامة لا نستطيع أن نفرض على تحركاته قيوداً ، ولكن هل حقا اجتمع وزير الداخلية السابق (سراج الدين) مع شيخ معهد المنيا الدينى (الشيخ الباقورى) مع أحد أحفاد مؤسس المملكة السعودية (الأمير عبدالله الفيصل) ومدير سلاح المشاة الذى هو فى الوقت نفسه رئيس نادى الضباط فى مكان واحد فى زيارة هذه السيدة وما هى المناسبة؟]. وقد تعاطف الإخوان مع الانقلاب وكذلك السيدات المسلمات لفترة أحسست بعدها أن الأمور لا تسير كما كنا نأمل وأنها ليست الثورة المنتظرة تتويجاً لجهود سبقت على أيدى العاملين لإنقاذ هذا البلد .. وأخذت أنقل رأيى لمن ألقاه من الإخوان. وحين عرضت مناصب وزارية على بعض الإخوان ، وأوضحت رأيى فى مجلة «السيدات المسلمات» ، فما كان لأحد من الإخوان أن يقسم يمين الولاء لحكومة لا تحكم بما أنزل الله .. ومن يفعل منهم ذلك يجب فصلهم من الإخوان وواجب الإخوان أن يحددوا موقفهم بعدأن اتضحت نوايا الحكومة».

«وزارنى الشهيد عبدالقادر عودة طالباً منى تأجيل الكتابة فى هذا الموضوع ، وأمسكت عددين ، ثم عدت إلى الكتابة إلى أن زارنى الشهيد عبدالقادر عودة للمرة الثانية حاملاً فى هذه المرة أمراً من المرشد بعدم الكتابة فى هذا الموضوع ، وتذكرت بيعتى للبنا ـ رحمه الله ـ واعتقدت أن الولاء قائم بها للهضيبى ، وامتثلت للأمر».

«ومنذ ذلك الوقت والبيعة تحكم تصرفاتى حتى ما يبدو منها خاصاً كرحلة مؤتمر السلام فى فيينا التى لم أقم بها إلا بعد أن حصلت على إذن الإمام المرشد الهضيبى».

هكذا نرى السيدة زينب الغزالى وهى تتحوط مسبقاً لأى هجوم يصفها باليسارية لأنها حضرت بالفعل مؤتمراً للسلام فى فيينا ، وهى تؤكد هنا أنها حصلت على إذن المرشد العام!! ، وهكذا كانت هذه السيدة إذاً تتمتع بالانتماء للوفد وللإخوان ولليسار العالمى فى وقت واحد ، وهو أمر لايتعارض بالطبع مع العقل وإن تعارض مع صورة هذه الفترة فى أذهاننا .

(٩)

وينبغي لـنا ، بعد هذا كله ، أن نتأمل هـذه العبارات الواضـحة القوية الـتى تجرى على لسان السيدة زينب الغـزالى وهى تحدثنا فى مرحلة متأخرة عن حـوار دار بينها وبين زوجها تذكره فيه بشروطها التى أعلنته بها حين تقدم للزواج منها ، فقد كانت قد اشترطت عليه أن يتركها تمارس نشـاطها ، بل ويصل الأمر إلى حد أن تشترط عليه ألا يسـألها عن أسماء من تقابلهم من الـشباب أو من غيـرهم . و على هذا النحو نجـد صورة شديدة الوضـوح لحرية المرأة فى العمل الإسلامى السيـاسى نستطيع أن نرفعها ـ أى الصورة ـ عـالية جداً فى وجه طرفين معاصرين مهمين : الطرف الذى يتشدد ـ باسم الإسلام ـ فى منع نشاط المرأة إلى أن يضعـها فى قـمقم ، والطرف الآخـر الذى يتهم الأصـوليين الإسلامـيين المعاصـرين بأنهم يفعلون ذلك .

واقرأ معى يا سيدى القارئ هذه العبارات الواضـحة الصريحة القوية التى لا تحتمل أى لبس ولا تأويل على أى مستوى من المستويات حيث تقول السيدة زينب الغزالى:

« ولما كانت جـماعة الإخـوان المسلمين معطلاً نشاطهـا بسبب قرار الحـل الجاهلى لسنة ١٩٥٤ [هكذا تصف السيدة زينب الغزالى قـرار الثورة بأنه جاهلى] كان ضرورياً أن يكون النشاط سـرياً . و لم يكن عملى فى هذا النشـاط يعطلنى عن تأدية رسالتى فى المركـز العام لجماعة السيدات المسلمات ولا يجعلنى أقصر فى واجبى الأسرى ، غير أن زوجى الفاضل المرحوم محمد سالم سالم لاحظ تردد الأخ عبد الفتاح اسماعيل وبعض لبنات طاهرة زكية من الشباب المسلم على منزلنا . فسألنى زوجى : هل هناك نشاط للإخوان المسلمين؟ أجبت : نعم .. فسألنى عن مدى النشاط ونوعيته .. قلت : إعادة تنظيم جماعة الإخوان ».

« ولما أخـذ يبحث الأمـر مـعى قلت له : هل تذكـر يا زوجى العزيز عندمـا اتفـقنا على الزواج .. مـاذا قلت لك ؟ قـال : نعم اشـترطت شـروطاً ، ولكنى أخـاف عليك اليـوم من تعرضك للجـبابرة . ثم صمت وأطـرق برأسه فقلت له : أنا أذكـر جيداً مـا قلت لك ، لقد قلت لك يومها : إن هناك شيئاً فى حيـاتى يجب أن تعلمه أنت لأنك ستصبح زوجى ، وما دمت قـد وافـقت على الزواج فـيـجب أن أطلعك علـيه عـلى ألا تسـألنى عنه بعـد ذلك ، وشروطى بخـصوص هذا الأمر لا أتنازل عـنها ، أنا رئيسـة المركز العام لجـماعة السـيدات المسلمات ، وهذا حق ، ولكن الناس فى أغلبهم يعتقدون أنى أدين بمبادئ الوفد السياسية ،

وهذا غير صحيح ، الأمر الذى أومن به وأعتقده هو رسالة الإخوان المسلمين ، ما يربطنى بمصطفى النحاس هو الصداقة الشخصية(!!!!!) ، لكنى على بيعة مع حسن البنا على الموت فى سبيل الله ، غير أنى لم أخط خطوة واحدة توقفنى داخل دائرة هذا الشرف الربانى ، ولكنى أعتقد أنى سأخطو هذه الخطوة يوما ما بل وأحلم بها وأرجوها».

«ويومها إذا تعارضت مصلحتك الشخصية وعملك الاقتصادى مع عملى الإسلامى ووجدت أن حياتى الزوجية ستكون عقبة فى طريق الدعوة وقيام دولة الإسلام فسنكون على مفرق طريق ، ويومها أطرقت إلى الأرض ثم رفعت رأسك والدموع محبوسة فى عينيك لتقول : أنا أسألك ماذا يرضيك من المطالب المادية فلا تسألين ولا تطلبين أى شىء من مهر أو مطالب زواج ، وتشترطين علىّ ألا أمنعك عن طريق الله ، أنا لا أعلم أن لك صلة بالأستاذ البنا ، والذى أعلمه أنك اختلفت معه بشأن طلبه انضمام جماعة السيدات المسلمات إلى الإخوان المسلمين . قلت : الحمد لله ، اتفقنا أثناء محنة الإخوان سنة ١٩٤٨ قبل استشهاد البنا ، وكنت قررت أن ألغى أمر الزواج من حياتى ، وأنقطع للدعوة انقطاعاً كلياً ».

«وأنا لا أستطيع أن أطلب منك اليوم أن تشاركنى هذا الجهاد ، ولكن من حقى أن أشترط عليك ألا تمنعنى من جهادى فى سبيل الله ، ويوم تضعنى المسئولية فى صفوف المجاهدين فلا تسألنى ماذا أفعل ولتكن الثقة بيننا تامة ، بين رجل يريد الزواج من امرأة وهبت نفسها للجهاد فى سبيل الله ، وقيام الدولة الإسلامية وهى فى سن الثامنة عشرة ، وإذا تعارض صالح الزواج والدعوة إلى الله ، فسينتهى الزواج وتبقى الدعوة فى كل كيانى».

(١٠)

على هذا النحو تروى السيدة زينب الغزالى . وهى لا تمثل إلا طرفاً واحداً على كل حال ـ كل تفصيلات الحوار الذى دار بينها وبين زوجها حين بدأ يستشعر قيامها بدور فعال فى تنظيم سرى ، ونحن نراه هو الآخر لا يعلم صلة لها بحسن البنا فإذا بها تقص عليه ما تقصه علينا ، ثم تبدأ فى حواره إلى أن تأخذ منه الموافقة على نشاطها الجديد:

«... ثم توقفت عن الكلام برهة ونظرت إليه قائلة : هل تذكرت ؟ قال : نعم . قلت :

اليوم أطلب منك أن تفى بوعدك .. لا تسألنى بمن ألتقى . وأدعو الله أن يجعل أجر جهادى قسمة بيننا فضلاً منه سبحانه إذا تقبل عملى . أنا أعلم أن من حقك أن تأمرنى ومن واجبى أن أطيعك ولكن الله أكبر فى نفوسنا من أنفسنا ، ودعوته أغلى علينا من ذواتنا . ونحن فى مرحلة خطيرة من مراحل الدعوة .قال : سامحينى ، اعملى على بركة الله . يا ليتنى أعيش وأرى غاية الإخوان قد تحققت ، وقامت دولة الإسلام .. يا ليتنى فى شبابى فأعمل معكم».

«وكَثُر العمل والنشاط ، وتدفق الشباب على بيتى ليلاً ونهاراً ، وكان الزوج المؤمن يسمع طرقات الباب فى جوف الليل فيقوم من نومه ويفتح للطارقين ويدخلهم إلى حجرة المكتب ، ويذهب إلى حجرة السيدة التى تدير أعمال البيت فيوقظها ويطلب منها أن تعد للزائرين بعض الطعام والشاى ، ثم يأتى إلىّ فيوقظنى فى إشفاق وهو يقول : بعض أولادك فى المكتب وعليهم علامات جهد أو سفر ، وأرتدى ملابسى وأذهب إليهم ويأخذ هو طريقه إلى مكان نومه وهو يقول لى : إذا صليتم الفجر جماعة فأيقظينى لأصلى معكم إن كان ذلك لا يضر ، فأجيب إن شاء الله . فإن صلينا الفجر أيقظته ليصلى معنا ثم ينصرف ، وهو يحيى الموجودين تحية أبوية مملوءة بالشفقة والحب والحنان ».



ألا ترى يا سيدى القارئ أن المسألة إذن فى حاجة إلى إعادة نظر فى مدى التدهور الذى أصاب الحركة النسائية المصرية حتى صارت إلى ما صارت إليه اليوم سواء على مستوى العلمانيين أو الأصوليين أو الإسلاميين .... إلخ هذه السلسلة من الأسماء التى قد لا تعنى شيئاً على الإطلاق اللهم إلا الانصراف إلى الأسماء دون الجوهر !!

(١١)

ونأتى الآن إلى ما نحب أن نصرح به من الثناء على قدرة السيدة زينب الغزالى على التعبير المتوالى عن التجارب النفسية المتعددة التى مرت بها فى كثير من المواقف، حين تعبر مثلاً عن شعورها وهى تترقب التعذيب ، وعن شعورها وهى تتلقى التعذيب ، فإذا نحن تناولنا ما كتبت وما سجلت تناولاً أدبياً نقدياً فسوف نجد قدرة فائقة على الحديث ذى المستويات المتعددة عن تجربة واحدة ، سنجد زينب الغزالى تحدثنا عن علاقتها بنفسها ، وعن علاقتها بربها ، وعن رؤيتها لجلاديها ، وعن رؤيتها لماضيها ، ولكنها فى كل هذا

تبدو بمشاعر متناقضة حقاً ، وتبدو بنفسية تسودها تقلبات كثيرة بين صور نفسية متعددة ، فنحس مرارة التعذيب لا من حيث وصفه لنا ولكن من حيث الأثر الذى تركه التعذيب فى نفسها ونحن لا نستشعر هذا مما ترويه وإنما من مجرد الحديث نفسه ، فهى تستشعر كل هذا وتستبطنه فإذا تحدثت فإنها لا تتحدث إلا بالأحاديث التى لا تصدر إلا عن إنسان معذب!! وها هى ذى تقول تحت عنوان «الرؤيا» :

« ولا أدرى كيف أخذنى النوم وأنا أذكر الله ، وكان فى هذا النوم خير وفضل وعطاء، كان فيه رؤيا مباركة هى إحدى رؤاى الأربع لحضرة النبى عليه الصلاة والسلام فى محنتى، «رأيت بحمد الله صحراء مترامية وإبلاً عليها هوادج كأنها صنعت من النور وفى كل هودج أربعة من الرجال كأنهم أيضاً وجوه نورانية ، رأيتنى خلف هذا السيل من الإبل فى هذه الصحراء المترامية التى لا يحدها البصر ، أقف خلف رجل عظيم مهيب وهو يأخذ بخطام امتد فى أعناق هذا السيل الجارف من الإبل التى لا يحصى عددها. أخذت أردد فى سرى: أيكون حضرة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا به يجيبنى «أنت يازينب على قدم محمد عبد الله ورسوله».

سألت: «أنا ياسيدى يارسول الله على قدم محمد عبد الله ورسوله؟».

قال عليه الصلاة والسلام: «أنت يازينب ياغزالى على قدم محمد عبدالله ورسوله».

سألت ثانية: «أنا ياحبيبى يارسول الله على قدم محمد عبد الله ورسوله؟».

قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم يازينب على الحق ، وأنتم يازينب على الحق ، أنتم يازينب على قدم محمد عبد الله ورسوله».

وقمت من النوم وكأننى ملكت الوجود بهذه الرؤيا ، وأدهشنى بعدما نسيت ما أنا فيه وأين أنا إنى لا أجد ألم السياط ، ولا الصلبان القريبة من النافذة ، فقد نقلت إلى مكان بعيد وأصبحت الأصوات تأتينى عن بعد.

«وثانى ما أدهشنى أن اسمى فى شهادة الميلاد زينب غزالى واسم الشهرة المعروف لدى الناس «زينب الغزالى» والرسول عليه الصلاة والسلام يناديني باسمى فى شهادة الميلاد ، وفعلاً نقلتنى الرؤيا عن الزمان والمكان فتيممت وأخذت أصلى ركعات شكراً لله على هذا العطاء!!

لا أظن أن القارئ بحاجة إلى أن يدرك طبيعة هذه الرواية التى ترويها السيدة زينب الغزالى تحت عنوان «الرؤيا» ، وقد بلغت المعلومات المتاحة عن مثل هذه الرؤيا حداً

لا يستقيم معه أن نفيض فى شرح ما تعنيه هذه «الرؤيا» وما تدل عليه ، ومع هذا فإننا ننبه إلى أن مثل هذه الروايات الطريفة أو الخيالية كانت تجد صدى ذا قيمة فى نفوس مَنْ يروونها ومَنْ يرددونها ، ولا نقول مَنْ يسمعونها أو يقرأونها.

(١٢)

بل إن السيدة زينب الغزالى فيما ترويه لنا فى هذه الذكريات ، لا ترى النبى (ﷺ) وحده فى منامها ، ولكنها ترى أيضاً الأستاذ سيد قطب يوم حكم عليه بالإعدام :

«... يوم تنفيذ الأحكام رأيت سيد قطب فى سنة خفيفة بعد صلاة الفجر ، فقال لى: «اعلمى أنى لم أكن معهم. أنا كنت فى المدينة مع حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام». وتنبهت فحكيت لحميدة».

«وفى صبيحة اليوم الثانى لتنفيذ أحكام الإعدام ، أخذتنى سنة من النوم كذلك بعد صلاة الفجر وأنا أتلو أذكار ختم الصلاة ، فسمعت صوتاً يقول لى: سيد فى الفردوس الأعلى ورفقته فى عليين».

«تنبهت وحكيت لحميدة فانحدرت دموعها وقالت: أنا على ثقة من فضل الله علينا وبأنه إن شاء الله فى الفردوس الأعلى. قلت لها : وهذه الرؤى تثبيت من الله سبحانه وتعالى ومواساة».

(١٣)

كذلك تروى صاحبة المذكرات [مع عناية شديدة بالتفاصيل] قصة اعتقالها فى ٢٠ أغسطس ، وبعض ملامح ما صادفته حين تم استقبالها [!!] فى السجن الحربى :

«... وأخذت العربة تنهب بنا الطريق حتى وصلت إلى السجن الحربى. عرفت ذلك من اللوحة الموجودة على بوابته. واقتحمت السيارة البوابة المرعبة. وبعدما ابتلعت البوابة السيارة ومن فيها ، أنزلت منها واتجه بى وغد غليظ إلى حجرة استجوبنى فيها وغد آخر وأدخلت منها إلى حجرة أخرى. ووقفت أمام رجل ضخم الجثة مظلم الوجه قبيح اللفظ.

فسأل الذى يمسك ذراعى عنى فأجابه بسباب غلّف فيه اسمى. ومع ذلك التفت هو إلىّ فى غلظة وسألنى: من أنت!».

قلت: «زينب الغزالى الجبيلى».

«فانطلق يسب ويلعن بما لا يعقل ولا يتصور. وصرخ الذى يمسك بذراعى قائلا: «دا رئيس النيابة يابنت الـ... ردى على سعادته». وكان الآخر قد صمت».

«قلت: لقد اعتقلونى أنا وكتبى وكل ما فى الخزانة ، فأرجو حصر هذه الأشياء وتسجيلها ، فمن حقى أن تعاد إلىّ. أجاب رئيس النيابة المزعوم الذى وضح فيما بعد أنه شمس بدران ، أجاب فى فجور وجاهلية متغطرسة: «يابنت الـ... نحن سنقتلك بعد ساعة.. كتب إيه؟ وخزنة إيه؟ ومصاغ إيه؟ أنت ستعدمين بعد قليل. كتب إيه وحاجات إيه اللى بتسألى عليها يابنت الـ... نحن سندفنك كما دفنا عشرات منكم ياكلاب هنا فى السجن الحربى». لم أستطع أن أجيب لأن الكلمات كانت بذيئة الألفاظ سافلة ، والسباب والشتائم منحطة إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الإنسان أن يسمعها ، فضلاً عن أن يجيب عنها».

«وقال لهذا المتغطرس الذى يمسك ذراعى: خذها..».

«قال : إلى أين؟».

أجاب : هم عارفون».

«وجذبنى الفاجر فى وحشية وهو يقول: يابنت الـ...».

«وعند الباب نادى صاحب الجثة الغليظة المظلمة على الشيطان الممسك بذراعى ، فالتفت إليه. فكأنى أرى ظلمة من دخان غليظ أسود تغرقه. قلت فى سرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم تضرعت إلى الله قائلة: اللهم أنزل علىّ سكينتك وثبت قدمى فى دوائر أهل الحق واربط على قلبى بذكرك وارزقنى الرضا بما يرضيك».

«وقال الممسك بذراعى للشيطان: نعم يا معالى الباشا».

«قال له: تروح رقم ٢٤ وبعد ذلك تأتونى».

«وانصرف بى الشيطان الشقى الممسك بذراعى وأدخلنى حجرة ، فرأيت رجلين يجلسان إلى مكتب فى يد أحدهما مفكرة كنت أعرفها وهى خاصة بالأخ الشهيد عبدالفتاح إسماعيل. كان يخرجها فى حلقات القرآن ونحن نتدارس ويدون بها بعض

ملاحظاته. فعرفت أنه اعتقل وبعض الإخوان ، إذ كان عنده اجتماع بهم فى ذلك الوقت. وأحدث ذلك رعدة فى نفسى خشيت أن يلاحظها بعض الشياطين وكان أذان العصر يخترق سمعى. وترك الشيطان رقبتى ولكن ظللت فى مكانى فصرفه الله عنى. وما أنْ انتهيت من الصلاة حتى انكب الشيطان علىّ فى وحشية .... ».

هكذا تدلنا السيدة زينب الغزالى ، فى عبارات عارضة ، أنه كان من الممكن لنزلاء السجن الحربى حتى فى ظل هذه الظروف أن يستمعوا إلى الآذان وأن يؤدوا الصلاة.

(١٤)

ومع ما حفلت به هذه المذكرات من هذا الهجوم المركز على الرئيس جمال عبدالناصر، فإن زينب الغزالى قد أنصفت النظام الناصرى من حيث لا تدرى ، حين روت لنا على طريقتها بعض قصص المفاوضات التى قطعها هذا النظام معها فى سبيل ما يُسمى فى لغة مُنظرى نظام عبدالناصر ضمها إلى تحالف قوى الشعب ، أو فيما عرف فى الأسماء العامة والحياة العامة بـ«الاتحاد الاشتراكى» ، هذه القصة التى ترويها زينب الغزالى فى بداية مذكراتها وذلك من موقع التهكم على نظام الرئيس عبد الناصر ، توضح لنا إذا ما فهمناها مدى طول النفس الذى تمتع به النظام الناصرى إذا ما قورن بقصر النفس الشديد الذى أصبح سمة كل الناس فى جميع أنحاء العالم بلا استثناء فى عصرنا الذى نعيشه ، وسنجد أن زينب الغزالى تذكر بلا مواربة كثيراً من الجهد الذى بذل معها فى سبيل استقطابها وتحييدها.. إلخ.

أما حديثها عن أقطاب العمل السياسى وعلاقاتها بهم فيحتاج إلى شيء كثير من التفصيل والإضافة.

ولنقرأ هذه الفقرات التى تصور فيها دعوة ملحة لها للانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى:

«.... وفى البيت كانت السيدة السكرتيرة تزورنى يومياً وأخبرتنى بأن قرار الحل أوقف. ودهشت لذلك وسألت كيف ذلك فقالت: ربما يكون فتح باب للاتصال بك». وأخذ السكرتير الإدارى يحضر لى ما يحتاج للاطلاع والتوقيع وأخذت أزاول نشاطى فى تسيير أعمال المركز العام للسيدات المسلمات من بيتى. ولكنى عدت إلى المستشفى مرة أخرى لإجراء عملية جراحية لرفع المسامير من الفخذ ، وكان قد أفرج عن الشهيد الإمام

سيد قطب وزارنى فى المستشفى وجمع من الإخوان. وذات يوم فوجئت بخطاب مسجل عن طريق البريد ببطاقة كتبت فيها هذه البيانات:

«الاتحاد الاشتراكى العربى»

حرية ـ اشتراكية ـ وحدة

«الاسم : زينب الغزالى الجبيلى ، وشهرتها: زينب الغزالى».

«الوظيفة أو المهنة: رئيسة المركز العام لجماعة السيدات المسلمات».

«وحدة : البساتين ـ ألماظة».

«قسم : مصر الجديدة».

«محافظة: القاهرة».

«جاءتنى هذه البطاقة بالبريد ومعها ما يثبت سداد اشتراكى عن عام ١٩٦٤م ، فضحكت ضحكة مريرة بما صار إليه حال «مصر» وتذكرت كيف كنا نعيش فى حرية لعنوها بعد انقلابهم العسكرى. وبعد استكمال العلاج بالمستشفى عدت إلى المنزل وأخذت دعوات الاتحاد الاشتراكى تتوالى بالبريد لحضور اجتماعات الاتحاد الاشتراكى ، ولكننى قررت أن أتخذ موقفاً سلبيا ، وبعد أيام صرح الدكتور بالخروج ومزاولة نشاطى تدريجياً فى المركز العام للسيدات المسلمات ، وكنت لا أزال أستعين بالعكاز فى المشى».

«وفى صبيحة أحد الأيام وبينما أنا بالمركز العام للسيدات المسلمات ، دق جرس الهاتف ، وطلب منى السكرتير أن أرد على من يطلبنى من الاتحاد الاشتراكى ، أمسكت بالسماعة قائلة لمحدثى: «السلام عليكم» ورد السلام من الجهة الأخرى ، ثم قلت: «نعم ، ماذا تريد؟» فسألنى إن كنت أنا زينب الغزالى ، ولما أجبت بالإيجاب قال:

«نحن هنا الاتحاد الاشتراكى ، إن شاء الله أعضاء مجلس إدارة السيدات المسلمات وحضرتك على رأسهم تشرفى وتنورى ، تأخذون علم السيدات المسلمات وتذهبون لاستقبال عبدالناصر فى المطار».

«فأجبته: «إن شاء الله ، يفعل الله ما يشاء، ويختار».

«قال: «عشمنا كده ، مجلس الإدارة وعدد كبير من أعضاء الجمعية العمومية ، وإذا أمرت أرسلنا لك عربة تكون تحت تصرفكم».

«قلت : شكراً».

«وانتهت المكالمة».

ولم يقف الأمر فيما ترويه زينب الغزالى عند هذا الحد ، ولكن النظام الناصرى كان يتمتع بمتابعة جيدة وطول نفس ممتد.

(١٥)

وتمضى صاحبة المذكرات فتروى أنه بعد يومين أو ثلاثة جاءتها مكالمة أخرى من الاتحاد الاشتراكى ، كانت هذه المكالمة من سيدة تسأل عن سبب عدم حضورنا لاستقبال الرئيس فى المطار. قلت: «إن أعضاء مجلس إدارة السيدات المسلمات والجمعية العمومية ملتزمات بالسلوك الإسلامى ولا يستطعن يا ابنتى الحضور فى مثل هذه الاستقبالات المزدحمة..».

«قالت: «إزاى الكلام ده ياست زينب؟ يبدو أنك مش عاوزه تتعاونى معنا ، هل بلغت العضوات وهن رفضن؟»».

قلت: «مادمت أنا غير مقتنعة بهذا العمل لأنه يخالف تعاليم الإسلام ، فكيف أبلغهن؟»».

«قالت: «أنت غير متعاونة معنا»».

«قلت: «نحن مرتبطون بتعاليم القرآن والسنة ، عهدنا مع الله ، وتعاوننا على البر والتقوى كما أمرنا الله ، والهاتف لا يصلح لمثل هذه المناقشة»».

«قالت «تفضلى سننتظرك فى مركز الاتحاد الاشتراكى بميدان عابدين لنتفاهم»».

«قلت: «أنا مريضة ، حركتى قليلة بسبب علاج رجلى ، فإذا شئت تفضلى وشرفينا فى المركز العام للسيدات المسلمات»».

«قالت: «وأنت نازلة من البيت مرى علينا ، ألست عضوة فى الاتحاد الاشتراكى»».

«قلت: «أنا عضوة فى المركز العام لجماعة السيدات المسلمات ، والسلام عليك يا ابنتى ورحمة الله»».

«وأنهيت المكالمة ولم أذهب إليها»».

«وبعد أسبوع من هذه المكالمات التليفونية عرض علىّ سكرتير الجماعة خطاباً مسجلاً يحمل تاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٦٤ بقرار وزارى رقم ١٣٢ بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٦٤م ، والقرار ينهى إلينا حل المركز العام للسيدات المسلمات مرة أخرى!!»

(١٦)

وفى موضع آخر من هذه المذكرات تروى السيدة زينب الغـزالى أن رجال المباحث والمخابرات كانوا يعرضون عليها بدائل مغرية من أجل إعادة نشاط المركز الذى كانت تترأسه فى إطار مواكب للنظام وليس معارض له بالطبع ، ولكنها هى التى كانت تمانع أو تعاند:

«... أخذ رجال المباحث والمخابرات الناصرية يطلبون مقابلتى ويعرضون علىّ عروضاً لإعادة المركز العام للسيدات المسلمات. وكانت هذه العروض تكلفنى أن أشترى الدنيا بالآخرة. وعلى سبيل المثال عرضوا علىّ إصدار مجلة السيدات المسلمات باسمى كرئيسة للتحرير وصاحبة الامتياز مقابل ٣٠٠ جنيه شهرياً ، على أن لا يكون لى شأن بما يكتب فى المجلة. وكان جوابى مستحيل أن تصدر مجلة السيدات المسلمات من مكاتب المخابرات لتنشر علمانية العهد. لم أعتد إلا أن أكون مسئولة مسئولية فعلية. كذلك عرضوا علىّ إعادة المركز العام وصرف إعانة قدرها عشرون ألف جنيه سنوياً ، على أن يكون إحدى مؤسسات الاتحاد الاشتراكى».

«وكانت إجابتى: إن شاء الله ، لن يكون عملنا إلا للإسلام ولن نموّه ولن نضلل. إن الذين يتكسبون بالإسلام لايستطيعون خدمته ، وكان هذا الرفض يغضبهم ، لكنهم يحاولون إغرائى المرة بعد المرة. وكنت أتعجب من هذه الطريقة ومن إصرارهم على هذه المحاولات الفاشلة ، ولكننى اكتشفت الحقيقة بعد ذلك وعرفت لماذا هم حريصون على مخادعتى».

(١٧)

وفى موضع ثالث من هذه المذكرات تروى السيدة زينب الغزالى قصة لقائها بأحمد راسخ أحد رجال المباحث العامة كنموذج لما تريد أن تصوره لنا من تعاملها القوى الواثق مع هؤلاء الأمنيين الذين لا يجارونها فى قوة منطقها(!!):

«... وغيّر الحديث قائلاً: «إننا مسلمون ياحاجة» ، قلت: «إن المسلمين غير ذلك :

﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعـونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجـاب فاعمل إننا عـاملون﴾ قال: «لو تـفاهمت مـعنا لأصـبحت مـن الغد وزيرة للشـئـون الاجتـمـاعيـة». فضـحكت ساخـرة وقلت: «المسلمون لا تغـريهم المناصب ، ولا يشـتركون فى حـكومات علمانية إلحادية. ومركز المرأة المسلمة يوم تقوم حكومة الإسلام ستقرره الحكومة الإسلامية. ماذا تـريدون منى؟» قال: «نريد أن نتـفاهم مـعاً» ، قلت: «هذا مـسـتحيل» ، أناس يـدعون للكفـر ويرفعـون شعـارات الضلال وأناس يدعـون لتوحـيد الله والإيمان به ، فكيف يتـفق هذا؟».

«ثم أردفت قائـلة: «توبوا إلى الله واستـغفروه وارجـعوا إليـه .. أرجو إنهاء المـقابلة». وكان قد فرغ من القهوة التى قدمت له فقام منصرفاً وهو يقول: «والله نحن نريد أن نتفاهم معك. ويوم نتفـاهم معك ، ستكونين أنت التى ستصـدرين قراراً بإعادة جماعـة السيدات المسلمات وكذلك المجلة» ، قلت له: شكراً.. الإسلام فى غنى عن الهيئات والجماعات التى ترضى بالعمالة لأعداء الإسلام ، ربنا يهديكم ويتوب عليكم».



وبعد صـفحتين أخرين تروى لـنا السيدة زينب الغزالى تـفاصيل حوار آخـر دار بينها وبين أحد رجال المباحث فى منزلها ، وهى تصور الحوار معه على النحو التالى :

«وسألت : ماذا تريد؟».

«قال: «إن الحـكومة ترغب رغـبة شـديدة فى التفـاهم معك ، ونحن نعلـم أن الإخوان المسلمين خـدعوك وأقنعـوك بمبادئهم ، والذى حـدث لجمـاعة السـيدات المسلمـات وحل مركزها العام كان سببه الإخوان. هؤلاء ناس مـشاغبون. ونحن نريد أن تتفاهمى معنا. وما نريده بسيط جداً هو أن نعرف الأفراد القـائمين بنشاط من الإخوان المسلمين ، والله ياحاجة الريس سيحفظ لك هذه الخـدمة وفى أيام قليلة ستلمسين نتيجة تعـاونك معنا. وأنت سيدة طيبة طول عمرك ولا شأن لك بشغب الإخوان المسلمين وكفى ما سببوه لك مع الحكومة».

«وأخذ يدعى (أى رجل المباحث) أن الأستاذ الإمام الهضيبى والإمام الشهيد سيد قطب .. يعملان بكل جهـدهما ليتفاهما مع الرئيس ولكن الرئيس يرفض التعـاون معهما لأنه لا يأمن لهما».

«ولو كنت تعرفين مـا يقوله الإخوان عنك لتفـاهمت معنا وتركت هؤلاء الذين تسببـوا لك فى كل ما حدث من اضطهاد الحكومة لك وللسيدات المسلمات».

«وضحكت..».

(١٨)

ومما يثير الاندهاش فـى مذكرات السيدة زينب الغزالى إصرارهـا الشديد على أن تروى أن معتقليهـا ومعذبيها قد عرضوا عليها تـعيينها فى منصب وزيرة الشئـون الاجتماعية بدلاً من الدكـتورة حكمت أبـوزيد وهى تصمـم بطريقة غـريبة على هـذه الرواية ، فترويـها فى صفـحة ١٩ ثم تـعود لتـرويها ثلاث مـرات أخرى فى صـفحة ٦١ وفـى صفحـة ٦٩ وفى صفحة ١٥٣ ، مـا هو وجه الكوميـديا فى هذه القصة إذن ؟ الحـقيقة أن الدكتـورة حكمت أبوزيد خرجت من الوزارة نهائياً قبل اعتقال زينب الغزالى بعام كامل:

«كل الأمور ياست زينب انكشف سرها ، والـناقص هو أن تضعى النقط فوق الحروف. وطبعاً ستـكتبين فى كل هذا وعن أشياء أخـرى ، وسنرفع إلى عبدالناصـر ونوضح له أنك تغيرت ثم نحـولك إلى النيابة وينتهى التـحقيق عند هذا الحد ، وسيفرج عـنك بعد يومين ، ثم يتم تعيينك وزيرة للشئون الاجتماعـية ، حكمت أبوزيد مغضوب عليها الآن ، ما رأيك ياست زينـب؟! وضغط على زر جرس صـغير فحضر جـندى فوراً ووقف أمامه مـنتصب القامة ، فقال له: هات كوب عصير ليمـون. وأخذ يشرح ويفتح أمامى موضوعات ، موعزا إلىّ بالكتابة فيها».

(١٩)

والشاهد أن هذه المذكرات تدلنا ، سواء عـن وعى أو عن غير وعى ، على أن محاولات النظام الـناصرى لضم (أو احتـواء) زينب الغزالى لم تـقف عند هذا الحد ، وإنمـا استمرت هذه المحاولات بعـد القبض عليهـا ، وفى أثناء وجودها فى الـسجن لم ينقطـع ، حسب ما تردد المذكرات ، عـرض النظام لفرص المـصالحة معها ، ومـن هذا ما ترويه عن هـذا اللقاء الذى تم فى السجن بينها وبين مندوب من رئاسة الجمهورية:

«... تركونى فـى الزنزانة ثلاثة أيام ، أخـذونى بعدها لنـفس المكتب حيث كـان يجلس رجل أبيض طويل القامة».

«قال: اجلسى ياست زينب ، نحن عرفنا أن الجماعة هنا أتعبوك ، أنا أعرفك بنفسى: أنا

من مكتب السيد رئيس الجمهورية ونريد أن نتفاهم معك ياست زينب! البلد كلها تحبك ونحن أيضا نحبك ، لكن أنت متباعدة عنا ومخاصمانا ولا تريدين أن تتفاهمى معنا. لكن والله لو تتفاهمى معنا ياست زينب سنخرجك اليوم من السجن الحربى. كلنا نقول: هذا الوضع ليس لك أنت».

«أنا لا أعدك أن تخرجى من السجن فقط ، بل أعدك أيضاً أن تكونى وزيرة للشئون الاجتماعية بدل حكمت أبوزيد».

«قت له: هل جلدتم حكمت أبوزيد قبل أن تصبح وزيرة وأطلقتم عليها الكلاب؟».

«قال: ما هذا الكلام؟ هو دا حصل؟ نحن متألمون لمجرد وجودك هنا».

«قلت: وماذا تريدون منى؟».

«قال: الإخوان المسلمون لبسوك كل التهمة ، والهضيبى لبّخ فى الموضوع ، وعبدالفتاح إسماعيل قال كل حاجة ، وسيد قطب قال كل حاجة ، ولكن نحن أحسسنا أنهم يحاولون تخليص أنفسهم وتحميلك أنت المسئولية كلها ، لذا جئت النهاردا بنفسى بأمر من الرئيس عبدالناصر حتى نتفاهم وتخرجى معنا ، وسأوصلك إلى بيتك بعربيتى ، وأحب أعرفك أنه من أقوال الإخوان أصبح معروفاً ومعلوماً لدينا أنهم يريدون الاستيلاء على الحكم وأنك أنت التى رسمت الخطة للاستيلاء على السلطة وقتل عبدالناصر وأربعة وزراء معه ، ونحن نريد منك توضيح موقفك ودور سيد قطب والهضيبى فى الموضوع. ومن هم الوزراء الأربعة المطلوب قتلهم: تفضلى تكلمى! واشرحى لنا الموقف بالتفصيل».

«قلت: أولاً الإخوان المسلمون لم يدبروا خطة للاستيلاء على الحكم ولا لقتل عبدالناصر والوزراء الأربعة المزعومين ولا لقتل أحد .. الموضوع هو دراسة للإسلام ولمعرفة أسباب تأخر المسلمين والحالة التى وصلوا إليها».

«عند ذلك قاطعنى قائلاً: «ياست زينب أنا قلت لك: هم قالوا كل حاجة» ، قلت: «جايز جداً ، وقطعاً قالوا ما أراده الجلادون منهم ، فترخصوا لأنفسهم وقالوا شيئاً لم يحدث».

«القضية كلها أننا كنا ندرس الإسلام ونعمل على أن نربى له جيلاً يعيه ويفهمه ، فإن كانت هذه جريمة فأمرنا لله».

«فأقسم بالله العظيم أنه يريد خدمتى وأنه حضر خصيصاً لخدمتى».

«قلت له شكراً أنا لم أفكر يوماً أن أكون موظفة حتى ولا وزيرة. أنا قضيت عمرى فى خدمة الإسلام وموضوع وزارة الشئون لا يعنينى فى قليل أو كثير لأنى لا أصلح للوظيفة فعملى كله التطوع لخدمة الإسلام».

«وقام الرجل وتركنى فى الحجرة بعد أن قال: أنت حرة ، نحن عرضنا خدماتنا وأنت ترفضين».

لست فى حاجة إلى أن أكرر هنا ما أشرت إليه فى موضع آخر إلى أنه فى هذا الوقت الذى حدث فيه ما ترويه السيدة زينب الغزالى ، لم تكن الدكتورة حكمت أبوزيد وزيرة للشئون الاجتماعية حتى تأتى السيدة زينب الغزالى فى مكانها وإنما كانت الدكتورة حكمت أبوزيد قد تركت الوزارة منذ مدة .

(٢٠)

ومن المهم لتاريخنا المعاصر أن نقرأ تفصيلات هذا الحوار الذى تديره صاحبة هذه المذكرات بينها و بين شمس بدران عن دور عبدالعزيز على فى حركة الإخوان المسلمين فى ١٩٦٥ ، وسنلاحظ أن زينب الغزالى تبدأ ردودها بالسؤال عمن يعنيه بعبدالعزيز على ثم تنطلق لتصفه بعد سطرين بأنه «علم فى رأسه نار» ، ومن المهم أن نشير إلى أن فؤاد علام فى مذكراته قد أشار إلى دور لعبدالعزيز على فيما سمى بمؤامرة الإخوان فى ١٩٦٥ ، وإن كان قد ظنه «لواء» بينما هو أحد أقطاب العمل الوطنى منذ ما قبل ثورة ١٩١٩ ، وكان يسمى بأبى الفدائيين ، وقد عمل فى بداية عهد الثورة وزيراً للشئون البلدية والقروية ، وسرعان ما ترك هذا المنصب الوزارى قبل إعلان الجمهورية ، وها هو بعد أكثر من عشر سنوات يبرز اسمه إلى السطح مرتبطا هذه المرة بالإخوان المسلمين:

«والتفت إلىّ شمس بدران يسأل: الورق الذى مزقته لم تذكرى فيه شيئاً عن عبد العزيز على. فسألت: ومن عبدالعزيز على؟ فقال شمس بدران: عبدالعزيز على باشا [نشير هنا أيضا إلى أنه لم يكن قد نال هذه الرتبة] الذى عينه عبدالناصر وزيراً ولم يحفظ هذا المعروف وعضَّ اليد التى أكرمته ، وتنكر لعبدالناصر. فقلت على الفور وقد طفا الاسم إلى ذاكرتى: عبدالعزيز على ، صاحب حركة اليد السوداء ضد الإنجليز؟ عبدالعزيز على من

كبار رجال الحزب الوطنى. لقد كان عبدالناصر وزملاؤه يجلسون على الأرض أمامه يستمعون منه دروساً فى الوطنية.».

«إننى أعرف أنه رجل عظيم ، وهو صديق زوجى ، وأخى فى الله ، وزوجته من أعضاء المركز العام لجماعة السيدات المسلمات وصديقتى وأختى فى الله. فسأل فى تهكم: ألم تضميه إلى تنظيم الإخوان؟!! وأجبت: كان يشرفنا ذلك ، إنه كما قالت الخنساء ، علم فى رأسه نار..».

«فصرخ شمس بدران فى عجرفة تخجل منها عجرفة الجاهلية : وإيه كمان عندك من الكلام الفارغ؟! ونزلت السياط.. بعدها فترة راحة ، وتشاور هامس فيما بينهم ، ثم قال حسن خليل: نريد أن نعرف ، لماذا عرّفت عبدالعزيز على بعبدالفتاح عبده إسماعيل؟ وأين تم هذا التعارف؟ أجبت: عندما كُسرت رجلى بفعل رجال مخابراتكم ، كان يزورنى فى المستشفى هو وزوجته ، واستمرت زياراته فى البيت عندما تركت المستشفى ، و تصادف يوماً أن جاء عبدالفتاح عبده إسماعيل لزيارتى وكان عبدالعزيز على موجوداً فتعارفا.. هذا كل ما أتذكره بالنسبة لهذه الواقعة».

«فقال حسن خليل: ياست زينب ، سنسلم معك أن تعارف عبدالعزيز على وعبدالفتاح عبده إسماعيل كان مجرد لقاء عابر ، لكن كيف تعرُف عبدالعزيز على فى بيتك وبواسطتك بفريد عبدالخالق؟ فقلت: عندما جاءت الممرضة لإجراء العلاج الطبيعى لساقى المكسورة ، خرج عبدالعزيز على وجلس فى الصالون ، وفى هذه الأثناء حضر فريد عبدالخالق فجلس فى الصالون ، وكان لا يعرف عبدالعزيز على بعد ، وعندما انتهت جلسة العلاج ، وانصرفت الحكيمة ، دخل فريد عبدالخالق ليرانى ، ودخل عبدالعزيز على ليستأذن فى الانصراف ، قدمت كلاً منهما للآخر» ، فصرخ شمس بدران وكان فى قمة الضيق: نادوا صفوت!! ولم أفق إلا فى المستشفى ، وقدماى فى الضمادات وآلام حادة تدق عظامى ، وتفرى كل جسمى!!».

(٢١)

ولعل أسهل ما يمكن نقده فى مذكرات السيدة زينب الغزالى هو أنها انتهجت النهج السائد فى الكتابات العربية المعاصرة الذى يحرص على التقليل من شأن الرأى الآخر

وأصحابه ، بل واتهامهم بالعمالة ، وهى تنتهج هذا المنهج فيما يعارضها من آراء وفى وصف مَنْ يعتنقونها من دون أن تذكر ولو أسماء هؤلاء المخالفين ، ونحن نفهم من كتابها - عرضاً - أنها اختلفت مع بعض مَنْ كانوا معها فى جمعيتها ، وأن هؤلاء انفصلوا أو انفصلن عنها.. ولكننا لا ندرك حدوث هذا الاختلاف إلا عندما يأتى حديثها عن حل جمعيتها وتسليم أموالها إلى جمعية أخرى قريبة منها فى النشاط كما يقضى بذلك قانون الجمعيات.

وهذه زينب الغزالى تتحدث فى بداية مذكراتها فتقول:

«... وعقدت مجلس إدارة السيدات المسلمات فى اجتماع عاجل فى ٩ جمادى ١٣٨٤ الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٥٤ ، وهو نفس اليوم الذى وصل فيه قرار الحل ، وقرر المجلس رفض قرار الحل وتسليم الجماعة وأموالها وممتلكاتها لجماعة أخرى كانت قد انفصلت عنا بإيعاز من المباحث (وانضمت) لعبد الناصر ، كما قرر المجلس دعوة الجمعية العمومية لجلسة طارئة استثنائية فى مدة لا تتجاوز ٢٤ ساعة ، واجتمعت الجمعية العمومية، وقررت رفض قرار الحل وعرض الأمر على القضاء».

وعلى هذا الأسلوب يمضى هذا الكتاب إذا ما تعرض لذكر مَنْ خالف أو خالفت زينب الغزالى فى أفكارها السياسية أو ممارساتها فى الحياة العامة ، دون أن تُعنى السيدة صاحبة المذكرات بإلقاء أى ضوء على فكر (هذا) الآخر أو دوافعه.

(٢٢)

وعلى نفس الخط فإن السيدة زينب الغزالى تروى قصة طلاقها من زوجها الحاج محمد سالم سالم فى غموض شديد بحيث يبدو لنا أنها لم تعلم أنها طلقت من زوجها إلا بعد وفاة هذا الزوج ، وقد يبدو هذا عجيباً ، ولكن هذا هو النص الذى تقدمه هذه المذكرات :

«... وعدت إلى الزنزانة ، ومرت أيام قاسية ، وفى يوم كنت أصلى الفجر وأتلو القرآن فأخذتنى سنة من النوم ، فرأيت فيما يرى النائم صورة زوجى فى صفحة الوفيات وأنا أقرأ نعيه ، انتبهت وأنا أردد : اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه! ووجدت حميدة تردد نفس الدعاء ، دهشت لكنى كتمت عنها ما رأيت. وتكررت الرؤيا».

«ووصلتنا الجرائد صباح يوم جمعة فأخذت أتصفحها ، وإذا بى أجد نعى زوجى ، قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فى الجنة إن شاء الله ياحاج محمد!».

«ثم لم أتمالك نفسى فانفجرت بالبكاء ثم أغمى علىّ ، واستدعوا لى الطبيب ، ومرت أيام وجاءت الأسرة لزيارتى ومنها علمت أن جمال عبدالناصر وجنده خيروا الرجل الطيب الإنسان الفاضل زوجى المرحوم الحاج محمد سالم سالم بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يطلق زينب الغزالى الجبيلى أو أن ينقل إلى السجن الحربى ، وطلب منهم مهلة أسبوعين يفكر ، فأصروا على الاختيار فوراً ، وكان معهم المدعو أبو الوفا دنقل يهدد الحاج محمد بتنفيذ أمر عبدالناصر ، بل إن الفجور بلغ برجال المباحث أنهم أحضروا المأذون معهم ليجرى الطلاق».

«وقع زوجى على ما كتبوا له وهو يقول: اللهم اشهد أننى لم أطلق زوجتى زينب الغزالى الجبيلى ، كما قال لهم: أنا سأموت ، اتركونى أموت بكرامتى ، أنا سأموت وهى على عصمتى. حصل ذلك وزوجى مريض ، أصيب بعد سماع الأحكام بشلل نصفى وكان من قبل مصاباً بذبحة نتيجة استيلاء عبدالناصر على شركاته وأمواله وأرضه وبيته.. فحسبنا الله ونعم الوكيل. ولم يطل به الأمر ، فقد توفى رحمه الله بعد توقيعه على الطلاق، وسمعت الأسرة وقالت شقيقتى: إنها لما سمعت بما حدث غضبت ورفعت صورة للحاج كانت فى حجرة الصالون .. وغضبت منها وطلبت أن تعاد الصورة ، فزوجى كان أخى فى الله قبل أن يكون زوجى وبيتى سيبقى بيته طالما أنا على قيد الحياة ، لقد جمعت بيننا العقيدة قبل أن يجمع الزواج ، والزواج عرض من أعراض الحياة ، ولكن الأخوة فى الله باقية خالدة لا تزول ولا تقاس بها الدنيا وما فيها ، وعرفت أيضاً من الأسرة أنها قد حضرت منذ اللحظة الأولى للوفاة واشتركت فى تشييع الجنازة والعزاء وقامت بما عليها من واجب وأحسست بشىء من الراحة لذلك..».

وتردف صاحبة المذكرات بقولها :

«وحين خلوت إلى نفسى تذكرت رؤيا منّ الله علىّ بها إذ رأيت حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأرخت لها بين سطور المصحف الذى كنت أقرأ فيه ، وعدت إلى التاريخ فوجدته مطابقاً لتاريخ حادث الطلاق. نعم رأيت حضرة النبى عليه الصلاة والسلام يمشى بملابس بيضاء ، وخلفه مباشرة حسن الهضيبى بملابس بيضاء وعلى رأسه طاقية .. وأنا

أقف ومعى السيدة عائشة ومعها عدد من النساء ، وقع فى نفسى أنهن وصيفاتها. وكانت السيدة عائشة توصينى بكلمات ، فلما أصبح الرسول عليه السلام فى محاذاتنا نادى عائشة وقال لها: صبراً يا عائشة ، صبراً يا عائشة ، وكانت حقاً عائشة رضى الله عنها تشد يدى كل مرة و توصينى بالصبر!».

(٢٣)

وتحكى السيدة زينب الغزالى فى مذكراتها كيف أنها قد وُفقت ، دون قصد ، إلى أن تقتل رجلاً سلطوه عليها فى السجن ليفعل بها الفاحشة.. فتقول:

«وانطلقت القذارة من فم حمزة البسيونى بأبشع ما يمكن أن يتخيله إنسان .. سب فاضح صارخ وقال: «يابنت الـ... انقذى نفسك ، وقولى كل شىء. اعترف الهضيبى ، واعترف سيد قطب ، واعترف عبدالفتاح إسماعيل ، ووضعنا أصابعنا على كل شىء من واقع اعترافاتهم .. عرفنا منهم أن الهضيبى أمرك أن تقولى لعبدالفتاح إسماعيل بأن دم عبدالناصر مباح لأنه كافر.. كل واحد منهم تكلم ، وأنقذ نفسه وأنت ضيّعت نفسك .. ثم قال مهدداً والشرر يتطاير من عينيه: ستعرفين كيف أنتزع منك كل ما نريده .. ستتكلمين أم لا ؟».

«ثم التفت إلى صفوت وقال: نفذ الأوامر ياصفوت.. ومن يعصى الأمر من أولاد الكلب ـ مشيراً إلى الجنديين ـ حوله إلى المكتب فوراً.. وتولى صفوت إفهام الجنديين مهمتهما البشعة بأسلوب داعر صارخ الفجور ، بعيد كل البعد عن الحياء.. مغمور فى الانحطاط إلى أبعد ما يكون.. فقال لأحدهما فى مجون: نفذ التعليمات ـ يا ابن الكلب ـ بعد إغلاق الزنزانة ، وبعد أن يتم التنفيذ ادع زميلك ليقوم بدوره كذلك.. مفهوم؟!! ثم أغلق الزنزانة وانصرف».

«جلس الرجل يتوسل إلىّ أن أقول ما يريدون لأنه لا يريد أن يؤتينى ، ومن جهة أخرى فإن عدم التنفيذ يلحق به ضرراً بليغاً وإيذاء جسيماً.. قلت له بكل ما أوتيت من قوة: إياك أن تقترب منى خطوة واحدة .. إذ اقتربت سأقتلك.. سأقتلك.. سأقتلك ، فاهم!! كنت أرى الرجل ينكمش ويتقاعس غير أنه أخذ يقترب فى خطوات ، ولم أدر إلا ويداى حول رقبته ، وأنا أصرخ بكل صوتى: «بسم الله ، الله أكبر».. وغرزت أسنانى فى عنقه ، وإذا به

ينفلت من بين يدى ، ويسقط تحت قدمى خائراً ، يخرج من فمه زبد أبيض كرغاوى الصابون .. سقط الوحش تحت قدمى ، جثة هامدة لا تنبض إلا بهذا الزبد الأبيض.. أنا التى تتربع على قمة الألم ، والتى مزقتها الجراح التى حفرتها السياط فى كل موضع من جسمها.. أنا التى غلفها الإعياء من كل الزوايا تصرع هذا الوحش الذى أمروه بأن يفترسنى!! لقد بث فىّ الله جلت قدرته! قوة غريبة صرعت هذا الوحش!! وكانت معركة شرسة ضارية ، انتصرت فيها الفضيلة على شراسة الرذيلة .. كان هذا علامة صدق ، وبشرى للمخلصين ، فالحمد لله ولا إله إلا الله.. إن الطغاة يخافون ويهزمون وأصحاب الرسالات خلف القضبان مجردون من كل شىء إلا من الإيمان بالله تعالى».

(٢٤)

ويرينا هذا الكتاب نماذج متعددة لصلات صاحبته بأقطاب الإخوان المسلمين ـ من وجهة نظرها هى طبعاً ـ وهى تروى كيف كانت هذه العلاقات تتطور وتمضى من أجل تحقيق الأهداف المشتركة والتعاون فى سبيل تنفيذ ما يعتقدون أنه الصواب ، وترينا الاحتياطات والاحترازات التى توردها صاحبة المذكرات فى أثناء الرواية مناطق مهمة من اللاوعى يسهل على القارئ أن يفهم ما تعكسه وما تعنيه ، وهذا على سبيل المثال هو نص ما ترويه عن علاقتها بعبدالفتاح إسماعيل أبرز المتهمين فى مؤامرة الإخوان فى ١٩٦٥ :

«كان أول لقاء لى به فى عام ١٩٥٧ وفى موسم الحج».

«كنت فى ميناء السويس على رأس بعثة الحج لجماعة السيدات المسلمات ، وكان معى فى المودعين شقيقى محمد الغزالى الجبيلى فوجدته مقبلاً علىّ فى صحبة إنسان يكسو وجهه نور ومهابة يغض بصره ، قدمه لى أخى قائلاً: الأخ عبدالفتاح إسماعيل ، كان من أحب شباب الإخوان إلى الإمام الشهيد حسن البنا ، كان فضيلة المرشد يحبه ويؤثره وله فيه ثقة مطلقة ، وقد طلب منى أن أقدمه لك بهذه الصورة حتى تعرفيه ، وحيّانى الأخ وهو يقول: سأكون إن شاء الله معكم فى الباخرة ، فرحبت به وانصرف ، وصعدنا إلى الباخرة وتحركت بعيداً عن الشاطئ وانشغلت بمطالب البعثة ، بعثة حج السيدات المسلمات. وعندما ذهبت إلى حجرتى لأستريح بعد تناول الغداء ، سمعت طرقات على الباب ، أذنت بالدخول فتكرر الطرق ثانية ولكن الطارق كان يذهب بعيداً عن فتحة الباب ، ولما سمع

صوتى يأذن بالدخول للمرة الثالثة ، دخل فوجدته الأخ الذى قدمه لى شقيقى على رصيف الميناء.. قال فى إخبات وهو يطرق إلى الأرض بعد أن ألقى علىّ السلام.. أنا أعلم بحمد الله أن بينك وبين الإمام الشهيد حسن البنا بيعة بعد طول خلاف ، ولما سألته عن مصدر معلوماته أجاب: الإمام الشهيد نفسه طيّب الله ثراه .. فسألته عما يريد ، أجاب: أن نلتقى فى مكة لوجه الله نتحدث فيما كان البنا يريده منك إن شاء الله».

«كانت كلمات سهلة العبارة طيبة النوايا لينة ، لكنها مع بساطتها قوية صادقة ثقيلة التكاليف ، تحمل معنى الأمر ولا تترك مجالاً للتفكير».

«قلت: إن شاء الله فى دار بعثة السيدات المسلمات بمكة أو بجدة ، ولما سأل عن العناوين حدثته عن أخوين فى جدة قال إنه يعرفهما وهما الشيخ العشماوى ومصطفى العالم ، كلاهما يستطيع أن يرشده إلى مكان إقامتى بمكة وجدة».

«حيّانى الأخ وانصرف».

(٢٥)

وتستأنف السيدة زينب الغزالى حديثها عن توثق علاقتها بعبدالفتاح عبده إسماعيل وهو أحد أبرز المتهمين فى قضية الإخوان فى ١٩٦٥ فتقول:

«أخذت طريقى إلى باب السلام وكان فى نيتى أن أطوف حين أوقفنى صوت ينادينى باسمى محييا بتحية الإسلام ، والتفت فإذا به عبدالفتاح إسماعيل وسألنى عن وجهتى ولما عرف أنها الطواف ثم دار البعثة صحبنى إلى المسجد وطفنا بالبيت معاً ، وبعد صلاة سنة الطواف جلسنا تجاه الملتزم وأخذ يتحدث فيما يريد».

«سألنى عن رأيى فى قرار حل الإخوان».

«أجبت إنه قرار باطل شرعاً».

«قال: هذا الأمر الذى أريد بحثه معك.. ولما سألته أن يزورنى فى دار البعثة استبعدها كمكان لمثل هذه الأمور خوفاً من أجهزة التجسس الناصرية ، واتفقنا على أن نجتمع فى مكتب عمارة الحرم المكى.. فى مكتب معالى الرجل الصالح الشيخ صالح القزاز ،

واجتمـعنا هناك ، لكنه أسر إلىّ أن الأفضل أن نلتقى فى الحـرم وانصرف هو على أن نلتقى خلف مقام إبراهيم».

«وبعـد ركعـتى الطواف جلسنا خلف مـبنى زمزم بالـقرب من مـقام إبراهيم ، وأخـذ يتحـدث عن بطلان قرار حل جمـاعة الإخوان المسلمين ووجوب تـنظيم صفوف الجمـاعة وإعـادة نشاطهـا ، واتفقنـا على أن نتصل بعـد العـودة من الأرض المقدسـة بالإمام حـسن الهضيبى المرشد العام لنستأذنه فى العمل».

«وقال عندمـا هممنا بالانصراف: يجب أن نرتبـط هنا ببيعة مـع الله على أن نجاهد فى سبـيله ، لا نتقاعس حـتى نجمع صفـوف الإخوان ونفاصل بيننا وبين الذين لا يرغـبون فى العـمل أياً كان وضـعـهم ومقـامهم ، وبايعـنا الله على الجهـاد والموت فى سـبيل دعـوته.. وعدت إلى مصر».

«ومع أوائل ١٩٥٨ كانت لقاءاتى قـد تعددت بعبدالفتاح إسـماعيل فى منزلى وفى دار المركز العام للسيدات المسلمات».

(٢٦)

ثم تقـدم لنا زينب الغـزالى الأدلة على أن نشـاطهـا كـان بإذن ومـوافـقة المرشـد العـام للإخـوان المسلمين ، وهى تفعـل هذا بوعى شديد للصـورة التى تقـدم بها هذا النشـاط من خلالها مذكراتها وذكرياتها وذلك حيث تقول:

«والتقيت بالأسـتاذ الهضيبى لأستأذنه فى الـعمل باسمى وباسم عبدالفتـاح إسماعيل ، وأذن لنا فى العـمل بعد لقـاءات عديدة شـرحت له فيـها الغاية وتـفاصيل الدراسـات التى قمت بها وعبدالفتاح».

«وكـان أول قرار لبـدء العمل هو أن يقـوم الأخ عبـدالفـتاح عـبده إسـماعـيل بعملية استكشاف على امـتداد مصر كلها ، على مـستوى المحافظة والمركز والقـرية ، والمقصود من هذا أن نتـبين من يرغـب فى العـمل من المسلمين ، ومن يصـلح للعـمل مـعنا ، مـبـتـدئين بالإخوان المسلمين لجعلهم هم النواة الأولى لهذا التجمع».

«وبدأ الأخ عبد الفـتاح إسماعيل جـولته بادئاً بالذين خرجوا من السـجون من الإخوان

والذين لم يدخلوا لتختبر معادنهم وهل أثرت المحنة فى عزيمتهم ، وهل دخول من دخل السجن جعلهم يبتعدون عما يعرضهم للسجن مرة أخرى أم أنهم لا يزالون على ولائهم للدعوة مستعدين للتضحية بكل غال ورخيص فى سبيل الله ونصرة دينه».

«كانت عملية استكشاف لابد منها حتى نبدأ العمل على أرض صلبة ، وحتى نعرف من يصلح فعلاً ، وكنا ندرس معاً التقارير التى يقدمها عبدالفتاح إسماعيل عن كل منطقة، وكنت أزور المرشد وأبلغه مجمل ما اتفقنا عليه وما وصلنا إليه.. وكنا إذا عرضنا عليه صوراً من الصعوبات التى نلاقيها ، قال: استمروا فى سيركم ولا تلتفتوا إلى الوراء ، لا تغتروا بعناوين الرجال وشهرتهم .. أنتم تبنون بناءً جديداً من أساسه».

(٢٧)

وفى هذا الإطار فلابد لنا أن نستكمل تصوير ما حرصت عليه السيدة زينب الغزالى ، وهى حريصة على أن تذكر بالتفصيل طبيعة علاقتها مع الأستاذ سيد قطب وأسرته ، وهذا بعض ما تحكيه عن لقاءاتها بالأستاذ سيد قطب وشقيقته وعائلته:

«... وفى عام ١٩٦٢ التقيت بشقيقات الإمام الفقيه والمجاهد الكبير الشهيد سيد قطب بالاتفاق مع الأخ عبدالفتاح إسماعيل وبإذن من الأستاذ حسن الهضيبى ، المرشد العام للإخوان المسلمين ، للاتصال بالإمام سيد قطب فى السجن لأخذ رأيه فى بعض بحوثنا والاسترشاد بتوجيهاته».

«طلبت من حميدة قطب أن تبلغ الأخ سيد قطب تحياتنا ورغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامى فى الاسترشاد بآرائه .. وأعطيتها قائمة بالمراجع التى ندرسها وكان فيها تفسير ابن كثير ، والمحلى لابن حزم ، والأم للشافعى ، وكتب فى التوحيد لابن عبدالوهاب ، وفى ظلال القرآن لسيد قطب ، وبعد فترة رجعت إلىّ حميدة وأوصت بدراسة مقدمة سورة الأنعام .. الطبعة الثانية وأعطتنى ملزمة من كتاب قالت: إن سيد يعده للطبع واسمه «معالم فى الطريق».. وكان سيد قطب قد ألفه فى السجن ، وقالت لى شقيقته: إذا فرغتم من قراءة هذه الصفحات سآتيكم بغيرها».

وعلمت أن المرشد اطلع على ملازم هذا الكتاب وصرح للشهيد سيد قطب بطبعه.. وحين سألته . قال لى: على بركة الله.. إن هذا الكتاب حصر أملى كله فى سيد ،

ربـنا يحفظه ، لقـد قـرأتـه وأعدت قراءته ، إن سيـد قطب هو الأمل المرتجى للدعوة الآن ، إن شاء الله. وأعطانى المرشـد ملازم الكتاب فـقرأتها فقـد كانت عنده لأخذ الأذن بطبعـها وقد حبست نفسى فى حجرة بيت المرشد حتى فرغت من قراءة «معالم فى الطريق».

(٢٨)

وتحرص السيدة زينب الغزالى على أن تذكـر أن اللقاءات قد تعددت ، وأن الأنشطة قد تواصلت ، مع أن فكرتنا عن تلك الأيام قد لا تسـمح بتصور أن يتم كل هذا النشـاط بعيداً عن أعين دولة ممسكة بزمام الأمن ، حيث تقول:

«وأخذنا نعيد الدراسة والبحث من جديد فى صـورة نشرات قصيرة توزع على الشباب ليدرسـوها ثم تدرس بتوسع فى حلقات ، وكانت الأفكار متفقة والغـايات غير مخـتلفة ، فانسـجمت خطة الدراسة مـع الوصـايا والصفحـات التى كـانت تأتينا من الإمام الشهـيد سـيد قطب رحـمـه الله وهو داخل السجـن ، وكانت ليـالى طيبـة وأياماً خـالدة ولحظـات قدس مع الله ، يجتـمع عشرة أو خمسـة من الشباب ويقرأون عشـر آيات تراجع أحكامها وأوامـر السلوك فيـها وكل غـاياتهـا ومقـاصدها فـى حيـاة العبـد المسلم. وبعـد تفهـمهـا واستيعابها يتقرر الانتقال إلى عشر آيات أخرى اقتداء بأصحاب النبى ﷺ ».

«ومرت أيام حلـوة طيبة ونعـمة من الله تحـتوينا ، ونحن ندرس وندرس ونربى أنـفسنا ونهـيئ للدعوة رجـالها بشـباب اقتـنع بضرورة الإعـداد لقيـام دعوة الحق العـادل .. وقرر وجوب حـتميـة إعداد أجيـال فى شخوص هذا الشـباب الذى نرجـوه أساتذة فى التوجـيه والإعداد للأجيال المقبلة».

«قررنا فـيما قررنا ـ بتـعليمات من الإمام سـيد قطب وبأذن الهضـيبى ـ أن تستمـر مدة التربية والتكوين والإعداد والغرس لعقيـدة التوحيد فى النفوس ، والقناعة بأنه لا إسلام إلا بعودة الشريعـة الإسلامية وبالحكم بكتاب الله وسنة رسـوله لتصبح شريعة القرآن مـهيمنة على كل حياة المسلمين ، قررنا أن يستغرق برنامجنا التـربوى ثلاثة عشر عاماً ، عمر الدعوة فى مكة».

«وكنا على اتصال بالأسـتاذ محـمد قطب ، وبإذن من المرشد العـام الأستاذ الهضـيبى ،

كان يزورنا فى بيتى بمصر الجديدة ليوضح للشباب ما غمض عليهم فهمه ، وكان الشباب يستوضحونه ويسألونه أسئلة كثيرة يجيب عليها».

(٢٩)

أما حديث السيدة زينب الغزالى عن المرشد الثانى للإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبى فهو حديث يحفل بالتقدير دائماً ، وهى تروى كيف عرفت بوجوده فى السجن على النحو التالى:

«... وفى يوم أحسست بشىء يجذبنى إلى باب الزنزانة ، كان صوت أقدام أحسست أن قلبى ينجذب إليها ، وأمسكت بباب الزنزانة ووضعت عينى على الثقب الذى يرقبوننى منه بين الحين والحين ، ورأيت صاحب هذه الخطا ، لقد كان الإمام حسن الهضيبى المرشد العام ، وأدركت أنهم قبضوا عليه ، ووضعت فمى على الثقب وقرأت قوله تعالى:

«إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله... ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».

«وصرت أترقب هذه الخطى الغالية. وكان الله يرزقنى رؤيته كل يوم. فكنت أقف وأردد الآية ويجيب بإيماءة خفيفة لا يلحظها الشيطان الذى يرافقه».

«كان هذا اللقاء يؤنسنى كثيراً ويشغلنى عن جل آلامى. وهذا أمر لا يحس بجلاله غير المؤمنين المتآخين فى الله ، فالإسلام يربط بين قيادته وجنده برباط يعلو بالنفوس حتى تؤثر مرضاة الله على نفسها. وعشت يغمرنى الاطمئنان بذلك».

(٣٠)

ومع كل هذا التقدير الذى تحرص على تسجيله لأقطاب الإخوان المسلمين ، فإنها لا تمل الحديث بمرارة عن على عشماوى أحد نشطاء الإخوان فى هذه الفترة ، وهى حريصة على اتهام على عشماوى هذا بالعمالة للمباحث :

«... فقال شمس بدران: تريدين أن تنكرى أنك أسست تنظيم الإخوان؟ إليك كلام

شيخكـم يقطع بأنك أنت التى أسست التنظيم .. اقرأ لهـا أقوال الهضيبى يـا جلال.. وبعد عدة دقـائق قال له: انتظر.. اترك هذا الملف واقـرأ لها أقوال عـبدالفتـاح إسماعـيل.. وأخذ جلال يقـرأ.. وبعد قليل سألنى شمـس بدران: ما رأيك!! لـم أجب.. قال ياجلال اقـرأ لها أقوال مخطط الإخوان سيد قطب».

«فأخذ جلال يقرأ ثم ينتقل من ملف إلى ملف ولما فرغ قال شمس بدران: ما رأيك فيما سمـعت.. هل تكتبين مـا نريد؟ فقلت: هذا باطل؟؟ فـقال فى تهكم: وما هو الحـق ياناىغة الزمان!!».

«قلت: كل ما سجل هنا لعلى عشماوى.. أعتقد هو الباطل.. أما بقية إخوانى فهم أهل الدعوة وأهل الحق والمسطر هذا مزور عليهم .. قال شمس: علقها ياصفوت وأنت ياحمزة هات على عشماوى وحضر الكلاب».

«وجـاء على عشـماوى.. كـان على عشـماوى يلـبس «بيجـامة» من الحـرير المهفـهف نظيفة.. أنيقة. شعره ممشط لا يبدو عليـه أى أثر للتعذيب. فلما رأيته واستعرضت فى ذهنى حالة الآخـرين ، وحالتى ، علمت بل تيقـنت أن هذا المخلوق خان أمانة الله ، وشـهد على إخوانه زوراً فهوى فى مهاوى الفساق ، الفجار ، الظالمين ، وأصبح من رجال شمس بدران وذنباً من أذناب جمال عبدالناصر ، الذين لا يعرفون قيماً ولاأخلاقاً ولا ديناً».

«قال لـه شمس بدران: يا على.. مـاذا أخذت من زينب الغـزالى فى آخر يوم توجـهت فيه إليها.. وماذا قالت لك؟».

«قال على عـشماوى: أعطتنى ألف جـنيه ، وقالت لى: النقـود ستكون عند غادة عـمار لتسليمها إلى بيت الهضيبى أو بيت قطب ، إذا قبضوا علىّ اتصل بغادة أو بحميدة ستعرف أين النقود إذا احتجتم إليها».

«فقال شمس بدران: كم كانت النقود يازينب الغزالى؟ ولماذا كنت خائفة عليها؟».

«فقلت: كانت النقود أربعة آلاف جنيه ، وهى قيمة اشتراكات مجموعة من الإخوان فى السودان ، والسعودية لمساعدة أسر المسجونين ، ومصاريف الطلبة فى المدارس والجامعات ، وإيجـار بيوت ، صـرفنا منهـا فى العيـد الماضى ألف جنيـه على العـائلات.. وهذا الواقف أمامكم هو الذى أخذ الألف جنيه ليعطيها لعبدالفتاح إسماعيل لحساب الأسر».

«وقال شمس بدران: أنت يا على.. ماذا أكلت عند زينب الغـزالى آخر مرة؟ فقال على عشماوى: أعطتنى طبق أرز بالكبدة وقالت لى: كل.. ربنا يعينك».

«ثم قال: كـفاية!! أخـرج يا علي ، فخرج علـى عشمـاوى مصحـوباً بسلامـة ورعاية شمس بدران!!!».

(٣١)

وفى مقابل هذا التـعريض الشديد بعلى عشـماوى وانصياعه التـام لشمس بدران فإن السيدة زينب الغزالى تذكر بكل تقدير وفخر موقف عبدالفتاح إسماعيل فى مواجهة شمس بدران:

وهى تقول:

«.... وقال شمس بدران: هات عبدالفتاح ياحمزة».

ربما جاز لنا أن نتوقف لنـشير إلى أن حمزة البـسيونى كان يكبر شـمس بدران بأكثر من عـشر سنوات ولكن الـوضع المميـز الذى وصل إليـه شمس بدران كـان يكفل له أن يأمـر وينهى مَنْ هم أكبر من حمزة البسـيونى ، وإن كان هذا لايعنى أننا نؤيد كل ما ترويه السيدة زينب الغزالى من تفصيلات .

«وبعد لحظات عاد حمزة البسيونى بعبدالفتاح إسماعيل.. كان يكسوه وقار الصادقين ، ونور الموحدين.. يلبس حلة سـجن زرقاء ، ممزقة ، وآثار التعذيب تـنطق بمدى ما لاقاه هذا المجاهد الصادق المؤمن الموحد.. وقال يوجه القول إلىّ «السلام عليكم».

«فقلت : «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

«وقال شمس بدران: ماذا كنت تعمل عند زينب الغزالى ياعبدالفتاح؟ لماذا كنت تذهب إليها؟».

«ورد عبد الفتاح بلسان صدق وحـق غريب على الجاهلين: أختى فى الله.. كنا نتعاون على أن نبنى الشباب المسلم على مـبادئ القرآن والسنّة.. وبطبيعة الحال كـان ذلك سيفضى إلى تغيير الدولة ، من دولة جاهلية إلى دولة إسلامية».

«ويقول شمس بدران فى غلظة: أتخطب؟! أنـت لست على المنبر يا ابن الـ... أخرج.. أخرج.. ويخرج عـبدالفتاح إسماعـيل كما جاء .. بعد أن وجـه القول إلىّ «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

«فقلت: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

وأخذت شمس بدران ثورة عارمة فجرت القذارة على لسانه فانساب بأبشع الألفاظ وأقذرها!!!».

«واسترحت.. نعم استرحت لشموخ الرجولة فى عبدالفتاح إسماعيل، مأخوذة بذروة الإيمان فيه، وقلت فى سرى «الحمد لله» إن لله رجالاً.. اللهم احفظهم لدعوتك ياالله.. إن خان على العشماوى فهناك الموحدون الصابرون .. رواد الطريق وطلاب الحقيقة».

(٣٢)

أما أحب ما فى هذا الكتاب كله إلى نفسى شخصياً فهو حرص زينب الغزالى على التصوير الدقيق لميلها العميق إلى النزعة الإنسانية التى كانت تتملكها تماماً، وهى تروى إحدى الوقائع التى تصور تمكن هذه النزعة منها فتقول :

«أسلمنا أمرنا لله تعالى وانشغلنا به سبحانه وبتلاوة آياته الكريمة، وبينما أعيش مع ابنتى حميدة تلك اللحظات الربانية دخلت سيدة طويلة القامة شقراء وألقت علينا التحية، فرددنا التحية ثم قالت حضرتك زينب الغزالى قلت : نعم، قالت : أنا مرسيل مسجونة سياسية وطبعاً بيننا وبينكم خلاف فى العقيدة فأنا يهودية وأنتم مسلمون ، ولكن النفس لا تخلو من إنسانية، خاصة وقت الشدائد والمحن، فلا مانع أن تكون بيننا وبينكم معاملة طيبة فى السجن، أما خارجه فبيننا الحرب والقتال أو الخلاف فى الأهداف، أما الآن فنحن جميعاً فى شدة وقسوة، ولقد جئت إليكم فى غفلة من المسئولين لأعرض عليكم تعاونى لخدمة بعضنا لبعض. فشكرناها على ذلك، ثم قالت: نحن لدينا إمكانيات للأكل، وإن كانت قليلة فسنقتسمها معكم وسأتحرى أن لا يكون فى الأكل ما هو محرم عندكم، ونحن اليهود لا نأكل لحم الخنزير مثلكم. ومرت أيام كانت مرسيل اليهودية تحضر لنا بعضاً من المأكولات، وكان أهم من ذلك كله أن هذه اليهودية دبرت لنا أمر استعمال دورة المياه الخاصة بهم.. أحست ابنتى حميدة الحرج فى تلك الأمور، فقلت لها إن الله سبحانه وتعالى يسوق الخير لعباده، على يد من يشاء، والله تعالى لا يعنُت عباده ولا يديم عليهم العسر، وليس لنا حيلة إلا أن نتعايش مع الإنسانية أينما وجدت مادام ذلك فى دائرة الإسلام».

وتمضى المذكرات لتثبت لنا حقيقة مهمة وهى أن اليهوديات لم يكن فقط اللائى مددن يد المعونة إلى زينب الغزالى ، ولكن من المسيحيات أيضاً من رق قلبها لهذه السيدة :

« ورأينا فى تلك الغابة الموحشة والصحراء الجرداء القاحلة إنسانية متمثلة فى طبيبة مسيحية تقدم لنا عونها بين الفينة والفينة ، فعجبنا لهذا الطابع الإنسانى النادر وجوده فى مثل هذه الظروف».

(٣٣)

ولا يقتصر التصوير الجيد للنزعة الانسانية فى شخصية صاحبة هذه المذكرات على العلاقة بالآخر مهما كان عدواً ولكنها تمتد إلى تصور كثير من المشاعر الانسانية واللحظات الصادقة فى حياة البشر، ومن ذلك ما تصور به صاحبة المذكرات لحظة الإفراج عنها ، ذلك أنها تجيد التعبير عن المشاعر الإنسانية التى تعترى الإنسان حين يتخلص من السجن ومن الضيق ومن المحنة ، وهو لا يكاد يصدق أنه سيتخلص ، وهى تعبر عن هذا المعنى بصدق شديد فتقول :

«... كان يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٧١ يوماً مشهوداً. إذ حمل صباحه إلينا اختباراً جديداً حين جاءت سجانة مهرولة تدعونى بسرعة لمقابلة المأمور فى مكتبه».

«شدتنا المفاجأة وجعلتنا نذهب بفكرنا فى الأمر ماذا يكون وماذا يدبر الطواغيت والظلمة ، أهناك بلاغ كيدى بأننا ننشر الإسلام فى هذا المكان ، أم هناك خبر عن الأهل والديار أم هناك مخالفة ولا ندرى بها ؛ أم ......!! اعشرات من علامات الاستفهام؟؟ لم يخطر ببالنا ما تأتى به الأقدار ، فذهبت إلى مكتب المأمور وجدت أمراً بالإفراج عنى وحدى ، وكان شيئاً مذهلاً فأنا صاحبة الحكم المؤبد بالأشغال الشاقة أخرج لتبقى ابنتى وحيدة فى هذا المستنقع الآثم ، تقاسى ما تقاسى ، فانزعج قلبى من أعماقه وسيطر على نفسى حزن عميق وحيرة بالغة وبدون شعور صرخت قائلة: لا.. لا.. لن يكون هذا أبداً.. لن أخرج وأترك ابنتى ، إنكم أصحاب فتنة وتخطيط مظلم!! وثارت ثورتى وشعرت بتعب وإجهاد واضطراب فى النفس والمشاعر».

«طلب المأمور منى أن أخفف من ثورتى وأن هذه أوامر لا نملك لها أدنى مخالفة ، تمكثين هنا بأمر علوى وتخرجين بأمر علوى ، ونحن أيضا لسنا أقل منك فى ذلك».

«وبعد دقائق قليلة وجـدت ابنتى حميدة أمامى فى حـجرة المأمور ، استدعـاها لتهدئتى ولتخفف عنى ما أنا فيه ، كانت محنة هائلة ، قاسية ، كيف ذلك؟ كيف أخرج وأترك ابنتى وحدها ووجهها المطمئن المشرق لا يفـارق قلبى وصوتها بكلماتها الندية يهز أوتار نفسى ، كـيف أتركـهـا وحدهـا فى هذا المكان المظلم الموحش ، تواجـه بمفـردها قـسـوة المعـاملة ، ومشاعرى فى نفسى وفؤادى تصرخ بشـدة كلا.. كلا لن أتركها ، ويطول فى قلبى الصراع ويمتد ، وهى تـدعونى يا أماه يا أمـاه هذا فضل الله ورحـمة منه ، والأمـر كله لله ، والله لا ينسى عباده».

«وطال الموقف وامتد المشهد فقال المأمور لابنتى حـميدة: اتفضلى سلمى عليها وارجعى إلى الزنزانة ، وفى لحظات مضت كالبرق ، فريدة فى نوعهـا ، وحيدة فى مشاعرها ، تعانقنا والدمع يخط مـجراه على الوجوه والـقلب ينبض بسرعـة يتردد وكأنه يسـابق الزمن ، وفى وسط لحظات خـالدة من المشاعـر وخلجات النفـوس ، وجدت نفـسى وحيـدة فى حـجرة المأمور الذى أتم إجـراءات الخروج وانفطرت نفسى وتمزق قلبى والدمع ينهمـر وأنا أخطو الخطوة الأولى إلى بيتى».

(٣٤)

ومن الطريف أن نقـرأ فى الفقـرة التـالية مـا يعبـر عن تصـوير زينب الغزالى الصـادق للحظات شعورية مهمة ، ذلك أن السيارة تمضى بها إلى بيـتها فإذا ما توقفت السيارة مارة بالمباحث فـإنها تصبح فى نظر صاحـبة المذكرات قد «غـيرت اتجاهها فجـأة».. ولنقرأ هذا الوصف الحافل بالمشاعر والانفعالات:

«اخترقت العربة الطريق إلى بيتى ولكن غيرت طريقـها فجأة ووجدت نفسى أمام مبنى المباحث العامة ، ودخلت حجرة أغلقوا علىّ بابها من الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى التاسعة مساءً حـتى أخذونى إلى مكتب به ضابطان ، أخذا يسألان أسـئلة تدور حول الإسلام وهل أنت ستقومين بزيارة الإخوان بعد ذلك».

«وأنا مشغـولة بابنتى حميدة وأقول لهـما ليس من العدل أن أخرج وأنا مـحكوم عليها بالمؤبد ، وتبقى ابنتى وحيدة ، إنكم تريدون فـتنة ولكن الله لن يحقق لكم ما تدبرون ، قال: اهدئى يا حاجة ، قلت: إنكم تـكيدون كيداً والله من ورائكم محـيط والله غالـب على أمره

ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. قال: ياحاجة دى أوامر من فوق لا نقدر على أن نخرج حد وليس لنا كلام».

«ثم أخذونى إلى مكتب أحمد رشدى الذى كان يستخدم سياطه ونفسه المريضة ليكيد رجالاً ربط الله على قلوبهم برباط الإيمان ولكن هيهات.. هيهات».

«ولما دخلت عنده طلب منى الجلوس على مقعد أمامه وقدم لى التهنئة بالخروج ، ثم دار بينى وبينه حديث كان عبارة عن جملة أوامر وجهها لى كان ملخصها أن لا أمارس النشاط الإسلامى وأن لا تزاور بينى وبين إخوتى ومعارفى ولا تعاون بيننا ولا تواد وأن أتردد على مكتبه بين الحين والحين».

«فقلت له لما فرغ من حديثه: الكلام الذى وجهته إلىّ أرفضه جملة وتفصيلا ، بل أرفض قرار الإفراج بالخروج وتبلغ المسئولين بذلك وأطلب عودتى فوراً إلى سجن القناطر».

«وأنهى أحمد رشدى الحديث وابتسم قائلاً: «على أى حال فيه كثير من الإخوان تفاهموا معى على ذلك» ، فقاطعته قائلة: «والله لا أعلم عن الإخوان إلا خيراً وأما ما تقوله أنت بالنسبة لبعض الإخوان فلا أستطيع أن أبدى رأيا.. لا أصدق صدوره منهم ، إن الإخوان المسلمين ورثة حق يعملون له ليل نهار حتى يأتى الله بنصره أو يهلكوا دونه».

«ودق جرس التليفون وأجاب أحمد رشدى قائلاً: دعه يكلمنى ، ثم قال: أهلاً وسهلاً يا أستاذ عبدالمنعم ، اتفضل ، نحن محتاجون إليك .. ووضع سماعة التليفون ثم قال لى أحمد رشدى: الأستاذ عبدالمنعم الغزالى جاى هنا.. وبعد قليل حضر شقيقى عبدالمنعم وسلم علىّ وهو يبكى ، قال له أحمد رشدى: أنا أريد أن تحكم بينى وبين الحاجة لأننا مختلفان ، فأجاب شقيقى: الحاجة أكبر منى وأنا شقيقها الأصغر ، وليس من عادتى أن أناقشها فى شىء ، أضف إلى ذلك لو سمحت لى ، أنها تمتاز بقوة منطقها وصحة حجتها. فقال أحمد رشدى: طيب ياحاجة مبروك بس ملكيش دعوة بعمل تنظيمات مسلحة للإخوان.. قلت: التنظيمات السرية أنتم الذين تلفقون قصصها وتخرجون تمثيلياتها. إن قيام الدولة الإسلامية واجب على المسلمين وعدتهم فى ذلك الدعوة إلى الله تعالى كما دعا رسوله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الكرام ، وهذه رسالة كل مسلم سواء كان من الإخوان أو غيرهم».

«ثم انصرفت مع شقيقى إلى بيتى وكان ذلك فى الساعة الثالثة صباحاً فى اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٩٧١».



بقى أن أعبر عن رأيى فى أن الجزء الأهم من هذه المذكرات لم يكتب بعد ، فقد وقفت زينب الغزالى بمذكراتها عند الحدود التى انتهت إليها منذ عشرين عاماً ، وربما تحدثها نفسها ـ فيما بعد ـ أن تضيف إلى هذا الكتاب شيئاً عن عشرين عاماً تالية لمذكراتها شهدت ذروة نشاطها ووجودها ـ وربما تأثيرها ـ فى ساحة العمل الإسلامى الفكرى ، وقد نشطت إلى مجالات أخرى متعددة ورحيبة الأفق كتفسير القرآن الكريم الذى صدر الجزء الأول منه عام ١٩٩٥ ، ولهذا فإننا ربما نسأل أنفسنا ، ونحن حيارى ، هل أغلقت السيدة زينب الغزالى ملفها فى الحركة الإسلامية الدينامية بما كتبت حتى ذلك التاريخ ؟ ولماذا ؟

مـــذكــرات الـمـــرأة المصـــريـــة

الـثـــــــورة والحـــــــريـــة

4

مذكرات إنجى أفلاطون

دار الخيّـــــال

(١)

أجدنى مضطرا لأن أبدأ هذ الباب بماليس من حقه إلا أن يكون فى نهايته ، ذلك أنه لم يبلغ بى الضيق أبداً وأنا أقرأ التجارب المطبعية الأولى لأى كتاب ذلك المبلغ الذى بلغته وأنا أقرأ هذا الكتاب المطبوع الأنيق ففى كل صفحة عشرة أخطاء على الأقل ، إن لم يكن فى الحروف والكلمات ففى الفقرات المبتورة ، والبدايات غير الحقيقية لفقرات هى فى الأصل بقية الجملة التى فى الفقرة السابقة ، وقد يكون حدوث الخطأ وارداً ، ولكن وجود هذه النسبة من الأخطاء فى كتاب مطبوع مقروء أمر يستدعى إيقاف طبعه فإن لم يكن فإيقاف نشره فإن لم يكن فإيقاف توزيعه حفاظاً على سمعة دار النشر ، ولكن لا أظننا فى الوطن العربى نحرص على مثل هذه السمعة.. ومع هذا فإنى أعتقد أن مطالعة كم الأخطاء فى هذا الكتاب ربما يثير فى نفوسنا ضرورة الإحساس باتخاذ مثل هذا القرار فى بعض الحالات مهما بدت الخسائر المادية مكلفة.. ومن العجيب أن الفنى المسئول عن صف الحروف إذا تقدم بمثل هذا العمل كنموذج لقدراته فإنه لن يعين أبداً فى أى مكان ، ولكن يبدو أننا أصبحنا لا نبحث حتى عن الحد الأدنى من القدرة عند تعيين الموظفين!!

(٢)

تنبع أهمية هذه المذكرات من أن صاحبتها المغفور لها الفنانة إنجى أفلاطون مثلت نموذجاً بارزاً ، وفريداً فى بعض الأحيان لأكثر من معنى.

فهى أولاً الفنانة السياسية وهى نموذج الفنان المتميز الذى استمرت مشاركاته فى الفن والسياسة بطريقة متوازية ، وعندما نقرأ مذكرات إنجى أفلاطون نكتشف أنها بدأت نشاطها السياسى قبل نشاطها الفنى على عكس ما هو شائع فى مثل هذه الأحوال حين يكون الانتماء بمثابة قوة دافعة فى مجال الفن والأدب ، وقد لاحظ الجمهور فى وطننا هذا المعنى بوضوح شديد ، وهو ـ أى الجمهور ـ اليوم يقرأ مذكرات إنجى أفلاطون فيجد نموذجاً مختلفاً للتمذهب.

ثم هى ثانياً نموذج بارز للاقتناع الفكرى الذى دفع العناصر الأرستقراطية (فيها) إلى التخلى عن كل ما يربطها بالأرستقراطية والارتباط بكفاح جماهير الشعب ولم تعرف فى مصر حتى اليوم من هى أرفع طبقة من السيدة إنجى أفلاطون بين كل اليساريات والشيوعيات فى الحركة الوطنية المصرية.

ثم هى ثالثاً وهذا هو الأهم نموذج للصلابة المحترمة بين السيدات المصريات ويكفى أنها ظلت معتقلة لمدة ٤ سنوات لم تر فيها أهلها غير مرة واحدة ، وأنه حكم عليها بالسجن مدة عامين ، وأنها ظلت هاربة من عيون المباحث حوالى شهرين ومع هذا كله فإنها بقيت كما هى وأشد صلابة حتى يوم وفاتها ممثلة صورة واحدة هى صورة الفنانة إنجى أفلاطون المنتمية إلى كل ما انتمت إليه.

ثم هى رابعاً ظلت ـ قدر ما استطاعت ـ مخلصة لفنها إلى أبعد الحدود ، لم تستهوها على الإطلاق نزعات التحديث على أى مستوى ، ولم تلجأ إلى التغريب بأى طريقة على الرغم من أنها كانت قادرة على ما هو أبعد مما أنجزه من هم أقل منها من زملائها فى الحركة الفنية.

إنجى أفلاطون إذاً نموذج بارز للحرص الشديد على الانتماء وعلى تعميق الانتماء الوطنى لغةً وفكراً وعادات وتقاليد ونشاطاً ، قد يكون نموذجاً نادراً ولكنه هو الأصل ، ومهما غاب عنا الأصل فإن الأصل يظل هو الأصل ويظل موجوداً.

ولنقرأ معاً ما تقوله هذه السيدة العظيمة:

«حاولت والدتى إقناعى بالسفر إلى فرنسا لاستكمال دراساتى الفنية ، وكذلك حاول كل أفراد العائلة ، لكنى رفضت. بإصرار وعزم رفضت. كان قرارى بالرفض منسجماً مع ما استعد له من حياة جديدة ، يقتسمها النشاط السياسى والاجتماعى ، إن لم يشغلها لأبعد مدى. لم يكن مقبولاً ولا معقولاً أن أترك مصر وأذهب لعدة سنوات إلى بلاد الخواجات ، وأنا أفكر بكل وجدانى فى عملية تمصير طويلة وقاسية للنفس ، لى شخصيا. أنا التى أتكلم الفرنسية. ضاعت من عمرى ثمان عشرة سنة فى هذا المجتمع المغلف بالسلوفان ، حتى لغتى القومية لا أملكها. أى بؤس يحسه الإنسان المعقود اللسان! حتى السابعة عشر كانت لغتى هى الفرنسية. وحين بدأت أحتك بالناس ، لم أستطع أن أحل العقدة من لسانى ، مقطوعة أنا من شجرة إذن؟!

(٣)

فى مقدمة الكتاب يذكر الأستاذ سعيد خيال أن هذه المذكرات كانت تسجيلاً على أشرطة الكاسيت ، وأن الفنانة إنجى أفلاطون كانت تقوم بتفريغ الأشرطة فى كراسات كان يتسلمها تباعاً ، وأنها كثيراً ما كانت تعيد الكتابة وصولاً للوضوح ، وأنها كانت على الدوام حريصة على أداء هذا الواجب الشاق ، ومن الواضح جداً أن هذه السيدة الفنانة العظيمة بذلت فى تأليف أو وضع هذه المذكرات جهوداً مضاعفة لتصل إلى أكثر اللوحات صدقاً وفنية وتعبيرية ، فقد كانت حريصة كل الحرص على الصدق بمعناه الواسع الذى لا يقف عند حدود رواية الواقعة بصدق فحسب ، وإنما يمتد لوضعها فى إطارها الصادق ، ويمتد ليعترف بجوانب القصور فيما يرويه وبدوافع أو أسباب هذا القصور ، ولهذا كله فإن إنجى أفلاطون تقدم نفسها كإنسانة مجتهدة مع أنه كان فى وسعها وبسهولة شديدة أن تقدم لنا نفسها فى صورة «القديسة» أو فى صورة «الشهيدة» على أقل تقدير ، ولكنها كانت بحكم فهم رائع وعميق لقيمها الرفيعة وقدراتها العظيمة مندفعة إلى إيثار الصدق قبل الذات ، وإلى روعة التعبير والتصوير والقص التى هى كفيلة فى نظرها وخبرتها بخلود العمل الفنى ، وقد كان ، فهذه مذكرات صادقة ورائعة وجميلة تتغلب فيها صاحبتها على كل العقد والاغراءات الدنيوية والنجاحات القصيرة المدى كما تغلبت على كل ذلك فى

حياتها بفضل انكشاف الحجاب أمام ناظريها حين عرفت منذ مرحلة مبكرة وإلى أن انتقلت إلى رحمة الله أن جمال اللوحة لا ينبع من كثرة الألوان ولا من جمالها فحسب ، وإنما ينبع من تصوير اللوحة لما تصوره سواء كان واقعاً أمام عينى الفنان ، أو خيالاً فى خياله.

وقد عاشت إنجى أفلاطون بالفعل مخلصة للواقع الذى أرادت تغييره ، ومخلصة فى ذات الواقع للتغيير الذى أرادته للواقع .. وهكذا كان صراعها مع الحياة صادقاً ، ثم كان تعبيرها عن هذا كله غاية فى الصدق والاقتدار وهذا أول ما يحسب لمذكرات إنجى أفلاطون التى بين أيدينا ، ولا أريد أن أستشهد على هذا بفقرة أو فقرتين فالمذكرات كلها تنطق بهذا ، وسوف يجد القارئ فى الفقرات التى نستشهد بها على معان أخرى دليلاً حياً على قدرة المغفور لها إنجى أفلاطون فى هذه الناحية.

(٤)

أما التعبير فى مذكرات الفنانة إنجى أفلاطون فيدلنا دلالة رائعة على مدى القدرة التى تمكنت بها هذه الفنانة من وسائلها الفنية ، فأنت تقرأ نصاً سلساً جداً ولكنه حافل بالإيحاءات ، وتنتقل من فقرة إلى أخرى فيتأكد عندك المعنى ولا يتبدل ، وأنت تجد نفسك فى وسط الكتاب وقد استولى عليك شعور ما تجاه حياة هذه السيدة ، فإذا ما وصلت إلى نهاية الكتاب وجدت هذا الشعور نفسه قد تعمق وتأكد ، مهما يكن من أمر هذا الشعور الذى قد يكون إعجاباً شديداً ، أو إعجاباً فيه شيء من التحفظ ، أو إعجاباً لا نهاية له ، أو حسرة على ما ضيعت هذه السيدة من عمرها فى سبيل مبادئ قد لا تستأهل فى نظرك مثل هذه التضحيات .. فليكن ما يكون من شأن شعورك وانطباعك يا سيدى القارئ فإن صاحبة هذه المذكرات لم تقصد ذلك أبداً ولم تضعه فى حسبانها ، إنها لا ترسم لك لوحة حسب مواصفاتك ، ولكنها ترسم بنفسها ولنفسها ولما آمنت به وبما آمنت به ، فإذا صادف هذا هوىً فى نفسك فليس هذا من شأنها أيضاً ، وإذا لم يصادف فهذا ليس من شأنها من باب أولى ، ولهذا فإنها لم تنشر مذكراتها فى حياتها وإنما نشرت هذا المذكرات بعد وفاة صاحبتها مع أن المذكرات توقفت عند أحداث أوائل الستينات، أى أن ما فيها كان صالحاً للنشر على هذه الصورة طوال ثلاثين عاماً ، ولكنها لا تعالج حياتها بأكثر مما تعالج به فكرة أو موقفاً أو حدثاً تندفع إلى تصويره فى لوحة أو أكثر لأنها تعتقد أن هذا الذى تعالجه لابد

من أن تعالجه فى عـمل فنى ، ولهذا فإن حيـاتها فى هذا الكتاب ليست إلا مـوضوع العمل الفنى ، وبقدر ما أحبت هذه الفنانة حيـاتها بقدر ما أخلصت فى التعبير عنها تعـبيراً صادقاً غير متكلف وغير مهمل فى ذات الوقت.

(٥)

ولعل هذا يقودنا بالتـالى إلى العنصر الثالث فى نجاح كاتـبة هذه المذكرات وهو «الفن» فإن السيـدة إنجى أفلاطون حين أمسكت بالمايك ثم بالقلم لتـسجل ما سجلتـه كانت تتناول هذه الأدوات بنفس اليد التى تتـناول بها الريشة والألوان فى لوحـاتها ، فهى حريصـة جداً على أصول العـمل الفنى وعلى الإلمام بكلاسيكاته وأبجـدياته وهى حريصـة أيضاً على أن يكون لها أسلوبها وهو غاية ما يحرص علـيه الفنانون الأصلاء ، وهى حريصة ثالثاً على أن تضغط كل ما تريد تصويره فى لوحة واحدة تتمثل فيها كل الرؤى والإحساسات حتى وإن كانت متـناقضة. وهى تصل فى هذه الجزئيـة إلى النجاح الأكبر فى الانتـصار الواضح على الحقيـقة البديهيـة التى تجعل للحقيـقة وجوهاً متـعددة ، وتضع التحدى أمـام الفنان (وأمام الأديب) فى أن يكون تصويره من الزاوية التى تستطيع أن تكون أكثر تعـبيراً عن الحقيقة من كافـة زواياها ، الزاوية الكفيلة بأن تصـغر من شأن مـا يريد الفنان أن يصغره ويجـعل قدره يتضاءل ، وأن تكبر من شأن ما يريد الفنان أن يكبـره ويجعل قدره يتعاظم ، ولكنه فى كلتا الحالين يثـبت وجود ما يريد تصغـيره أو تكبيره ويعطى لنا الإيحـاء من خلال المنظور الذى اختـاره (أو الزاوية أو المسـقط أو القطاع) أنه بفنه واخـتيـاره هو الذى كـبر هذا العنصـر ، وصغر ذاك العنصر ، ثم هو لا يضع أمامنا إلا الـصورة التى أرادها على نحو ما أرادها حتى وإن جعل فى ثناياها ما يظهر لنا قدرته على استخدام أدواته الفنية وانتقاء المنظور الذى نظر به إلى ما يصوره!!

وهذا المعنى الذى أتحدث عنه يسهل فهمه على الذين درسوا الفن ومارسوه أو قرأوا فى نقـده ونقـدوه ، ويسهل فـهـمه ولـكن مع عناء أكـثر على الذيـن يمارسون الكتـابة الأدبيـة والصـحفيـة ، ولكنه ـ وليس فى هذا غـرابة ولا طرافـة ـ يسهل جـداً على الأطبـاء الذين يمارسـون قراءة الصـور التى تقدمـها الأجـهزة التكـنولوجيـة للجسم الإنسـانى وأعضـائه المختلفـة ، كأولئك الجـراحين والأطباء الذين يتولون قراءة أفلام الأشعـة المخية للمخ حين

يبحثون عما يريدون فى صورة معينة من ٣٢ صورة ، وأطباء القلب حين يطالعون صور الموجات فوق الصوتية للقلب ، أو خرائط رسم القلب وما إلى ذلك من التصويرات التى أتاحتها ثورة العلم الحديث فى العقدين الأخيرين حين أصبح من اليسير تصوير الحقيقة من وجهات نظر مختلفة وعديدة مع بقاء ميزة لكل وجهة من هذه الوجهات على تصوير ما لا تستطيع الوجهات الأخرى فى نفس الجهاز تصويره.



نجحت السيدة إنجى أفلاطون إذاً فى أن تقدم للمكتبة العربية مذكرات شخصية على درجة عالية من الفن والصدق والتعبيرية ومع هذا فقد استطاعت أن تلتزم تماماً بالترتيب الزمنى ، حتى إذا ما جاء الحديث عن شىء لم يأت ترتيبه الزمنى فإنها تستأذننا فى تأجيل الحديث عنه حتى يأتى وقته فى السياق الزمنى ، وهذه براعة شديدة تضاف وتضيف إلى إنجازاتها التى تحدثنا عنها.

(٦)

تبدأ الفنانة إنجى أفلاطون كتابها بالحديث عن شجرة عائلتها بدءاً من الجد الأكبر وزير الجهادية والبحرية فى عهد الخديو إسماعيل ، والذى سماه الطلبة بأفلاطون لكثرة أسئلته ومناقشاته فأقرهم على ذلك محمد على باشا الكبير حين كان يُراجع كشف أسماء طلبة المدرسة العسكرية.

وتحدثنا بعد ذلك عن والدها عالم الحشرات الكبير وعميد كلية العلوم فى جامعة القاهرة ، وعن والدتها التى تزوجت فى سن الرابعة عشرة ، وشقيقتها الكبرى بولى ، وعن البيوت التى تربت فيها فى شبرا ، ثم فى الزمالك عندما وقع الطلاق بين والديها ، وعاشت الأم مع جدها ثم مع عمة الأم ثم مع أخت الأم الصغرى .

وهى تحدثنا عن نجاح سيدة شابة هى والدتها (طُلقت وهى فى سن التاسعة عشرة) من مجتمعات الطبقة الثرية فى إثبات ذاتها عن طريق العمل ، وتنجح صاحبة المذكرات بحكم الوعى السياسى الذى تتمتع به فى أن تجعل ممارسة والدتها للنشاط التجارى جزءاً ذا شأن فى سياق الحركة الوطنية ونسيجها فتقول :

«... والمشكلة الحقيقية كانت هى: كيف تواجه أمى وهى المطلقة الشابة الجميلة مجتمع الإثارة والمغامرات، وهى السمة الغالبة بين الطبقات العليا. لقد تحملت أمى بشجاعة فائقة، لم نكن نستطيع أن نقدرها إلا بعد مرور وقت طويل، تحملت ألواناً شاقة من المعاناة، نظمت حياتها بمقاييسها هى واقتناعها الخاص، آخذة فى الاعتبار فى الوقت نفسه احترام التقاليد والظروف السائدة، وسارت فى الطريق الذى اختارته بإرادتها هى، ورفضت الزواج بالرغم من صغر سنها حرصاً على حضانتها لنا، وخوفاً من أن ينتزعنا منها أبى الذى كان يهدد بذلك تحت تأثير زوجته الجديدة، لكن أمى لم تستطع أن تستقر استقراراً كاملاً ليكون لنا مستقبل إلا حينما نزلت ميدان العمل واستقلت اقتصادياً، كان ذلك فى عام ١٩٣٦، فى ذلك الوقت كانت الأحداث تموج فى مصر. فكان الحديث عن الوطنية والاستقلال بالغ الذروة وبخاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ المشهورة مع بريطانيا، وكانت المناقشة حول ما يستطيعه المصريون والمقارنة مع الأوروبيين محل اهتمام الجميع».

«فى هذا الجو قررت أمى أن تدخل ميدان العمل فى مجال الأزياء، وشجعها طلعت حرب، وبمساعدة بنك مصر افتتحت محل الأزياء الرفيعة والتفصيل الراقى، وكان يحمل اسم «محل صالحة»، وكان فى شارع الشواربى، فكانت أول مصرية تعمل فى هذا المجال الذى كان يحتكره الأجانب واليهود، وبهذا النشاط أصبحت أمى تسافر كثيراً إلى الخارج وبخاصة فرنسا تتابع تطور الموضة وتختار موديلات محلات الأزياء الكبيرة المشهورة مثل كارفن وديور. وكانت أمى تأخذنا معها أنا وبولى. كانت هى تعمل وكنا نفوز بالمتعة وقد نجح المشروع نجاحا كبيرا».

ولابد لنا أن نقرأ قبل هذا الظروف التى جعلت والدة صاحبة الذكريات تبدأ هذا السبيل:

«كان مولدى فى يوم ١٦ أبريل ١٩٢٤، وسنة مولدى هى سنة اشتداد الخلاف بين أمى وأبى، فكانت هى سنة الطلاق».

«حاولت أمى فى ذلك الوقت التخلص من حملها، كانت تقوم برياضة صعبة وحركات عنيفة، ورغم هذا لم يحدث سقوط الحمل».

«وكان هذا من حُسن حظى طبعا».

«لم يكن الطلاق سهلاً، كان أبى يرفضه لكن أمى أصرت عليه بعد استحالة الحياة

المشتركة ، ولم يستجب أبى لطلب الطلاق إلا بعد أن أيدها جدى لأبى محمد باشا أفلاطون ، وكان رجلاً محبوباً يتمتع بالحكمة».

«غادرت أمى بيت الزوجية وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، وتحمل طفلتين أنا إحداهما ولم يتجاوز عمرى بضعة شهور. أمى أصبحت مسئولة عن حياتها وأسرتها الصغيرة فى هذه السن المبكرة. كان عليها مواجهة الحياة فى ظروف مادية صعبة نسبياً ، فهى لم تكن قد ورثت بعد ، ولأن أبى الذى كان غاضباً من الطلاق كان يدفع نفقة محدودة لا تتناسب مع مكانته الاجتماعية وإمكانياته المادية ، لهذا فضلت أمى أن تسكن فى بيت جدتها أم والدتى التى توفيت وأمى طفلة صغيرة».

«عشنا فى بيت جولبرى ثابت جدة أمى وحرم صالح باشا الوجيه الكبير ، كان البيت فخماً يقع فى حى الزمالك وله حديقة جميلة خاصة به ، فلما توفيت جولبرى هانم جدة أمى عشنا مع عمة أمى ، ثم مع أخت أمى الصغرى إنجى التى سمونى على اسمها».

(٧)

ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات بعد هذا وهى حريصة على أن تنقل إلينا الشعور بالسعادة والفخر الذى كانت تحس بهما فى فترة مبكرة من حياتها:

«... وما أتذكره من طفولتى فى تلك الأيام هو الشعور بالسعادة الغامرة ، كنت أعشق أمى ولازلت .. كنت أخشاها لأنها كانت حازمة فى معاملتها لنا وأسلوب تربيتنا. وفى نفس الوقت كانت حبيبة للغاية وتفيض حنانا. كنت أحترمها لشجاعتها وقوة شخصيتها وأحاول أن أقلدها».

«كنت فخورة بجمالها وراغبة أن يعلم الجميع أنها أمى ، وكنت لا أخشى إلا شيئاً واحداً هو الابتعاد عنها. ربما تحت تأثير تهديد أبى الذى لم يغفر لأمى أنها تحدته بالطلاق ونالت ما أرادت ، أو تحت تأثير هذا الشىء الذى يسمونه الموت مفرق الأحباب ، وكان هذا يرعبنى».

ثم تحدثنا الفنانة إنجى افلاطون عن حياة والدها فى بيته بالمعادى ورحلاتهم معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وإلى دير سانت كاترين وإلى البحر الأحمر حيث ضمت الرحلة عدداً كبيراً من الأساتذة والمعيدين والطلاب الذين صاروا فيما بعد شخصيات علمية مرموقة كحامد جوهر ومحمود حافظ. ثم تحكى دون أدنى قلق أو وجل أو استياء قصة الزواجين الثانى والثالث لوالدها:

«كان أبى يسكن فى فيللا جميلة بالمعادى ، كنا أنا وأختى نذهب لزيارته بانتظام. كنت أحبه كثيراً وإن كنا لم نعش معه ، تكونت لنا معه ذكريات حلوة تركت آثارها علىّ ، وأهمها رحلاتنا معه فى الصحراء الممتدة من المعادى ، وكذلك فى المناطق المتاخمة للبحر الأحمر. كان أبى يعشق الرحلات ويهتم بها اهتمام العالم الباحث فى دنيا الحشرات والنبات. وكان لذلك كثير السفريات المليئة بالمخاطر ، وكان من أوائل المصريين الذين ترددوا على واحة سيوة ، واستطاع أن يصل إلى جبل علبة على حدود السودان. ولما أصبح السفر للخارج مستحيلاً بسبب الحرب العالمية الثانية كان أبى يقضى إجازة الصيف فى جبل سيناء فى منطقة دير سانت كاترين ، ولا أنسى صيف عام ١٩٣٥ حين رأس رحلة دراسية إلى مدينة الغردقة على البحر الأحمر لتأسيس أول حوض مائى للأسماك والنباتات المائية. ضمت الرحلة عدداً كبيراً من الأساتذة والمعيدين والطلاب الذين صاروا فيما بعد شخصيات علمية مرموقة ، أذكر منهم: حامد جوهر ومحمود حافظ. كنا أنا وأختى بولى ضمن من ضمتهم هذه الرحلة الطويلة ، واشتركنا فى رحلات بحرية لصيد الأسماك النادرة والمتوحشة أيضاً فى جزر المرجان وتحت الماء ، وكنت أسجل وأرسم هذه الأسماك العجيبة الساحرة الملونة. وما انتهت الرحلة إلا وقد تركت بيننا ذكريات شائقة ، لكن ذلك لم يستمر كثيرا فى علاقتنا بأبى. كان بعد انفصاله عن أمى قد تزوج من رقية شاكر بنت خالته وأنجب منها طفلتين توفيت إحداهما وعاشت الثانية (زهرة) ، ثم طلق بنت خالته (رقية شاكر) التى تزوجت بعده حسين صبحى راعى الحركة الفنية بالإسكندرية ، وعاشت أختى زهرة معها وتزوج أبى بعد ذلك من فرنسية تدعى (ليلى) لم تكن تميل إلى حياة الضواحى فانتقل بها إلى قلب مدينة القاهرة ، وشيئاً فشيئاً تخلى هو أيضاً عن الرحلات الطويلة ، واقتصرت علاقتنا معه بمرور الوقت على زيارة أسبوعية للغداء أو العشاء فى منزله. وظل الحال كذلك حتى وفاته فى مايو ١٩٥٧ بعد مرض قصير. وقد أجمعت الأسرة على إهداء كلية العلوم مجموعة الحشرات النادرة التى جمعها أبى طوال حياته ، وخصصت لها الكلية معرضا خاصا يحمل اسمه تخليدا لذكراه».

(٨)

ونمضى مع الفنانة إنجى افلاطون إلى انطباعات مهمة جدا عن المدارس الأجنبية فى مصر ينبغى لكل تربوى ولكل صاحب قرار (وصاحبة قرار) أن يطالعها ، ذلك أن الفنانة إنجى افلاطون تلخص لنا خبرتها الحية فى هذه المدارس على نحو دقيق ومتبلور تمام التبلور وهى تصف البيئة التعليمية والتربوية فى مدرسة القلب المقدس فتقول:

«كانت مدرسة القلب المقدس الكائنة بحى مصر الجديدة إحدى مدارس «بنات الذوات» التى تديرها الإرساليات الأجنبية ، وكانت مشهورة بالتزمت الشديد ، فهى المدرسة التى تخرج أفضل الفتيات المثاليات فى الطاعة للأسرة والزوج وفى الرضا بكل ما يأتى به القدر للمرأة ، وكانت شهرة فتيات القلب المقدس فى المجتمعات الراقية أنهن الزوجات النموذجيات».

«باختصار كانت المدرسة مشهورة بقدرتها على التهذيب وتكوين الفتاة لتصبح فى الصورة التى يرغبها مجتمع الرجال التقليدى ، وتلك الصورة لم تكن تزيد على المرأة الطيعة والمعتمدة فى حياتها على الرجل ، وكانت خريجات تلك المدرسة يحظين بهذه الشهرة فعلا!».

«أصر أبى على إدخالنا أنا وأختى بولى هذه المدرسة ، لماذا ؟ لأنه ـ كما أعلن ـ يخاف أن ننشأ مثل أمنا ونسير على دربها فى الاستقلال والعناد ، وأن نتعود الترف و(الدلال) مثل باقى بنات الذوات».

«كانت الأغلبية بين تلميذات المدرسة من المسيحيات ، وأكثرهن من الأسر القبطية الكبيرة ، وأيضا من الطبقة المتوسطة ذات التطلعات الحادة».

«كن يتفاخرن بالحديث بالفرنسية ، ويتبارين فى ازدراء كل ما هو مصرى أو عربى أو يمت لذلك بأية صلة من قريب أو بعيد. وكانت الفتيات المسلمات أقلية تعد على الأصابع ومقبولات من الأغلبية المسيحية التى تتسامح فى وجودهن ، لكن الصراع كان عنيفاً ضد الأقلية الأخرى من الفتيات اليهوديات ، وكان ذلك من أول الأشياء التى أثارت دهشتى ثم استنكارى فى تلك السن المبكرة».

«كنت سعيدة جدا بوجودى كتلميذة مسلمة فى القسم الداخلى ، لأن ذلك يعفينى من عدد ثقيل من الالتزامات التى تقع على المسيحيات والتى أولها الصلوات التى تستهلك وقتا طويلا من النهار والليل بينما يتوفر لنا نحن المسلمات الوقت لمراجعة دروسنا».

(٩)

وتصور الفنانة إنجى أفلاطون كثيرا من الملامح الصعبة لبيئة مدرسة القلب المقدس التى قدر لها أن تقيد للدراسة فيها:

«فى الخامسة صباحا ، فى البرد القارس ، كان على المسيحيات أن يذهبن يوميا إلى الكنيسة ، وقبل بداية الحصة الأولى ، وأيضا فى المطعم قبل الغداء والعشاء ، كان على المسيحيات أن يصلين لمدة عشر دقائق. أما نحن المسلمات فقليلاً ما فرض علينا أن نستمع خلال درس الخياطة إلى قراءة شىء من الإنجيل أو من تعليقات الراهبات على ما ينتظرنا من عذاب وآلام يوم القيامة مع وصف مفصل لهذ العذاب الذى سيلاقيه غير المسيحى الذاهب بالضرورة إلى جهنم».

«ترسبت فى نفسى تلك القصص الرهيبة وسببت لى قلقا فظيعا وتساؤلات كثيرة عن صحة تلك التعليقات. إننا مسلمات ومسيحيات ويهوديات ، كلنا شريكات فى كل شىء فى الفصل وفى المطعم ، فى المدرسة نلبس الزى الموحد ، نلعب معا ، نذاكر معا ، نأكل معا، وتجمعنا زمالة وصداقة وبراءة الأطفال وأحلام الصبا ، فلماذا يفرقون بيننا هكذا ويخيفوننا بهذه القسوة من عذاب النار؟ إن الكل يحب الله سبحانه وتعالى ويتوجه له بالدعاء ، ويقدم الصدقات التى تطلبها «الأم» لتوزيعها على الفقراء والمساكين».

وتشير الفنانة إنجى أفلاطون إلى بعض الممنوعات فى هذه المدرسة:

«١ ـ ممنوع النظر فى المرآة».

«٢ ـ ممنوع أن تنظر الفتاة إلى جسمها فى أثناء الاستحمام ، أو تتبادل الفتيات النظر إلى أجسادهن ، ولابد أن ترتدى الفتاة جلبابا تحت الماء».

«٣ ـ ممنوع الصداقات بين الفتيات ، وتعاقب بشدة كل من تدخل فى علاقة صداقة مع زميلتها ، ولا يجب أن تنفرد واحدة بأخرى».

«٤ ـ ممنوع القراءة على انفـراد أو اقتناء كتب خـاصة ، ومن ثم فالتفـتيش مستـمر على أشيائنا».

وتردف صاحبة المذكرات بقولها :

«هذه نماذج من قـائمـة الممنـوعات فـى مدرسـة القـلب المقـدس ذات النظام الصـارم ، وكانت مخالفة أى منها تحسب كنقطة سوداء فى سجل الدراسة تؤثر على مجموع التلميذة وترتيبـها فى النجـاح فى نهاية العـام. كانت هناك شرائـط تضعهـا الراهبة الميـر على صدر التلميـذة الطيبـة ، شريط بمبى أو أخـضر ، والشقـية شريط أسـود ، والشريط الأسـود كان يلاحقنى باستمرار. ورغم اهتمامى بالدراسة نفـسها وحبى لها كان دفترى الدراسى يفيض بالنقط السوداء.. ولم أسـتطع الاستمرار ، أعلنت ثورتى على هذا النظام الصـارم فرفضت أولا لبس الجلبـاب عند الاستحـمام ، وتشـبثت بقراءة الروايات ، ووقـعت فى يدى رواية «الذئب الأبيض» وأنفردت بقراءتها بشغف فى سريرى. ويوم أن ضبطتنى الراهبة صادرت الكتاب وحـدثت ضجة كـبرى فى المدرسة ، قـدمت لمجلس تأديب قرر لفت نظرى تمهـيداً لطردى إذا فعلت مخالفة أخرى».



وتحرص الفنانة إنجى أفلاطون على أن تـتعمق فى تأملها لتلك التجـربة التى قدر لها أن تخوضها:

«لقد أردت بعد سنوات طويلة أن أكتشف سـر خطورة هذه الرواية فقرأتها من جديد ، أدركت الأسبـاب العمـيقة لخطرها ، إنـها قصـة ذئب حاولت عـائلة من المدينة استـئناسه ، استخـدمت معه شتى الطرق وفشلت ، ظل الـذئب مشتاقاً إلى الحـرية يحاول أن يعود إلى الغـابة ليعـيش مع الحيـوانات الأخرى ، من هناك أتى ، وهناك يـسترد حـريته ، الحـرية إذن كانت عدوة الراهبات الأولى».

(١٠)

وتحرص إنجى افلاطون ، كـما رأينا ، على أن تشير إلى أن الفتيـات المسلمات كن أقلية تعد على الأصابع وكن مقبولات من الأغلبية المسيحية ولكن الصراع كان عنيفاً ضد الأقلية

الأخـرى من الفتـيات اليـهوديـات.. وهذا نقطة مهـمة لكـل الذين يريدون دراسة التـاريخ الاجتـماعى والسـياسى لهـذا الوطن وهذا الجيل وبخـاصة مـوقف الشيـوعيين من اليـهود والحركة اليهودية !!

ثم تصل الفنانة إنجى افـلاطون فى انتقاد أسلوب التـربية فى مدرسـة القلب المقدس إلى قولها :

«إن النموذج المثـالى للتلميذة فى مـدرسة القلب المقـدس كان هو البنت الطيعـة سلسة القيـادة ، واستخدمت إدارة المدرسـة قائمة الممنوعـات لإذابة شخصيـة البنت تحقيـقا لذلك النموذج ، وفوق هذا سلطت الراهبـات كل القسوة على التلميذات لدرجة اعتـبار الصداقة بين التلميذات خطراً يفتح الباب للشذوذ والانحراف. إن هذا التأويل وحده لقيمة الصداقة يكشف فى الحقيـقة عن تركيب عقلى ونفسى من نوع خـاص عند الراهبات ، وهو تركيب ملىء بالعقد».

هكذا تقرر هذه الفنانة ، ويبدو أنه كان معها بعض الحق أو كثير من الحق.

(١١)

وتعترف الفنانة إنجى افلاطون أنها كرهت هذه المدرسة ـ القلب المقدس ـ بكل شعورها ووجدانها واكـتشفت فيها نفس النظام غـير العادى الذى يفرق بين الأغنياء والفـقراء حتى فى سلك الرهبنـة ، [هـكذا تتغـلب النزعـة اليساريـة على هـذه السيـدة حتى وهـى تروى فـترة تـكوينها التى لم تكن قـد وعت فيـها مثل هذه الأيـديولوجيات] وهى تـقول فى هذا المعنى:

«من أشد مـا أثار دهشتـى واشمئـزازى أيضاً فى تلك المـدرسة التفـرقة فى المعـاملة بين الراهبات أنفـسهن ، كانت هناك «الراهبة الأم» التـى تنتمى ـ قبل دخولهـا الدير ـ إلى عالم الأثرياء ، وكـانت هناك «الراهبـة الأخت» القادمـة من عالم الـفقـراء. تمتعت الراهبـة الأم بامتـيازات كبـيرة ، واحتلت مكانة الحـاكم فى قلب المدرسة ، تأمر وتـنهى وترتدى ملابس أنيقة ولها أكل نظيف خاص ، والراهبة الأخت هى التى تقوم بالخدمة والأعمال الدون مثل غسيل الأرض ومسح دورات المياه والمطبخ».

«كان بالمدرسة إذن نفس النظام غير العـادل الموجود فى الخارج ، أعنى فى المجتمع الذى سأثور عـليه فيـما بعـد ، نفس الظلم ونفس التفـرقة ، لكن هنـا تزداد بشاعتـه إذا فكرنا أن الراهبات جـميـعاً دخلن الدير للزهد والعـبادة لا للتمـتع بامتيـازات المجتـمع المادى خارج الأسوار».

«لقد كـرهت بكل شعورى ووجـدانى تلك المدرسة. شـعرت أنها أقـرب إلى السجن. كرهت القيود على حريتى ، والعيـون التى ترصد حركاتى وسكناتى ، وتدين كل ما أفعله ، وأدركت لأول مرة ، ولـم أكن قد تجاوزت الشـانية عـشر ربيـعاً ، أن التـمرد حالـة ضرورية للتصدى للظلم الواقع علىّ ، وقررت أن أبدأ ، ومن هنا أستطيع أن أقرر دون فخر ، وأيضاً دون تواضع ، أن التمرد كان السمة التى لازمت حياتى فيما بعد».

«... فى ذلك الوقت كانت أسلحتى ضعيفة ، وتركزت حياتى فى هدف واحد هو إقناع أمى بإخراجى من هذا الجحـيم. استخدمت الوسائل العـادية ، كما لجأت للتحايل لتـحقيق هدفى. أخذت أحكى أمـام أصدقاء أمى قـصصاً رهـيبة عـما يجرى خلف أسـوار المدرسة ورحت أسأل بسـذاجة مصطنعة عن مـعنى بعض الكلمات المستـخدمة معنا ، وهى غـالبا كلمات مـن غير اللائق أن تقـال أمام أطفـال ، وفى النهاية وأنا فى الفـصل الرابع ، وكنت على وشك أن يصدر قرار بفصلى نهائياً من المدرسة ، تم إنقاذى نهائياً.. لقد أخرجتنى أمى من المدرسة بعد أن اختـلت بها رئيسة الراهبات «الأم بارتلو» وأسرّت فى أذنهـا مشيرة إلىّ بحذر وقالت:

«ابنتك هذه يركبها الشيطان ، إنى أحذرك من أنها قد تصبح عنصراً خطراً فى المجتمع».

(١٢)

وفـى المقابل تتحدث الفنانة إنجـى أفـلاطون ، بعد هذا ، بسعادة واعتزازعن دراستها فى مدرسـة الليسيه حيث لاقت ما نشدته من حـرية السلوك ، وحيث تشبعت بأفكار الفلاسفة الفرنسـيين من رجال القـرن الثامن عشـر ، وحيث أصبـحت زعيمـة لفرقـة «الثوريين» فى الفصل:

«انتصرت فى أول معارك حياتى. انتقلت من كابوس الراهبات إلى مدرسة الليسيه الفرنسية ، وكان الفارق كبيراً فى مستوى التعليم بين المدرستين. وصار علىّ أن أبذل مجهوداً مضاعفاً لألحق بالمستوى المرتفع للسنة الثالثة التى بعدها أتقدم لامتحانات الثانوية العامة تمهيداً لدراسة الفلسفة».

«لم يثقل علىّ هذا المجهود غير العادى الذى كان علىّ أن أبذله خاصة فى هذا الجو الجديد من الحرية والمنافسة والانطلاق. لقد وجدت أن الطالبات تقررن أوضاعهن بأنفسهن دون تدخل من الأساتذة أو وصاية من الإدارة. ومن الطريف أن الطالبات القدامى كن يعقدن اختبارا قاسيا وصعبا للطالبة الجديدة وحسب نتيجة هذا الاختبار تحتل الجديدة وضعها المناسب بينهن تحوز الفائزة لقب (Lycenne) ، أى الجديرة بهذه المدرسة، وهو لقب مُشرِّف جداً لأية طالبة ، ولقد فزت أنا باللقب ، باختصار شعرت كما لو كنت سمكة أعيدت طليقة إلى بحرها. كانت هذه أول مرة فى حياتى أجد الفرصة كاملة فى الحركة والسلوك بكامل حريتى بين زميلاتى وعلى قدم المساواة معهن. وتعلمت كيف أجعلهن يحترمنني ويحببنني. كيف أقنعهن بآرائى وأكتسب ثقتهن. وكنت أتساءل أليس هذا المجتمع صورة صغيرة مما ينتظرنى فى المستقبل حين أتخرج وأصبح مواطنة صالحة عليها واجبات ولها حقوق ويجب أن تتعلم كيف تدافع عن نفسها؟ وأعجبنى جداً هذا المنطق الذى اتخذته لنفسى».



«أنا أفكر إذاً أنا موجودة»

«فى الفصل الثانى بمدرسة الليسيه تشبعت بأفكار الفلاسفة الفرنسيين من رجال القرن الثامن عشر كتاب ما قبل الثورة الفرنسية ، فولتير وروسو وديدرو وسان سيمون. لقد هزتنى قراءاتى للعديد من كتاب الثورة الفرنسية هزة عنيفة وعميقة أثرت على تفكيرى بقوة ، وكان الفصل خلال الدراسة ينقسم إلى فرقتين: فرقة «الثوريين» التى أتزعمهما بحماس ، وفرقة «الملكيين»، وتندلع بيننا المناقشات والحجج ويمتد الحوار المفتوح الخصب مع الأساتذة أنفسهم. كانت هذه مرحلة غنية بحق ، مرحلة التفكير والتساؤلات والشك ، «أنا أفكر إذاً أنا موجود» مقولة فلسفية شهيرة لديكارت صارت بمعناها المباشر شعاراً لى. لقد دخلت فى مرحلة التهام الكتب والآراء والنظريات ، وكان ذلك إيذاناً ببدء انطلاق كامل».

(١٣)

وهكذا تنجح الفنانة إنجى أفلاطون فى أن تضع أيدينا بذكاء شديد على العوامل الحاسمة فى نشأتها وتربيتها ونشاطها الإنسانى أو (السياسى) فيما بعد، وترجع كل ذلك إلى أسلوب التربية والتعليم، ولها كل الحق فى ذلك حتى وإن كانت قد أرادت بهذا تأصيل نزعاتها اليسارية التى استمرت معها طوال حياتها، أو وضع الإطار النظرى العميق لاتجاهاتها الفكرية بعد ذلك، وقد يستطيع ناقد متمكن أو قارئ مقتدر أن يصل إلى عوامل أخرى قادت تحولها الفكرى إلى ما اتجهت إليه، ولكننا لا نستطيع إلا احترام قدرتها على هذا التأصيل الذى قدمت به للقراء نشأتها على هذا النحو الذى يمكن معه لكل قارئ أن يتنبأ بطبيعة حياتها بعد ذلك من فهمه لنشأتها على نحو ما قدمتها.. وهذا فى حد ذاته أمر يثير التقدير، وإن كان يسهل إرجاعه إلى طبيعة «الفنان» فى كتابة هذه المذكرات حين يكون على الفنان أن يرسم وبسرعة وفى مرحلة مبكرة إطار الصورة العام ثم يمضى إلى التفاصيل:

«فى عام ١٩٣٨ انتقلنا - أنا وأمى وأختى - إلى شقة فى شارع شامبليون فى قلب القاهرة لا تبعد كثيرا عن مدرسة الليسيه، لقد قضينا فى هذه الشقة سنوات طويلة امتدت حتى عام ١٩٥٧. فى ذلك الوقت كانت صداقاتى قد توثقت جدا مع زميلاتى بمدرسة الليسيه، وطبعا وسط الليسيه غير أرستقراطى بل ومختلف كثيرا عن وسط القلب المقدس، وكنت أبتعد رويداً عن صديقات الطفولة فى بيئتى الأصلية، لم تعد همومى هى همومهن، وازدادت تساؤلاتى عن الفروق بين دنيا الأثرياء ودنيا الفقراء، بين البذخ المبتذل الذى يعيش فيه الفريق الأول والفقر الذى يغرق فيه الفريق الثانى، وألح علىّ سؤال كبير: كيف يقبل إنسان عاقل هذا الوضع الظالم؟».

«ازداد هذا السؤال إلحاحاً علىّ مع حضورى عدداً من الحفلات الأرستقراطية الضخمة التى كانت تنظمها الأميرة شويكار، الزوجة الأولى للملك فؤاد، التى تزوجت بعد طلاقها من مغامر تركى يدعى إلهامى حسين، كانت هذه الحفلات تقام فى قصر محمد علىّ الكبير بشبرا، وتجتمع فيه العائلة المالكة ممثلة فى بعض الأمراء والأميرات وضباط الحرس الملكى، والعائلات الكبيرة مع بناتها اللاتى يبحثن عن أزواج ويتمخطرن حول الموائد الحافلة بالمأكولات الشهية من كل لون وصنف وهن لابسات الفساتين والجواهر

الجميلة،كانت الأوركسترا تعزف موسيقى الرقص بينما تقف الفتيات فى انتظار من يتقدم من الشباب لاختيار من تراقصه وتلهو معه ، كنت أرى إسرافاً شديداً فى البذخ فيقابله غضب وقلق شديد فى نفسى».



ها هى ذى إنجى أفلاطون تتحدث عن حفلات الطبقة الراقية حيث يكون من الممكن لها أن تجتذب عريساً من بين شبان هذه الطبقة ، ولكنها تتحدث عن هؤلاء الشبان بنفور شديد فتقول:

«فأولئك الشباب لم يكونوا يتميزون بغير السطحية فى الفكر مع الاستهتار وعدم المبالاة، شباب يتميز بجهل عتيد ومعظم أفراده لم يكملوا تعليمهم اعتماداً على المال والسلطة ، ولكن المال والسلطة والأبهة لا تغنى أبداً عن التعليم والثقافة ، جمال الحياة وبهجتها لا تكتمل إلا بالمعرفة ، وكنت أنا لا أرى إلا التفاهة فى هذا الشباب المظهرى البراق ، وكان ينتابنى شعور بالخوف من أن يكون مصيرى أن أعيش حياتى بين هؤلاء الضائعين ، وكنت أحلم بالإنسانية العادلة لسعادة البشر».

وها أنت ذا ياسيدى القارئ تنبهر معى بكل ما فى الفقرة ، ولكنك قد تشاركنى التحفظ على إرداف الحلم وراء هذه الفقرة التى قد لا تحتاج إلى هذا الإرداف!! كأنى أريد أن أقول إن الفقرة كادت تكون أجمل وأوقع وأكثر أثراً بدون هذه الجملة الأخيرة التى تفرض لغة الخطابة على حديث فنى رائع وصل بالفعل إلى ما أثبتناه من تأثير.

ولنقرأ الآن ما أشرنا إليه من انتباهها للحديث الاسترجاعى عن هوايتها المبكرة للفن:

«هويت الرسم منذ طفولتى. وكنت أرسم اسكتشات صغيرة لبعض ما أشاهده فى رحلاتى مع أبى ، وكانت عائلتى على دراية بموهبتى الفنية وتحاول أن توفر لى دروسا فى هذا الميدان ، إلا أن هذه الدروس لم تخرج عن تكبير بعض البطاقات البريدية أو النقل السطحى من الطبيعة ، مما نفرنى منها ـ من هذه الدروس ـ وجعلنى أتمرد عليها».

«كانت سعادتى الحقيقية تتحقق حين أرسم القصص الخيالية التى تؤلفها أختى بولى الموهوبة فى الكتابة الأدبية ، وكان الشاعر أحمد راسم زوج خالتى يساعدنا بأن يأخذ قصص أختى ورسوماتى لها وينشرها فى مجلة مصرية تصدر بالفرنسية فيضيف إلى سعادتى افتخارى ، لكن ذلك كله لم يزد على هواية كان يمكن أن تطوى لولا أن القدر كان

يرتب لى لقاء مفاجئا من نوع غريب مع فنان اختلف تماما عن نوعية المدرسين الخصوصيين الذين كانت العائلة تستقدمهم لتعليمى الرسم».

(١٤)

وتحدثنا الفنانة إنجى أفلاطون بعد ذلك عن تعرفها بأستاذها الأول كامل التلمسانى الفنان التشكيلى الطليعى ، واهتمامه بها وتشجيعه لها إلى الحد الذى جعله يشركها فى المعارض الطليعية لجماعة الفن والحرية رغم صغر سنها وكونها لا تزال طالبة فى الليسيه!! وتحدثنا عن أسماء رواد هذه الحركة: رمسيس يونان وفؤاد كامل ومحمود سعيد وألبير قصيرى وجورج حنين:

«كان كامل التلمسانى فنانا تشكيليا طليعيا ، يعد بلا جدال من أبرز فنانى جيل الأربعينيات وأكثرهم جرأة».

«فى ذلك الزمن كان من الصعب أن يعيش الفنان من عائد لوحاته ، فكان التلمسانى كغيره من الفنانين يجد صعوبة مادية فى حياته».

«وكانت إحدى صديقات أمى تعرف الفنان كامل التلمسانى ، عرفت هذه السيدة أنى أحتاج لدروس فى الرسم ، اقترحت على أمى اسم الفنان كامل التلمسانى ، فلما وافقت أمى اتفقت صديقتنا هذه معه على ذلك نظير جنيهين فى الشهر. ولا أنسى ما قاله لى كامل فيما بعد من أنه قبل هذا العمل يائساً من أية نتيجة ، بل واعتبره مضيعة للوقت وتنازلا عن مبادئه ، لأنه لا فائدة يمكن أن ترجى من إحدى بنات البورجوازية الكبيرة التى لاشك ترغب فى تعلم الرسم كما تتعلم الطبخ والحياكة والبيانو ، أى كنوع من الديكور الضرورى لها. لقد خاب ظن كامل التلمسانى ، وبقدر ما خاب ظنه كان تقدمى وانطلاقى.. لم يكن قد مضى وقت طويل حتى أدركت أن دروس التلمسانى ليست دروسا فى الرسم فقط ، بل نافذة ساحرة على الحياة وعلى مصر الحقيقية. نافذة على المعنى الحقيقى للفن .. الرسم ليس إلا التعبير الصادق عن المجتمع والذات.. هكذا تعلمت من التلمسانى».

«لقد طلب منى نسيان كل القواعد المدرسية الجامدة ، وكانت دروسه محاضرات مفتوحة عن تاريخ الفن والإنسان عبر العصور ، مع إبراز نضال الإنسان من أجل التقدم».

«اندفعت أرسم بحماس وانطلاق ، أول لوحة زيتية فى حياتى ، كنت لازلت طالبة فى الليسيه ، وكانت اللوحة تصور فتاة تحاول الهرب من لهيب النار والثعابين التى تحاول التهامها.. ثم كانت اللوحة الزيتية الثانية لفتاة تجرى مذعورة فوق الصخور محاطة بالأمواج العاصفة ، يطاردها طائر متوحش ، ثم تتابع إنتاجى الغزير من اللوحات ذات الألوان الصارخة والجريئة تتحطم فيها الصخور وتتحرر فيها الأشجار المقيدة بسلاسل خيالية ، شجرة مقتولة بيد الإنسان الظالم يزحف دمها على القاتل ليخنقه ويثأر منه».

«عناصر الطبيعة كلها مجسمة بأشكال إنسانية تتعذب وتتألم وفى النهاية تنطلق».



وتلخص الفنانة إنجى أفلاطون حديثها الممتن لدور أستاذها الأول «كامل التلمسانى» فى تكوينها الفنى فتقول:

«لقد رفع التلمسانى عنى حجرا ثقيلا ، وأزاح من أمامى سدا قويا كان يخنق تفكيرى ويئد شعورى ، وكانت مفاجأة للتلمسانى .. ما هذه الشحنة القوية من التمرد والرغبة العارمة الصادقة فى التعبير بالرسم التى تكمن فى فتاة تنتمى إلى البورجوازية؟ تحمس التلمسانى ، ازداد اهتمامه بى وتشجيعه لى ، بل جعلنى أشارك فى المعارض الطليعية الجماعية لجماعة الفن والحرية رغم صغر سنى وكونى لازلت طالبة فى الليسيه».

ثم تنتقل الفنانة إنجى أفلاطون إلى الحديث عن جماعة الفن والحرية ، ويحفل حديثها عن هذه الجماعة بمزيج من الإعجاب والامتنان:

«لقد كانت جماعة «الفن والحرية» من أهم الجماعات الفنية التى ظهرت فى الأربعينيات أثارت قضايا كبرى فى الأدب والسياسة والفكر عموما إلى جانب قضايا الفن التشكيلى ، كانت تسعى إلى تحرير الإنسان من القيود الأكاديمية والأشكال التقليدية الجامدة المنقولة من الخارج ، ولقد ضمت الجماعة نخبة من الفنانين الطليعيين الذين أصبحوا فيما بعد على قمة الحركة الفنية فى مصر مثل: رمسيس يونان ، وفؤاد كامل ، ومحمود سعيد. كانت أيضا تضم نقادا وأدباء بارزين مثل: ألبير قصيرى الذى عاش بعد ذلك فى باريس ، وجورج حنين ، وأتين ميربيل ، ومارسيل بياجينى».

«لقد أقامت جماعة الفن والحرية عدة معارض هزت شعور الجمهور التقليدى ، وسعت إلى صدام مع ذوقه المتبلد بتقديم كافة المدارس الفنية الحديثة لأول مرة وعلى رأسها السريالية ، والتكعيبية ، والتعبيرية. لكن ذلك كله لم يكن يكفينى.. أو بمعنى أدق لم يعد يكفينى».

وها هى ذى إنجى أفلاطون تتحول بفضل الرسم أو ترتقى لتجد نفسها كائناً مميزاً بين المثقفين المصريين على حد تعبيرها.. وهى تنتقل بنعومة شديدة إلى صفوف اليسار ، وتحدثنا فى مذكراتها عن هذا الانتقال بنعومة أشد:

«انتقلت بالرسم إلى الدخول فى دائرة المثقفين المصريين. فى ذلك الوقت كان للتحالف بين الاتحاد السوفيتى ـ الدولة الاشتراكية الوحيدة ـ وبين الدول الاستعمارية فى مواجهة دول المحور أثره فى تغيير مجرى الحرب العالمية الثانية ، وأثره فى كثير من المثقفين المصريين ، وبالطبع علىّ أنا أيضا».

وهنا تشير المذكرات فى نعومة بالغة إلى بعض الظروف التى هيأت للمصريين الاتصال بالحركة الشيوعية:

«لقد ساعد هذا التحالف على وصول بعض المطبوعات والكتب الماركسية باللغة الإنجليزية إلى القاهرة والإسكندرية لأول مرة ، وهكذا وجد العديد من الشباب المصرى المثقف الفرصة فى الاطلاع على المفاهيم العلمية للاشتراكية ، ولقد وقع فى يدى بعض من هذه الكتب. كنت أندهش من التحليل العلمى المتكامل الذى تقدمه هذه الكتب ، والنظرة الإنسانية الشاملة لجميع قضايا المجتمع ، الفقر ، والاستغلال الطبقى ، والاستغلال المزدوج للمرأة فى المجتمعات الرأسمالية ، وقضايا الاستعمار والتحرر الوطنى.. إلخ. لقد وجدت فى هذه الكتب حلولاً حاسمة للقضاء على هذه المشاكل من جذورها وحلولا مبهرة جذابة لفتاة مثلى كانت من الأصل متمردة على طبقتها وزاهدة فى رخاوة تلك الطبقة.. فضلا عن أن ذلك كله لم يكن بعيدا عما تعلمته فى الفن من كامل التلمسانى. وجدت نفسى أقتنع بعمق وبصدق بالاشتراكية العلمية وبالعمل الوطنى من أجل تحرير بلادى من وطأة المستعمر وتحكم الإقطاع والطبقة البورجوازية المتعاونة مع المستعمر».

(١٥)

والشاهد أن الفنانة إنجى أفلاطون تجد فى حديثها عن بداياتها الفنية مدخلا متميزا وطبيعيا للحديث عن انتماءاتها السياسية وانخراطها فى الحركة الشيوعية وتضحيتها فى المقابل بما كان متاحا لها من السفر لدراسة الفن فى فرنسا:

«لقد زاد فى حماسى واقتناعى بالاشتراكية العلمية تركيزها على ارتباط التحرر الوطنى

بالتحرر الاجتماعى ، ونظرتها لقضية تحرير المرأة فى ارتباطها بتحرير المجتمع نفسه. لقد كانت هاتان النقطتان تجذبانى بشكل خاص ، ولا غرابة فى ذلك! فقد كنت أدرس الفلسفة بمدرسة الليسيه ، وأستطيع أن أقول إنه باتخاذى ذلك الموقف الأيديولوجى اكتسبت حياتى بُعدا جديدا هو الكفاح السياسى».

«الآن تم انتقالى باختيارى الواعى من معسكر «الأغنياء» إلى معسكر «الفقراء». ماذا عساى أفعل الآن؟ لقد حصلت على شهادة البكالوريا قسم الفلسفة. انتهت مرحلة الدراسة الثانوية ، كان ذلك عام ١٩٤٤ ، وهتفت وداعا مدرسة الليسيه الفرنسية».

«والآن ما العمل؟».



ها هى الفنانة تعبر عن هذا المعنى ، الذى كان لابد لها بالمنطق أن تنتصر له ، وذلك بالانتماء إلى بلدها والدراسة فيه بعيداً عن مغريات الدراسة فى الخارج ، وسوف يدهشنا ، من روايتها ، كيف أنها كانت فى مرحلة مبكرة جداً واعية لهذا المعنى:

«حاولت والدتى إقناعى بالسفر إلى فرنسا لاستكمال دراساتى الفنية ، والالتحاق بإحدى الكليات أو المراسم الفنية المشهورة فى باريس ، وكذلك حاول كل أفراد العائلة. كانوا يضغطون علىّ فى هذا الاتجاه ويستخدمون كل وسائل الإغراء التى أقلها الشهرة التى سوف أكتسبها حين أذهب إلى باريس وأنمى موهبتى الفنية».

«لكنى رفضت.. بإصرار وعزم رفضت».

«كان قرارى بالرفض منسجماً مع ما أستعد له من حياة جديدة ، حياة يقتسمها النشاط السياسى الاجتماعى إن لم يشغلها لأبعد مدى. لم يكن مقبولا ولا معقولا أن أترك مصر وأذهب لعدة سنوات إلى بلاد «الخواجات» وأنا أفكر بكل وجدانى فى عملية تمصير طويلة وقاسية للنفس.. لى شخصياً».

(١٦)

ثم تحدثنا صاحبة هذه المذكرات عن تجربتها المبكرة جداً فى الاستقلال بشخصيتها وقرارها وذلك عن طريق اجتياز تجربة العمل فتقول:

« ... اتساقاً مع تفكيرى واقتناعى ، كان لابد أن أعـمل ، العمل يضمن لى حرية الحركة والاستقلال الاقتصادى ، فاستقرّ فكرى على العمل ورفض السفر ، لكن ذلك لاشك أمر مـزعج للعائلة ، رغـم أن أمى سبـقتنـى إليه ، ولجـأت إلى أسلوب الحـيلة وصولاً لهـدفى فادعيت دعوى لا أعرف كيف توصلت إليهـا وقلت إننى موهوبة جداً فى علم «الكيمياء»، لذلك عرض علىَّ أسـتاذى فى هذا العلم الدكتور ريمون جـابيس العمل معه فى مـعمل له يملكه فى القـاهرة كى يسـاعدنى على إنماء مـوهبـتى الفذة فى ذلك الـعلم! صدقـتنى أمى وصدقنى جـدى لأبى محـمد باشـا أفلاطون ، الذى كنت أخـشى رفضـه لكنه كان لطيـفاً وواسع الأفق».

«وبالفعل عملت مع الدكتور جابيس مقابل ستة جنيهات شهرياً ، كنت أعمل مدة سبع ساعات يومـياً فى كتابة نتـائج التحاليل على الآلة الكاتبـة ، كان عملاً مملاً مرهقـاً للغاية ، لكنه مكننى من الـوصول إلى هدفى. إن مـجـرد خروجى فى الصبـاح وعودتى فى المسـاء وكسبى هذا المبلغ الذى كان تافهاً بالطبع بالنسبة إلى حالتى ، يشعرنى بالحرية والاستقلال، أسـتطيـع الآن أن أخـرج من البـيت دون إذن مـن والدتى ، حـصلت إذن علـى «حـقى فى العمل» ، يمكن أيضاً أن أترك معمل جابيس وأبحث عن عمل يناسبنى وحدث فيما بعد أن وجدت استعداداً طيباً لدى مدير مدرسة الليـسيه «مسيو جوسار» ، كان الرجل يقدرنى من قبل كتلمـيذة فعرض علىّ أن أقـوم بتدريس الرسم فى فصول الصـغار إلى جانب تدريس اللغة الفرنسية ، كان هذا عملا مناسبا جدا لى».

«فها أنذا أعود إلى المدرسـة التى كانت فيها البداية للحـرية والانطلاق. لقد أحببت هذا العمل فلم أتركه إلا بعد أن تزوجت عام ١٩٤٨».



وتؤكـد إنجى أفلاطـون على معنى مـهم لذاتهـا وللقـراء ، وهو أنها مـن خلال العـمل استطاعت تأكيد وطنيتها وانتمائها للوطن ، وهى تؤكد هذا المعنى حيث تقول:

«خلال تلك الفترة كنت أحاول بقـوة الاقتراب من هذا الوطن ، الوطن الذى أنتمى إليه ولا أعـرفه تمامـاً بعـد ، والذى تقف اللغـة حائلا بينى وبيـنه. كان إحـساسـى بهذه المسـألة كـالطفل الذى بدأ يحبـو لابد أن يأخـذ أحد بيـده ليسـاعـده. كنت أنا فى حاجـة إلى هذا الأحـد ، إلى من يقول له بصوت الأم الحنون الدافئ تخطى العتبة».

(١٧)

ها هى ذى صاحبة هذه المذكرات تبدأ فى الحديث عن ممارسة السياسة على نحو عملى، بل قل إنها تبدأ بالفعل فى ممارسة السياسة .. وهكذا تنجح ، من خلال سرد شيق وتتابع منطقى للأحداث ، فى إقناعنا بأنه كان من الطبيعى والمنطقى أن تنضم إلى منظمة «اسكرا» فى عام ١٩٤٤ وتقول:

«برغم وجود دستور يكفل عدداً من الحريات ، ووجود برلمان وأحزاب وصحافة ، فإن حرية تكوين حزب شيوعى تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون بأحكام صارمة تتراوح بين ست وعشر سنوات من السجن والأشغال الشاقة».

«كانت الصورة العامة لمصر وقتئذ أنها مجتمع شبه مستعمر وشبه إقطاعى يتحكم فيه كبار الملاك وكبار الرأسماليين المتعاونين مع قوات الاحتلال ، كان هناك حلف مقدس بين قوات الاحتلال والسرايا والإقطاع لقمع الحركة الوطنية الديمقراطية التى اشتدت بعد الاستقطاب العنيف الذى حدث فى مصر فى الأربعينيات خلال الحرب العالمية فازداد الأغنياء غنى ، وتدهور الفقراء ، وتراجعت الدول الاستعمارية عن وعودها للمستعمرات بالاستقلال».

«كانت الحكومة تعطل الدستور وتعلن الأحكام العرفية تحت أية حجة ، وتفتح المعتقلات وتمنع الاجتماعات ، وتغلق النقابات والهيئات بهدف تحطيم الحركة الشعبية».

«وفى هذا الوقت أيضا تأسس أكثر من تنظيم شيوعى سرى ، وكنت أنا أبحث تائهة عن أى انتماء ، ذلك ما يتفق مع اقتناعى بالاشتراكية العلمية ، وهو سبيل جهادى فى تحقيق مبادئى».

«وأخذت قرارى بالعمل السرى ، والعمل السرى ليس هو الطريق المختار للأحزاب الشيوعية ، إنما هو الطريق الذى تفرضه عليها البورجوازية ، إذ تمنع أى مظهر من مظاهر النشاط الشيوعى الديمقراطى».

«التنظيمات الشيوعية إذن ممنوعة من مزاولة نشاطها بحكم الصراع بينها وبين البورجوازية الحاكمة التى لا تسمح لها بالحركة فى العلن ، وفى مصر قانون بذلك ؛ كان قرارى بالعمل الثورى قد تم بوعى وبمسئولية ، وكنت أعرف تماماً كل الاحتمالات التى يمكن أن تترتب عليه».

«وهكذا انضممت لمنظمة اسكرا عام ١٩٤٤.. كنتُ مندفعة متحمسة ، وكان الأمر رغم كل الصعوبات جميلاً ، لقد أخذت موقفى الأيديولوجى وموقفى العملى وبدأت فى حياتى فترة من النشاط السياسى الذى هو مزيج من العمل السرى الضيق والعمل العلنى الجماهيرى الواسع.. وشرعت فى تعلم اللغة العربية بأقصى سرعة ، فليس أمامى وقت طويل ، العمل السياسى يستغرقنى وأنا فى أشد الحاجة إلى اللغة. وبهذه المناسبة أتذكر حكاية مع الشاعر فؤاد حداد ، كان قد تطوع ليعلمنى العربية ، وفى أحد الدروس عرضت كلمة الهوى وكنت أحسب أنها تعنى الهواء وفسرتها بذلك فاندهش الشاعر وقال لى: «الله.. هو أنت ما حبتيش أبدا بالعربى».

(١٨)

وعند هذا الحد من تنامى التجربة الإنسانية نواجه مع الفنانة إنجى أفلاطون ما واجهته من خياراتها المهمة فيما يتعلق بأمرين جوهريين هما: اللغة والجنس.

فها هى هذه الفنانة العظيمة تبدأ فى تعلم اللغة العربية ، وهذه صفحات من الكفاح العظيم ، والوطنية الرفيعة لابد لكل وطنى من كل اتجاه أن يقرأها بكل الإمعان وبكل التقدير ، أقول هذا فى زمن أصبح كثير من الشبان حتى فى الحركات الإسلامية يهملون اللغة العربية تماماً ويتجاوزون عن دورها.. ولكن إنجى أفلاطون ذات الثقافة الفرنسية لم تقع أبداً فى هذا الخطأ لحسن الحظ!!

ولنقرأ هذا الذى ترويه:

«وكان علىّ أن أعتمد على قاموس صغير».

«قاموس ملأته أنا بالكلمات التى أسمعها والتى قد أحتاج إليها فى المناقشات ، كان بحق قاموساً صغيرا لكنه عندى لا يقدر بثمن ولا يفارقنى».

ثم تتحدث عن مشكلة الجنس فى المنظمات الشيوعية وكأنها تبرئ هذه المنظمات مما أشيع عنها من حفلات الكوكتيل:

«لم يكن المجتمع الذى نزلت إليه يقبل بالاختلاط بين الجنسين إلا فى حدود ضيقة للغاية ، وكان عملنا السياسى سريا ، فكيف إذن يضم تنظيم سرى فتيات وسيدات جنبا

إلى جنب مع الرجال؟ هناك عُقد الزملاء أنفسهم ، وهناك عيون المجتمع المتربصة بنا وأبواق الرجعية التي تروج لشائعات كاذبة ومشينة عن الفتيات الماركسيات بهدف تشويه سمعتهن وكفاحهن أمام الرأى العام».

«فى تلك الظروف صار من الضرورى اتخاذ خطوة جريئة للتغلب على هذه المشكلة التى كانت تهدد التنظيم بالتميع وتحويل أنظاره عن المشاكل السياسية الرئيسية إلى مشاكل جزئية وعاطفية فلجأنا إلى خلق «قسم نسائى» داخل التنظيم يفصل بين الجنسين من القاعدة حتى مستوى القسم ، ثم يعود الأمر طبيعيا فى المستويات الأعلى».

«كان ذلك قرارا حكيما وسليما لأنه أسهم كثيراً فى التغلب على مشاكل التخلف الموروثة والعقد الناتجة عنه ، كما أنه شجع كثيراً من المتزوجات على الانضمام إلى التنظيم حيث لم يعد هناك مبرر لاعتراض الأزواج».

«رأيت أن هذه الخطوة الغريبة فى شكلها ضرورة فى تلك المرحلة ، وأنه مع تطور ظروف المجتمع المصرى وتطور عقلية الرفاق والرفيقات ستزول أسباب هذا الفصل ، وسيحتم العودة للاختلاط الطبيعى الصحى داخل التنظيم حيث لا تفرقة بين رجال ونساء».

والشاهد أن الفنانة إنجى أفلاطون تولى أهمية لأثر هذه المشكلة على النمو الطبيعى للتنظيمات الشيوعية فى ذلك الوقت.

(١٩)

وعلى الرغم من نجاح الفنانة إنجى أفلاطون فى مواجهة هاتين المشكلتين فإنها تحدثنا عن مشكلة أخرى واجهتها وهى تمارس نشاطها اليسارى وهى مشكلة الفوارق الطبقية وهى تلمس هذا الموضوع بذكاء فتقول:

«لكن المشكلة التى أقلقتنى بحق كانت الفارق الطبقى الواضح بينى وبين غالبية الرفاق من الجنسين ، هذا الفارق لم يكن واضحاً فقط فى المستوى الاقتصادى بل فى العادات والتقاليد ، وكان علىَّ أن أبذل جهداً جباراً لكى أتكيف مع هذا «العالم الجديد» وأجعله يثق بى ويتقبلنى».

«كان هذا أصعب جزء فى عملية التمصير والتأقلم التى شغلتنى سنوات طويلة».

«كم كان خجلى من الملابس الغالية التى تملأ دولاب والدتى صاحبة أكبر وأشيك محل أزياء فى القاهرة «محل صالحة» الذى هو أشهر من نار على علم ، وكنت أترك جميع الفساتين وأرتدى أبسط وأقدم ما أجده عندى حتى لا تشعر زميلاتى بالفارق ، أو على الأقل حتى ينسين مؤقتاً أننى قادمة من طبقة الأعداء ، والحقيقة أننى أنا نفسى لم أستطع أن أتخلص من هذه العقدة ، عقدة أشبه بعقدة الذنب لفتاة غنية واشتراكية معاً ، لم أتخلص من هذه العقدة إلا بعد زواجى».

«لقد استطاع زوجى أن يكشف لى خطورة هذا التفكير ويقنعنى بأن انضمامى أو غيرى من أفراد طبقة الأغنياء إلى جبهة الشعب هو فى الحقيقة كسب كبير يجب أن أفخر به ولا أخجل منه ، وأدركت أن الأسباب الحقيقية لتفكيرى الخاطئ لا ترجع إلىَّ وحدى ، بل إلى موقف الزملاء والزميلات منى».

«كانوا أحياناً يشعروننى بأصلى الطبقى ، ويشكون فى مدى إخلاصى وصلابتى وقدرتى على مواصلة الطريق الصعب. كان ذلك يؤلمنى كثيرا حتى أنه زعزع ثقتى فى نفسى لفترة ليست بالقصيرة ، لكنى فى النهاية جعلت من ذلك تحديا وترجمته إلى مزيد من الاجتهاد فى سرعة تعلمى اللغة العربية ، أذكر أنه جاء علىّ وقت صرت أتحدث فيه بالعربى فى كل ما يخص مجال العمل السياسى ، لكن تقدمى كان سريعا لما أخذت أتنقل فى مختلف الأحياء الشعبية لحضور الاجتماعات فى بيوت الزميلات واللقاءات فى النوادى السياسية والاجتماعية والرياضية ، استخدمت فى ذلك المواصلات العامة من ترام وأتوبيس ، وخلال هذه التنقلات والاجتماعات فى القاهرة الشعبية النابضة تعرفت حقيقة على زميلاتى وطريقة حياة البيت المصرى البسيط ، وجدت نفسى أقترب من شخصية الإنسان المصرى العادى».

وتحدثنا الفنانة إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات الممتعة عن بعض صور نشاطها فى الأحياء الشعبية واستخدامها للمواصلات العامة من ترام وأتوبيس ، وهى تتحدث عن هذه التجربة بكل سعادة ، بل تصل إلى حدود قصوى فى تأكيد التعبير عن الرضا العميق ، وذلك حيث تقول:

«كان اقتحامى لهذا العالم الجديد يملؤنى سعادة واعتزازا ، وكنت أشعر بأننى سأصل أخيراً إلى جذورى وأن الدم الذى يجرى فى عروقى هو دم مصرى حقيقى ، صار علىَّ أن

أعوض بسرعة السنوات الضائعة من عمرى وأتشبع بأقصى ما أستطيع «الشخصية المصرية» التى بها يكون اكتمالى.. هكذا كنت أفكر».

«وهكذا بدأت منذ الزمن البعيد ـ أعنى فى عام ١٩٤٤ ـ رحلتى الشاقة للبحث عن مصر الحقيقة، وعن هويتى، وذلك حين انضممت إلى تنظيم إسكرا الشيوعى، لقد أصبح هذا البحث هو همى السياسى وهمى الفنى أيضا».

«إننى أنظر إلى تلك الأيام بامتنان. امتنان للناس الذين ساعدونى، وامتنان لهذا الاختيار الذى أعطانى فرصة الاندماج التام مع الوطن والشعب فأصبحت من أكبر عشاقه».

(٢٠)

ونأتى إلى حديث الفنانة إنجى أفلاطون عن قضية المرأة والحركة النسائية فى مصر، وهى تمزج فى هذا الحديث بين عرض تجربتها الشخصية وبين آرائها اللاحقة فى الهيئات التى مارست النشاط اليسارى، وفى هذا الصدد تبدى رأيها بصراحة ووضوح فى نشاط ثلاث هيئات عملت فى هذا المجال وهى: الحزب النسائى، والاتحاد النسائى الذى كانت تتزعمه السيدة فاطمة نعمت راشد، ودار الأبحاث العلمية، وهى تختص هذه الهيئة الأخيرة، دونا عن الآخرين، بقدر كبير من الاعتزاز وتقول:

«وكانت فى شارع نوبار، كانت الدار نادياً ثقافياً عادياً فى البداية، لكنى اكتشفت أنه يمكن تطويره حين تعرفت على شهدى عطية الشافعى وعبدالمعبود الجبيلى، واللجنة النسائية فى هذه الدار والتى ضمت سعاد بدير وثريا أدهم ولطيفة الزيات».

كما تتحدث صاحبة هذه المذكرات عن «لجنة نشر الثقافة الحديثة» وروادها: أبو سيف يوسف، وسعيد خيال، ومصطفى كامل منيب، وعبدالرحمن الشرقاوى، ونعمان عاشور. ثم تتحدث بفخر عن تأسيسها مع مجموعة من الفتيات منهن لطيفة الزيات وفاطمة زكى وآسيا النمر وعنايات النيرلى لرابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية فى منتصف عام ١٩٤٥.

ومن المفيد أن ننقل للقارئ تصور إنجى أفلاطون لهذه الحركات والكيانات النسائية،

وسنلاحظ بوضوح أن اليسار المصرى كان حريصاً ـ أشد ما يكون الحرص ـ على النجاح فى توظيف النشاط النسائى المصرى من أجل تحقيق أهدافه:

«كان السؤال: هل نعمل من خلال هذه الأطر القائمة ، أم نشرع فى تكوين تنظيم جديد؟ كان الحل الأول أسهل بكثير وله ميزاته ، كما أنه من الصعب الحصول على تصريح قانونى بتكوين هيئة نسائية جديدة ذات طابع ديمقراطى وأهداف تقدمية واضحة».

«وجدير بالذكر أن عدد النساء التقدميات كان قليلا جدا فى تلك الأيام».

«صحيح أن زميلات كثيرات كن مشتركات فى التنظيمات الشيوعية المختلفة».

«ولكن الحقيقة أن معظم الزميلات كن من الأجانب أو اليهود ، ولا يعرفن اللغة العربية وغرباء على البيئة المصرية».

«كانت مهمتى الأولى الاتصال بالفتاة المصرية والتعرف على الطالبات والمثقفات ومحاولة استقطابهن فى صفوف الحركة التقدمية».

«اتجهت للنوادى الرياضية والثقافية ، انضممت لنادى جمعية الشبان المسيحيين ، ثم ترددت على دار الأبحاث العلمية وكانت فى شارع نوبار ، كانت الدار ناديا ثقافيا عاديا فى البداية ، لكننى اكتشفت أنه يمكن تطويره حين تعرفت على شهدى عطية الشافعى وعبدالمعبود الجبيلى وهما مسئولان عن الدار. لقد لفت نظرى أن كلا منهما كان يحمل فى جيبه على الدوام كتيبا من السلسلة التى كانت تصدرها باللغة الإنجليزية دار النشر المعروفة بمكتبة لينين الصغيرة فى لندن».

«وعرفت بعد أن تعاونت معهما أنهما فى الحركة الديمقراطية المصرية إحدى الحركات الشيوعية المصرية ، بينما كنت أنا فى منظمة اسكرا ، وشهدى عطية هو الشهيد الذى توفى تحت التعذيب سنة ١٩٦٠ فى ليمان أبى زعبل. أما الدكتور الجبيلى فهو عالم الذرة المشهور وقد رأس مؤسسة الطاقة الذرية وكان وزير البحث العلمى فى الستينيات ، كذلك تعرفت فى الدار على الدكتور رشدى سعيد عالم الجيولوجيا الذى رأس مؤسسة الجيولوجيا والمناجم».

وتعود إنجى أفلاطون إلى الحديث باعتزاز وحب عن دار الأبحاث العلمية فتقول:

«أصبحت دار الأبحاث العلمية ناديا ثقافيا وسياسيا من الدرجة الأولى».

«فى هذه الدار كانت تلقى فى مساء يوم الأحد من كل أسبوع محاضرة تعقبها مناقشة،

وكان يحضر هذه الاجتماعات جمهور كبير من الشباب الجامعى المتحمس ، وكنا مهددين دائماً بمنع الاجتماع حيث كان يتواجد بشكل دائم عملاء المباحث العامة (تقصد : القلم السياسى)».

«ومن الطريف أن الدكتور وليم سليمان المدرس فى كلية العلوم كان يتولى الإشراف على المحاضرات بالدار ، وكان دائماً يفتتح الندوة أو المحاضرة بقوله إن نشاط الدار ليس سياسيا بل علميا ، لكن بعد خمس دقائق كنا نغرق فى السياسة».

(٢١)

وتورد الفنانة إنجى أفلاطون نبذات سريعة عن مشاركتها فى أنشطة بعض الجمعيات اليسارية الأخرى ، ثم تستطرد إلى محاولتها هى وزميلاتها العمل من خلال الجمعيات النسائية الموجودة على الساحة:

«وفى دار الأبحاث تكونت أول لجنة نسائية على مستوى جيد ، وانضم إليها عدد من خيرة الشابات المثقفات منهن سعاد بدير وثريا أدهم ولطيفة الزيات».

«كذلك كنت أتردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة بشارع قصر العينى ، وبين الحين والآخر كنت أحضر محاضراتهم الشيقة ، وكانت تلقى فى مساء يوم الخميس من كل أسبوع ، وكان من رواد هذه الدار التقدمية أبوسيف يوسف ، وسعيد خيال ، ومصطفى كامل منيب ، وعبدالرحمن الشرقاوى ، ونعمان عاشور».

«فى ذلك الوقت بدأنا أنا وبعض الزميلات الماركسيات محاولات جادة للعمل من خلال الجمعيات النسائية الموجودة».

«قمنا بأول محاولة مع الحزب النسائى وفشلت جهودنا فى زحزحته عن جموده ، وبدا واضحا أنه غير مستعد للدخول فى معارك جدية ولا احتضان عناصر شابة جديدة. وحاولت أنا التعامل مع اتحاد بنت النيل لكن بلا فائدة أيضا. كانت السمة السائدة فى الاتحادات النسائية هى الخوف من العناصر الجديدة النشيطة واليسارية بصفة خاصة».

«فى ذلك الوقت كانت القوى الاستعمارية والقوى المتحالفة معها تروج بكل قوة الخوف من «بعبع الشيوعية» وترفع شعار مكافحة المبادئ الهادمة وتقصد به الحركة الوطنية

على اختلاف تياراتها السياسية ، سواء كان شباب الوفد أو الحزب الوطنى أو مصر الفتاة أو التنظيمات الشيوعية».

«كانت الرجعية تعمل كل جهدها لإرهاب الناس لإبعادهم عن الكفاح السياسى ، وكان واضحاً أن السيدات الفاضلات المشرفات على الاتحادات النسائية وجدن راحتهن فى رفع نفس الشعارات حتى يبقين فى كراسى الزعامة وينلن رضاء الحكام».

«وهكذا وجدنا أنه لا مفر من تكوين جمعية نسائية مستقلة ذات طابع ديمقراطى جديد نستطيع من خلالها أن نحدد أهدافها وبرنامجها وفعلنا ذلك. أخذنا زمام المبادرة ، كان معنا كثير من الفتيات منهن لطيفة الزيات ، وفاطمة زكى ، وآسيا النمر ، وعنايات النيرلى ، وأسميناها «رابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية» وأعلنا عنها فى منتصف عام ١٩٤٥».

«كم كنا نرغب بحق أن يتضمن اسم الجمعية كلمة «المرأة العاملة» ، لكننا رأينا من الحكمة أن نتفادى هذه الإشارة التى كانت تستفز السلطات حينئذ وقد تكون سببا فى تعطيل الرابطة ومصادرة نشاطها ، وهذا مع عزمنا ألا تقتصر الرابطة على فتيات الجامعة والمعاهد فقط».

«وضعنا برنامجا وحددنا أهدافه وطبعناه فى شكل منشور أنيق ذى ثلاثة ألوان: الأخضر والبنى والأسود ، تضمن البرنامج مطالبنا ، وتضمن نداء للمثقفات وسائر نساء مصر للانضمام إلى الرابطة».

«جاء فى النداء أن رابطة فتيات الجامعة والمعاهد تتيح لك أن تترجمى أقوالك أفعالا ، وإيمانك أعمالا ، فهى تعمل والحرية هدفها ، والإخلاص شعارها ، فهلا انضممت إلى فتيات الجامعة والمعاهد؟ تعالى معنا نحقق للمرأة أهدافها وحقوقها ، تعالى نحقق مع العاملين لمصر حريتها واستقلالها».

«كما تضمن البرنامج «القسم العظيم» ، قسم أعضاء الجمعية للدفاع عن حقوق المرأة الاقتصادية والسياسية والقانونية والاجتماعية وهذا نص القسم:

«نحن نساء مصر نقسم قسما مقدسا على الكفاح المستمر بمختلف أشكاله حتى نقضى على الرجعية والاستعمار قضاء تاما ، وحتى تعم بلادنا ديمقراطية حقيقة».

«لقد استقبلت الصحافة المصرية إعلان تكوين الرابطة استقبالا حارا ومتحمسا إلى أقصى حد ، ولم يكن يمضى أسبوع دون أن تحوى الصحف خبرا أو مقالة أو تحقيقا صحفيا

عن الرابطة ونشاطها المكثف ، بل إن جريدة الشعلة جعلت عنوان عددها الصادر فى ٢٦ مارس ١٩٤٦ هو:

«إننا نطالب بالحرية لمصر وللمرأة المصرية .. برنامج رابطة فتيات الجامعة والمعاهد المصرية».

«لقد أعلنا الرابطة إذن دون انتظار ترخيص بذلك وأعطيناها صفة «المؤقتة» حتى يكون لها وضع قانونى وجعلنا لها عنوانا مؤقتا هو:

«الآنسة إنجى أفلاطون ـ ١٤ شارع شامبليون ـ القاهرة».

(٢٢)

وفى مواضع أخرى تخصص إنجى أفلاطون فقرات كثيرة للحديث بالتفصيل عن «اللجنة التحضيرية لأنصار السلام» وبيانها الذى وقع عليه كل من: يوسف حلمى المحامى، وسعد كامل ، وسيزا نبراوى ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، وحفنى باشا محمود ، وكامل البندارى باشا ، ومحمد على عامر ، وعزيز فهمى ، وصدى هذا البيان فى المجتمع المصرى.

ثم تحرص الفنانة إنجى أفلاطون على أن تروى للقراء قصة إصدار مجلة «الكاتب» وقصة إصدارها كتابها الثالث «السلام والجلاء» ، ثم المشاركة فى مؤتمر السلام العالمى فى فيينا ، ومظاهرة يوم الشهداء والكفاح المسلح فى القناة فى ١٩٥١ .

كما تورد صاحبة المذكرات قصة تأسيس لجنة شابات الاتحاد النسائى التى ضمت ليليان أرقش وزينب عزت وجميلة كامل وحكمت الغزالى! ! ثم تكوين اللجنة النسائية الشعبية التى ضمت إنجى رشدى وسعاد منسى وعايدة نصر ولولا فهمى وعايدة فهمى.. ثم سفرها مندوبة عن اللجنة إلى الإسماعيلية مع حواء إدريس وحكمت الغزالى ، وهى تحرص على التعبير عن امتنانها وتقديرها لقرار حكومة حزب الوفد بتعيين جميع العمال الذين امتنعوا عن العمل فى معسكرات الإنجليز! !

وتروى إنجى أفلاطون قصة انسحاب فاطمة نعمت راشد رئيسة الحزب النسائى المصرى من لجنة المقاومة وانضمامها إلى درية شفيق رئيسة اتحاد بنت النيل وتكوينهما معاً جبهة

سيدات مصر ، ونحن نلاحظ أن هاتين السيدتين دون غيرهما تحظيان بالانتقاد من إنجى أفلاطون فى مواضع كثيرة من هذه المذكرات.

وتذكرنا الفنانة إنجى أفلاطون باستنكار البيان الذى أصدرته درية شفيق فى ١٩٥٦ وقرارها الإضراب عن الطعام حتى الموت ، ثم إنهائها الإضراب بعد ٤٨ ساعة (ص ١٧١).



وتورد إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات قصة المظاهرة التى اشتركت فى تنظيمها فى ١٤ نوفمبر ١٩٥١ فى ذكرى يوم الشهداء ، ودور جماعة «صوت الفن» فى تنظيم هذه المظاهرة ، وقد ضمت هذه الجماعة جمال السجينى ، وزوجته هدى ، وراجى عنايت ، وزينب عبدالحميد ، وعز الدين حمودة وآخرين.

(٢٣)

بالإضافة إلى كل هذا فإن إنجى أفلاطون لا تغفل الحديث عن ملامح ما يمكن تسميته: تجربتها الدولية فى مجال النشاط النسائى العالمى ، وهى حريصة على أن تصور طبيعة استقبال البوليس المصرى لها بعد عودتها من المشاركة فى المؤتمر الدولى ، وكان الاستقبال الطبيعى هو القبض عليها!! وهكذا أصبح اسمها منذ ديسمبر ١٩٤٥ على القائمة السوداء وأصبح لها ملف فى القلم السياسى.

وتروى الفنانة إنجى أفلاطون بإعجاب كيف تطوع الأستاذ محمد زهير جرانة المحامى [الوفدى] للدفاع عنها ورفع قضية مستعجلة ضد الحكومة «فليس من حقها مصادرة كتب لا يوجد قانون يمنع تداولها.. وحدث ما لم يتكرر فى السنين التالية ، أعاد لى زهير جرانة جميع الكتب والمطبوعات التى صودرت» ، ولنطالع قصة هذا الكفاح اللذيذ:

«كان أول نشاط هام تقوم به الرابطة هو قرارها بإرسال مندوبات عنها إلى أول مؤتمر نسائى عالمى يقام بعد الحرب ، وهو المؤتمر الذى افتتح فى باريس يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٤٥».

«لقد علمنا بأسماء النساء القائمات على التحضير للمؤتمر وعرفنا أنهن من أبرز وألمع

الشخصيات النسائية من بطلات النضال ضد الفاشية والنازية ، كما عرفنا أهداف المؤتمر التى تركزت على كراهية الفاشية والاستعمار وجميع صور الاستبداد إلى جانب المطالبة بحقوق المرأة كاملة والدفاع عن السلام العالمى والحيلولة دون وقوع حرب عالمية جديدة».

«لهذا كله تحمسنا لفكرة الاشتراك وقررت الرابطة إرسال ثلاثة من عضواتها هن:

«سعاد كامل.. خريجة كلية العلوم».

«صفية فاضل.. ربة بيت».

«وأنا».

«ثم انضمت إلينا الصحفية سعاد زهير زوجة الصحفى فتحى الرملى».

«جمعنا التبرعات لتغطية بعض تكاليف الرحلة ، وسافرت سعاد كامل وصفية فاضل عن طريق البحر بينما سافرت أنا على أول طائرة مدنية تقوم من القاهرة إلى باريس بعد الحرب».

(٢٤)

وتقدم الفنانة إنجى أفلاطون بعض التفصيلات الطريفة عن رحلتها إلى باريس بالطائرة، وهى الرحلة التى استغرقت ثلاثة أيام ، وقد زاملتها فيها السيدة سعاد زهير والدة الأستاذ لينين الرملى ، وكانت السيدة سعاد زهير تناجى ابنها فى أثناء الرحلة لأنها تركته وهو رضيع فيظنها الناس تترحم على الزعيم الشيوعى لينين وكان قد مات منذ سنوات عدة:

«فى الطائرة وجدت سعاد زهير ، وكان ذلك مفاجأة سارة لى ، لكن المفاجأة الكبرى لنا معا هى الطائرة نفسها».

«كانت بدائية إلى أقصى درجة حتى أنها قطعت الرحلة من مصر إلى مارسيليا فى ثلاثة أيام وليال. كانت لا تستطيع الطيران أكثر من ساعتين ثم تهبط إلى الأرض للراحة ثم تنهض من جديد».

«لقد قضينا أول ليلة فى معسكر بريطانى فى الصحراء الغربية ونمنا فى خيامه ، أما الليلة الثانية فقضيتها فى تونس ، وفى الليلة الثالثة كنا فى مارسيليا».

«أخيراً وصلنا فرنسا بعد رحلة المفاجآت ، ومن طرائف الرحلة أن سعاد زهير كانت دائمة التأوه بسبب هذا السفر مع أنها جاهدت لكي تسافر ، كانت سعاد قد وضعت طفلها حديثا وتركته بالقاهرة وكان لبن الأم عندها حاضرا لدرجة أنها كانت تضطر لتصفيته من وقت لآخر، ولهذا كانت تندب حظ رضيعها لأن لبنها ينسكب بعيدا عن فمه».

«كانت تردد في أسى بالغ قولها يا عيني يالينين.. ياضنايا يالينين».

«واحتار ركاب الطائرة من الأجانب وارتسمت على وجوههم علامات الدهشة والتساؤل ، [فسنوات عديدة كانت قد] مضت على وفاة لينين ولازالت هذه السيدة تندبه.. السيدة ليست طبيعية ولاشك ، من أين لهم أن يعلموا أنها تتذكر رضيعها لينين الرملي الكاتب الروائي المشهور [بعد ذلك]».

«ومن الطرائف التي لا تنسى أيضا أن صديقة لوالدتي وهي لطيفة فاضل انتهزت فرصة المؤتمر للحصول على تأشيرة دخول لفرنسا لأن الحصول عليها كان صعبا في ذلك الوقت ، لم يكن للسيدة لطيفة فاضل علاقة بالعمل السياسي ولم ترد على بالها أبدا فكرة حضور المؤتمر. كانت ذاهبة لفرنسا لتقابل يوغوسلافيا منشقا ربط الحب بينهما ، وبالفعل تزوجته في هذه الرحلة ، فلما عادت لمصر اعتبرتها مباحث أمن الدولة [تقصد: القلم السياسيّ من الخطيرات باعتبارها كانت عضوا في المؤتمر مع أنها لم تشاهده بعينها ، وقد عانت لطيفة فاضل من ذلك كثيرا وظلت تلعن اليوم الذي سافرت فيه معنا إلى باريس».

«وأخيرا كنا متلهفين على الوصول لباريس».

«فلم نقض الليلة في مارسيليا بل قررت أنا وسعاد زهير ألا ننتظر قيام الطائرة وفضلنا ركوب قطار مارسيليا ـ باريس لنضمن الوصول في الصباح الباكر. كانت رحلتنا بحق صعبة طويلة ، لكننا وصلنا ، وكانت المفاجأة الأخيرة أننا وجدنا في باريس سعاد كامل وصفية فاضل اللتين سافرتا بالباخرة!! سبقت السفينة الطائرة فتأمل!».

(٢٥)

وفي موضع آخر من المذكرات تتحدث الفنانة إنجي أفلاطون عن مشاركتها في أول مؤتمر عالمي للطلبة في براغ ، وعن حملة الحكومة في ١٠ يوليو لإفشال الحركة الوطنية

حيث تم اعتقال ٣٠٠ من خيرة المناضلين الوطنيين ، وتحرص صاحبة المذكرات على إثبات المفارقة التى حدثت من مشاركة إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فى وداعهم ثم أمره القاضى بتشميعه بيتهم:

«فى يونيو عام ١٩٤٦ سافرت مع والدتى بالباخرة إلى فرنسا ، كان هدف أمى من الرحلة زيارة بيوت الأزياء المشهورة فى باريس ، وكذلك تمضية فترة من الراحة والاستجمام مع أختها (خالتى) إنجى ، أما أنا فكانت باريس بالنسبة لى محطة على الطريق ، كنت ذاهبة أصلا إلى براغ لحضور أول مؤتمر عالمى للطلبة بعد الحرب العالمية».

«على الرصيف فى ميناء الإسكندرية ، ودعنا عدد من أصدقاء العائلة ومنهم إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء».

«وقد علمت وأنا فى باريس ـ قبل سفرى لبراغ ـ بحملة الاعتقالات الواسعة لمعارضى مشروع معاهدة صدقى ـ بيفن. كان ضمن المعتقلين وفد الطلبة الذى كان من المقرر أن يلحق بى فى براغ لحضور المؤتمر معى».

«جمال غالى ممثلا لنادى الطلاب المصريين ، وعبد الرءوف أبو علم عن شباب حزب الوفد ، وكمال شعبان».

«كذلك وصلتنا من القاهرة برقية تقول لوالدتى إن بيتنا قد داهمته المباحث وأن بابه ختم بالشمع الأحمر».

«كانت هذه البرقية مفاجأة قاسية لأمى ، مهما قلت فلا أستطيع وصف الغضب الذى استولى عليها. كان غضبها أولا ضدى لأنى أنا السبب.. وكان غضبها أيضا ضد صدقى باشا. فكانت تردد القول: يودعنا فى المينا وبعدين يشمع بيتنا!».

«وعلى العموم لم تكن هذه الحملة مفاجأة كبيرة لنا ، أقصد اليسار».

«كان الزميل جمال غالى ضمن المعتقلين كما سبق القول ، فلما افرج عنه كان جواز سفره جاهزا عنده لحسن الحظ ، فتوجه للمطار وسافر قبل أن تنتبه المباحث وتمنعه من السفر ، وصل جمال إلى براغ فكانت مفاجأة جميلة».

«لكن الحكومة لم تسكت عن وجودنا فى براغ ، وتصرفت بغباء عجيب».

«أرسلت السفارة المصرية فى براغ إلى هيئة المؤتمر رسالة تحذير من وجود شاب وفتاة

من مصر وهما خارجان على القانون ومطلوب القبض عليهما في مصر ، لذلك فهما لا يمثلان أبدا الحركة الطلابية المصرية ، وقد سجلت رسالة السفارة أوصاف الفتى والفتاة ، الطول ولون الشعر والعينين والوجه.. إلخ. بالضبط كنشرة المجرم المطلوب القبض عليه ، وكان رد المؤتمر رائعا بالطبع ، تلت هيئة المكتب رسالة السفارة في المؤتمر ورفض المؤتمر هذه الرسالة واستنكرها بشدة ، واستقبلنا أنا وجمال استقبال الأبطال».

«وقبل أن ينتهي المؤتمر من أعماله قالت وكالات الأنباء: إن الحكومة المصرية أصدرت مرسوما بقانون يحظر على المصريين الاشتراك في أي مؤتمر دولي بدون إذن الحكومة ، وقد قررنا تفاديا للمشاكل عند عودتنا لمصر ، ألا نوقع رسميا على قرارات المؤتمر ، طبعا كان المؤتمر يعرف حقيقة موقفنا ويقدر ظروفنا ، وقد أحاطنا بالتشجيع والتأييد العظيم».

(٢٦)

وفي فقرات عديدة من هذه المذكرات تحدثنا إنجي أفلاطون عن مشاركتها في العام التالي في مهرجان الشباب الدولي (يوليو ١٩٤٧) ونشاطها في هذا المهرجان حيث تقول:

«نشرت جريدة المصري يوم ٢٦ يونيو ١٩٤٧ ما يلي:

«كانت الأنسة إنجي أفلاطون عضو الاتحاد النسائي الدولي الديمقراطي تعتزم السفر إلى براغ لحضور مهرجان الشباب الدولي الذي سيقام فيها ويحضره الآلاف من شباب دول العالم أجمع وهدفهم هو تقوية أواصر الصداقة والمحبة بينهم ، وتقوية روابط الثقافة ، والقيام ببعض المباريات الرياضية ، لكنها فوجئت اليوم بمنعها من السفر وهي تهم بركوب الطائرة التي تغادر مصر إلى باريس ، وبسحب رجال البوليس جواز سفرها دون أي مسوغ قانوني».

«وكانت والدتي مسافرة معي على نفس الطائرة إلى باريس ، فلما منعت أرادت أمي أن تبقى في مصر وتلغي السفر ، لكني أصررت على ضرورة سفرها ، وأقنعتها بأنني سألحق بها بعد أيام لأن إجراء منعي هو إجراء تعسفي على خلاف القانون».

«سافرت أمي ومعها حقائبي حيث تركتها بالطائرة ، توجهت على الفور إلى جرائد الوفد والمعارضة الديمقراطية حيث قدمت الاحتجاج الشديد على هذا الاعتداء على الحريات الدستورية. وفي صباح اليوم التالي امتلأت عناوين هذه الصحف باتهامات خطيرة

للحكومة ، مثل: أسبوع حافل ، الحرية فى خطر.. البوليس يمنع آنسة مصرية من السفر إلى الخارج.. إلى متى يستمر الاعتداء على الدستور؟»".

«ونتيجة لهذه الحملة الصحفية على حكومة النقراشى باشا ، اتصل بى كثيرون من المحامين متطوعين للمرافعة عنى انتصارا للحرية ، فى القضية التى قررت رفعها ضد الحكومة بصفة مستعجلة مطالبة بحقى فى السفر ، وكذلك فى القضية الموضوعية مطالبة بالتعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التى تسببت عن هذا المنع من السفر».

«وفعلا ترافع عنى متطوعا بلا أتعاب المحامى الوفدى الكبير المرحوم الدكتور حامد زكى ، أما محامى الحكومة فكان الأستاذ عبدالحليم الجندى الذى أصبح فيما بعد رئيس إدارة قضايا الحكومة ، وقد جعل عنوان مرافعته ومذكرته «إنجى أفلاطون.. براغ ودائما براغ». ومن الطريف أنه حدث قبيل صدور الحكم فى القضية المستعجلة أن اتصلت بى وزارة الداخلية وأخبرتنى أن وزير الداخلية يرغب فى مقابلتى ، وحددت لى ميعاد المقابلة، فتوجهت فى الميعاد لمكتب الوزير ومعى الدكتور حامد زكى الذى شجعنى على المقابلة ، وانتظرنى فى الخارج ودخلت أنا مكتب الوزير ، معالى محمد رفعت باشا ، كان على مكتبه ملف ضخم ، أشار الوزير إليه ضاحكا وقال: هل تعلمين ما يحتويه هذا الملف؟ إنه ملفك ويضم كل شىء عن نشاطك السياسى منذ بداية نشاطك الشيوعى الهدام!!».

[نتوقف هنا لنشير إلى أن النقراشى باشا كان يجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية، ولكن كان هناك وكيل الوزارة العتيد حسن رفعت باشا ، الذى ربما كان هو المقصود بحديث الفنانة إنجى أفلاطون ، وإن كانت قد أخطأت فى اسمه كما اخطأت فى اسم منصبه].

«وفى النهاية أعاد إلىّ جواز سفرى وسمح لى بالسفر ، كان يعلم طبعا أن قضيتى المستعجلة مضمونة الكسب وقد انتهت ، أما قضية التعويض فاستمرت وصدر الحكم لصالحى فى النهاية».

(٢٧)

وتتحدث إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات بالتفصيل عن جهدها البارز فى أول مؤتمر جماهيرى تولت تنظيمه سنة ١٩٤٦ وكيف استطاعت الحصول على تصريح بإقامته ، ولم يكن سلاحها حسب روايتها إلا حسن الحظ:

«... ولكن فى مساء الخميس ٢٨ فبراير ١٩٤٦ ، وقبل انعقاد المؤتمر بساعتين فقط صدرت الأوامر من وزارة الداخلية بمنع المؤتمر ، وطوقت قوات البوليس مبنى الليسيه لمنع الجمهور من الدخول».

«امتلأ شارع الحوياتى الذى به الباب الرئيسى لمدرسة الليسيه بالفتيات والنساء ، جمهور غفير أتى لحضور الاجتماع وأصبح الموقف حرجا».

«استسلامنا يعنى فشلنا فى أول تجربة وفقدنا لهذا الجمهور المتحمس الذى يربو على المئات .. لكن كيف نتحدى قوات البوليس وأمر المنع؟».

«خطرت فى ذهنى فكرة جهنمية هى اللجوء إلى السيد إبراهيم رشيد زوج إحدى بنات صدقى باشا ومدير مكتبه فى نفس الوقت ، الذى تربطه بنا علاقة صداقة طيبة ، وبسرعة وبعد الاتفاق مع الزميلات نبهنا الجمهور النسائى المحتشد ألا يتحرك لأن تصريحا بالاجتماع سيأتى ، وأخذت سيارة توجهت إلى وزارة الداخلية حيث قابلت السيد إبراهيم رشيد الذى لحسن الحظ لم يكن يعرف عن نشاطى شيئا».

«كان يعرف فقط أننى «إنجى» ابنة «صالحة» وحصلت منه على التصريح المطلوب».

«وظل بعد ذلك زمنا طويلا غاضبا منى بسبب ما لحق به وما سمعه نتيجة إعطائه هذا التصريح».

«لقد عدت بالتصريح طائرة من الفرح ورأيت الشارع مسدودا من كل ناحية بمئات من النساء والفتيات تحيطهن قوات البوليس».

«رفعت التصريح فى يدى معلنة حصولنا على إذن بالاجتماع ، وانسحبت القوة البوليسية واندفعت النساء والفتيات إلى داخل القاعة».

يجدر بنا هنا أن نشير إلى ما لم تشر إليه السيدة إنجى أفلاطون فى مذكراتها فى هذا الموضع ، وهو أن إبراهيم رشيد هو والد اليسارية النشطة الدكتورة أمينة رشيد.

(٢٨)

ووسط كل هذه الأحاديث المثيرة أو الطريفة عن الأنشطة السياسية تأتى قصة زواجها من زميلها فى النشاط اليسارى حمدى أبو العلا ، وهى تحدثنا عن زوجها وعن زواجها

فى بساطة وحب ودون مقدمات ضخمة أو حديث عن صراع نفسى أو اجتماعى وهى تروى كيف تعرفت بزوجها وكيف أحست بالاقتراب منه:

«... فى البيت وجدت نفسى وحيدة ، أمى كانت قد سافرت للخارج ، وتذكرت أنى مدعوة هذه الليلة لحضور حفل زفاف محمود النبوى أحد زملائنا ورئيس تحرير مجلة الجماهير. قررت الذهاب ، قلت لعل هذا يرفع روحى المعنوية بعد إحباط الصباح ، ذهبت لحفل الزفاف ، كنت أعرف أننى سأقابل عددا كبيرا من الأصدقاء والزملاء ، وهذا ما حدث ، لكن القدر شاء أن تتميز تلك الليلة عن باقى ليالى العمر كله ، فقد فوجئت بالزميل على الشلقانى يقدم لى شاباً طويلاً وسيماً قمحى اللون وأخضر العينين. قدمه باعتباره صديقاً وزميلاً له فى الدراسة».

«وفوجئت بهذا الشاب يحدثنى فى اهتمام بالغ وينظر إلىّ بإعجاب واضح ، والحق أنى شعرت أيضاً نحوه بالإعجاب من أول نظرة ، وبأن شيئاً ما يجذبنى نحوه ، ولكن سرعان ما تبدد الأمل وطارت الأحلام لأن هذا الشاب وكيل نيابة ، هل هذا معقول؟».

«أعجب بى وأنا على رأس القائمة السوداء ومن صميم عمله حبس أمثالى ، ولاحظ على الشلقانى شعورى نحو صديقه وكيل النيابة فأسرع يؤكد لى أنه من العناصر الوطنية الممتازة ، بل هو أكثر من ذلك ، إنه من الماركسيين الملتزمين ، والضرورة تقتضى إخفاء ذلك، واستطاع الشلقانى إزالة مخاوفى ووجدت نفسى بسرعة أبحث فى ذهنى عن حجة أو فرصة أغتنمها لأقابله مرة أخرى ، وجاءت الحجة من ناحيته كأنه كان يفكر بنفس طريقتى ، فاقترح أن يعطينى بعض الدروس فى اللغة العربية».

«تمت أول مقابلة بيننا فى محل الشاى «لوك» بشارع سليمان ، تكلمنا فى كل شىء إلا دروس اللغة العربية ، فتح كل منا قلبه للآخر بسرعة شديدة ونما بيننا تفاهم كبير ، فكنا شأن أى محبين نمضى ساعات وساعات دون أن نشعر بزمان أو مكان ، أعتقد ـ وهذا حقيقى ـ أننى أحببت حمدى منذ أول لحظة تعرفت عليه فيها ، وبعد تعرفى عليه تعمقت العلاقة بيننا إنسانياً وفكرياً وسياسياً ، وتأكد إعجابى له وحبى له ، وأدركت أنه الإنسان الذى أحب أن يشاركنى وأشاركه الطريق الصعب الذى اخترته ، وأنه الرجل الذى يمكن أن تكون رحلته معى مصدر سعادتى ، ولكن لم يكن ممكناً أن نتزوج بسهولة».

«ولابد أن أذكر أننى لم أجد صعوبة فى إقناع أسرتى باختيارى حمدى زوجا ، لقد

اطمأنت أمى لأنه مسلم ومصرى ووكيل نيابة أيضا ، وعندها أن هذا يعنى أنه بعيد عن السياسة ، ولم يضايقها أنه ليس غنياً ولا هو من ذوى الأملاك ، فقد فرحت أمى بالخبر لأنها وجدت فى حمدى الاطمئنان على مستقبلى والأمل فى إنقاذى من الغرق فى بحر السياسة ، كما أنها من ناحية أخرى كانت لا تستطيع أن تعترض لأنها تعرف أنه لا شىء يجعلنى أغير قرارا اتخذته بمحض إرادتى. طلبت أمى منى أن أخبر والدى وحين سألنى: «هو ابن مين؟».

«قلت له متحدية: «ماهو ابن حد» ، وكنت أقصد أنه ليس ابن بك ولا ابن باشا ، وقلت إنه كان الأول على دفعته بالكلية ، وأنه إنسان ممتاز يكسب رزقه بعمله ، والمستقبل مفتوح أمامه ، وتردد أبى قليلا متأملا هذا الخبر ، ثم استسلم وبارك قرارى».

(٢٩)

ثم تروى الفنانة إنجى أفلاطون قصة لقاء لها بالمصادفة مع خطيبها فى مقر نيابة الصحافة حيث كان يعمل ، ومن الطريف أنه كان قد تركها فى الليل قبل أن يعرف أن رجال الأمن قد داهموا بيتها بعد أن تركها ، ومن ثم فلم تكن لديه فكرة عن حضورها فى ذلك الصباح، ونحن نرى تصوير إنجى أفلاطون لموقفها وموقف خطيبها وموقف وكيل النيابة الآخر ، وهو تصوير يكاد يقطر فكاهة وظرفا:

«قضينا أنا وحمدى شهرين جميلين نتقابل فيهما سرا ، ونتنزه سرا حتى لا ينتشر خبر خطوبتنا ، لكن كادت هذه الخطة كلها تفسد فجأة وأين؟ فى مبنى النيابة نفسه».

«كنا ذهبنا إلى السينما ، وبعد انتهاء الحفلة أوصلنى حمدى إلى باب العمارة التى أسكن فيها ، صعدت إلى شقتنا فوجدت رجال المباحث العامة (تقصد: مسئولى الأمن السياسى) ومعهم أمر بالتفتيش ، وطلبوا منى أن أتوجه إلى نقطة بوليس «كوتسيكا» لأقابل وكيل النيابة ، ذهبت فلم أجد وكيل النيابة حيث كانت الساعة الثالثة صباحا ، عدت إلى البيت بعد أن اتصلت به تليفونياً من النقطة ، ووعدته بالحضور فى الصباح إلى النيابة فى باب الخلق».

«كان من حسن الحظ فى تلك الليلة أن والدتى لم تعرف شيئا عن التفتيش ، فلم تكن

فى البيت ، كانت تحضر زفاف بنت حسين سرى باشا ، لقد كنت أنا مدعوة لكنى فضلت عدم الذهاب ، وكانت المباحث العامة على وشك الذهاب إلى الحفلة للقبض علىّ لولا أن الخادمة أقنعتهم بأننى لست هناك ، بل فى الخارج وسوف أعود قبل أمى ، فأنتظرونى.. إننى أتصور شكل الفضيحة التى كانت ستحدث لو ذهب رجال المباحث إلى حفل زفاف ابنة حسين سرى باشا وأتخيل شكل أمى ، أليس ما حدث إذاً كان من حسن الحظ!!»

«فى العاشرة من صباح اليوم التالى ذهبت إلى مبنى نيابة الصحافة ، كان الأستاذ مختار قطب هو المكلف بالتحقيق معى ومواجهتى بتهمة «الاشتراك بالعضوية فى منظمة دولية دون إذن الحكومة» ، كانت عقوبة هذه الجريمة الحبس ثلاثة أشهر وغرامة مائة جنيه ، اعترفت بالتهمة قائلة: «نعم أنا عضوة الاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى وفخورة بهذه العضوية».

«فدخول السجن شرف لى إذا كان للدفاع عن حقوق المرأة».

«ضحك الأستاذ مختار قطب ووجد أنه لا مفر من الإفراج عنى وحفظ القضية ، فى ذلك الوقت دخل حمدى الحجرة لأمر ما يتعلق بعمله ، وفوجئ بى جالسة أمام مختار ، لقد تركنى أمس ليلا ولم يعرف ما حدث بعد ذلك ، تغلب هو على ذهوله وحاولت بدورى مساعدته حتى لا يظهر سرنا أمام زملائه ، فأعطيته ظهرى وأنا أكاد أنفجر من الضحك المكتوم ، توجه حمدى إلى الأستاذ زميله وسأله: «مَنْ هذه الفتاة؟ وما هى حكايتها؟» فأجابه بدهشة: «ياه.. أنت ما تعرفش.. دى إنجى أفلاطون الشيوعية المعروفة» ، ثم قال: «لا شىء ضدها.. وستكون فى بيتها بعد قليل».

«يا أخى كل هذا كلام فارغ».

«اطمأن حمدى وترك النيابة متوجها إلى منزلنا لينتظرنى».

«كان وكلاء نيابة الصحافة فى ذلك الوقت هم: جمال العطيفى ومختار قطب وأنور حبيب».

وتعلق إنجى أفلاطون بما يزيد من عمق المفارقات فى هذا الموقف فتقول:

«وكم كانت دهشة المحقق الأستاذ أنور حبيب فيما بعد حين بلغه بعد شهرين فقط من هذه القضية نبأ زواجى من حمدى ودعوته لحفل زفافنا».

ثم تستطرد إنجى أفلاطون لتشير إلى موقف والدتها:

«بالطبع عرفت أمي بما حدث ، فقد نشرت الجرائد خبر القبض عليّ ، وأن النيابة تحقق معي في «قضية شيوعية» ، وثارت أمي وهددتني بمنعي من الخروج من المنزل ، لكن كان ذلك بلا جدوى ، وكان غيظي شديدا من «أخبار اليوم»».



بل إن الأمر قد تطور ليصل إلى ما هو أطرف من هذا في معرفة الناس بعلاقتها بخطيبها «وكيل النيابة» ورأيهم في هذه العلاقة ، ونحن نرى سخرية القدر حين يطلب مصطفى مرعي من حمدي أبو العلا أن يترافع ضد مَنْ ستكون خطيبته ، كما نرى رأي مصطفى مرعي المبكر في إنجي أفلاطون :

«في نهاية أبريل عام ١٩٤٨ صدر قرار بنقل حمدي إلي إدارة قضايا الحكومة ، وكان حمدي سعيدا برفع كابوس النيابة عنه ، لقد استرد حريته أخيرا ، وعلى الفور أعلنا خبر خطوبتنا على الناس ، وكما اندهش أنور حبيب حين وصلته دعوة زفافي ، اندهش مصطفى مرعي الذي كان يسمع عني ، فقد سبق أن رفعت قضية ضد الحكومة لمنعي من السفر إلى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٧ مطالبة بحقي في جواز السفر المصري وعدم شرعية منعي من السفر ، وطالبت بالتعويض عن الأضرار التي ترتبت على منعي ، وحين حان وقت نظر القضية طلب مصطفى مرعي رئيس إدارة القضايا من حمدي أن يترافع عن الحكومة ضدي ، لكن حمدي اعتذر وقال لمصطفى مرعي: «هذه الآنسة ستكون زوجتي قريبا!» ، ولم يخف مصطفى مرعي اندهاشه ، وعلق قائلا: لكن هذه آنسة متحررة جدا».

(٣٠)

وعلى الرغم من أن الفنانة إنجي أفلاطون لا تذكر اسم حمدي كاملاً إلا بعد صفحات طوال ، فإنه حاضر تماماً في كل كلمة من كلماتها المليئة بالحب والتقدير له!! وقد رأينا مما نقلناه في الفقرات السابقة مواقف طريفة عن اندهاش كل من مصطفى مرعي وأنور حبيب من هذا الزواج ، وقد تم زواجهما في مايو ١٩٤٨ ، ونشرت أخبار اليوم الخبر بعنوان بارز: «إنجي أفلاطون ترفع الراية البيضاء»!

وها هي إنجي أفلاطون ترفع راية بيضاء أخرى في تحية ارتباطها بزوجها فتقول:

«أكسبنى الزواج من حمدى أشياء كثيرة ثمينة وأساسية فى حياتى. لأول مرة بدأت أشعر بالاستقرار والطمأنينة وانزاح عنى القلق والشعور بعدم الرضا عن نفسى ، هذا الشعور الذى كان يلاحقنى طوال فترة شبابى المتمرد وكنت أعيش مع أمى فى وسط بورجوازى من النوع الكبير ، وأزاول نشاطاً متناقضاً معه ، هو النشاط الشيوعى».

«بعد الزواج عرفت العيشة السعيدة والحب الكبير ، كان حمدى إنساناً تقدمياً حقاً فى مواقفه وأخلاقه وسلوكه مع شريكة حياته ، لم تكن لديه أية رغبة فى السيطرة ، بل كانت رغبته حقاً مساعدتى ومشاركتى همومى ، كذلك لم تكن عنده عقدة طبقية بل على العكس ساعدنى كثيراً لتخليصى أنا من العقد التى سببها لى التناقض الذى نشأت فيه بين البيئة وبين العقيدة».

«نجح حمدى فى تنمية إحساسى بأن انضمامى إلى قضية الطبقات المقهورة مكسب كبير للثورة ، ونجح فى أن يخلصنى من عقد وقعت فيها مثل حرصى على عدم الظهور بالفساتين الجميلة التى كانت تصممها أمى فى محل صالحة ، مفضلة ارتداء الملابس القديمة والبهدلة ، أقنعنى أن هذه ليست القضية ، وإن حرصى على مظهرى اللائق مسألة طبيعية وعادية ، وأن التكلف فى العمل والمظهر الثورى ليس من علامات النجاح».



وتفيض الفنانة إنجى أفلاطون فى تعبيرها عن الامتنان للمساعدات القيمة التى وفرها لها زواجها من حمدى أبو العلا:

« ساعدنى حمدى كثيراً فى التمصير والتعريب ، كان يصر على أن يكون الحديث فى البيت بالعربية المصرية (العامية) ، وكان يردد على الدوام قوله: يجب أن نعيش بالعربى».

«ومسألة أخرى هامة جدا ساعدنى فيها زوجى ، هى الإسراع فى العودة والاشتغال بالفن ، أقنعنى حمدى بالتخلى عن التدريس بمدرسة الليسيه لأنها مضيعة للوقت والجهد فى مقابل اثنى عشر جنيها شهريا فقط.. ويجب العودة للرسم. كانت فترة الانقطاع بينى وبين الرسم قد طالت ، كما كانت مرحلة السيريالية قد انقضت».

«وكنت أحس بالحنين إلى العودة للرسم ، لكنى كنت مترددة وأتهيب الإقدام. وكانت العودة صعبة حقا بسبب تفرغى للعمل السياسى بالكامل وترك الرسم مدة سنتين تقريبا».

«وفى نفس الوقت كانت المرحلة الأولى ، مرحلة التمرد والتعبير عن الذات ، أى

المرحلة السيريالية قد انتهت باندماجى الكلى فى العمل السياسى ، واعتناقى الأيديولوجية الثورية ، فكان لابد من طريق جديد فى الفن يتناسب مع هذا التحول الهام فى أفكارى ووجدانى وحياتى».

«كانت رغبتى الأساسية حينئذ هى أن أعبر عن الإنسان المصرى».

«أعبر عن واقع وأحلام الإنسان البسيط المطحون الذى يكدح اليوم بطوله فى ظروف عمل بشعة دون حقوق مقررة أو قانون يحميه».

«كنت أريد أن أكشف لكل الناس استغلال الإنسان للإنسان ، أكشف وأضع فى دائرة الضوء وضع المرأة المتخلف فى المجتمع المصرى خاصة المرأة العاملة والفلاحة التى يرهقها عملان ، لا واحد ؛ عمل خارج البيت: فى المصنع أو فى المتجر أو فى الحقل ، وعمل فى البيت: تربية الأولاد وخدمة الأسرة. وبالجملة كنت أريد أن أعبر بصدق عن كل الهموم التى يئن منها شعبنا البائس».

(٣١)

وتمضى الفنانة إنجى أفلاطون لتحكى لنا تجربتها فى العودة إلى الرسم والتحاقها بمرسم الفنانة السويسرية مارجو فيبون ، وبالقسم الحر لكلية الفنون الجميلة بالزمالك حيث كان الأساتذة الكبار راغب عياد وحسين بيكار ، ثم بمرسم الفنان حامد عبدالله وزوجته تحية حليم ، ثم فى قريتها المنشية الصغرى بجوار كفر شكر وميت غمر:

«وقد التحقت بعدة مراسم للتعليم. فى الأول بمرسم الفنانة السويسرية القديرة المقيمة فى مصر ـ مارجو فيبون ـ التى كان لها أسلوبها المتميز الجيد فى الفن وفى التدريس أيضا. كان مرسمها فى المعادى ، الضاحية الخضراء والجميلة. وكانت المعادى فى ذلك الوقت محاطة بالقرى الصغيرة ، كنا نخرج مع الأستاذة إلى تلك القرى حيث نرسم ونتعلم الاسكتشات من الطبيعة ، وكان هذا يناسبنى جدا لأنى أعشق الخروج إلى الطبيعة والالتحام بالناس ، وأذكر أنى كنت أتمسك بحكمة قرأتها قالها الفنان العظيم ليوناردو دافنشى ، قال: «إن الفنان الذى لا يستطيع أن يلتقط بالرسم شخصا يسقط من الدور السادس ليس بفنان». وقد ظلت هذه العبارة التى تحمل خلاصة تجربة رائدة ، ظلت تجسد

اهتمامى الكبير بالحركة فى حد ذاتها مع ضرورة امتلاك وسائل التعبير عنها ، فحرصت دائما على تحصيل القدرة الكاملة على الرسم وعلى تلخيص الخطوط والتقاط الحركة السريعة وتجسيدها فى لوحاتى».

«مضت فترة بعد مدرسة المعادى ، بعدها التحقت بكلية الفنون الجميلة بالزمالك.. القسم الحر ، وكان بهذا القسم أساتذة عظام منهم راغب عياد وحسين بيكار. كما كان القسم غنيا بالموديلات لتمكيننا من دراسة جسم الإنسان عاريا ، وهذا أساس فى فن الرسم على مستوى العالم كله».

«وحدث كذلك فى الخمسينيات أن التحقت بمرسم الفنان حامد عبدالله وزوجته تحية حليم ، وقد انفصلت تحية عن زوجها وتفرغت للفن فأصبحت فنانة كبيرة ، وتسعدنى الصداقة الحميمة التى قامت بيننا حتى الآن».

«بعد ذلك أستطيع أن أقرر وأنا واثقة أن المدرسة الكبرى التى تعلمت منها حقا وأحببتها لأنها مصدر إلهامى ، كانت هى بلدتى فى الريف (المنشية الصغيرة) ، وهى من قرى مركز كفر شكر قليوبية الآن ، وكانت قبل ذلك من قرى مركز ميت غمر».

«هناك بنى جدى بيتا ريفيا جميلا على النيل (فرع دمياط)».

«البيت على شاطئ النهر وفى وسط أطياننا وفيها أشجار الكافور العملاقة ، ومزرعة حدائق منها الموالح ومنها الموز. هناك كنت أتطلع بانبهار للحياة الريفية الهادئة والإشعاع الرحب لجمال وصفاء الطبيعة ، لكنى أؤمن بالإنسان ، فالمهم الناس ، لذلك كنت حريصة على التردد على القرية وهى تبعد عن منزلنا مسافة بسيطة».

«وهناك أحتك بالواقع المؤلم لحياة الفلاحين القاسية».

«حياة تهزنى هزا فتثير شعورى وعواطفى ، وأنفعل بعنف أمام هذا الكم من البؤس ، وكنت أرسم وأسجل من الطبيعة الواقع دون انقطاع».

وتواصل الفنانة إنجى أفلاطون تصوير ملامح حياتها فى الريف ، وما ترى أنه كان بمثابة أثر لهذه الحياة على وجدانها:

«كنت أعايش الفلاحات ، أدخل بيوتهن فيثرثرن معى فى أثناء قيامهن بالعمل المنزلى ، وأنا أيضا كنت أعمل ، كنت أرسم ، والفلاحة كثيرة الأشغال ، فلا وقت عندها للكسل. وهكذا عرفت المرأة الفلاحة وتفهمت طبيعتها وأحوالها وصورتها فى أعمالى. كنت أذهب

فى الصباح الباكر إلى الحقول ، أرافق العاملة الزراعية وهى تقوم بجمع المحاصيل ، تستمر فى جنى القطن ، تجمعه والشمس محرقة ، وتخلع كيزان الذرة ، وتجمع العيدان فى حزم الحطب ، وتشقى فى ضرب اللوف الذى نستحم به ، وكذلك تتسلق أشجار البرتقال لقطف الثمار».

«كنت أبقى طول النهار معهن أتجول فى الحقول ، وعند غروب الشمس يعود الجميع وأنا معهن كل إلى بيتها ، وكنت أتحمل التعب والحر الشديد بسعادة كبيرة. شكرا للفلاحة العاملة فى الحقول بهمة والمتحلية دوما بالصبر الجميل ، والمتصفة فى كل الظروف بروح المرح الذى لا مثيل له ، كل هذا كان يلهب حماسى ويشجعنى على العمل والإنتاج وسرعة التعليم».

«أليس هذا أحسن طريق للبحث عن مصر الحقيقية والتعرف على كنوزها الخالدة».

(٣٢)

وتتحدث الفنانة إنجى أفلاطون أيضاً فى هذه المذكرات عن بواكير نشاطها الفكرى فى التأليف من أجل الدعوة إلى معتنقاتها وهى تحكى قصة إصدارها كتابها الأول «٨٠ مليون امرأة معنا» الذى كتبته فى ١٩٤٧ وصدر فى عام ١٩٤٨ ، وكيف كتب طه حسين مقدمة هذا الكتاب ، والحملة الشعواء التى قادتها ضده السيدة منيرة ثابت ، والدفاع الحماسى الجميل الذى تولاه عنها عالم أزهرى محترم لم تكن تعرفه ولا يعرفها وهو الأستاذ خالد محمد خالد.

ثم تحكى الفنانة إنجى أفلاطون قصة كتابها الثانى «نحن النساء المصريات» الذى كتب الأستاذ عبدالرحمن الرافعى مقدمته وصدر فى بداية ١٩٥٠ ، وكتبت الدكتورة بنت الشاطئ مقالاً فى جريدة الأهرام انتقدت فيه الكتاب على أساس فكرى وسياسى ، واتسعت المناقشة والجدل مما ساعد على رواج الكتاب وانتشاره.

ثم تروى انطباعاتها عن عملها فى جريدة المصرى ومحاولة محمود أبو الفتح باشا إبعادها عن الشيوعية بتهيئة هذه الفرصة لها ، وتخصيص الجريدة عمودا دائما لها تحت عنوان ثابت «المرأة نصف المجتمع» وهى تذكر بالتقدير الأستاذ أحمد أبو الفتح وكفاحه

المشرف فى خدمة القضية الوطنية ، والدفاع عن الديمقراطية ، ومساعدة المقاومة الشعبية المسلحة فى القناة ، ثم تروى كيف تم إنهاء عملها فى الجريدة بناء على غضب فؤاد سراج الدين باشا:

ولنقرأ بعض ما ترويه فى هذا الصدد :

«كان الأستاذ أحمد أبو الفتح رئيس التحرير ، وكنت أسلم مقالاتى له ، كان فى البداية جافا معى ، لكن بمرور الوقت وبالمناقشة المستمرة معه ، ومع اتصال العمل المشترك أيام الكفاح المسلح ضد الإنجليز فى قاعدة القنال ، كل هذا خلق بيننا ثقة وتقديرا فأصبحنا أصدقاء ، والحق أن أفكار أحمد أبو الفتح ومواقفه كانت فى ذلك الوقت كفاحا مشرفا يلتقى مع القوى اليسارية التقدمية فى خدمة القضية الوطنية والدفاع عن الديمقراطية».

«ولا يفوتنى أن أذكر أن أحمد أبو الفتح كان يبذل مجهودا كبيرا لمساعدة المقاومة الشعبية المسلحة فى القنال».

«ومن الطريف أنه بعد شهرين أو ثلاثة من العمل فى المصرى طلبت من أحمد مكافأتى ، فأخبرنى أن أخاه محمود أعطى الأوامر للخزينة بأن يكون مرتبى الشهرى اثنى عشر جنيها فقط ، وهو المرتب المقرر للصحفية تحت التمرين ، وقد اعترف لى أحمد بعد ذلك بما سبق أن خمنته أنا وزوجى ، فقد قال إن أخاه الكبير أراد استقطابى بدعوتى للكتابة فى الجريدة ، وحينما فشل فى إبعادى عن اليسار تغيرت المعاملة من ناحية الأجر طبعا».

«لم أعلق على هذا التحول أهمية ، واستمر عملى فى الجريدة بحماس لأنى صاحبة رسالة ، وقد تصديت لقضايا نسائية هامة ، مثل إضراب عاملات مصلحة التليفونات ، وإضراب الممرضات والحكيمات: إضراب ملائكة الرحمة».

وتشير إنجى أفلاطون إلى ما تعتقد أنه كان السبب الذى جعل رئيس تحرير جريدة المصرى يستغنى عن خدماتها:

«ومن أهم ما نشرته حديث الدكتور أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية حينئذ فى الحكومة الوفدية ، وقد أكد الوزير فى حديثه أن القانون لا يفرق بين الرجل والمرأة فى العمل ولا فى المعاملة ، كان الواقع غير ذلك حيث كانت المرأة تلقى معاملة سيئة لا تراعى ظروفها ، كما كانت تتلقى أجرا أقل من أجر الرجل على نفس العمل».

«أثار هذا الحديث أصحاب المصانع والمحلات وانهالت البرقيات والخطابات على

الجـريدة تحتج على حـديث الوزير وتكذب قـوله بأن الكثيريـن من أصحـاب الأعمـال لا يلتزمون بتطبـيق القانون ويهدرون حقـوق النساء العاملات ، فمـا كان منى إلا أنى نشرت هذه الاحتـجاجات فى الصفـحة التى أحررها ، وثار جـدل عنيف وهام حول قضيـة الأجر المتساوى للعمل المتساوى».

«وإثر ذلك فاجأنى أحمد أبو الفتح بإنهـاء عملى فى الجريدة ، لماذا يا أستاذ أحمد؟ لأن صفحتى أثارت غضب وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين قطب الوفد الكبير».

«وقد طلب البـاشا شخـصيا من أحـمد أبو الفتح مـنعى من الكتابة وإلا فسـيجد نفسه مضطرا لاتخاذ إجراء ضدى».

(٣٣)

وتحكى الفنانة إنجى أفـلاطون بقدر من الوعى السيـاسى والأيديولوجى انطباعـاتها عن حريق القاهرة وتشير بأصابع الاتهام إلى الملك والبوليس السياسى فتقول:

«... جاءنا حمـدى ـ تقصد زوجهـا وكيل النيابة ـ فى حالة توتر شـديد ، وقال إنه رأى بعينيه إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسى يتفـرج راضياً على سينما ريفولى وهى تحترق ، أدركنا أنه تم تنفيذ المؤامـرة ، حرق مدينة جميلة وعريقـة من أجل تحطيم المد الثورى وقمع الحركة الوطنية » .

(٣٤)

وتقدم إنجى أفـلاطون بعض ذكرياتـها عن الفتـرة التى شهـدت قيـام الثورة فى ١٩٥٢ وانطباعات زملائها الشيوعيين عن الثورة :

«... نعود إلى نبأ قـيام ثورة يوليو ، وكما قلت سمـعنا به ونحن فى سويسرا وعلمنا أن الثورة بادرت. بالإفـراج عن كل الزملاء المعتـقلين منذ حريق القاهرة ، ومنهم أعـضاء لجنة السلام المصرية ، فخـرج سعد كامل ويوسف حلمى ومحمد على عـامر وباقى الأعضاء ،

كان خبر الثورة محيراً لنا ، هذه هى المرة الأولى فى التاريخ - فيما أعلم - التى يطلق فيها على انقلاب عسكرى أنه ثورة. فقبل عام ١٩٥٢ كانت الخبرة التاريخية تقول إن أى انقلاب عسكرى هو لخدمة اليمين حيث يقمع الطبقات الشعبية ، يبدأ بإلغاء الدستور والبرلمان والأحزاب ، ويلغى الصحف ويصادر الحريات لصالح الطبقات المستغلة».

[لابد أن نتوقف هنا لنشير إلى أن ما حدث فى ٢٣ يوليو لم يأخذ فى البداية اسم الانقلاب ولا اسم الثورة ، لكنه أخذ اسم الحركة المباركة حتى هيأ بعض المثقفين المصريين لرجال الحركة إطلاق اسم الثورة عليها ، وبالتالى فإن إنجى أفلاطون تستبق الأحداث فى هذه الفقرة حين تبدأ فى توصيف ما حدث وتسميته ، ولكن مناقشتها على كل حال صائبة وموضوعية].

ونستأنف قراءة ما ترويه الفنانة إنجى أفلاطون عن انطباع زوجها وانطباعها عن تلك الفترة :

«وبالرغم من حماسنا فى البداية أنا وحمدى للثورة ، ولخلع الملك للقضاء على الفساد والاستبداد ، إلا أن شكوكنا كانت كبيرة ، وقد لعب السفير الأمريكى دورا فى تأمين خروج الملك فاروق وسفره إلى أوروبا على اليخت المحروسة معززا مكرما».

«وانتظرنا فى الخارج نترقب الموقف الذى ستتخذه الحركة الشيوعية فى مصر وبخاصة منظمة حدتو (الحركة الوطنية الديمقراطية) التى كنا أعضاء فيها ، ثم ظهر أن موقف الحركة الشيوعية عموما هو التأييد وأكثرهم تأييدا كانت حدتو».



ثم تشير إنجى أفلاطون إلى الأسباب التى بدأت تدفعها هى وأمثالها إلى التحفظ على سلوك حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والتحفظ أيضا على سلوك حدتو تجاه التعاون مع هذه الحركة :

«بعد عودتنا لمصر فوجئنا بالأحداث تتوالى وخاصة إعدام العاملين خميس والبقرى اللذين تزعما إضراب عمال مصانع كفر الدوار من أجل مطالب نقابية. زادت التحفظات والشكوك عندنا بالنسبة لطبيعة النظام الجديد ، وكذلك ازدادت شكوكنا فى بعض الأعضاء القياديين فى منظمتنا (حدتو) بسبب تأييدهم الأعمى لحركة الضباط».

«وقد انتهى بنا الحال إلى ترك حدتو ، وفى نفس الوقت كنا نقرأ جريدة الراية ، وهى النشرة السرية التى كانت تصدرها منظمة أخرى هى الحزب الشيوعى المصرى».

وتفصل إنجى أفلاطون القول فى طبيعة موقف الحزب الشيوعى المصرى وجريدة «الراية» من الثورة ، وتذكر أن هذا الموقف الواضح دفعها هى وزوجها إلى الانضمام إلى هذا الحزب بعد استقالتهما من تنظيم «حدتو»:

«كانت الراية تنتقد بعنف الإجراءات الدموية التى ترتكبها الثورة ضد العمال ، وكانت تصف النظام بأنه الانقلاب العسكرى المضلل لكسر الثورة الوطنية الديمقراطية التى كانت قريبة وعلى الأبواب ؛ اقتنعنا بما كانت تنشره الراية فانضممنا أنا وحمدى إلى الحزب الشيوعى المصرى (ح. ش. م)».

«وكان الحزب يتمتع بنظام سرى حازم لضمان الأمان لأعضائه فى مزاولة العمل السرى ، حتى أن أجهزة الأمن ظلت لعدة سنوات عاجزة عن معرفة من هو السكرتير العام لمنظمة (ح. ش. م) ، من هو الرفيق خالد ، ثم اعتقدت خطأ أنه هو إسماعيل صبرى عبدالله بينما الحقيقة أنه كان فؤاد مرسى».

«ولابد من القول إن النظام الحديدى كان يحد إلى حد كبير بل ويعطل أحيانا العمل الجماهيرى بسبب القيود المفروضة على تواجد كوادر الحزب بين الناس».

(٣٥)

ونصل مع مذكرات إنجى أفلاطون إلى ما ترويه عن بدايات متاعبها هى وزوجها حمدى أبو العلا فى عهد الثورة ، وتروى إنجى أفلاطون أنها كانت قد قضت عاماً كاملاً من السعادة والهدوء والتأمل فى الإسكندرية مع زوجها حيث انتدبه الأستاذ مصطفى مرعى للعمل بفرع الإسكندرية ، وتحكى انطباعاتها كفنانة عن حى الأنفوشى ، وعن زواج أختيها وهى فى الإسكندرية ، ثم تحكى عن ليلة القبض على زوجها فى نوفمبر ١٩٥٤ وتنتهز الفرصة لتحكى بعض الطرائف: فهى قلقة لا تدرى هل جاءوا لاعتقالها أم لاعتقال زوجها ، وتسألهم مَنْ يريدون بالضبط:

«انتهت مدة السنة التى ندب فيها حمدى للعمل بالإسكندرية ، وككل وقت جميل مضى بسرعة ، وعدنا للقاهرة ، كنا قد تركنا شقتنا بجاردن سيتى لما ذهبنا للإسكندرية حيث أقمنا تلك السنة. فى تلك الأيام كان سهلا أن تغير المسكن لكثرة الشقق المعروضة للإيجار ، وفكرنا أن نستأجر فيللا ، لكن حمدى لم يوافق».

«قال ربما يتم اعـتقاله لأن الظروف مضطربة ، فـتصبح الوحدة هما ثقـيلا علىّ أنا وأمى وحدنا فى الفيللا الواسعة ، ويكون هو فى حالة قلق علينا من جهة الأمن. وهكذا أقمنا مع أمى فى شقتنا القديمة بشارع شامبليون ، وبدأت الأحداث كأن حمدى كان يقرأ الغيب».

«ففى شهر نوفمبر ١٩٥٤ فى نفس السنة التى عدنا فيها من إسكندرية طرق زوار الفجر الباب ، وقبضوا على حمدى».

«كنت أحمل هم أمـى التى نعيش معـها من وقع المفاجـأة عليهـا ، فهذه أول تجـربة لها حيث يدخل البوليس بيتها ويقبض على واحد منا».

«أجرت القوة تفتيش البيت واستمر هذا التفتيش فترة كانت ثقيلة وطويلة طبعا ، وكنت أنا فى حالة قلق لأنى لا أعرف من المقصود منا ، أنا أم حـمدى ، وكان حمدى يعانى نفس الشعور».

«فى النهاية لم أطق صبرا ، سألتهم مَنْ يريدون بالضبط؟».

«قالوا باستغراب: الأسـتاذ محمد محمود أبو العلا طبـعاً [يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذا هو الاسم الرسمى لـزوجها ، وأن حمـدى هو اسم الشهرة] ، قـلت أعرف ذلك لكنى فقط أسـأل فربما لا تكونون تعرفـوا الاسم بالضبط .. استـراح حمدى لأنه كـان يخشى أن يكون الأمر بالعكس».

تريد إنجى أفـلاطون أن تدلنا على مـدى خـوف كل من الزوجين على الآخـر ، وإيثـار حمـدى أن يكون هو المقصـود لا زوجتـه ، وهكذا تمضى فى روايتهـا وقد عـبرت بـبساطة شديدة عن طبيعة وحقيـقة الإيثار الشديد بين هذين الزوجين الأيديولوجيين ، ثم هى تمضى فتقول:

«وكان حـمدى يحب الأدب ويحب مكسـيم جوركى كثيراً ، لهذا كـان يضع صورته فوق مكتبه ، وكثيراً ما كانت أمى تقول لى اخف هذه التهمة ، وأثناء التفتيش سأل الضابط: صورة مَنْ هذه؟ فأجاب حمدى هى صورة جدى ، وبقيت الصورة على المكتب».

(٣٦)

ثم تشيـر إنجى أفلاطون إلى التـجربة التى عـاشتـها لمدة سنتين كـزوج لأحد المعـتقلين ، يعـيش بعيـدا عنها وهمـا فى بداية زواجـهمـا ، وتضطر إلى زيارته فى سـجن القناطر كل

أسبـوع ، وهى تعترف أنهـما كانا يفـتقدان بعـضهمـا ، ولكن هذا كله يهون إلى جـوار ما سيأتى مما يتوقعانه:

«كان القـبض على حمدى سببـه الانتماء لمنظمـة الحزب الشيوعى المـصرى ، وأودعوه سجـن القناطر حيث أمـضى فيـه سنتين تحت التـحقيـق. وكان الموقف جـديدا علىّ وكـان صعبا، ولكننى كنت أحس بأن الأيام القادمة ستكون أصعب ، فالمـواجهة الحقيقية مع العهد الجديد قد بدأت».

«وشعرت أننى دخلت فى امتحان مع نفـسى ومع نوع الحياة التى اخترناها نحن الاثنان، والجميل أننى لم أشعر بالندم للحظة واحدة ، بل العكس ، فـقد جعلتنى هذه التجربة أشد حماسـا وصلابة لدرجة لم أكن أتصـورها ، كما أنها دعـمت حبى واحترامى لحـمدى بلا حدود».

«نظام الزيارات فى سـجن الرجال بالقناطر كـان زيارة كل أسبـوع من وراء الأسلاك ، وزيارة خاصة كل شهر تتم فى حـجرة المأمور ، ورأيت سجن القناطر لأول مرة ، ولم يكن يخطر على بالى أنى سأمضى فى سجن النساء المجاور عددا من السنين».

«كنت أفـتقـد حمـدى كثـيرا ، كـما كـان هو يفتـقدنى ، فكـنا نكتب خطابات جمـيلة لبعضنـا، وكان قلقه وخوفه من القـبض علىّ يشغله كثيرا ، وكان هذا يزول مع زيارتى له ، ثم يعاوده بعد انتهاء الزيارة ويلازمه حتى الزيارة القادمة».

«وفى تلك الأيام كـان القانون يسمح لـلمحبـوس احتيـاطيا بتلقى المأكـولات والكتب والصحف ، وهذا ما لم نعرفه فيما بعـد عند اعتقالنا عام ١٩٥٩ كانت الثورة قد ألغت هذه الحقوق».



على هذا النحو تحـدثنا السيدة إنجى أفلاطون حـديثاً نفسيـاً دقيقاً عن الفتـرة التى سُجن فيها زوجها فى سجن القناطر ، كما تروى لنا بعض التـفاصيل المهمة فى قصة اعتقال زوج شقيقتها الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله فتقول:

« ... حدث فـى يونية عـام ١٩٥٥ أن صدر قراران جـمهـوريان : القرار الأول يقـضى بانتداب الدكـتور مراد غـالـب وكان أستـاذاً مساعـداً بكلية طب إسكندرية ، انتـدابه مديراً

للإدارة السياسية فى مجلس الوزراء ، أما القرار الثانى فكان يقضى بانتداب الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله مديراً للإدارة الاقتصادية والمالية لرئيس الوزراء ، والقراران صادران من جمال عبدالناصر ، وكان هو أيضاً رئيس الوزراء ، كان هذا فى الصباح ، فلما حل المساء أصدرت النيابة قراراً بالقبض على إسماعيل بتهمة أنه الرفيق خالد ، سكرتير منظمة الحزب الشيوعى المصرى ، وعلى عكس ما جرى مع حمدى والزملاء الآخرين ، فقد اختفى إسماعيل ولا أحد يعلم أين هو ، وعلمنا فيما بعد أنه كان فى السجن الحربى يتعرض لتعذيب وحشى».



«فى يوم القبض عليه أخبرتنى أمى ولم تكن تعرف بالخبر ، أن أختى بولى مريضة ، ولا تستطيع مغادرة بيتها وأنها طلبتنى تليفونيا عدة مرات ، فى هذا الوقت كانت أمى متزوجة من على بك راتب عضو مجلس النواب سابقا ، تزوجته بعد أن كبرنا ولم يعد من حقوق أبى حرمانها من حضانتنا ، وكان على راتب فى باريس للعلاج من مرض فى القلب».

«فى ذلك اليوم أيضا كانت أمى قد تلقت من باريس مكالمة لكنها قطعت فلم تعرف أمى من هذه المكالمة شيئا ، اتجهت أمى بفكرها إلى زوجها الذى كان تحت العلاج وأصابها القلق على صحته ، فلما كلمت أختى فى التليفون كانت أمى تتابع كلامى (مع أختى عبر التليفون) مصغية جدا لردودى وهى متخيلة أن بولى إنما ألحت فى طلبى تليفونيا بخصوص أخبار على راتب ولا تريد أن تعرف أمنا. لم تدر أمى أن أختى تحدثنى عن زوجها إسماعيل وكيف قبضوا عليه ليلا بعد تعيينه مستشارا للرئيس عبدالناصر».

«كانت أختى بالفعل تخفى شيئا لكنه خاص بإسماعيل ، كانت مشفقة على أمى من وقع الخبر ، خصوصا أن زوجى حمدى مسجون هو الآخر».

«وكان علىّ أثناء المكالمة أن أرد بشكل لا تفهم أمى منه ما حصل ، كان الموقف مربكا بالنسبة لنا جميعا».

«ذهبت مساء إلى أختى لأسمع القصة بتفاصيلها ، وفى الصباح ورد خبر وفاة زوج أمى فى باريس ، وتعقدت الأمور ، إذ كيف سنعلل غياب إسماعيل عن مراسم الجنازة والعزاء؟».

(٣٧)

وتصل إنجى أفلاطون إلى إحدى الذروات المسرحية فى كتابها حين تروى حواراً دار بينها وبين والدتها وما يمثله من مفارقة غريبة بين جيلين يعيشان فى نفس البيت.

تقول الفنانة إنجى أفلاطون:

« ... وانطلقت الكوميديا من قلب المأساة».

«استجمعت شجاعتى وقررت أن أتكلم بصراحة».

«كانت أمى ممزقة من الحزن والقلق ، لكنها تتصنع التماسك وكانت تردد أنها سنة فظيعة ، لأن حمدى فى السجن وزوجها مات ، فقلت لها: «البقية تأتى» ارتعدت وقالت: ياساتر استر ،كل هذه المصائب ولها بقية ، إيه الحكاية .. تكلمى. قلت: لقد قبضوا على إسماعيل ، فقالت المسكينة [تقصد: أمها ، والتعبير بهذه الصفة هو أدق ما يمكن لوصف حالة هذه السيدة التى رزقت بالمصائب مرة واحدة] إسماعيل من؟»».

«لم يخطر على بالها أنه زوج بنتها ، ذلك أن إسماعيل لم يعرف أحد عنه أن له اهتمامات سياسية ، لم يكن يتحدث مطلقا فى السياسة أمام أحد ، على عكس حمدى الذى كان يجاهر برأيه فى كل مكان».

«وكانت أمى المسكينة طوال العام الذى مضى منذ القبض على حمدى حريصة على إخفاء هذا الخبر لكى لا يعرف أحد من المعارف والأصحاب به ، لأنه عيب! لكن حمدى غائب ، وتزايدت شكوك الناس حتى ظنوا أنى انفصلت عنه ، ودفعنى هذا طبعا أن أصارح».

«قلت لأمى: حمدى ليس مجرما وإنما هو صاحب رأى ويضحى لخير المجموع».

«وما كاد الناس يستوعبون القبض على زوجى حتى مات زوج أمى وحضر الناس للعزاء وتساءلوا أين إسماعيل؟ وعرفوا بخبر القبض عليه هو الآخر. كان الموقف بالنسبة لأمى خاصة فى منتهى الصعوبة ، كان مأساة من نوع المسرحيات المضحكة السوداء».

«فى المساء (أى فى أثناء العزاء) بدت أسرتنا (فى نظر) أصدقاء والدتى كما لو كانت «أسرة من الشياطين». ولن أنسى أبدا نظراتهم لى ، كانت نظرات اتهام ، تقول لى إننى سبب كل المصائب».

«فى أول زيارة لحمدى بعد هذه الأحداث وجدته يعرف خبر الوفاة لأنه قرأ النعى ، لكنه لم يعرف خبر القبض على إسماعيل ، طبعا محظور النشر ، فأخبرته بالكارثة».

«كانت سنة فظيعة حقا كما قالت أمى ، كانت أخبار إسماعيل مقلقة جدا لنا ، بعد أن عرفنا أنه فى السجن الحربى حيث يجرى تعذيبه ، وسمعة السجن الحربى كانت مشهورة فى فنون التعذيب المقتبسة من معتقلات هتلر. حاولنا كثيراً مساعدة إسماعيل ، وبعد مساعى كثيرة استطاعت بولى مقابلة زكريا محيى الدين وكان وزير الداخلية ، وقد فرحنا لأنه استجاب لرجائها واستطاع أن ينقل إسماعيل من السجن الحربى إلى سجن القناطر».



ربما نتوقف هنا لنعقب بالإشارة إلى أن السجن الحربى كان على الدوام فى نظر الشيوعيين أهون من السجون التابعة لوزارة الداخلية ، ولكن ها هى إنجى أفلاطون تشير إلى أن سمعة هذا السجن كانت معروفة.

« ... كانت قضية حمدى وإسماعيل هى قضية منظمة الحزب الشيوعى المصرى ، وتولى الدفاع فى هذه القضية محامون كبار منهم الأستاذة : مصطفى مرعى ، ووحيد رأفت ، ومحمد عبدالله. وفى المحكمة خلع إسماعيل صبرى ثيابه كاشفا آثار التعذيب فى مختلف أجزاء جسمه».

«حكمت المحكمة ببراءة المتهم الأول إسماعيل والمتهم الرابع حمدى».

«اكتملت سعادة العائلة بالإفراج عنهما فاكتمل شملنا من جديد وغمرتنا فرحة كبرى افتقدناها من زمن طويل».

(٣٨)

كما تحكى إنجى أفلاطون فى صفحات مختصرة موقفها وموقف زوجها وموقف اليسار المصرى فى حرب ١٩٥٦.

«فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حدث العدوان الثلاثى على مصر ، ثلاث دول منها دولتان عظيمتان ، تتآمر وتعتدى على دولة صغيرة ذات سيادة وتاريخ عظيم ! على أى حال لم يكن هذا بمستغرب من إسرائيل ربيبة الاستعمار ودولة الصهيونية والعنصرية التوسعية .

لأن إسرائيل كانت تسعى ليلا ونهاراً للقضاء على ثورة يوليو . وحينما ألقى عبدالناصر فى الأزهر خطابه النارى المشهور التهب الشعب كله حماساً واشتدت وحدته فأصبح يدا واحدة تريد الدفاع عن الوطن . ولأول مرة فى التاريخ قامت الحكومة بتوزيع السلاح على الشعب وكونت كتائب الفدائيين ولجان المقاومة الشعبية . وقد شاركت فيها جميع قيادات الحركة الوطنية والتقدمية والشيوعية . وقد تولى كمال رفعت ولطفى واكد قيادة عدد من الكتائب على خط القناة.

أما زوجى حمدى الذى كان ضابط احتياطى فقد تطوع فوراً فى جيش التحرير الوطنى وأصبح قائداً لمعسكر المقاومة الشعبية فى حى الجمالية ، تحت قيادة سيد زكى القائد العام للمنطقة ، أما عن نفسى فقد أسرعت للتشاور مع سيزا نبراوى التى توثقت العلاقة بيننا نتيجة العمل الدائم المشترك والتفاهم الذى كان يجمعنا بشكل كامل وعجيب .. فسيزا كانت تتمتع بحس سياسى وطنى ، بالاضافة إلى ذكائها الحاد وشجاعتها الكبيرة واستعدادها الدائم للعطاء والتضحية.

وعلى الفور بادرنا باعادة تكوين اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية ، على أساس أنها هى التنظيم القادر على تعبئة النساء وتوحيدهن وتوعيتهن للوقوف ضد الأخطار التى تهدد الثورة وتهدد الوطن ، وقد ساعدتنا الظروف هذه المرة على إعادة تكوين اللجنة ولكن بشكل موسع حيث ضمت ١٨ لجنة فرعية فى مختلف الأحياء الشعبية بالقاهرة والجيزة ، وكانت تعمل بالتعاون مع اللجان العامة للمقاومة الشعبية ومع معسكرات التدريب التى انشأتها الحكومة بالقاهرة وفى أنحاء مصر كلها وخصوصا فى خط الدفاع الأول ، فى الزقازيق ومنطقة القناة.

الجدير بالذكر أن مجموعة الرفيقات والقيادات النسائية اللاتى سبق أن عملن معنا فى المناسبات السياسية والوطنية ، وهن أنفسهن اللاتى قدن من جديد وبحماس وجدية ، العمل فى اللجان النسائية للمقاومة الشعبية ، ويمكن القول أن هذه اللجان كانت شكلا من أرقى أشكال التنظيم الجماهيرى التى عرفتها مصر فى تلك السنوات.

«تم تكوين هذه اللجنة العليا بالانتخاب ، وضمت أساساً مندوبات اللجان الفرعية فى الأحياء الشعبية بالإضافة إلى بعض الصحفيات والشخصيات النسائية العامة المتحمسات للعمل معنا فى المقاومة ، وأذكر من هذه الشخصيات چاكلين خورى وسعاد زهير وسعاد منسى وعايدة فهمى النقابية.

وتمت الموافقة بالأجماع على أن ترأس اللجنة العامة سيزا نبراوى ، وكانت اللجنة العليا تقود العمل النسائى الشعبى كما كانت جهاز التنسيق بين مختلف اللجان الشعبية فى الأحياء.

أما عن نفسى فلم يقتصر دورى على العمل فى اللجنة العامة بل قمت بتكوين لجنة نسائية فى حى الجمالية . وكما ذكرت من قبل ، كان زوجى حمدى هو قائد معسكر اللجنة العامة للمقاومة الشعبية فى حى الجمالية . وطبعا كان التعاون بينى وبين حمدى قائد المعسكر وكذلك بيننا وبين سيد زكى قائد عام منطقة الجمالية ، كان التعاون كاملاً ومثمراً للغاية.

الأمر الذى ساعد على أن تكون لجنتى من أنشط لجان القاهرة ، فقد كانت فرصتى للعمل مع بنات حى الجمالية كبيرة جداً ، وقد بدأنا بتنظيم دورات تدريبية لتعليم المبادىء الأولية للتمريض والإسعافات السريعة ، كما جرى تدريبهن على حمل السلاح واستعماله . كما أننا تمكنا من توعيتهن سياسيا واجتماعيا بالأخطار التى تهدد الوطن والثورة . وكشفنا أطماع إسرائيل وأهداف العدوان الغاشم .

لم تكن لجنتى ـ لجنة الجمالية ـ هى اللجنة الوحيدة المتميزة فى نشاطها ففى هذا المقام أذكر لجنة المقاومة النسائية فى حى الدرب الأحمر، وكانت تعمل بالتعاون مع علوى حافظ قائد المعسكر فى الحى.

وأذكر أيضا لجنة الجيزة وكانت تجمع عدداً من الزميلات منهن الزميلة ثريا إبراهيم وكانت اللجنة تنشط بالتعاون مع قائد معسكر المنطقة أبو الفضل الجيزاوى.

أما فى الأقاليم فقد برزت لجنة شبين الكوم بقيادة الرفيقة وداد مترى التى كانت تعمل فى ذلك الوقت مدرسة فى شبين الكوم».

«أثار العدوان الغادر على مصر ضمائر الشرفاء فى العالم فاشتدت حملة الاحتجاج القوى ضده ، ولم يقف الأمر عند حد الأحتجاج والإدانة ، بل اتخذت حركة الرأى العام أشكالا جديدة للتعبير عن موقفها والتضامن مع الشعب المصرى ، فبدأت حركة إعداد المتطوعين للمساعدة ، وكذلك إرسال وفود التأييد والتضامن معنا ، يضاف لذلك تضامن العالم الاشتراكى ووقوفه بجانب مصر، وكلنا يتذكر إنذار بولجانين الشهير الذى كان له

وقع الصاعقة على المعتدين كذلك قدمت البلاد الاشتراكية معونات استهلاكية متنوعة وكان من أهمها القمح ومعلبات الغذاء والصابون وخلافه.

كل هذا كان له الأثر الأكبر فى ترجيح كفة مصر وتوقف القتال تنفيذا لقرارات مجلس الأمن ثم انسحبت قوات الغزو وصفى العدوان نهائيا.

أما الاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى فكان فى طليعة المنظمات الشعبية العالمية التى وقفت مع مصر وكان من أكثرها نشاطا وفاعلية ، فقد عبأ الاتحاد كافة أعضائه من المنظمات النسائية فى مختلف بلاد العالم من أجل دحر العدوان كما قام بتكوين لجنة لتقصى الحقائق حول الفظائع التى ارتكبها المعتدون. وكانت اللجنة الدولية مكونة من أربعة سيدات برئاسة السيدة الإيطالية انجلا منيلا السكرتيرة العامة للاتحاد النسائى الدولى، وهى فى ذلك الوقت نفسه نائبة فى البرلمان الإيطالى ، أما عضوت اللجنة الأربعة فأحدهن من اللجنة الهندية والثانية من لجنة فنلندا والثالثة من لجنة رومانيا أما الرابعة فمن لبنان».

«قامت السيدة سيزا نبراوى بصفتها رئيسة اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية بتوجيه الدعوة لهذه اللجنة الدولية لزيارة مصر ، وتمت هذه الزيارة فى المدة من ٢٠ إلى ٣٠ من يناير ١٩٥٧ وتكونت منا لجنة لاستقبال ومرافقة الضيوف . وكنت أنا عضوة فى هذه اللجنة».

وسافرت اللجنة إلى بورسعيد لمعاينة آثار الحرب ، واتذكر جيداً كيف كان تأثير الزيارة عليهن لدرجة الصدمة حينما شاهدن المنطقة القريبة من ساحل البحر وتمثال دليسبس المحطم ملقى على الأرض بفعل الجماهير الغاضبة. ولا شىء إلا الحطام والدمار والموت. وقد التقى الوفد بعدد كبير من أعضاء الجمعيات النسائية والقيادات الوطنية من مختلف الاتجاهات ، وقرب نهاية زيارة الوفد نظمت اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية فى الجمالية ، وهى اللجنة التى كنت أتولى مسئوليتها ، نظمت مؤتمرا شعبيا كبيرا لتكريم أعضاء الوفد ولأظهار التضامن والوحدة والإصرار على تطهير الأرض من العدوان . نجح هذا المؤتمر نجاحا ساحقا وكنا قد بدأناه بإطلاق سرب من الحمام رمزاً للسلام والصداقة . وقد أصدر الاتحاد النسائى الدولى الديمقراطى عدداً خاصاً من مجلته «نساء العالم» تحت عنوان مقابلة مع نساء مصر ، حيث نشر تقرير لجنة تقصى الحقائق كاشفا عن الفظائع والتدمير الذى أحدثته الحرب بالنسبة للمدنيين ، كما تضمن إعلان تضامنهن الكامل مع شعب مصر الباسل نساء ورجالا . ودعوتهن نساء العالم للوقوف مع مصر».

(٣٩)

وتتضمن هذه المذكرات القيمة ما ترويه الفنانة إنجى أفلاطون من ذكرياتها عن بعض ملامح تجربة هامة فى تاريخ مصر المعاصرة، وهى الانتخابات البرلمانية ١٩٥٧، التى اشتركت فيها المرأة المصرية لأول مرة بعد صدور قانون ١٩٥٦ الذى أعطى للمرأة حقوقها السياسية الكاملة، وتروى قصة ترشيح سيزا نبراوى فى دائرة مصر القديمة، وهى تشير إلى جهود أبو بكر سيف النصر ونبيل الهلالى وفتحى رضوان وجاكلين خورى وحكمت أبوزيد فى تأييد سيزا نبراوى، كما تشير إلى تعديل الدوائر وإلى استغلال الشيوعيين واليسار لفكرة أن الدائرة وفدية:

«وقررنا أن نخوض هذه الانتخابات بترشيح المناضلة سيزا نبراوى فى حى مصر القديمة، لم نرشح سيزا فى دائرتها الأصلية (المعادى) حيث محل إقامتها، والسبب فى ذلك أن الدكتور عبدالمنعم القيسونى رشح نفسه فى دائرة المعادى، فأدركنا أن الدائرة ستكون مقفولة عليه ولا فائدة من منافسته فيها، وشجعنا على اختيار دائرة مصر القديمة لسيزا أن الدائرة قريبة من مقر الاتحاد النسائى المصرى، وكنا نعمل من خلال لجنة الشابات بالاتحاد فى هذا الحى عملا اجتماعيا ولنا ركائز فيه، كذلك فدائرة مصر القديمة كانت معروفة بأنها دائرة وفدية، وبالتالى فهى تتعاطف مع أى معارضة ولا تتعاطف مع الحكومة، وكانت البداية فى الشقة الصغيرة التى تسكنها الدكتورة حكمت أبوزيد فى شارع محمد الصغير، وذلك قبل أن نستأجر شقة كمقر انتخابى لسيزا، وقد فوجئنا بالتقسيم الجديد للدائرة، فأصبحت تضم لأول مرة مناطق لم تخطر لنا على بال، كحى الإمامين والتونسى، وهذه المناطق كانت تتطلب منا أن نتعامل مع الحانوتية والتربية فى حى الأموات، وكذلك ضمت منطقة فُم الخليج حيث عمال المدابغ».



وتتحدث إنجى أفلاطون عن بعض المصاعب التى واجهتها فى أثناء الدعاية الانتخابية:

«وحينما أتذكر هذه الأيام المليئة بالحيوية والنشاط لا يفوتنى أن أذكر مخاوفى أيضا، فقيادة السيارة فى مدينة الأموات وبين القبور الكثيبة كانت عملية صعبة ومخيفة بعض الشىء، لكن كان لا مفر منها، فكنا أنا والزميلات نستجمع شجاعتنا لنخاطر مادمنا قررنا دخول هذه المعركة المهمة».

ثم تصل صاحبة المذكرات إلى النهاية «المتوقعة» لمثل هذه المعركة فى ظل حكومة الثورة ، ومدى الخيبة والحسرة اللتين شعرت بهما:

«وفى النهاية فى يوم الانتخاب منعت الحكومة كل مندوبينا من دخول اللجان الانتخابية ، كما قبض على المحامين الذين كنا بلغناهم بعملية التزوير الواسعة فتحركوا سعيا لإثباتها وكشفها ، وهكذا نجح مرشح الحكومة».

«وبالرغم من خيبة الأمل التى أصابتنا بشكل عام وأصابت سيزا نبراوى بشكل خاص، فقد كانت هذه التجربة مفيدة وناجحة إلى أقصى حد ، لأنها علمتنا كيف نتعامل مع الجماهير ، وفى النهاية كانت معركة سياسية من نوع جديد أضافت لتجاربنا وخبراتنا أشياء كثيرة ثمينة ونافعة».



وليس هذا هو كل ما فى مذكرات إنجى أفلاطون عن تدخل الحكومة السافر فى الانتخابات البرلمانية فى ١٩٥٧ ، فهى تروى تفاصيل الموقف الذى وقفته الحكومة بجوار مرشحها الأستاذ أحمد سعيد مذيع صوت العرب الشهير ، وخيبة الأمل التى أصابت صاحبة المذكرات وزميلاتها من هذه المعركة ، كما تروى ما تعرض له الدكتور عبدالعظيم أنيس مرشح اليسار فى دائرة الوايلى من تعذيب على يد المباحث والبوليس:

«كان الدكتور عبد العظيم أنيس مرشح اليسار فى دائرة الوايلى ، وهو أحد الوجوه البارزة للحركة التقدمية فى مصر ، كما أنه صديق حميم ورفيق ممتاز ، وكان مكتسحا بشعبيته الواسعة فى دائرته ، وقبل يوم الانتخاب بأيام قليلة طلب منى أن أسهم معه فى حملته الانتخابية وذلك بإلقاء كلمة فى السرادق الكبير الذى أقامه فى ميدان الوايلى للدعاية ، وعلى الرغم من خوفى وخجلى المعهود من عملية إلقاء الخطب ، وافقت تحت إلحاح حمدى وتشجيعه ، وكان حمدى منذ خروجه من السجن شعلة من النشاط لا يهدأ».

«وحينما ذهبنا أنا وحمدى وجدنا سرادقا ضخما مكتظا بالرجال والنساء ، يسوده نظام عظيم أشرف عليه الرفاق بانضباط شديد هائل ، وكنا ندرك جيدا أن الحكومة لا تريد النجاح لعبدالعظيم أنيس ، ولكنى أعترف أننا لم نكن نتوقع أن تصل الحكومة إلى ما وصلت إليه لإفشال الاجتماع ، فبينما كان كل شىء يسير كما كان مخططا له وبحماس شديد من الجمهور ، وفى ختام الخطبة الملتهبة التى ألقاها الشاعر عبدالرحمن الخميسى ، وفى لحظة بداية إلقائى لكلمتى تساقطت الكراسى فوق رءوس جمهور الناس الجالسين ،

مقاعد ألقيت من سطح مبنى يطل على السرادق مكون من ستة أدوار ، فبدأت الناس تجرى وتصرخ مستنكرة وهالعة فانهالت عليهم قوات البوليس ضربا بالعصى الغليظة».



وتصل إنجى أفلاطون إلى قمة الإثارة أو قمة المأساة فى هذه التجربة ، وهى المأساة التى تعتقد أنها أفقدتها حياة زوجها:

«... سالت الدماء وحدثت إصابات كثيرة وقبض على كثير من الأنصار ، لكننا ـ حمدى وأنا ـ استطعنا أن نهرب من السرادق واختفينا فترة بين سلالم العمارات المجاورة ، ثم توجهنا إلى سيارتنا ويا للمفاجأة ، وجدناهم قد أفرغوا عجلات السيارة الستروين الأربع من الهواء ، حقا كم كان تفكيرنا ساذجا وكيف كانت يقظتنا الثورية مخدرة بفعل الديمقراطية المؤقتة السائدة ، فبدلا من أن نترك السيارة ونمضى فى طريقنا مسرعين ، وقفنا نستنجد فى الشارع ونحتج ضد من قاموا بهذا التخريب ، وتقدم أحد الضباط متسائلا: أأنت محمد محمود أبو العلا صاحب السيارة ؟ فأجابه حمدى بنعم ، وإذا بعشرة على الأقل من المباحث ينقضون على حمدى ضربا بوحشية ورحت أنا أصرخ صرخات هستيرية طالبة النجدة لحمدى ، وحمدى يكاد يموت من ضربهم .. وفجأة ظهر ضابط كبير فاستنجدت به صارخة إنهم يقتلون زوجى ، فاهتم الضابط بكلامى وسألنى بأدب : اسم حضرتك إيه؟ وبنفس السذاجة قلت له اسمى فرد قائلاً : عال عال .. نحن نبحث عنك ، لدينا أمر بالقبض عليك ، وألقوا بى فى سيارة البوليس ، وكانت بها سيدة هى الأخت الكبيرة للدكتور عبدالعظيم أنيس حيث قبضوا عليها هى الأخرى».

«وانطلقت السيارة إلى قسم الوايلى ، وأنا لازلت فى هيجانى أصرخ وأشتم من شدة قلقى على حمدى ، وفى القسم وجدت عددا كبيرا من الرفاق من أنصار عبدالعظيم ، مقبوضا عليهم ، والحمد لله وجدت حمدى بينهم سليما، وبقينا طول الليل ننتظر التحقيق، ومن المضحك أن التهمة التى وجهت للدكتور عبدالعظيم أنيس كانت هى الاعتداء على الناس الحاضرين فى سرادقه ، أى أنه متهم بالاعتداء على أنصاره! كما أن وكيل النيابة الذى حقق معنا اكتشف أن زوجته حضرت هى أيضا الاجتماع وشاهدت كل شيء».

«فى فجر اليوم التالى تم الإفراج عنا وحفظ التحقيق ، وأتذكر أن الدكتور فوزى منصور والأستاذ كامل زهيرى كانا ضمن المحامين الذين حضروا معنا التحقيق فى قسم البوليس».

(٤٠)

هكذا ظنت الفنانة إنجى أفلاطون أن زوجها قد نجا من كل هذا «الضرب» وهى لا تعرف ما خبأته الأقدار عنها ، ونأتى معها إلى الجزء الخاص بحديثها عن وفاة زوجها ، وهى تروى بكل الحسرة الأيام الأخيرة من حياة زوجها حين أصر إصراراً غريباً على السفر إلى الإسكندرية والنزول فى نفس الفندق الذى قضيا فيه شهر العسل ، وكأنه كان يحس بدنو أجله وتقول:

«أربع وثلاثون سنة عاشها حمدى ، حقاً حياته كانت قصيرة ، لكنها كانت مليئة بالحب والعطاء والتضحية لمبادئه ، حياته كانت ثرية إلى أقصى حد ، لكنه كان يعيشها كل يوم وكأنه اليوم الأخير له فى الدنيا ، كان دائماً على عجلة من أمره وليس أمامه الوقت الكافى ، كأن قلبه يشعر بما ينتظره من المجهول».

«ودعنا حمدى.. وبقى عندى معلقاً سؤال ملح ومقلق: كيف يموت حمدى وهو فى عنفوان شبابه؟ لم أغب عنه سوى يومين أو ثلاثة ، فكيف مات؟ وما سبب وفاته؟! هل السبب يتصل بضرب رجال المباحث الوحشى له فى ليلة السرادق الذى أقامه الدكتور عبدالعظيم أنيس للدعاية الانتخابية؟! فقد حدثت الوفاة بعد خمسة عشر يوماً فقط من تلك الليلة».

ثم تحدثنا الفنانة إنجى أفلاطون بصدق شديد عن محاولتها التغلب على مأساة الفراق فتقول:

«حاولت أن أتخطى صدمة موت حمدى العنيفة بمزيد من الانغماس فى العمل ، ففى رأيى أن العمل هو القادر وحده على مساعدة الإنسان على النسيان ، وتعويضه إلى حد ما عن الشيء الغالى والنادر الذى فقده فى غمضة عين.. فاستغرقت نفسى من جديد فى العمل الفنى ، إن الخلق الفنى هو نوع من الولادة اليومية ، فيه كل أنواع السعادة والنشوة ، كما أن فيه المعاناة والعذاب الذى يجده الإنسان فى الحب الكبير».

وتمضى الفنانة إنجى أفلاطون تحدثنا عن الفترة الممتدة مابين ١٩٥٧ (حيث وفاة زوجها) و١٩٥٩ (حيث اعتقالات الشيوعين) ، وهى الفترة التى شهدت تألق نشاطها الفنى (أولاً) والسياسى (ثانياً) ، كما شهدت نجاح جهودها فى الاحتفال بالعيد العالمى للمرأة لأول

مـرة ، والمشاركـة فى المؤتمر الرابع للاتحاد النسائـى الدولى فى فيينا والحـملة التى شاركت فيها من أجل المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد ، وقصة الرسم الذى صممته لجميلة دون أن تراها ، وقصة إنشاء الجـمعية النسائية القومـية ، وحرصها على إقامة مـعرض للوحاتها فى نهاية فبراير ١٩٥٩ لإحساسها بأنها مقدمة على الاعتقال.

(٤١)

ونصل إلى الحديث الذى تقـدمه مذكـرات الفنانة إنجى أفلاطون عن مواجـهتهـا لحملة اعتقـالات ١٩٥٩ التى كانت تتوقع بالطبع أن تشملهـا وهى تحدثنا عن اختفـائها وهروبها فتقول:

« ... قلت لنفسى سـتشملنا الحملة ولن نفلت نحن الـنساء من الاعتقال ، وبعـد تفكير طويل محاط بتـمزق وخوف شديدين اتخذت قراراً خطيـراً ، كان من أخطر القرارات التى اتخذتهـا فى حيـاتى وهو قرار الهروب والاختـفـاء والاستمـرار فى مزاولة العـمل السرى السيـاسى ، قررت عدم الاستـسلام للاعتقـال وبطش السلطة وكل ما يصاحبـه من تعذيب وإرهاب السجـون والمعتقـلات ، كنت مدركـة إدراكاً سيـاسياً عـميقـاً بأن الهدف من هذه الضربة هو تحطيم الحركة الشيـوعية والتقدمية تحطيماً شامـلاً ونهائياً ، وأنهم سيلجأون إلى أقسى الوسائل لتحقيق ذلك».

وعلى نحو موح تروى لنا الفنانة إنجى أفلاطون قصة حـضور المباحث للقبض عليها فى منزلها بينما كانت هى هاربة خارج ذلـك المنزل ، وهى تروى ما حدث فى البيت على نحو ما سمعته من أمها وأختها فتقول:

«ومـضت الأيام على هذا الحـال حتى كـان يوم ٢٧ مـارس ، ففى اللـيل ، فى السـاعـة الواحدة صباحاً رن جرس الباب ، حضرت المبـاحث العامة ، كانت أمى وأختى مستعدتين نفسـياً لاسـتقبـال رجال الضـبط..كما تسـتقـبلان الزوار العاديين ، وأول شـىء فعله زوار السـاعـة الواحدة صـباحـاً هو قطع سلك التليفـون ، ثم أخذوا فى تفـتيش البيـت ، وعندما وصلوا إلى حـجرة أمى اعتـرضت على تفيش الحـجرة بقولـها هذه حجـرتى أنا ، تبحـثون عنهـا ، فتـشوا عندها فـوق حيث المرسم والجناح الخاص بهـا فى الدور الثانى من الشـقة ، فصعدوا وأجروا تفـتيشاً دقيقاً ، وأثناء ذلك دخلت أمى حجرتهـا حيث يوجد تليفون ثان ،

نزعت أمي فيشة ذلك التليفون ووضعت العدة داخل دولاب الملابس وبذلك أنقذت هذا التليفون من القطع ، فظل صالحاً للعمل ، وساعد هذا التليفون على الاتصال بى وإخبارى بما حدث ، كما تم إبلاغ الأصدقاء لأن البوليس راقب شقتنا لمدة يومين اثنين وكانوا يستجوبون الداخل والخارج من البيت ، كما ذهبوا أيضاً إلى بلدتنا المنشية الصغرى مركز كفر شكر للبحث عنى ، فقد قالت أمى وأختى لهم عندما سألوهما عنى بأننى أحب الريف وأسافر دائماً للريف لأرسم».



وتستأنف الفنانة إنجى أفلاطون حديثها راوية كيف عرفت بمحاولة أجهزة المباحث القبض عليها:

«كان على أختى أن تبلغ الصديقة العزيزة أمينة رشيد لتقوم أمينة بإبلاغى تليفونياً بالخبر ، لكن ذلك لم يتم لأن تليفون أصدقائى الذين أقيم معهم كان قد تعطل ، وكنت فى هذا الوقت بالتحديد على موعد فى محل جروبى ، وقبل مغادرتى المنزل بدقيقة واحدة وصلت أمينة رشيد وأخذت تطرق الباب مثل المجنونة ، فتحت الباب فاندفعت تقول لى: بولى أصابها نزيف (كانت هذه العبارة ترمز حسب اتفاقنا إلى مداهمة الشرطة) ، فقلت لها أنا أمامك والحديث وجهاً لوجه ، وليس فى التليفون .. وضحكت .. فحكاية النزيف كانت كلمة السر المتفق عليه لإبلاغى بالتليفون .. كانت أمينة مضطربة ومتوترة ، ولولا حضورها لذهبت إلى الموعد فى جروبى ، ولكان قد قُبض علىَّ غالباً فى جروبى أو فى الشارع».

(٤٢)

وتورد الفنانة إنجى أفلاطون بعض التفصيلات الشيقة عما صادفته أثناء هروبها واختفائها فى بيت صديقة لها فى القاهرة ثم فى السويس لمدة خمسة وأربعين يوماً ثم فى شبرا ، حيث كانت تتخفى فى زى بنت البلد وهى تقول:

« ... شبرا هى المكان الثانى والأخير الذى عشت فيه متخفية إلى أن اعتقلت. لقد درس الحزب أثناء وجودى فى السويس كل الظروف التى تجعل إقامتى بالقاهرة آمنة. وقع

اختيارهم على مكان بحى شعبى ، فى شبرا جهة روض الفرج ، وجهزوا لى الملابس التى تساعدنى فى التنكر والاختفاء ، وذلك لتسهيل حركتى ومزاولة مهماتى السياسية».

«أجرت غرفة فى شقة مكونة من ثلاث حجرات. هذه الشقة تستأجرها وتقيم فيها أسرة من شخصين ، سيدة متقدمة فى العمر وزوجها وهو رجل عجوز. أسرة فقيرة ، قلت إنى هاربة من بيت الطاعة ، وطلبت أن أقيم معهما فى غرفة ، وأغريتهما بالإنفاق عليهما ، على أن أتكفل بجميع المصاريف».

«وفرح الزوجان بذلك كثيرا».

«وصلت إلى شبرا فى الليل بصحبة أمينة رشيد ، وتوجهت للشقة ، دخلت حجرة السيدة وزوجها فوجدتها ذات جمال خاص رغم بساطتها ، كان بالغرفة سرير عروسة «بمبة» وطبلية للأكل عليها ، وكليم يغطى الأرض غاية فى البساطة ، وقد أغرانى جمال هذه الغرفة فرسمتها ، فكانت هذه إحدى لوحاتى المهمة التى أحبها ، ثم دخلت الغرفة التى سأقيم فيها ، فإذا بالسرير ملىء بالبق وقد جلست طول الليل أقتل هذا «الأكلان» دفاعا عن نفسى ، وفى الصباح اشتريت المبيدات لمحوه من الغرفة ، كذلك اشتريت مرتبة جديدة وأشياء أخرى بسيطة لكنها لم تغير أو تبدل من كآبة هذه الشقة».

«أما عن الزى الجديد فكما قلت أنا لست فقط معروفة لدى الحكومة ، ولكنى معروفة للكثيرين نتيجة الحملة الصحفية القديمة علىّ ، هذه الحملة جعلتنى وجها معروفا فى الشارع ، لذلك كان من الضرورى تغيير مظهرى للتمويه».

«أعد لى الرفاق زى بنت البلد ، فلاحة جاءت إلى المدينة ، وكان هذا الزى غاية فى الاتقان والدقة ، لم يكن زى الفلاحة القروية ولا هو زى سيدة المدينة ، كان يجمع بين الاثنين ، عبارة عن جلابية «ماكس» ومنديل «بأوية» يقطع الجبهة ، وطرحة سوداء وشراب وحذاء سميكين ويمتازان بالمتانة ، وكنت أكحل عينى. وكانت المرة الأولى التى أضع فيها «الماكياج» على وجهى ، وبسبب هذه الملابس المنسجمة كنت أتلقى المعاكسة فى الشارع من شباب الحى ورجاله ، وكثيراً ما قالوا بنت البلد البيضاء الحلوة ، وكنت أضحك من كل قلبى على تعليقاتهم ، أما زملائى فلم يكونوا يحتملون الجلوس معى وأنا لابسة المنديل والطرحة ، وكانوا يطلبون منى العودة لطبيعتى المعروفة بكشف الرأس لأن شكلى متغير جداً ، هكذا كانوا يقولون».

(٤٣)

وبالطبع فقد كـان لابد من النهاية التى لابد منها لمثل هذه المحـاولات ، فها هى ذى تقع فى قبـضة الشرطة ، وهى تحـدثنا عن قصـة القبض عليهـا وكيف استطاعـت التخلص من التقرير الذى كـان بحوزتها ، وانطباعاتها عـن الضباط ورئيس النيابة الأستاذ أحـمد موسى الذى تحكى عن نبله وإنسانيته وتشيد به دون أن تخبرنا هل هـو نفسه المستشار أحمد موسى الذى صار بعد ذلك نائباً عاماً ووزيراً للعدل ومدعياً اشتراكياً ووكيلاً لمجلس الشعب!!

ثم تدخل بنا صـاحبـة هذه المذكرات إلى سـجن النساء بالقناطر الخـيرية ، وتحـدثنا عن ذكرياتهـا عن هذا السجن ، وتبدو هذه الـذكريات آناً ممزوجة بالمرارة ، وآناً أخـرى ممزوجة بالسخـرية! ولكنها تُعنى عناية خـاصة بأن تروى لنا كيف حـصلت على حق الرسم داخل السجن ، سواء بالمساومات المادية أو السياسيـة ، وتحكى لنا كثيرا من أسرار السجون حيث المخدرات والقـتل والقوادة والـدعارة والشذوذ.. إلـخ ، كما تحكـى قصة نقـلها إلى قـصر العينى للعلاج ، وقصـة محاكمتها ودفاع الأسـتاذ محمد عبدالله وارتبـاك سمير ناجى ممثل الادعاء ، وعودتها إلى سجن القناطر.

ومن بين الفقرات المهـمة فى حديثها ننقل للقـارئ تلك التى تتحدث فيهـا بإجمال عن معاناة اليساريين فى تلك الفترة:

«كانـت هذه الفتـرة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ تمثل حـملة شرسـة على الحركـة اليسـارية عمـوما والشيـوعية تحـديدا ، كانت مـحاولة لتحطيم الحـركة الشيـوعيـة والقضاء عليـها ، فبـالنسبـة للمـعتقلـين الرجال فقـد تعرضـوا ـ كمـا هو معـروف ـ لأبشع أنواع التعـذيب الجسـمانى والأشغـال الشاقـة ، أما بالنسبـة للنساء فكانت هذه أول مـرة يتم فيـها اعتـقال نسـاء، وقد حرصت السلطة على إخفاء خبر اعتـقالنا وكانت الأوامر حاسمة بمنع نشر أى شيء يتعلق بهـذا الموضوع فى الجـرائد ووسائل الإعلام ، وقـد اعتمـدوا على نوع آخر من التـعذيب ، إنه التـعذيب المعنوى الذى يهـدف إلى تحطيم أعـصابنا وإضـعاف مـعنوياتنا ، وذلك بعزلنا عزلا تاما عن العالم الخارجى».

«كانت هناك مـحاولة لقـتلنا قتلا بطيـئا ، فـالاعتقـال كما هو مـعروف يجعـلنا نخضع لسلطة وزارة الداخـليـة والمبـاحث العـامـة ولا نخـضع للقـوانين واللـوائح السـارية على المسجونين العاديين ، وكانت الأوامر التى صدرت لإدارة السجن كما يلى:

«عـزلنا فى عنبر منفـصل عن جـميع السـجينات الجنائـيات ، ومنعنا من الاتصـال بهن وذلك تجنبا «لبث أفكارنا المسمومة لديهن».

«إغلاق العنبر طوال ٢٤ ساعة باستثناء ساعة فى الصباح للذهاب لدورة المياه ، وقضاء الفـسحة ، وسـاعة فى المسـاء قبل غـلق العنبر للتـموين بالماء وتنظيـف الجرادل ساعـة تمام السجن».

«الزيارة ممنوعة منعا باتا».

«ممنوع الجرائد والكتب والكتابة وحيازة الأقلام وهى أشياء حيوية بالنسبة لأى مثقف».

«ممنوع مـزاولة أى عمل من الأعـمال التى تزاولهـا بقيـة السجـينات كمـحو الأمـية أو التطريز أو تدريس الموسيقى».

«وقد اسـتطعنا ممارسـة معظم هذه الممنوعـات بمرور الوقت باسـتـثناء الزيارات طبـعا.. وذلك بجهودنا الخاصة».



وتبدو الفنانة إنجى أفلاطون فيما ترويه عن فترة اعتقالها حريصة على أن تفخر بواقعيتها وذلك فى مقابل تفاؤل زميلاتها بالإفراج القريب:

«كنت مقـتنعة أن الاعتقـال سيدوم مدة طويلة ، وذلك لأن الإرهاب الخـارجى كان فى منتهى العنف ، ولأن الوضع السياسى بكل تفاصيله لا يبشر بخير».

«لقد وصلت السجن فى ١٩ يونيو ، وفى ٢٣ يوليو كانت هناك حالة خاصة ، حالة من الترقب وانتظار أى قرار بتخفيض المدد أو بالإفراج وذلـك بالنسبة للمسجونات العاديات ، ودون أن نشعر انتقلت إلينا هذه العدوى ، رغم تفكيـرنا وتحليلنا المنطقى للظروف السياسية السائدة التى تتـنافى مع هذا الإحساس ، فكنت أقـول للزميلات: هـذا جنون ، فلن نخرج حاليـا.. أمامنا فـترة طويلة ، واتهـمننى بأننى مـتشائمـة ، والحق أنه لم يكن تشاؤمـا ولكن الوضع السياسى وقتها كان لا يسمح أبدا بالإفراج .. ورغم كل هذا كان بصيص من الأمل يداعبنا بمناسبـة يوم ٢٣ يوليو.. ثم لا يلبث أن يتلاشى ويحل محله إحساس عميق بخـيبة الأمل.. وبعد ذلك خرجنا فعلاً فى ٢٦ يوليو ولكن عام ١٩٦٣».

«ثم جاء عبدالقادر فهمى سنة (١٩٦٠ ـ ١٩٦٢) تقريبا فكانت مرحلة توليه المعتقل من أسوأ المراحل التى عشناها».

(٤٤)

وتشير إنجى أفلاطون إلى شجاعة وإنسانية الدكتور محمد عبد المنعم المفتى الذى هيأ لها الإقامة فى مستشفى قصر العينى بدعوى المرض:

«وفى هذه الفترة أحسسنا بالملل وطول الوقت ، ولم يكن من الممكن أن يساعدنا أحد سوى الأطباء ، فهم الذين يستطيعون أن ينقلونا إلى المستشفيات ، وقررنا أن نذهب إلى المستشفيات طالما أن الاتصال بالخارج والزيارات أصبحت مستحيلة ، وبذلنا مساعى كثيرة، وادعيت أننى مصابة بمرض جلدى خطير ، وبالفعل نجحت عائلتى بالاتصال بطبيب بقصر العينى والاتفاق معه على بقائى للقيام بتحاليل لأن المرض خطير!! كان ذلك فى عام ١٩٦٠ ، وكان هذا الدكتور الذى وافق على بقائى فى القصر تحت مسئوليته هو عبدالمنعم المفتى ، وكان رجلا شجاعا وإنسانا بحق ، فهو لم يخف كبقية الأطباء الذين كانوا يتهربون من «بولى» أختى إذا طلبت منهم أى شىء».

وتعود إنجى أفلاطون فى صفحات تالية للحديث عن الحياة الجماعية فى السجن ، وعن إضراب النساء فى السجن ، وعن الإفراج عن بعض زميلاتها واتصالاتها بسجن الرجال فى الواحات وسجن القناطر المجاور وهى تقول:

«فى السجن لا يعرف أحد التاريخ باليوم والشهر ، فالأيام تمضى متشابهة كما تمضى الشهور كذلك ، أما تحديد ميعاد الوقائع فيتم بربطها بأحداث عامة مشهورة ، وعلى هذا الأساس يكون تعيين موعد الإضراب بأنه كان فى شهر ديسمبر ١٩٦٢ ، وكان هو أول إضراب سياسى فى تاريخ السجون النسائية المصرى».

«وقبيل بدء الإضراب تمكنتُ من الذهاب لمستشفى قصر العينى وهناك التقيت بأختى وأخبرتها بالإضراب لتعمل على توصيل الخبر للخارج حيث كانت لها اتصالات بالمنظمات الديمقراطية ، وأوصيتها أن تهتم بالاتصال بالاتحاد النسائى الديمقراطى العالمى لأن هذا الاتحاد كان فى ذلك الوقت يقود حملة دولية للمطالبة بالإفراج عنا».

«وفى اليوم السابق على الإضراب أرسل زملاؤنا فى سجن الرجال المجاور نصائحهم بأن نشرب «الشربة»كثيراً ونمتنع عن بذل أى مجهود كيما يطول الإضراب ، وفى الليلة

السابقة على بدء الإضراب أكلنا كثيراً ، وشربنا كثيراً وكنا جميعاً فى غاية الحماس وعلى أتم الاستعداد».



وتمضى الفنانة إنجى أفلاطون فى تفاصيل محاولات إدارة السجن التغلب على الإضراب إلى أن تقول :

«فى ذلك الوقت حصلت مسألة مثيرة ، أولاد الكلب عملوا عملية لكسر الإضراب ، ونادوا على ثريا شاكر زوجة فؤاد حبشى: لك ياثريا زيارة».

«انتعشنا للخبر وأسرعت ثريا للإدارة ، وجدت ابنها البالغ عمره ١٣ سنة ، رتبوا هذه الزيارة ليقنع الولد أمه بوقف الإضراب بعد أن أفهموه أن أمه فى خطر ، وكان الولد يبكى بحرقة خوفا على حياة أمه ، وهى سيدة مناضلة عظيمة ، لكنها كانت فى حالة صعبة ، فزوجها هو الآخر معتقل ، والأولاد محرومون من الأب والأم ، وكانت أحيانا تشعر بالإغماء ، الأمر الذى بعث على الشك بأن القلب يعانى ، لكن ظهر بعد ذلك أنه سليم. أصرت ثريا على مواصلة الإضراب ورفضت أن تشرب عصير الليمون الذى قدموه لها ضاغطين عليها لتشربه».

«وقد أهاجنا هذا الحادث واندفعنا للإدارة وأخذنا الولد فى أحضاننا ، كان يقول أنتن فى صحة لكن أمى تعبت ومعرضة للموت .. قلنا له : لا تصدقهم ، هدأت نفسه وانتهت الزيارة على خير».

«كنا تقدمنا للمأمور فى بداية الإضراب بمذكرة أعلناه فيها أننا نرفض جميع الزيارات طالما نحن مضربات ، لكنهم رغم ذلك رتبوا هذه الزيارة المشبوهة والحمد لله لم ينجحوا».



ومع هذا كله تعترف الفنانة إنجى أفلاطون بصعوبة الإضراب والاستمرار فيه فى أكثر من فقرة ، منها قولها:

«كنا نقول إن الاهتمام بالطعام وعملية تحضيره عامل مهم فى مرور الوقت. لقد قال الزملاء المجربون إن إحساسنا بالجوع سيكون فى البدء ، ثم بعد ذلك لن نشعر بشىء ، وظهر لنا أن هذا الكلام غير صحيح ، فطول الوقت كنا جائعات ، كنا نحلم بالأكل ونتكلم فى الأكل .. مع قليل من السياسة».

«إن الإضراب عملية ليست سهلة وتحتاج لتجميع الإرادة مع الشعور بالتحدى. بعض الزميلات كانت تطرأ عليهن حالات ضعف وإغماء ، وفى هذه الحالة كنا ننفذ وصية زملائنا أهل الخبرة بأن نبلل اللسان بالماء والملح ، وكنا نخشى نقل هذه الحالات للمستشفى لأن عددنا كان قليلا بعد الإفراج عن الزميلات الخمس ، فضلا عن العدد الذى كان يعالج بقصر العينى ، أما زميلتنا ميرى اليونانية فلم تكن مشتركة فى الإضراب لكنها كانت تقدم لنا جميعا كل المساعدات وتقوم على خدمتنا خير قيام ، وقد حاولت أمى المساعدة على طريقتها كانت مدعوة لحضور حفلة كبيرة ، وأخبرتها أختى بولى أنها تستطيع أن تتحدث مع من ترى فى الحفلة حول الإضراب وسوء المعاملة».

«وأخيرا حان الوقت لمناقشة إنهاء الإضراب ، كان شعارنا «الإضراب حتى الإفراج». وتمسكت بعض الزميلات بهذا الشعار ، لكننى استطعت بصعوبة إقناعهن بوقف الإضراب حرصا على حياتنا ، وخوفا من أن يحدث ضعف أو تأثير يؤدى للخروج من الإضراب ونخسر كل شىء ، وقد ساعدنا أن الزملاء فى سجن الرجال كانوا يلحون علينا فى فك الإضراب ، وكان إضرابنا النسائى الأول فى تاريخ السجون استمر سبعة عشر يوما بالتمام».

«بعدها أعلنا انتهاء الإضراب وطلبنا تحرير محضر».

(٤٥)

وعلى صعيد آخر تروى إنجى أفلاطون قصة الزيارة التى تمكنت والدتها من الحصول على إذن بها حيث التقت الأم مع ابنتها إنجى فى حضور أحد الضباط ، ونحن نرى الأم وقد ألجأتها المواقف إلى المشاركة فى التدبيرات السياسية التلقائية وتقول:

«فى هذه الزيارة كان لابد أن يتشعب الحديث وأن يمتد إلى الحالة فى البلد .. لكن الضابط جالس يرصد كلامنا.. هنا قامت أمى بدور تغطية حديثى مع أختى ، شغلت الضابط بحديث متصل ، توزع بذلك اهتمامه بين حديث ماما وحديثى مع أختى ، وبذلك

تمكنت من معرفـة أشياء وأخبار تهمني ، وفتـحت لفة الطعام ، تفاح وفرخة مـحمرة ، سال لعابى ، لـكنى قلت سآخـذه معى للسجـن ، قال الضابط : لازم تأكـليه أمامى هنـا ، كيف أتناول الغداء فى الساعة العاشرة صباحاً؟ وطبعاً أنا جائعة لكنى حملت هم زميلاتى ، لكن حـضرة الـضابط أصـر على رأيه ، وقـالت أخـتى لازم المحـافظة على الحـياة والبـعـد عن الاستفـزاز لأن الحالة سيئة والجـو بشع والمقاومة مستـحيلة ، وفى معتـقل أبى زعبل يجرى التعذيب يومياً والضرب مستمر والحرمان شديد».



وفى صفحات عديدة ومواضع متـفرقة من هذه المذكرات تحرص الفنانة إنجى أفلاطون على أن تثرى معلومـاتنا ومعرفتنا بما أدركـته من الخبرة والتجربـة فى السجن ، وهى تحدثنا عن تفصيـلات التفتيش والتأديب فى السـجن!! وعن عنبر المدد الطويلة ، كما تحـدثنا أكثر من مرة عن العلاقات الشاذة فى السجن ، وفترات الترويح والطرب فى السجون:

«وفى سجن النساء حجرة مـخصصة لتعليم الموسيقى ، تتولى مهمـة التعليم مسجونات متطوعات ، وكانت الحجرة أمام عنبرنا نحن المعـتقلات السياسيات ، لكن لم تكن لنا بهذه الحجرة صلة لأنها مخصصة فقط للمسجونات».

«وكنا نسمعهن يرددن أغانى صلاح جاهين وعـبد الحليم حافظ مثل «دقت ساعة العمل الثـورى» و«قلنا هانبنى السـد» وغـيرهـا من الأغانى الوطـنية. لكن هذه الأغـانى كـانت بالنسبة لى كابوسا ثقيلا لأنها تتعارض مع ظروفنا وأوضاعنا فى المعتقل».

«وكانت لنـا زميلة مسـجونة وليـست معـتقلة ، هى ماجـدة ، سيـدة يهودية من مـواليد إسكندرية وتحـمل الجنسية الإيطالـية. كانت مناضلة فى الحـركة الشـيوعيـة المصرية ، كـما كانت موسيقية موهوبة ، وقد تطوعـت لتعليم المسجونات العزف على الكمان».

«ورغم إخلاصها وصـلابتها فى النضال ، فإن الحظ السىء لازمها فى حيـاتها الخاصة ، كان مـعروفا أنهـا زوجة الزمـيل كمال عـبد الحليم ، وقـد حكم عليها فى قـضيـة شيوعـية بالسـجن مدة ثلاث سنوات ، وتم ترحـيلها بعـد انقضـاء المـدة إلى إيطاليا. لكنهـا عـادت لمصر واستأنفت كفـاحها السياسى.. حتى تم ضبطها فى قضـية وحكم عليها بالسجن لمدة سـبع سنوات ، وقد أهملهـا زوجهـا وانقطعت عـلاقتـه بها تمامـا ، كان تأثيـر ذلك عليهـا شديدا».

«كانت ماجدة تعيش فى السجن فى غرفة (شيك أوى) مع اثنتين ، هما مارى بابندوبلو ومارسيل لين».

««مارى يونانية الجنسية ومناضلة فى الحركة الشيوعية المصرية ، وكان محكوما عليها بالسجن وتم ترحيلها بعد قضاء العقوبة إلى بلدها اليونان حيث تعيش الآن».

«أما مارسيل لين فكانت صهيونية كبيرة ، حكم عليها بالسجن فى قضية صهيونية شهيرة ومعروفة بمؤامرة لافون. وقد تم إعدام ثلاثة من المتهمين فى هذه القضية».

«كن يعشن حياة جماعية مشتركة ، وهى حياة تقوم على المشاركة فى كل شىء دون اعتبار للملكية الخاصة».

«وقد اعترضنا نحن على هذه الحياة المشتركة بشدة ، فلا يجوز أن تعيش ماجدة ومارى المناضلتين الشيوعيتين فى حياة مشتركة مع الصهيونية الكبيرة مارسيل لين ، لم نقبل ما قيل لنا من أن مارسيل اعترفت بالخطأ ونقدت نفسها نقدا ذاتيا. كانت مارسيل تعمل لحساب الصهيونية ، لذلك لم نختلط بها واقتصرت علاقتنا على الناحية الإنسانية بعيدا عن السياسة».

«وكنا نرسل لماجدة ومارى من طعامنا وأشيائنا النافعة».

«لكننا لم نشرك مارسيل أبدا فى أى شىء».

«وقد تم الإفراج عن مارسيل بعد النكسة عام ١٩٦٧ وقبل أن تكمل مدة العقوبة ، وكان هذا الإفراج مقابل الإفراج عن مائة أسير مصرى».

«وقد تزوجت فى بلدها إسرائيل من ضابط كبير وحضر فرحها موشى ديان».

لا تشير إنجى أفلاطون إلى المصدر الذى عرفت منه هذه المعلومة الأخيرة.



ولابد أيضا أن نشير إلى بعض ما ترويه الفنانة إنجى أفلاطون فى هذه المذكرات عن علاقتها بكل من شقيقتها وزوجها:

«كانت أختى بولى قد عادت منذ فترة من باريس. وتم زواجها من إسماعيل صبرى عبدالله عام ١٩٥١ بعدما عاد من بعثته فى فرنسا حاملا شهادة الدكتوراه بامتياز فى العلوم الاقتصادية. وعين مدرسا فى كلية الحقوق بجامعة إسكندرية. أقامت أختى بولى مع

زوجها فى إسكندرية ، فكنا طبعا نتقابل كثيرا وتوثقت علاقتنا العائلية ، وكذلك علاقتنا الفكرية والرفاقية. فقبل إسكندرية كنت أعرف إسماعيل من لقاءات سريعة وعابرة فى باريس ، وبالاختلاط به بعد زواجه من أختى الحبيبة اكتشفت فيه الشخصية القوية الجذابة مع ثقافة واسعة وشاملة ، وذكاء سياسى فائق وإخلاص لمبادئه ومعتقداته إخلاصا كاملا».

«وفى إسكندرية التقيت أيضا بأختى زهرة. هى أختى من أبى ، لم نكن قد التقينا بها من قبل لأننا كنا نعيش مع أمنا وهى تعيش مع أمها. وتقاليد عائلتها تختلف عن تقاليدنا. كانت زهرة أصغر منى باثنى عشر عاما ، وحين كبرت أرادت أن تتعرف علينا وأسعدنا هذا جدا ، واختلطنا الاختلاط العائلى ، ولما واجهتها مسألة الزواج قررت أن تتبع طريقتنا فتتزوج بمن تحبه ولا ترضخ للطريقة التقليدية ، وقد تزوجت مهندسا شابا نابها كان يعمل فى بلدية إسكندرية وأنجبت منه حسين ، وإنجى. كانت لدى أختى زهرة ميول فنية واضحة وتتلمذت على الفنان الكبير سيف وانلى واشتركت بلوحاتها فى عدة معارض جماعية فى الإسكندرية وفى القاهرة ، لكنها لم تستطع التفرغ للإبداع الفنى لكثرة مسئولياتها العائلية. وكانت مصيبتنا كبيرة أن خسرناها ، كانت حياتها قصيرة ، ففى عام ١٩٧٧ توفيت فى حادث سيارة مروع قضى على الأسرة الصغيرة ، عليها وعلى زوجها ومعهما ابنتهما إنجى، أما ولدهما حسين فقد كتب له القدر السلامة ليكون خلفا لخير سلف».

(٤٦)

وفى نهاية الكتاب يكتب الأستاذ سعيد خيال فى الهامش: «تم القبض على إنجى فى يونيو ١٩٥٩ ، وتم الإفراج عنها يوم ٢٦ يوليو ١٩٦٣ مع زميلاتها المعتقلات ، وهكذا أنهت إنجى مذكراتها ، فقد كان تصميمها منذ البداية أن المذكرات حديث عن الذات والمجتمع ، بالكفاح ، وبالعمل ، وبانتهاء ما هو عام ، ينتهى هذا الحديث.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

5

حملة تفتيش أوراق ذاتية للدكتورة لطيفة الزيات

دار الخيّال

(١)

يصعب على المرء أن يصل إلى مغزى عنوان هذه المذكرات إلا حينما يصل إلى صفحاتها الأخيرة حين يجد المؤلفة تروى القصة التى كانت تتكرر معها فى السجن ساعة التفتيش على الأوراق الشخصية فإذا ما وصل القارئ إلى النقطة التى يفهم عندها سر التسمية فإنه يستنشق الهواء ليأخذ نفساً عميقاً لأنه فهم أخيراً المعنى الذى بحث عنه.

ولكن القارئ يعود إلى ما فكر فيه من قبل ، حين كان قد وصل إلى منتصف الكتاب وظن ، وبعض الظن يؤدى إلى بعض الصواب أن المؤلفة تفتش فى أوراقها الشخصية عن بعض ما تقدمه للقارئ .. ويعود القارئ إلى هذا الظن ، فيظن أنه قد يجد مكاناً أيضاً فى دنيا الحقيقة .

ثم يغفو القارئ ويستيقظ فإذا به يحدث نفسه أن أستاذة الأدب استخدمت قدراتها وخبراتها الأكاديمية فيما قرأت ونقدت ودرست وحللت من قبل ، فإذا هى قادرة على أن تفتش فى أوراقها الشخصية على معان كبيرة جديرة بأن تصوغ فكرة كاملة عن اتجاه معين ، ولهذا فإن المؤلفة ركزت هذا التفتيش بل قامت من أجله بحملة على أوراقها الشخصية لتكتشف لنا من خلال هذه الأوراق سيرة حياة تقدمها لنا على نحو جذاب وطريف.

بعد هذه المقدمة أحب أن أعترف أن هذا «القارئ» هو كاتب هذه السطور الذى ظل طوال شهر كامل متردداً فى اتخاذ قراره بشأن الزاوية التى يجدر به أن يصور من خلالها

هذا الكتاب وهو يعيش الأمل أن تكون لقطته أو لقطاته معبرة بقدر ما هى فنية أيضاً ، ومع هذا فإنه لايزال يضطرب بين الدلالات الثلاث التى عبرت عنها الفقرات الثلاث التى بدأ بها هذا الفصل ، وإن كان بالطبع ميالاً تماماً إلى الدلالة التى تنبئ عنها الفقرة الثالثة ، فهو مؤمن تماماً بأن الدكتورة لطيفة الزيات أرادت أن تحكى قصة حياتها على نحو ما يحكى الناس قصة حياتهم بعد ما حكتها على نحو ما يرويها الروائيون فى عملين أدبيين من قبل ، ومع هذا فإن الدكتورة لطيفة الزيات كانت تضع عيناً على الحياة التى عاشتها ، وعيناً أخرى على الحياة التى ظنت أنها كانت تحياها ، وإذا هى تجاهد جهاداً شديداً لتبحث عن الذات ، ولولا أن أنور السادات سبق إلى تسمية سيرة حياته بالبحث عن الذات لاتخذت الدكتورة لطيفة من هذا الاسم عنواناً لهذا الكتاب ، فليس فى مكتبتنا العربية كلها كتاب يصدق عليه هذا العنوان بمثل ما يصدق على هذا الكتاب ، ومن العجيب أن مؤلفة هذا الكتاب لاتزال تبحث عن ذاتها حتى بما كتبته فى هذا الكتاب وظنت أنه نهاية البحث أو نهاية المطاف .. ولو كانت الدكتورة لطيفة الزيات قد وجدت ما تبحث عنه لما كان لنا حظ فى أن نجد هذا المؤلف الممتع الذى لا يتولد إلا من القلق ، قلق البحث وقلق التعبير عن الضالة المنشودة حين يلجأ البحث العقلى بعد يأسه إلى القلم وهو يحاول أن يجدها ـ الذات ـ فإذا بالقلم وسيلة من أكثر الوسائل فعالية ، وإذا به أيضاً يمثل غاية من غايات التعبير عن الأمان بالوصول إلى الحقيقة الجزئية فى رحلة البحث عن الحقيقة الكبرى.

(٢)

يطالع القارئ هذا الكتاب فإذا به فى صفحاته الأولى يحس أنه يفتقد « التركيز » ، فإذا ما وصل إلى صفحاته الأخيرة أحس أنه فى حاجة إلى « التخفيف » ، كذلك فإن القارئ يستمتع مع المؤلفة باللمسات الإنسانية فى الفصول الأولى ، ولكن استمتاعه هذا لا يقاس أبداً باستمتاعه وهو يلهث فى الفقرات الأولى والأخيرة من الفصل الأخير.

ها هى الدكتورة لطيفة الزيات تكاد تجزم بأنها وصلت إلى الحقيقة وهى تحدثنا قرب نهاية الكتاب حين توهمنا بذكاء وخبرة أستاذة الأدب أنها «تعترف» بينما هى «تعبر عن رأى ذاتى» وواضح وصريح فتقول:

«ولم أعرف إذ ذاك ماهية وأهمية ماقلت ، ولكنى أعرف الآن. كانت رؤيتى للحقيقة قد عانت أثناء زيجتى [تقصد الزيجة الثانية] متغيرات تكاد تمسح عنى الفتاة والمرأة التى كنتها قبل هذه الزيجة. وكنت وأنا أكتب الباب المفتوح أبعث حية ، دون أن أعى أنى قتلت ، الفتاة الغارقة حتى الأذنين فى العمل الجماهيرى بين الطلبة ، والمرأة الغارقة حتى الأذنين فى العمل السرى بعد تخرجها سنة ١٩٤٦ ، هذا العمل الذى أودى بها وبزوجها الأول إلى السجن ، وكنت أعلن على الملأ ، دون أن أعى وعياً كاملاً ، تفضيلى للطريق الذى اختطته هى ، الطريق الذى اخترته أنا يوم أقبلت على زيجتى الثانية ١٩٥٢. والإنسان فى هذه الرواية لا يجد نفسه حقاً ، ولا يستعيدها متكاملة ، إلا إذا فقدها بداية فى كلٍ أكبر من فرديته الضيقة. والباب المفتوح الذى يتيح الرضا الحق عن الذات هو باب الانتماء إلى المجموع ، إلى الكل ، فعلاً وقولاً وحياة».

«ولم يكن بعث امرأة سجن الحضرة فى وجدانى بعثاً فى الواقع ، ولا كان من المتصور أن يكون البعث بهذه السهولة بعد أن عانت الشخصية من المتغيرات ما عانت ، كان بعثاً بالتمنى على صفحات كتاب ، توهمت أنى لو أكملته لاستطعت أن أنهى زيجتى الثانية ، ولكنت من جديد. وكان هذا هو سرى الذى حثنى حتى اكتملت الرواية ، وفى لحظات ، وخاصة قرابة النهاية ، يئست من اكتمالها ، واكتملت دون أن تعاودنى القدرة على وضع القرار موضع التنفيذ. وقال صديق يسارى عقب صدور الرواية:

«كل من قرأ الباب المفتوح دهش لأنك لم تتغيرى».

«ووجمت. لم يكن خطر ببالى أنى تغيرت ، ولا أنى توقفت عن الإيمان بما آمنت به طوال حياتى ، ولا أنى غيرت انتماءاتى. وكنت أعرف أن الرجل الذى أحببت وتزوجت مختلف عنى ، وكنت على مدى سنين معه قد ضعفت وسلمت بالكثير ، وإن لم أسلم قط بعقلى ، ولا بهذه النواة الصلبة التى تشكل جوهر وجودى ، والتى تمسكت بها ، على غير وعى ، تمسكى بوجودى. ولكنى أعرف الآن أنى مارست طوال هذه الفترة خداعاً للذات لكى تستمر الزيجة. صحيح أنى لم أسلم فى النواة الصلبة التى شكلت إمكانية الخلاص ، ولكن الصحيح أيضاً أن هوة فصلت فى السنين الأخيرة من زيجتى بين الرؤية والواقع المعاش ، بين الرغبة فى الفعل ، والقدرة على الفعل ، بين ما آمنت به عقلياً ، وبين ما عشته فعلياً ، وأن هذه الهوة أسلمتنى إلى الشلل فى ظل شعور حاد ومتزايد بأنى أقف فى المدار الخطأ ، ولا أملك لوقفتى تبديلاً».

(٣)

هكذا نجد أنفسنا أمام قدرة أدبية مقتدرة على تصوير واقع نفسى صعب لا على نحو ما وقع بالفعل ، ولكن على نحو ما تريده المؤلفة فى ظل عقيدتها ، فإذا بقدرتها الأدبية العالية تمكنها من تصوير الأمر كما لو كان صراعاً قد تحقق تماماً على نحو ما صورته بدقة !!

وفيما بعد ثلاث صفحات من الفقرة التى استشهدنا بها فى فقرتنا السابقة نجد صاحبة هذه المذكرات تقود خطواتنا إلى طبقات أعمق فى حياة صاحبة السيرة أو صاحبة الحياة أو صاحبة الأوراق ، فإذا بنا معها وهى تقود حملة التفتيش على هذه الأوراق التى تعترف فيها (ص ١٤٣) وتقول:

«فى مراهقتها عرفت الفتاة فورة الجنس ، وبحكم تربيتها وجديتها صادرتها ، وفى ظل شعور حاد بالذنب دفعت فى أعماقها الأنثى حتى غابت عن وعيها ، أو كادت ، لا يتبدى منها إلا هذا الخجل الذى تستشعره من هذا الجسد الممتلئ ، الغنى بالاستدارات ، وفى صعوبة كانت الفتاة تقطع الطريق من الجانب المخصص للقراءة إلى الجانب المخصص لأرفف الكتب فى حجرة الاطلاع فى مكتبة جامعة فؤاد الأول ، يخيل إليها وهى تعود بمرجع من المراجع أن كل عيون من فى القاعة مركزة عليها ، وتفضل الهروب من القاعة إذا ما اتضح لها أنها لم تلتقط المرجع المطلوب ، وتطلّب الأمر معاودة الرحلة فى ظل العيون المتربصة».



«ويصعب على الإنسان تصديق التطور الذى حدث لهذه الفتاة بعد سنتين من بداية دراستها الجامعية ، والحركة الوطنية تتصاعد فى مد ثورى فى الجامعة ، وهى تتقدم تلقى الخطب الرنانة على سلالم إدارة الجامعة ، وعلى عتبة كلية الحقوق ، وعلى منبر قاعة الاحتفالات ، وعند نصب الشهيد عبد الحكيم الجراحى ، وهى تعقد الاجتماعات وتقود المظاهرات وتتصدى للرفض الذى يشكله طلبة الإخوان المسلمين. لم يعد جسدها يربكها، لم تعد تشعر أن لها جسداً. نسيت [هذا] ، والناس تعيد صياغتها ، تمدها بقوة لم تكن لها أبداً ، وبثقة لا حدود لها ، ترفعها على الأكف كالراية ، تُنصّبها مفكرة وزعيمة.

(٤)

وهكذا استطاعت الـدكتورة لطيـفة الزيات طيلة هذه المذكرات أن تقنعـنا كيف تخطت رحاب الجنس إلى الرحاب الإنسانية الأكثر رحـابة وشمولاً ، وهى تعترف فى موضع آخر بهذا المعنى فتقول فى وضوح شديد :

« ... ومن منطلـق الإنسـان لا الأنثى ، تعـاملت الفـتـاة فى النـطاق العـام ، وهذا شىء صحى ، وفى النطاق الخاص ، وهـذا شىء أوجبته مقـتضيات العمل السـياسى ، والصورة التى رسمهـا لها الناس وتبنتها. (عندمـا تفكر فى الأمر الآن يخيل إليهـا أن الناس حَوّلوها من إنسان إلى صورة حـرصت هى على الاندراج فى إطارها ، إلى أسطورة حاولت هى أن تعيشها. وأن تحطيم هذه الأسطورة كان أمراً محتماً ، لكى تستطيع أن تعيش بعد أن انتقلت إلى النقيض بمـجمل ملكاتها كـإنسان وأنثى. وأرجو ألا يكـون هذا تبريراً وخداعـاً جديداً للذات)».

نحن نراها كمـا لاحظ القارئ تضع الأقـواس وكلاماً بين الأقـواس بينما المفـترض أن الأوراق الشخصية تخلو من مثل هذه التعـقيبات الأكاديمية ، ولكن ماذا فى وسع المؤلفة أن تفعل فى حياة حفلت طيلة عمرها بهذا الصراع الفكرى الممتد.

وهى تحدثنا فى مـواقع كثيـرة من هذا الكتاب عن هذا الصراع بين صـورتين حقيقـيتين لصاحـبة التجربة ، بل إن فـى وسعك أن تقول إن الكتاب كلـه يحدثنا عن هذا ، بل إن فى وسـعك أيضـاً أن تقـول إن الكـتـاب كله لا يحـدثنا إلا عن هذا ، ولكنـك لا تسـتطيع أن تتجاهل أن هذا الصراع يحتد فى بعض الصفحات بينما يسكن فى صفحات أخرى.

(٥)

وها هى ذى الدكتـورة لطيفة الزيات فى إحـدى لحظات الصراع المستكن تتـحدث عن انطباعـاتها هى نفسـها عن هذا الامتـزاج الذى استمـر فترة طويـلة من الزمن تحاول هى أن تنفيها فلا تستطيع ـ كما سنرى ـ فإذا هى تستبقيها.. ها هى ذى تتحدث فتقول:

«كانت المرأة فى بدايات زيجتها الثانيـة الأنثى وقد بعثت كالمارد من خمود ، تمسح على

ما انقضى وكأن لم يكن ، وتعب من الحاضر وتزدهر. كان زوجها يسألها ولا يكف يعيد السؤال:

- لماذا أحبك كل هذا الحب؟

ويستنكر إجابتها حين تقول :

- لأنى طيبة.

«ولم تكن تستفز زوجها ، ولم تكن تمزح ولا كانت متواضعة ، كانت شديدة الاعتداد بذاتها كإنسانة ، تعرف كل فضائلها وتدرجها جميعاً فى خانة الطيبة التى اعتبرتها حتى ذلك الحين منبعاً لكل فضائلها. وكانت صورتها عن الذات التى تعايشت معها حتى هذا الحين وارتضتها ، صورة البنت الطيبة شديدة الجدية ، الذكية واللماحة ، العذبة والصارمة معاً ، القادرة على كسب ود الناس واحترامهم».

«وبتطور العلاقة الزوجية ، اكتشفت انفسها صورة غير الصورة ، صورة مناقضة أحياناً للصورة التى ألفتها ، صورة الأنثى المحبوبة والمرغوبة من منظور عاشق يجيد التعبير عن أحاسيسه ، وراغب فى الاستحواذ يسرف في التعبير عن غيرته . وكان لدى زوجها الكثير ليقوله ، ومما يجيد قوله ، وهى تستمع إليه ، مبهورة ، عن استواء خدها ، ونبرة صوتها وإيقاعه ، عن نظرة عينيها... إلخ. وهى كمن يكتشف فى ذاته كنزاً ، كان موجوداً وغير موجود ، معلوماً وغير معلوم ، وينكفئ فى انبهار يحتضن فى لهفة واعتداد ما اكتشف. وفى البداية استبعدت الصورة الجديدة ضاحكة وغير مصدقة ، غير أن الاستبعاد لم يلبث أن تحول إلى استعباد وهى تقع أسيرة لصورتها الجديدة».

(٦)

وعلى هذا النحو نجد الدكتورة لطيفة الزيات تضطر نفسها إلى الاعتذار لنفسها ولقارئها عن تجربة زواجها الثانى ، مع أنها ليست فى حاجة إلى هذا الاعتذار ، ولكنها كما قلنا من قبل تجيد تصوير نفسها وهى تعترف بما تعتقد ، ولعلها فاقت كل الأدباء والكتاب والأساتذة فى هذه القدرة الفذة على تقديم الاعتقاد على أنه محض اعتراف ، واقرأ معى هذه الفقرة التى تقول فيها:

«أعرف الآن أن الحب الكبير لم يكن وحده محركى إلى زيجتى الثانية ، الحب الكبير برّر كل شيء ، قنَّع الرغبة فى التوأم ، فى الرجوع إلى البيت القديم وإلى أحضان الأب خوفاً ورعباً ، فى الارتداد على ما كان ، فى محوه من ذاكرة الآخرين».

«أتوقف الآن لاهثة الأنفاس ، وأنا أدرك أن الإقرار بهذه الحقيقة اقتضانى عمراً غيبته خلاله عامدة ومتعمدة ، خائفة ومرعوبة ، محملة بالشعور بالذنب والإثم دون معرفة الجريرة التى يصدر عنها الشعور؛ وأن تغييب هذا الإقرار هو الذى جعلنى ردحاً من الزمن، هشة كقطعة من البورسلين ، قابلة للجرح من هبات النسيم ، خائفة من الجرح دائماً وأبداً، واقعة دائماً وأبداً ، وأياً كانت الأوضاع والظروف ، فى منطقة الخطأ ، ومستعدة للاعتذار عن خطئى وما من خطأ ارتكبت. وأن تغييب هذا الإقرار هو الذى حملنى بالتالى الشعور بالهزيمة الدائمة ، بألا قدرة لى على الفعل ، بأن فعلى إن بدأ لن ينتهى إلى شيء ، وبلانى بالشلل حين أصبت بالشلل ، وبالخوف من معاودة الشلل وأنا أبرأ من الشلل. أعرف الآن».

ربما كان من الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن هذا الزوج الثانى للدكتورة لطيفة الزيات كان هو أستاذ الأدب الإنجليزى الكبير الدكتور رشاد رشدى.

(٧)

وهكذا يجد القارئ نفسه وهو يطالع هذا الكتاب يستمتع بالسيرة الذاتية حين كتبتها أستاذة الأدب فأجادت الاستفادة بخبراتها الأكاديمية إلى أبعد حد ممكن ، فهى تتنازل عن الأسلوب والحبكة تنازلاً مقصوداً لأنها تنتبه إلى معطيات أخرى تجيد استخدامها ، وتعترف أيضاً وهى تستخدمها ، ومن العجيب أنها تعترف ، ولكن اعترافها هذا لا يمثل ما هو مدعاة للتعجب فحسب ، ولكنه يدعو إلى الإعجاب ، فقد استطاعت الدكتورة لطيفة الزيات فى ثلاثة مواضع من هذه السيرة الذاتية أن توظف خبراتها الأكاديمية فيما ترويه ثم أن تعترف لنا بهذا التوظيف ، لهدف آخر هو أن تؤكد هذا التوظيف وتثبته وتكرسه إلى ما لا نهاية.

فأما الموضع الأول فيأتى فى صفحة (١٠) حيث تحدثنا عن الجهد النفسى المطلوب لإيقاف عامل التصديق حين تحكى عن طفولتها وما كانت ترويه لها جدتها ، من حكايات فتقول:

«فى طفولتى حكت لى جدتى نوعين من الحكايات ، حكايات عن الجن والعفاريت والشاطر حسن ، وحكايات عن صبى أبى وشبابه فى البيت القديم. اقتضانى النوعان من الحكايات نفس الجهد النفسى المطلوب من متلقى القص الروائى والذى يسميه الناقد الانجليزى كولريدج بإيقاف عامل عدم التصديق».

«وبمجرد أن تنحسر عنى نظرة جدتى وسحر الحكاية ، يغلب علىّ عامل عدم التصديق. ويصعب علىّ التوفيق بين الحياة التى تسبغها جدتى على البيت القديم والحياة التى أعرفها، ويستحيل علىّ التوفيق بين أبى الذى يُملى على كل من بالبيت الهدوء بهدوئه المطبق ، وبين الشيطان الوسيم المحب للحياة والمتطلع للمستقبل فى شوق يسابق به الأيام الذى يطلع علىّ من حكايات جدتى ، وأميل إلى الاعتقاد أن الأمور تختلط على جدتى ، وأن الصبى المتوهج والشاب الملىء بالحيوية الذى تحكى عنه قد يكون الشاطر حسن ذاته أو أى شاطر من الشطار غير أبى. والشاطر المفروض أنه أبى ، يعتلى الدولاب يضع فوق رأسه علبة الطربوش المسدسة الأضلاع مصراً على أنه نابليون ، وهو يهبط السلم لا كغيره من عباد الله على الدرجات بل متزحلقاً على الدرابزين الخشبى مطلقاً صيحة هيلاهوب منزرعاً فى بئر السلم انزراع المرساة فى الميناء».



وأما الموضع الثانى فيأتى فى الصفحة الثامنة عشرة حين تحدثنا صاحبة المذكرات عما كان المسرحى «بريخت» يطلبه من الممثلين من الحيدة وهم على خشبة المسرح وذلك حين تروى فتقول:

«كانت جدتى تحكى حكاياتها عن البيت القديم وهو فى أوجه وهو فى انهياره ، عن زوجها وهو يعمل وهو يسامر فى المندرة ، عن بنتها وهى تلبس طرحة الزفاف وهى تُطوى فى الكفن يوم أطلقت وليدتها الأولى صرختها الأولى ، عن مراكب جدى وهى تقلع خافقة الشراع وهى تتحطم على كثبان الرمال فى الميناء وعن عودة جدى وأبى وعمى مكلومين بعد أن أنقذوا آخر ما يمكن إنقاذه من المركب الذى تفتت إلى قطع فى الميناء ، بنفس الحيدة التى يطلبها المسرحى الألمانى بريخت من ممثليه على خشبة المسرح. كان بريخت يقول لزوجته ولممثلته الأولى ، التى أرخى عليها الستار يوماً لأنها انفعلت: لا تنفعلى ولا تتمثلى نفسك البطلة ، تصوّرى أنك تجلسين وصديقة تتسامران ، وأنك تعاودين التقاط السيجارة التى نحيتها جانباً بعد أن حكيت للصديقة حكاية حدثت لامرأة

أخرى ، لا لك أنت. ولم تكن جدتى فى حاجة إلى أية إرشادات مسرحية ، فلم تكن تمارس أى نوع من الانفعال. كانت تعاود التقاط القميص الذى ترتقه ، قميص جدى أو أبى أو أخى ، بعد أن تحكى حكاية تبدو وكأنها لم تحدث لها هى بل لامرأة أخرى».

«كانت جدتى تحكى فى حيدة مطلقة وفى عينيها تلك النظرة التى لم أدرك معناها إلا حين أطلت علىّ بعد فترة من الزمن من عينى تمثال لامرأة فى متحف التاريخ الطبيعى فى لندن ، نفس النظرة التى أطلت علىّ من عينى أبى يوم فاجأته على غرة فى غرفته خالعاً القناع ، والتى أطلت علىّ بعد ذلك بسنين ، ونحن نلتف حول سرير أبى ، فتية خضراً وأطفالاً ، نُقرّب المرآة من فمه لنتبين إن كان يتنفس ، والمرآة لا تتعكر لأن الميت لا يتنفس».

أما الموضع الثالث فيأتى فى صفحة ٣٩ حين تروى قصة بكائها ذات مرة فتحدثنا عن أنها كانت ومازالت تستنكر أن تبكى أمام أحد إلا فى المسرح والسينما حين يكون بكاؤها نوعاً من الاستجابة الفنية!!

(٨)

وهى تتحدث عن البيت القديم الذى نشأت فيه فى دمياط ، ويأتى حديثها هذا كما تذكر عندما تسجل سيرتها الذاتية عام ١٩٧٣ أثناء احتضار أخيها عبد الفتاح وهى حريصة على أن تؤرخ لنفسها من خلال المكان وإن بدا أنها تؤرخ للمكان من خلال علاقتها به وتقول:

«امتد التغيير إلى المنطقة التى ولدت فيها فى دمياط ، تلك المدينة التى ترقد فى حضن النيل والبحر الأبيض المتوسط ، وامتلأت المنطقة بالمبانى الصغيرة المتلاصقة والقميئة بحيث يتعذر علىّ الآن تحديد الموقع الذى قام عليه بيتنا الكبير والقديم. ولقد كان جامع الشيخ على السقا علامة مميزة لهذا البيت القديم ولم يعد ، فقد هُدم المسجد وبنى من جديد على مساحة ربما جارت على جانب من بيتنا القديم».

«ومازالت صورة بيتنا القديم محفورة فى ذاكرتى ، ورائحة قدمه العطنة تملأ كيانى رغم انقضاء فترة طويلة على إزالته. ولا غرابة فى ذلك ، فقد ولدت فيه فى ٨ أغسطس ١٩٢٣ ، وقضيت فيه السنوات الست الأولى من عمرى ، وعدت إليه كل صيف من مدينة أو أخرى حيث تنقل أبى بحكم وظيفته فى مجالس البلديات من دمياط إلى المنصورة إلى أسيوط إلى

أن مات وأنا فى الثانية عشرة من عمرى. وقد قضيت فى البيت القديم كل عطلة دراسية صيفية ونحن نقيم فى القاهرة بعد موت أبى إلى أن تخرجت من كلية الآداب عام ١٩٤٦. وعدت إلى البيت القديم مرات ومرات بعد أن تخرجت ، ومن المؤكد أنه كان موجوداً لم تتم إزالته بعد سنة ٤٩ فى أواخر الأربعينيات ، فقد خرجت من سجن الحضرة فى الإسكندرية إلى البيت القديم بحكم مع إيقاف التنفيذ».

(٩)

ولا أستطيع أن أمنع نفسى من انتقاد صاحبة المذكرات فى الصورة التى تصورها للبيوت الصغيرة فتجعل الجامع بعظمته وجلاله وقدسيته يتحول فى تصويرها إلى شىء يبدو كنغمة نشاز ، وهى بلاشك صورة غير موفقة كما أنه تعبير غير موفق ، وليس بوسعى إلا أن أستغفر الله لى ولها:

«ومنذ أن تغير وجه المنطقة وتلاصقت فيها البيوت القميئة يتيه بينها الجامع الضخم كنغمة نشاز ، وأنا لا أكف عن التساؤل أيها بيتنا القديم؟ وهل يدرك المترددون على المسجد والحرفيون وصغار الموظفين الذين يواجهون كل شهر أحكاماً بإخلاء مساكنهم ، أن أحذيتهم المهترئة تدق بئراً من الأسمنت تشق بطن الأرض بعمق عشرة أمتار وتمتد مترين طولاً وعرضاً؟».

وهى تتحدث عن الثروة التى ورثها جدها عن أبيه كأنها توحى لنا بأصولها البرجوازية حيث تقول:

«ورث جدى عن أبيه البيت القديم ، وعدة سفن شراعية كبيرة تعبر البحر الأبيض المتوسط إلى موانئ الشام ، وكان من المفروض أن يوفر هذا الإرث لجدى حياة الأغنياء لو سارت الأمور على ما اعتادت أن تسير عليه ، ولو لم تتآزر على أسرتى العوامل الطبيعية وتدهمها بلا رحمة عجلة التغيير».

«ولم يكن جدى الوريث الوحيد ، بل أحد وأصغر الورثة. وحين بلغ السن القانونية ، كان رغم ما بُدد من ثروته رجلاً غنياً. لم يكن يُعبئ الذهب فى الزكائب كما كان يفعل أبوه (على حد رواية جدتى والعهدة على الراوى) ، ولكن سفنه الشراعية السبع كانت تقلع محملة بالبضائع من ميناء دمياط وتعاود الرسو فيه بصعوبة أكبر كل مرة ، والرمال تتكاثر فى الميناء الضحل تهدد بالإطاحة بالسفن سفينة بعد سفينة».

(١٠)

وتبدو الدكتورة لطيفة الزيات وكأنها مهتمة بدرجة كبيرة بمعمار البيت الذى عاشت فيه طفولتها ، وتطور هذا المعمار ، لا من حيث هو معمار ولكن من حيث الوظيفة التى يؤديها ويعبر عنها ، وهى تفرد لهذا الموضوع صفحات متعددة ننقل منها للقارئ هذه الفقرات :

«كان معمار البيت الذى «وعيت عليه» غير معمار البيت الذى وعى عليه جدى ، إذ عجز جدى عن بناء بيت مستقل لكل من أبنائه كما فعل أبوه ، واضطر أن يضيف إلى المبانى القديمة مبانى جديدة بلا تخطيط كلما ترملت قريبة من أقاربه أو كبر ابن من أبنائه وتزوج. ولم تكن هذه الإضافة بالإضافة السهلة فى بيت لم يعد لإضافة ، بيت تاجر خصص ثلث مساحته للسكن وبقية المساحة للضيوف وخدمة مطالب الضيف. ومن ثم جاء المعمار الذى وعيت عليه جامعاً للأضداد ، موحياً بالضخامة والضياع والانعزال فى نفس اللحظة التى يوحى فيها بالازدحام إلى حد الاختناق».

«وابتدأ جدى يضيف طولياً إلى المساحة المخصصة للسكن فى البيت القديم ، وانتهت هذه الإضافة بدور ثالث يتكون من ثلاث شقق ضيقة وقميئة وتنخفض بعدة سلالم بعضها عن البعض ، وتختفى الواحدة عن الأخرى تماماً بممرات ملتوية ومتعرجة».

«واقتضت هذه الإضافة سد الطريق إلى السطح ، فلم يعد السلم الحجرى يؤدى كما كان يؤدى فى صبا أبى إلى السطح ، وأصبح المنفذ الوحيد إلى السطح نافذة من نوافذ الشقق الثلاث ذات قاعدة حجرية تستخدم للجلوس. ولم يكن جدى يعرف بالطبع أن الأمر سينتهى به إلى سكن هذه الشقة التى أوجدها لأرملة فقيرة من أقاربه».

«ولما استحال الامتداد طولياً ، اقتضى الأمر الامتداد عرضياً ، وأوجد جدى دوراً سكنياً فوق المندرة التى تقع فى أقصى يسار المساحة المخصصة للبيت. وكان الواقع يقتضى إيجاد سلم حجرى جديد فى الحوش أو فى الحديقة يربط بين الدور الجديد الذى خصص لزواج عمى والمندرة ، واستخدام الاثنين للسكن بعد أن انقضى أو كاد الغرض الذى وجدت من أجله المندرة ، ولكن الواقع شىء وتسليم أهلى بالواقع شىء آخر».

وتصل صاحبة المذكرات إلى محور الارتكاز فى حديثها عن البيت ، وهو ذلك الممر السماوى الذى أوجده جدها من أجل توصيل الأجزاء الجديدة من البيت بالأجزاء القديمة فتقول:

«وللإبقاء على ما كان ، حقق جدى معجزة معمارية ربما حال قبحها دون إدراجها كمعجزة الدنيا الثامنة ، إذ ربط الدور الجديد فى أقصى اليسار بالسلم الحجرى المخصص للأسرة فى أقصى اليمين بردهة طويلة معلقة فى الهواء بلا عواميد ، تمتد ما امتد الحوش والحديقة. ولكى لا يتحول هذا الكوبرى المعلق إلى نفق مظلم ، بنى جدى نصف حائطه المطل على الحديقة من زجاج ملون يعكس آلافا من ظلال تتغاير صورها وأشكالها وفقاً لتغير حركة الريح وتفاوت درجات النور والظلمة ، وتتابع الحالة النفسية لمن يعبر الردهة».

«وفى الليل أطلت علىّ من زجاج هذه الردهة الأشباح».

«لم يكتب لى الاستفادة من المنفذ الجديد إلى السطح الذى أوجده ، فقد وعيت لأجد الثعبان يلبد فى السلم الخشبى المجاور لمسكن عمى والمؤدى إلى السطح ، ولعله لا يزال يلبد فى بيت من هذه البيوت القميئة التى كانت بيتنا».



وتنتهز الدكتورة لطيفة الفرصة للحديث عن جوانب فولكلورية فى نشأتها لأنها تؤمن فيما يبدو أن كتابة السيرة الذاتية لا تكتمل بدون مثل هذا الحديث ، وهى عندما تروى قصة الثعبان تبدو متحاملة على أهلها بدون مناسبة فتقول:

«وحكت لى جدتى فيما حكت من حواديت أن عدة محاولات بُذلت فى الماضى للتخلص من الثعبان ، وإن لم تنجح أى من هذه المحاولات. ففى كل مرة يأتى الرفاعى ، ويبسمل ويحوقل ويخرج الثعبان من الشق ، ويلقى به فى الجراب وتزغرد دادة حليمة ، آخر سلسلة الجوارى الحبشيات فى أسرتنا. وفى كل مرة يطل الثعبان فى اليوم الثانى من الشق».

«ولا أعتقد أن أهلى قد بذلوا أية محاولة جادة للتخلص من الثعبان ، وعلى كل ، فقد ولدت والثعبان ينفرد دون أدنى إزعاج بالسلم الخشبى المؤدى إلى السطح. وكان الدرس الأول الذى وعيته فى طفولتى أن الخطر يكمن فى السلم وفى السطح ، وأنى فى أمان طالما لم أحاول صعود السلم واعتلاء السطح ، فالثعبان لا يخرج من دائرة السلم ولا يزعج إلا من يزعجه ويطؤه».

«وكان الأمر فى طفولتى أمراً مثيراً ، فقد تحتم علىّ خوفاً من الثعبان أن أتسلل إلى السطح كل مرة من نافذة جدى ، ولَم تكن عملية التسلل هذه بعملية سهلة ، فجدتى

لا تكف تتحرك كالـديدبان وجدى لا يكاد يفارق المقعد الحجرى الذى يـتعين علىّ اعتلاؤه للقفز من حافة النافذة إلى السطح ، وتطلب هذا بالطبع أن أناور وأحاور لأتسلل أخيراً إلى السطح الذى أحببته فى طفولتى أكثر مما أحببت الحديقة».

(١١)

هنا تبـدأ لطيفـة الزيات فى رواية الدور الذى لعبه ذلك السطح فى طفـولتهـا المبكرة ، وهى تجيـد التعبـير عن نفسـها مادامـت ترتبط بالطفولة حتى وإن حـاولت التكبر عليـها.. ولكنهـا فى النهاية تنـتهى من ذكـرياتها مـتحسرة على الـفرص التى ضـاعت منها بسـبب العوامل القاهرة!! وهى تقول:

«فى السطح أنطلق أضحك وأغنى دون أن تحاصـرنى أصداء ضحكى وغنائى وحوائط البيت العتـيق تردد صداها ، ودون أن يسمع ضحكى وغنائى أحد فى البيت فـيزجرنى. فى السطح أقفز وأنط الحـبل ، وقفزاتى تعلو الواحدة بعـد الأخرى حتى تكاد رأسى أن تطاول السماء ، ولا أحد يرانى أو ينهـانى. فى السطح لا يرتد إلىّ صوتى ، يحمله الريح ويطوف به المدينة وأنا ألمح جزءاً أكـبر وأكبر ، وقفـزاتى تتعالى وأنا أنط الحبل ، وحين تبـلغ قفزاتى أعلى مستوياتها ، وألمح أخيراً النيل ، أجد نفسى أتغنى بغنوة طفولتى المفضلة:

يامـصر مـا تخـافـيش ده كله كلام تهـويش

إحنا بنـات الكشـافـة وأبـونا سـعـد باشـــا

وأمنـا صـــفـــصف هانم

«وأتعرف على دمياط ، ومن خـلال دمياط على مصر ، أراها وألمسها وأسـمع نبضاتها ، وأشمهـا وأتذوقها ، وهى تتجسـد لى فى كل ما أحببت وكل من أحبـبت ، وكل ما أتحرق شـوقاً وأسـتعـجل الزمن لأرى وأحب. ولا تعـد مصـر هذا الشىء المجرد الذى لا أدركـه بحواسى ، كليلة القـدر التى انتظرتها سنة بعد سنة فى السطح ولـم تطلع عـلىّ ، وكملاكى الخيـر والشر اللذين ضـقت طفلة بوجودهمـا على كتفـى ، يسجلان حسـناتى وسيـئاتى ، وتشككت فى هذا الوجود بمجرد أن أخبرتنى أمى أن أياً من الملاكين لا يدخل دورات المياه. وتساءلت كـثيراً كـيف يتأتى أن تكتمـل سجلات الجـزاء والعقاب ، والإنسـان يستطيع أن يرتكب ما شاء من سيئات فى دورات الميـاه ، وكان هذا قبل أن أكبر ، وأتوهم أنى أسقطت الملاكين تماماً من الحساب».

(١٢)

وبعد أكثر من عشر صفحات تعود صاحبة هذه المذكرات لتتحدث عن التطور الوظيفى فى بيت العائلة على نحـو ما حدثتنا من قبل عن التطور المعـمارى فيه ، وهى تبـدو حريصة على كل هذا الحديث عن الماديات وكأنها تريد أن تقول إن هناك موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن المشـاعر والأحاسيس ، وأنه ينبغى على صـاحب التجربة الذاتية أو صاحبـتها أن تنتبه إلى هذه المادة المتاحة من عقار ومسكن ، فـهى كفيلة بأن تكون موضوعات للحديث ، وهى كفـيلة أيضاً بأن تكون مرآة تصور عـليها صاحـبة التجربة مـا تريد أن تصوره من آراء وأفكار تعلى من قدرها وتنحاز لها على حساب مشاعرها الحقيقية فتقول:

«ولما كان جدى الأكبر لم يُوجد البيت ليكون مأوى ، بل لم يوجده أصلاً حتـى ليكـون مسكناً ، بل أوجده أساساً ليكون مضيفة ومصدراً للتلقى والعطاء ، فقد وعيت لأجد البيت القـديم قد اسـتنفد أغـراض وجوده تماماً ، فمـا رأيت باب الحديقـة الرئيسى يفـتـح ، ولا ضيوفاً فى المندرة ، ولا عجيناً فى حجرة العجين ، ولا ناراً فى الموقد الحجرى الكبير».

«خذ مثلاً هذه البئر الضخمة التى تشق بطن الأرض ، وجدت لتكون مورداً للمياه النقية لأهل البيت والجـيرة ، وعندما دبت ماء الحكومـة إلى مواسير البـيت وعجز أصحـاب البئر مادياً ومعنوياً عن العطاء ، جف الماء من البئـر ، وانتفى الغرض من وجوده ، ومع ذلك بقى عالماً سفلياً قائماً بذاته تحت عالم بيتنا القديم ، عالم لا يدرى بوجوده سوى أصحاب البيت القديم».

«وعندما كبرت ، كـان الجيران من العمال والحرفيين والموظفين يشـترون الماء من الحنفية العمـوميـة للبلدية أو من السقـا ، وكل من استـقى من بيتنا قـد اختـفى ، ومشـروعات أبى وآخرها مـشروع استخـدام البئر لغرض تجـارى جديد قد توقـفت ، وإن لم يتوقف هو عن النزول إلى البئر بانتظام غريب».

«يحكى أخى عبد الفتاح ، الذى يكبرنى بتسع سنوات ، أن زملاءه فى المدرسة الابتدائية أكلوا فى بيتنا بطيخاً فى غير مـوسم البطيخ ، إذ نجح أبى فى حفظ البطيخ سليماً على مدار العام فى البئر ، ولكننى شخصياً لم أتمتع برفاهة استضافة زميلاتى فى البيت ، ولم أذق أبداً البطيـخ فى غير موسم البطيخ ، ونزلت البئر مـرات فى صحبة أبى وأنا صغيرة ، ودونه وأنا كبيرة ، ولم أجد فيه شيئاً على الإطلاق ، أو بالأحرى وجدت فيه «كمال اللاشىء».

(١٣)

قد نكون قد أسرفنا فى تفتيش هذه الأوراق الشخصية ولكنها فى الحقيقة أوراق ثرية تغرى بمثل هذا البحث الأدبى الدقيق الذى قد يكون فى وسعه أيضاً أن يجازف بالقول إن هذه السيرة تبدو وكأنها كتبت كاعتذار يقدم لجمهور معين عن الزيجة الثانية ، وفى وسعنا أن نحصر مواضع كثيرة فى هذه السيرة تتأمل فيها مؤلفتها زيجتها الثانية مع قرار مسبق اتخذته تجاهها ، ولكننا لا نحب لمثل هذا العمل الأدبى أن ينحصر حين يُنقد فى هذا الإطار الضيق ، حتى وإن جاء الحكم عليه بهذا مستندا إلى الدليل الداخلى فيه نفسه ، ولكننا مع هذا لا نستطيع أن نمضى من دون أن ندعو القارئ إلى أن يتأمل هذه الفقرة التى تأتى فى سياق حديثها عن البيوت التى سكنتها فإذا بها تعبر من حيث لا تدرى عن حيرتها الشديدة حيث تقول:

«ولم يكن انتقالى اختيارياً أيضاً وأنا أتنقل من مسكن إلى مسكن آخر مع زوجى الثانى ، ولعلى أضعت القدرة على الاختيار ، بل القدرة على الحركة والفعل فى فترة طويلة من فترات زيجتى الثانية التى بدأت عام ١٩٥٢ ودامت ثلاث عشرة سنة. وقد انخفض إيقاع الانتقال من منزل إلى منزل الذى بدأ سريعاً ، ثم توقف فى فترة قصيرة نسبياً. ولم يكن العامل الاقتصادى ولا مطاردة البوليس المحرك لهذا الانتقال. كان زوجى الثانى يقول مبرراً للانتقال من مسكن إلى آخر: أريد لك الأفضل والأحسن يا حبيبتى. وبكت حبيبته وهما يغادران المسكن الأول بعد فترة لا تزيد على السنوات الثلاث وهى تدرك ألا أفضل ينتظرها. وحين غادرت بيته أخيراً فى يونية ١٩٦٥ ، عائدة إلى بيت أسرتها مثبتة أن الأرض كروية ، أو بالأحرى أن مجرى حياتها هى هو الكروى ، كانت قد تعلمت أنه استقر حين وجد المنزل الأكثر إبهاراً للآخرين ، والأكثر ملاءمة لنشاطاته المتعددة الخاصة منها والعامة».



«وفى كل مسكن من هذه المساكن ، حتى السجن من بينها ، وحتى تلك التى تعيّن علىّ أن أغيرها كل ليلة ، خرجت بالكثير ، وتركت الكثير من هذه الإنسانة الدائبة التغيّر التى كانت والتى تكون. ولكن الغريب أنى حين أفكر فى البيت بمعنى البيت ، تندرج كل هذه المساكن فى ذهنى كمجرد منازل ، وتتبقى حقيقة ألا بيت لى ، وحقيقة أنه لم يكن لى فى

حياتي سوى بيتين ، البيت القديم والبيت الذى شمعه رجال البوليس فى صحراء سيدى بشر فى مارس ١٩٤٩».

ذلك أن الدكتورة لطيفة الزيات تدرك ، وهى تكتب هذه المذكرات ، أن بيت سيدى بشر كان أولى بكل هذا الحديث الذى بذلت جهدها فيه فيما نسميه نفى النفى بينما كان الإثبات سهلاً ، وها هى نفسها تعترف فتقول:

«وقد حسبت فى الفترة من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٩ أنى حسمت الصراع الدائر داخلى لصالح واقع من صنعى واختيارى ، وكنت واهمة. وحسبت فى فترة زيجتى الثانية من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ ، أنى انتهيت والصراع ينحسم رغماً عنى لصالح البيت القديم ، وكنت أيضاً واهمة ، فمازال بيتى المطل على البحر فى سيدى بشر حيّاً فى حياتى».

(١٤)

ولهذه الأسباب فإنه يبدو لى وللقراء أنه كان فى وسع الدكتورة لطيفة الزيات أن تكتب قصة حياتها الحقيقية إذا ما روت قصة حياتها فى بيت سيدى بشر ، ولكن يبدو أنها شغلت بأن تقدم الاعتذار عن الفترة فيما بين ٥٢ إلى ٦٥ ، ولكنها فى وسط هذا الانشغال استطاعت أن تطفو ببعض أوراقها إلى السطح ، بينما هى تفتش فى الأوراق عما يدين صاحبة الحياة ، سواء كان هذا الذى يدينها موجوداً على هيئة اعترافات أو على هيئة قص مباشر!! من هذه الأوراق التى طفت هذه الفقرة التى تقول فيها:

« ... المرأة فى مقتبل العمر تمرح فى صحراء سيدى بشر (التى لم تعد بصحراء) ، تقذف بمقدمة حذائها الطوب فى الهواء ، وتستنهض شعوب الشرق للكفاح (يوم ألقى القبض عليها) ، تتغنى بعودة الربيع فى المحكمة (يوم صدر الحكم بسجن زوجها الأول لسبع سنوات) موجات صوتها تتجاوز القاعة إلى خارج القاعة ، والبلادة تنداح للحظة ، والذعر ينطوى حلقات فى عيون ميتة ترقبها ، يختنق فى انقباضات أفواه بلهاء مفتوحة ، وصوت المرأة فى مقتبل العمر يرتفع يتغنى لطلعة صبح حر نحب فيه ونُحب من جديد (حسبت أن آخر رباط انفصم بينها وبين البيت القديم وسقطت فى منتصف الطريق) ولم تدرك يوم وقعت فى الحب وتزوجت زيجتها الثانية أنها عادت إلى أحضان الأب وإلى البيت القديم».

ومع هذا فيبدو لى أن هناك فى أعماق هذه السيدة إعجابا شديدا بالمنصورة وبيت المنصورة الذى كانت تملكه والدة الأستاذ محمد التابعى وجدة الشاعر الهمشرى ، وفى وسع القارئ أن يقرأ حقيقة مشاعرها تجاه هذا الشاعر العظيم على مدى الصفحات ٤٧ - ٥٣ ثم ٥٦ وما بعدها.

(١٥)

ونعود لنكرر ما سبق أن ذكرناه من أن فى هذا الكتاب بحثا عميقا ومستمرا ودائبا عن الذات ، ولكنه مصوغ بطريقة تبدو وكأنها بحث عن الذات فى الآخرين ، وهو نوع أشق من البحث عن الذات فى الذات نفسها ، ولكن يبدو لى أن المؤلفة تجيده بل هى تدفع عمرها ثمناً له ، ولم لا وهى التى تصور نفسها وقد تقلبت ما بين يسارية واضحة فى شبابها ، ثم عدلت عنها طيلة زواجها الثانى ، ثم عادت مرة أخرى إلى يساريتها المبكرة ، لعل أصدق فقرة تعبر عن هذا المعنى هى هذه الفقرة التى تقول فيها:

«وكان الحب الكبير بالنسبة لى يتساوى والرغبة فى التوحد مع مطلق من المطلقات ، كان يساوى الرغبة المحرقة فى الضياع فى الآخر ، فى التواجد من خلال الآخر ، فى فقد الأنا وهويّة الأنا والتحرر من جسد الأنا والتوحد مع الآخر ، فى السعى إلى ما هو مطلق أبدى فى عالم يقوم على النسبية وينطوى على صورات التغيّر الدائب ، وفى الغضب الطفولى الجنونى حين لا يتحقق المستحيل ، وفى السعى الجنونى إلى تحقيقه. وكان سعيى إلى إملاء الديمومة على علاقات إنسانية سمتها التغير ، سعياً مجنوناً إلى إملاء ما هو مطلق على عالم يتسم بالنسبية».

«أدرك الآن أنى سعيت العمر لما هو مطلق ، وأن المطلق قرين الموت ، فلا ديمومة ولا ثبات فى حياة شيمتها التغير الدائب. أدرك الآن أن حبى كان ضياعاً فى الآخر ، وأن جريمتى لا تغتفر لأنى فعلت ، فما من جريمة أفدح من جريمة وأد الذات ، ويداى ملوثتان بدمى».

«وقد توصلت إلى التوحد مع المطلق فى مرحلتين مختلفتين من عمرى ، وفى مكانين يختلفان عن بعضهما اختلاف النهار والليل ، الجمال والقبح. توصلت إلى التوحد فى

ميدان سان ماركس بفينيسيا لحظة غروب وأنا أتوحد مع الجمال ، وفى ظلمة بئر بيتنا القديم وأنا أتوحد مع الموت».

(١٦)

ولهذا فليس صعباً على القارئ أن يطالع فى هذه المذكرات صفحات عديدة تبلغ العشرة تروى بها المؤلفة فى شىء من الارتياح والمباشرة والتفلسف الواضح قصة طلاقها فتقول ضمن ما تقول:

«ها أنا أبرأ ، على وشك أن أبرأ ، وأنا أرتجف خوفاً من أن ترتد كينونتى الوليدة إلى الرحم. وتساءلت أكان هو مشروع عمرى الذى انقضى أم السعادة الفردية هى المشروع ، كانت السعادة الفردية هى مشروعى الذى حفيت لتحقيقه وجننت عندما لم يتحقق؛ أنا صانعة المطلقات وأسيرة صنعى ، وكيف يتأتى لى الفصل بين مطلق السعادة ومطلق التعاسة؟! سنوات وأنا أدور فى المدار الخطأ ، لا أملك القدرة على فعل أتجاوز به المدار الخطأ ، سنوات (كانت) تُسلمنى فيها إلى الشلل (تلك) الهوة الرهيبة بين ما أعتقد وما أعيش ، بين الرؤية والواقع المعاش ، بين الحلم والحقيقة ، سنوات وأنا أبرأ بالكاد ، أخاف أن ترتد كينونتى الوليدة إلى الرحم».

وهى لا تورد هذا التأمل إلا بعد أن تكون قد بدأت حديثها عن هذه التجربة التى تبدو وكأنها تعتز بها بهذه الفقرة:

«فى يوم من أيام يونية ١٩٦٥ ، وأخى والمأذون يجلسان فى الغرفة المجاورة ، قال زوجى فى محاولة أخيرة لإثنائى عن إتمام إجراءات الطلاق ، وهو يستدير يواجهنى على مقعد متحرك:

«ولكنى صنعتك».

«وانطوى من عمرى عمر قدره ثلاثة عشر عاماً بوهم التوحد مع المحبوب لفترة ، وبمسعاى المجنون لاستعادة التوحد الموهوم لفترة ، وبإصابتى بالشلل المعنوى والعجز عن الفعل فى الفترة الأخيرة. ولم أشأ أن أصعد النغمة حتى لا تفشل مهمتى ، وتساءلت وأنا أرقبه: أى مرحلة من مراحل عمرى المنقضى صنع؟ أكل المراحل أم لم يصنع هو شيئاً؟

انقضى الزمن الذى كنت أعلق فيه على مشجبه سعاداتى وتعاساتى ، انقضى يوم برئت من الشلل. اقتضانى البرء ، فيما اقتضى ، أن أحل زوجى من دمى ، وأن أقر وأعترف أنى المسئولة أولاً وأخيراً عن حلمى المستحيل ، وجنونى المستحيل ، وموتى المستحيل ، وتحملت مسئوليتى كاملة وبرئت من الشلل».

(١٧)

ومع هذا فإنى أظن أنه لا ينبغى لنا أن نمضى دون أن نتأمل ما تكتبه صاحبة هذه المذكرات وهى تعقد المقارنات الذكية بين صورتها أمام الناس وبين حقيقتها فى داخلها يوم طلاقها وهى تستغل كل إمكاناتها الفكرية والأدبية فى تصوير واقع يصعب على الكثيرين أن يظنوها عاشته بالفعل ، ومع هذا فإن الصدق فيما ترويه عن مراحل هذه التجربة ـ تجربة الطلاق ـ يتوافق مع ما استقبلته من حياتها بعد وقوع الطلاق حتى وإن لم يتوافق مع حياتها قبل الطلاق فتقول:

« ... كنت يومها أبدو للعين الخارجية امرأة ناجحة بكل المقاييس المتعارف عليها ، وربما أكثر من مجرد ناجحة بفضل عملى وإنجازى ، وكنت فى ذات الوقت امرأة مخرّبة من الداخل إلى ما لا مدى ، وإن لم يدرك سواى بعداً واحداً من أبعاد هذا الخراب الداخلى. كان سرى الذى غيبته على الناس تماماً ، وغيبته عن إدراكى ذاته لفترة من الزمن ، وعشت أجتر مرارته لفترة دون أن أملك القدرة على تغييره ، وتساءلت: أى من المرأتين صنع ، وما صنع شيئاً ، أنا الذى صنعت نجاحاتى وتعاساتى ، وما صنع هو شيئاً. فى الفترة الأولى ، فترة التوحد الموهوم (كم طالت؟ سنتين ، ثلاث؟) لم أنجز شيئاً ، ولا أردت أن أنجز شيئاً ، لم يكن وارداً أن أنجز شيئاً وفى تحققه هو كمال تحققى. فى ظل مثل هذه السعادة الموهومة لا نكتب ، لا نفرغ إلى عمل كبير يقتضى أن نخلص له بكليتنا ، نعيش اللحظة بدلاً من أن نكتبها. وحين اهتزت الأرض تحت قدمى بعض الشىء لا كله ، شعرت بالحاجة الماسة لأن أكتب ، وما كدت أنتهى من إعداد رسالة الدكتوراة ١٩٥٧ ، حتى فرغت بكليتى لرواية «الباب المفتوح» التى صدرت ١٩٦٠ . وحين اهتزت الأرض تحت قدمى كل الاهتزاز لم أنجز فى مجال الكتابة شيئاً ، أقصى ما يمكن أن ينجزه الإنسان فى هذه الفترة هو أن يلملم بقاياه ، وهو يستدير بمقعده المتحرك يقول: ولكنى صنعتك».

«وراجعت نفسى قبل أن أرد ، لو صعدت النغمة ستفشل المهمة التى جئت من أجلها ، قرارى بالانفصال عمره خمس سنوات ، وعمر القدرة على إخراج القرار إلى حيز التنفيذ شهر. لى شهر أدبر للقاء الطلاق ، بالرجاء ، بالحسنى ، بتوسيط الأهل والأقارب والأصدقاء بالتحديد. ولم أصعد النغمة ، ولكنى لم أتراجع أيضاً. كان من المستحيل أن أتراجع الآن بعد أن استرددت بعضاً من قدرتى على الفعل ، تراجعت طويلاً وكثيراً حتى أصبح التراجع النمط الذى يتوقعه هو والكل منى».

(١٨)

والشاهد أننا نرى الدكتورة لطيفة الزيات حريصة أيضاً على أن تصور الصورة من محيطها الخارجى على نحو ما صورتها من ناحيتها ، وفى هذا الصدد فإنها تورد حواراً دار بينها وبين شقيق زوجها ، وإشارة إلى حوار آخر مع شقيقها وإن لم يكتمل هذان الحواران ، وذلك حيث تقول:

«وما الذى جدّ لتطلبى الطلاق؟».

«قال أخوه الأكبر فى اجتماع عائلى عقد لتحديد موعد الطلاق ولم أحر جواباً ، لم يكن جديد قد جد ، وجديد الشىء قديمه ، لا يجد شىء حين تسقط فى الخريف ورقة الشجرة من الشجرة ، تسقط بلا ألم ولا ندم ، وورقة الشجرة قد سقطت من زمن عمره يربو على السنوات الخمس. لم يجد شىء من جانب زوجى ، وجديد الشىء قديمه ، الجديد جد علىّ أنا ، أنا الفاعل هذه المرة لا هو ، أملك الآن أن أقول: لا.. كفى ، ولا أغيّب اللا ولا الكفى فى غيبوبة الموتى على وجه الأرض ، أملك أن أفعل ، أن أناضل لأتجاوز المدار الخطأ حتى تنتفى تماماً الحاجة إلى قول لا ، عقيمة لا تتشكل فى فعل ، وكفى مُرة كالحنضل أجترها فى صمت وفى عجز وفى كراهية للذات. أملك الآن أن أسعى لتوحيد فكرى ووجدانى ، رؤيتى وواقعى المعاش ، إرادتى وفعلى. سقطت الهوة بين الإرادة والفعل».

«وكيف يتأتى لى أن أشرح للناس أن زوجى بما جد أو ما لا يجد ، بما يفعل وبما لا يفعل ، لم يعد من زمن طويل طرفاً فى معركة هى أولاً وأخيراً معركتى لأبعث بعد طول موات ، لأفعل ، لأكون ، لأكتسب من جديد القدرة على الاشتباك مع الحياة ، على المناطحة ، لأتجاوز المدار الخطأ الذى أعرف حتى النخاع أنه المدار الخطأ ، لأقضى على الهوة

بين ما أقـول وما أفـعل ، بين ما أعـتقـد وما أعيـش؟ ولـم أشرح ، لـم أحر جـواباً ، وإن لـم أتراجع عن تحديد مـوعد لإتمام إجراءات الطلاق فى حضورى وحـضور زوجى فى مكتب أخيه المحـامى. تعمدت أن أصحب أخى الأكبـر عبد الفتاح لينتـزع الأشواك ، ليربت على الأوجاع وليضـمد الجراح. حضرنا فى الموعـد المحدد بالدقيقة ولـم يحضر هو. وانتظرت ، كما تعودت أن أنتظر ، ولكن انتظارى لم يكن هذه المرة مـعذباً ، كان انتظاراً زهوقاً ، وقال أخى عبد الفتاح :

«الموقف صعب عليه ، ومن الطبيعى أن يؤجل ما استطاع مواجهته».

(١٩)

ونحن نرى الدكـتورة لـطيفـة الزيات فى هذه المذكـرات وهى حريـصة على أن تبـدو وكأنهـا تروى بصدق شديد لحظات تفكيرها وتصـميمهـا على الطلاق ، كما أنها حـريصة على أن تبدو وكـأنها لا تفعل شـيئاً إلا أن تصف بدقة مـشاعر دفيـنة تريد بكل ما تملك من قدرة نفسية وتعبيرية أن تصورها عن علاقتها بزوجها فتقول:

«... وانتظرت ، ووصل هو أنيقاً كما عادته ومـهندماً ، وطلب الاختلاء بى ليثنينى عن طلب الطلاق».

«وأنا أتبع زوجى إلى حـجرة خاليـة ، التقـيت فى الردهة بمحامٍ كـان زميلى فى حـركة الطلبـة فى الأربعينيات ، وكـنت قد لاقيـته فى المكتب مـرات بهذه الابتـسامة المهـذبة التى أصبحت ابتـسامتى ، وبهذه النبـرة المدربة التى أصبحت نبرتى ، وبهذه النـظرة التى تمر عبر الناس دون أن تراهم التى أصـبحت نظرتـى. ولكنى فى هذه المرة استـشعـرت نحو زمـيلى السابق ألفـة لم أستشـعرها من قـبل ، والتقت عيـوننا كما لم تلتق مـن قبل ، ولمعت بوهج التعـرف. وتساءلت وأنا أجـر خطاى خلف زوجى ، أين ذهـب صخـبى ودفئى وحـماسى التلقائى عند ملاقاة قدامى الزميلات والزملاء؟».

كأنما تريد الدكتـورة لطيفة فى الفقـرة السابقة أن تشير إلى أنهـا بدأت تـرى ما لم تكن تراه ، وأنها بدأت تعـود إلى جذور كـانت قد تجاهلتـها وتعالت عليـها فى الفـترة التى هى بسبيلها إلى إنهائها فى اللحظة القادمة فتقول:

«جلست على طرف مقعد ذى مسندين ، مهذبة مضـمومة الساقين ويداى متلاقيتان فى

حجرى. وجلس هو على مقعد مكتب متحرك بإزائى بحيث لا تلتقى عيوننا ونحن نتكلم. كنت على عادتنا طيلة ثلاثة عشر عاما ، فى منتهى الأدب وفى منتهى التحضر ، كما اعتدنا أن نكون فى كل الحالات ، حتى حين كان الواحد منا يغلى بالغيرة ، بالكراهية أو بالرفض لماهية الآخر ، صرخت فيه مرة : أكرهك. وصفقت الباب فى وجهه وأنا أخرج من الحجرة. ولكن هذا كان فى البداية ، بداية البداية ، قبل أن أضيّع كيانى فى كيانه ، قبل أن يتعلق وجودى بكلمة منه ، بنظرة من عينيه. كحد السيف كانت كلماتى ، لم تتمرس بعد على ارتياد المسالك الجبانة ، ولم يثقلها بعد الخوف من الاشتباك بالآخرين وبالحياة ، ولا أرهقها الشعور بالجرم والذنب. كان هذا فى بداية البداية قبل أن أتقنع وأتجمل وأتحضر ، وأندرج فى إطار الصورة التى حبسنى فيها».

«مش إنت اللى تعملى كده ، إنت فوق الصغائر دى».

وتعود الدكتورة لطيفة الزيات لتكرر علينا ما كانت قد قررته من قبل فيما بينها وبين نفسها ، ونحن نعرف أنها كانت قد وصلت إلى هذا القرار مما أوردته من قبل ، ولكن يبدو أنها هى نفسها كانت تريد أن تقنع نفسها بالتصميم على القرار فتقول:

«وأعلنت إصرارى على إتمام إجراءات الطلاق فى هدوء ونهائية وأنا أجلس على طرف مقعد ذى مسندين مهذبة. ورفض هو أن يصدق أنى جادة فى السير إلى نهاية الطريق المر. الكل رفض التصديق ، كنت أكسر نمطاً أرسيته لمدة ثلاثة عشر عاماً وبدا للكل أنى ارتضيته ، والأهم من ذلك أنى كنت أكسر النمط الذى يسود فى كثير من العلاقات الزوجية وقالت لى أختى:

«كل الرجالة كده.

«وقرأت علىّ زميلة وصديقة بالتليفون إحصائية للباحث الأمريكى كنجز لى تثبت توفر الخيانة الزوجية فى ٩٩٪ من حالات الزواج فى الولايات المتحدة. وعلق صحفى وروائى لامع على طلاقى فى جريدة «أخبار اليوم» دون ذكر الأسماء طبعاً ، قال: إن من النساء من تحمل شهادة الدكتوراة وترسب كزوجة فى الشهادة الابتدائية ، وكنت أنا التى عناها ذلك الدون جوان الكبير ، والتزمت الصمت فى كل الحالات ، كانت المسألة أعمق وأدق وأكثر تركيباً من أن تشرح. لم تكن الخيانة الزوجية همى ، ربما كانت لفترة ولم تعد، فى هذا التوقيت كان وجودى من عدمه هو الذى فى الميزان ، وتوقف هذا الوجود فى بداية جديدة تقطع كل ما بينى وبين زيجتى من وشائج ، كل الوشائج ، فلا يتبقى منها شىء وهو يقول:

«لقد صنعتك».

«يقولها فى مجال الاستعطاف لا المن لأتراجع فى اللحظة الأخيرة عن إتمام إجراءات الطلاق ، ولم يكن التراجع وارداً ، وسلم هو بنهائية الأشياء ، حين قلت وأنا أصطنع قدراً كبيراً من التحكم فى الذات حتى لا تفشل مهمتى:

«حتى لو كنت صنعتنى فعلاً كما تقول ، فهذا لا يعطيك الحق فى قتلى».

(٢٠)

ربما وجدنا أنفسنا نتساءل كيف يمكن لصاحبة هذه المذكرات أن تصور تعبير «لقد صنعتك» فى مثل هذه اللحظة على أنه يأتى فى مجال الاستعطاف لا المن ، ولكن يبدو لى أن تهذيب زوجها كان قد وصل إلى درجة من النجاح فى الإقناع إلى حد إيهام المخاطبة وهى صاحبة المذكرات بهذا المعنى ، ومن العجيب أننا نراها هى التى ستنفصل عنه مقتنعة بهذا الذى توهمته ، وربما يقودنا هذا إلى ما ترويه هى عن حوار دار بينها وبين أحد أساتذتها واعترافها هى نفسها لهذا الأستاذ بأن زوجها السابق هذا كان أول رجل يوقظ الأنثى فيها حيث تقول :

«لماذا تزوجتيه أصلاً؟

«سألنى أستاذ لى عقب الطلاق وأجبت:

«كان أول رجل يوقظ الأنثى فىّ».

ومع هذا كله فإن الدكتورة لطيفة الزيات حريصة على أن نشير ، بكل وضوح ، إلى مدى حرصها فى ذلك الوقت على عدم فتح الموضوع للنقاش :

«وبدأ التقييم لمجمل حياتى ، وكان زواجى قد أثار من الضجة ربما أكثر مما أثاره طلاقى ، فقد انتمينا لمعسكرين متضادين ، وإن لم أع أنا هذه الحقيقة فى حينه. ربما وعيتها وغيبتها كما غيبت الكثير من الحقائق ، وربما لم أعها على الإطلاق ، جرفنى التيار إذ ذاك عارماً كاسحاً فلم أع شيئاً خارجاً عن دائرة مشروعى لسعادة طال تشوقى إليها. غير أنى وعيت انقسام الرأى حول طلاقى ، بقى الرأى منقسماً ، بين مَنْ يبادلون زوجى آراءه السياسية وبين من يعارضون هذه الآراء (تكوّن اتجاهاتنا السياسية أمزجتنا وآراءنا أكثر بكثير مما نتصور)».

«وامتنعت أنا فى حومة الطلاق عن مناقشة أسباب طلاقى ، وأنهيت كل مرة المناقشة قبل أن تبدأ بكليشيه مؤداه : هو أحسن الناس وأنا أحسن الناس ، غير أننا لم نتفق. وامتنعت عامدة متعمدة عن الإسهام فى حملات سبابه التى طوقتنى فى أعقاب الطلاق. واستعصى هذا الامتناع على فهم بعض المقربين منى ، وأثار حنقهم ، غير أنى أصررت على التزام الصمت».

وتقدم الدكتورة لطيفة الزيات تبريراً طريفاً لهذا الصمت تحرص من خلاله على أن تتعالى على تجربتها هى نفسها فتقول:

«ربما لأن فى نفى زوجى السابق نفياً لسنين طويلة من عمرى ، وبالتالى نفياً لى ، وربما ، وهذا ما وعيته ، أنى اكتشفت وأنا أجهز على ما تبقى من خيوط تربطنى به أن الكراهية هى الوجه الآخر للحب ، وحرصت على ألا أكرهه حتى أجهز على كل ما تبقى من وشائج بالإفلات من حبائل كراهيته».

(٢١)

والشاهد أن الدكتورة لطيفة الزيات تمضى على نفس هذا النمط من استبطان الذات ومحاولة استنطاقها بمواقف أيديولوجية على الرغم من صعوبة تقبلنا لكل هذا التوظيف القاسى للذات من أجل الأيديولوجيا ، ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات حتى وهى تصور حياتها فى السجن حريصة على أن تروى تجربتها ومشاعرها فى لحظات التنفيس من مثل هذا المنظور فتقول:

«توقعنا بالأمس الحملة التفتيشية المألوفة: يقف المأمور بصحبة ضابطة وسجانة فى حوش العنبر منتظراً ، يُمهل «الإسلاميات» فى العنبر فرصة ارتداء الحجاب ، تفتح الضابطة الحقائب ، تدس يدها فى الملابس فى تهذيب رجال الجمارك فى تفتيش لا يسفر عادة عن شىء. وقد استوعبنا ، خلال شهرين ونصف ، جدلية الصراع بين السجان والمسجون ، وتمتعنا بالتالى بالقدرة على التنبؤ بعملية التفتيش قبل أن تقع ، وتمرسنا فى إخفاء ما يتعين إخفاؤه من ممنوعات».

«غير أننا أخطأنا بالأمس فهم تطور عملية الصراع بين السجان والمسجون ، صعّدنا الصدام بدل المرة مرتين تصعيداً غير مألوف ، وتوقعنا رد الفعل المألوف».

«تعين علينا أن نفعل شيئاً توقياً لخضوع أمينة (د. أمينة رشيد) لإجراءات التأديب بعد عودتها ظهراً من التحقيق عند المدعى الاشتراكى».

«سرب لنا الخبر مصدر من مصادر معلوماتنا فى السجن ، والخبر مفروض ألا يتسرب، فالخبر ، أى خبر ، معلومة ، والمعلومات ، أية معلومات ، شخصية كانت أو مسموعة أو مقروءة أو مرئية ، من داخل السجن كانت أو من خارجه ، محظورة على المتحفظ عليهم وعليهن ، بعد أن غادرت أمينة العنبر صباحاً خضعت عند بوابة السجن لتفتيش ذاتى ، أسفر التفتيش عن خطابين ، واحد لزوج أمينة والآخر لابنها. تم تحريز المضبوطات ، وأرسلت على وجه السرعة إلى إدارة المباحث العامة [تقصد: أمن الدولة) ، وحررت إدارة السجن محضراً بالواقعة تمهيداً لتنفيذ إجراءات السجن التأديبية على أمينة بعد عودتها من التحقيق».

«وكان من المفروض وقد عرفنا بالمعلومة أن نتسلح بالمعرفة ونتظاهر كما نتظاهر كل مرة بأننا لا نعرف ، حتى لا يبتر ضابط المباحث المختص مصادرنا ، ونضطر ، وحاجة السجين إلى المعرفة تتساوى وحاجته إلى التنفس ، إلى العودة إلى نقطة الصفر ، ومعاودة البحث عن مصادر جديدة ، ولكن يتعين علينا هذه المرة أن نفعل شيئاً توقياً لخضوع أمينة للحجز فى زنزانة التأديب عند عودتها ، ولو لم نفعل لمتنا غيظاً وغضباً».

«سحبنا أسرة عنبرنا إلى الحوش الملحق بالعنبر والمسور بالحديد أيضاً ، وأعلنت عريضة الإضراب أن الحال سيظل على ما هو عليه لحين الاستجابة للمطالب المذكورة على العريضة. حملت العريضة توقيع فريقين من السجينات ، راهنت السلطة على وقوع صراع فيما بينهما بحكم اختلاف الاتجاهات السياسية والثقافية ، وأسلوب الحياة والسن ، الفريق الذى اصطلح الناس على تسميته بالإسلاميات ، والمكون من خمس بنات ، والفريق الذى اصطلح على تسميته «بالسياسيات» الذى تنتمى إليه أمينة وعواطف (د. عواطف عبدالرحمن) ونوال (د. نوال السعداوى) وأنا».



ولا تنجو الدكتورة لطيفة الزيات ، أو هكذا تريد ، من أن تبدو وقد تخلصت من التعالى على الطائفة الأخرى من السجينات اللاتى زاملنها وهن الإسلاميات ، وهى ترى نفسها وصاحباتها أكثر خبرة وأكثر قدرة وأقل أملاً فى التعديل عليهن من جانب مأمور السجن ، ومع هذا فهى تعترف بما حدث وتقول:

«لحظة انفراج الباب الحديدى لحوش العنبر عن المأمور ، أدركت أنه جاء معولاً على

«الإسلاميات» فى كسر الإضراب ، تجاوزت نظرة المأمور ثورة عواطف ونوال وثورتى ، وتعلقت بمدخل العنبر فى انتظار خروج المنقبات ، وأنا أتتبع نظرة المأمور بدا لى مدخل العنبر وهو خاوٍ أو يكاد من الأسرة ، كفم حيوان أسطورى منزوع الأنياب».

«وحين خرجت البنات الخمس ، منقبات بالخمار والملابس السوداء ، كشر العنبر عن أنيابه ، وارتجفت فى عينى المأمور نظرة خوف ، والبنات مصطفات كالحائط المنيع جنباً إلى جنب ، .... : صباح طفلة عنبرنا المدللة ، وأمل مدبرة عنبرنا ، ونادية وزير تموينا ، وهدى ، وسيدة زرقاء اليمامة التى تتنبأ بالخطر قبل أن يقع».

«تنهدت ارتياحاً والمأمور ينتقل من الوعد إلى الوعيد ، واستبعدنا الويل والثبور وعظائم الأمور ، وطالبنا باستعادة الخطابات ، واكتسبت خطابات أمينة الشخصية على لسان المأمور خطورة أطبقت على أنفاسى ، ووجدت نفسى أنهى النقاش وأنا أقول للمأمور مشيرة للخطابات موضع النقاش:

«بلّها واشرب ميتها».

«ويعاودنى الانبهار للمرة الألف ، وأنا أستخدم ألفاظاً اعتبرتها قبل السجن قذرة وسوقية».

(٢٢)

ولا تخلو مذكرات الدكتورة لطيفة الزيات وروايتها عن حياتها ومراحلها من طرائف كثيرة ، والحاصل أن الدكتورة لطيفة الزيات كانت حريصة على سبيل المثال على أن تحدثنا عن قدرتها وهى فى السجن على التهريب والتمويه ، مع أن الأمور فيما يبدو من روايتها لم تكن تستأهل كل هذا الذى تصوره حيث تقول :

«بمجرد أن غادر المأمور المكان مندحراً ، تأهب العنبر للتفتيش ، أخفى البعض ما يتحتم إخفاؤه ، وعوّل البعض على [استغلال] المهلة التى تمنح عادة للمنقبات لاستكمال الحجاب».

«جمعت مذكرات أمينة المكتوبة ومذكراتى ، دسستها مع الأقلام ملفوفة فى علبة من الصفيح ، تركت للتمويه دفتراً يحمل اسم أمينة وآخر يحمل اسمى ، أحكمت الغلاف

النايلون على جهاز الراديو الجماعى ، وقفت سيدة تراقب البوابة الخارجية ، وسترتنى صباح بعباءتها حتى انتهيت من وضع المحظورات فى مخابئها».

«خطر ببالى وأنا أملأ دلوا بالماء أن أوراقى ترقد مخلوطة فى مخابئها السرية ، وأنى حاولت دائماً تنظيمها ولم تنتظم. سكبت ماء الدلو على صحف الأمس محروقة ، فى فوهة مرحاض لا يصله الماء. دست صباح رسالة من أبيها فى صدرها وأعلنت أن الرسالة لن تفارقها إلا فى اللحظة الأخيرة وعند الضرورة. وفى جو احتفائى انتشرنا فى حوش العنبر ، نجلس هذه المرة على أطراف الأسرة بدلاً من أن نفترش الأرض ، وجلسنا نتسامر ونتشمس ، وثياب الحجاب قد أسفرت عن أثواب طويلة تصطخب بألوان الورود الزاهية الساخنة».

(٢٣)

وتبدو صاحبة المذكرات متأرجحة بين هذا الذى تصوره وذلك الذى كانت تشعر به ، وهى تعترف أنها مع هذا كله ظلت تعانى مما صارت إليه:

«ولأنى لم أعد الطفلة التى تجد الملاذ فى حضن أمها من شرور الدنيا ، أتساءل وأنا أرقب السجانة المشوهة العينين الممسوحة الصدر والأرداف: هل هذه شبيهة ريا صلاح أبو سيف فى الفيلم السينمائى أم سكينة ، وأزيح السجانة عن طريقى المؤدى للعنبر».

«وأتوهم أن ظل ريا وسكينة قد سقط عنى ، وهو لم يسقط».

«بالأمس وأنا أقف على الحافة بين الكابوس والواقع ، تعاملت لفترة مع استعراض شرس للسلطة ، وكأنى إزاء عصابة من اللصات بقيادة زعيم. وسقط من وعيى الحد الفاصل بين القهر الواقع من السلطة والقهر الواقع من عصابة من القتلة واللصوص. وهذا الربط بين المستويين من القهر ، هو الذى شكل السلوك الذى وصفته بالغرابة ، وهو الذى أضحكنى بالأمس ، وأضحكت منه الأخريات كخلط ، وما من خلط».

وهى تردف بالتعبير عن ثقتها فى أحكامها رغم هذا فتقول:

« ... أعرف الآن أنى عرفت هذه الحقيقة منذ كنت صبية ، وفى أغوار النسيان غيبتها ، وأستعيدها اليوم ، وما من خلط ، قهر السلطة وقهر اللصوص القتلة هو ذات القهر. أعرف

الآن أنى كنت بالأمس الصبية تصفى مع اللصوص والقتلة حساباً قديماً ، لم تصفه يوم أردى رصاص البوليس أربعة عشر قتيلاً أمام عينيها ولم تفعل شيئاً ، لم تملك أن تفعل شيئاً)».



ومع التعبير عن هذا الوعى السياسى الذى ينمو حتى يصل إلى ذروة المشاركة تستعيد الدكتورة لطيفة الزيات ذكرياتها عن فترة الثلاثينيات التى عاشتها فى مدينة المنصورة وكأنها تطلق من «لا وعيها» ما هو كفيل بمجابهة اللحظة حيث تقول:

«لم تكن المذبحة التى شاهدتها الصبية فى منتصف الثلاثينيات من شرفة البيت بشارع العباسى بالمنصورة كابوساً ، كانت واقعاً ، ولم يكن الربط الذى رسخ فى أعماق الصبية بين ريا وسكينة ورجال البوليس القتلة ، ربطاً نظرياً ولا وهمياً ، كان محصلة خبرة معاشة».

«وأعرف الآن ، وأنا الصبية والمرأة فى أواخر الخمسينيات ، أن ما تخيلته بالأمس كابوساً مضحكاً ، هو جوهر الواقع».

(٢٤)

وطوال صفحات هذه المذكرات فإن لطيفة الزيات حريصة على أن تشرك قراءها فى تأمل أثر الزمن فى حياتها ، وكيف أثر على شخصيتها سلباً وإيجاباً إلى أن تصل فى نهاية الكتاب إلى أن تقول :

«أعرف الآن أنى كنت الصبية فى منتصف الثلاثينيات تنزل من الشرفة إلى شارع العباسى بالمنصورة ، تشتبك والأزرار الصفر والبنادق السوداء الكابية. أعرف أنى كنت الفتاة فى منتصف الأربعينيات تجلس إلى جانب كوبرى عباس وقد تحجرت الدموع فى عينيها ملحاً ، تنتظر رفاقها الغرقى رفيقاً بعد رفيق ، تستر بالعلم الأخضر جثة رفيق بعد رفيق ، من ضحايا مذبحة كوبرى عباس».

وتقفز الدكتورة لطيفة الزيات إلى المرحلة قبل الأخيرة من حياتها ، أى إلى الفقرة التى كتبت عنها هذه المذكرات مصورة بعض تجربتها وتقول :

«بدأت أنتشل من الركـام عباءات البنات ، وأغطيـة الرأس والوجه واليدين ، والمعـركة مـستـمرة فى شـراسـة واستـماتـة ، والبنات يعاودن اللجـوء إلى الدورة ، المرة بعـد المرة ، مسـتترات ، وأنا أقطع العنبـر ذهاباً وإياباً إلى دورة المياه ، أسلم لكل (واحدة منهن) حـاجة من حاجيـاتها: عباءة ، طرحة ، خـماراً ، قفازاً ، وأعود أستكمـل بحثى بين ركام هائل من الملابس والأدوية والمناشـف ، وأدوات المطبخ المكسـورة ، وفى المرة الثـالثـة لـرحلتى ذهاباً وإياباً لدورة الميـاه ، لمحت التـفتـيش يتـركـز على حاجـيـاتى وأنا أحـمل عبـاءتين ، وأدق خصـائصى تتطاير فى الهواء ، أسـتشـعر غضـباً لا يعـاودنى وأنا أواصل مهمـتى. فى المرة الرابعـة شعـرت وقطع الحجـاب تتجـمع قطعة بعـد قطعة ، والبنات يـستـترن بعـد عرى ، والأشـياء تتكامل ، أن حـملة التـفتـيش لم تعد تعنيـنى فى شىء ، وأن أحداً لم يعـد يملك القدرة على تعريتى أو النفاذ إلىّ».

ثم تعود لطيفة الزيات مرة أخرى إلى الماضى البعيد فى ١٩٤٦ وتقول :

«دمعت عـيناى وأنا أكمل مهـمتى وأسدل العـباءة الأخيرة على صـباح وأحتـضنها فى صدرى ، وقـد انسابت إلى عـينى دموع تحـجرت ملحاً ، فى عـينى فتـاة جلست على شط النيل عام ١٩٤٦ ، تنتظر غريقاً بعد غريق».

«وتوجـهت من دورة الميـاه إلى باب العنبـر ، وبدا الطريق ممراً ضيـقـاً وعراً ومـعـتـمـاً ، وتجاوزت ركام الممـر وحطامه وعتمـته ، وفتحت البـاب على اتساعه ، وانفلت إلى فـسحة الحوش وضحى الشمس».

«وخطر فى بالى وأنا أسترخى فى جلسـتى على طرف السرير أنى أستطيع الآن أن أنظم أوراقى التى رقدت مخلوطة فى مخابئها السرية».

مذكرات المرأة المصرية

الثورة والحرية

6

مذكرات رقيبة سينما للسيدة اعتدال ممتاز

دار الخيّال

(١)

أبدأ بأن أقرر أن هذا الكتاب هو أفضل سيرة ذاتية كتبت عن أداء الوظيفة التى قام بها الإنسان فى المجتمع المصرى المعاصر ، فقد استطاعت به الأستاذة اعتدال ممتاز أن تبلور لنا على مدى صفحات ليست بالقليلة خبرة ثلاثين عاماً من العمل المتواصل والمثمر فى وظيفة من أهم الوظائف فى مجتمع شرقى يتصل بالمجتمعات الغربية أول ما يتصل عن طريق الفن الجميل فن السينما.

وفى هذا الكتاب الذى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٥ صفحات متواصلة تعبر عن الكفاءة اللامتناهية التى عبرت بها كاتبة هذا الكتاب عن أدائها المتميز لهذه الوظيفة التى كان من حسن حظها وحظنا أن قامت بها ، ثم كان من حسن حظنا وحظها أن سجلتها لنا على هذا النحو الممتاز فى هذا الكتاب القيم الذى لم يحظ حتى اليوم بالتقدير اللائق بمكانته بين المؤلفات القليلة التى ناقشت بصورة تطبيقية مفاهيم الحرية والالتزام والإبداع والأخلاق والانفتاح والمحافظة ، وقبل هذا كله قدرة السيدة التنفيذية المصرية على المواءمة بين المتناقضات التى لابد أن تنشأ حين يكون هناك مجال لصراع التيارات المختلفة مع فتح الأبواب فى جميع أو معظم الاتجاهات.

ومع كل هذا ينبئ هذا الكتاب عن أقدار متزايدة من القدرة الفائقة على التسجيل الحى ، والملاحظة العميقة ، والانطلاق من قاعدة فكرية متينة ، ومن شخصية لا تخاف إلا خالقها ،

ولا تخضع إلا لضميرها ، ولا تنظر إلا إلى الصواب ، ومع كل هذا فإن صاحبة التجربة لا تزعم أبداً أنها تحتكر الصواب ، بل ربما كان هذا الكتاب كله مثالاً واضحاً أو أمثلة واضحة متكررة على أنه ليس هناك فى الفن ولا فى الوظيفة العامة شيء اسمه الصواب المطلق.



ليس فى وسعى أن أشغل وقت القارئ فى أن أضرب له الأمثال على ما أريد أن أقول ، ولكن فى وسع القارئ أن يتناول هذا الكتاب حين يكون فى صراع بين الآراء المتناقضة وإذا به يجد نفسه فى حاجة شديدة إلى أن يلجأ إلى نفسه الباطنة ليجد فيها الرغبة فى التوفيق ، وليستمد من هذه الرغبة قدرة على تحقيق التوفيق بين ما يجد أمامه من صراع فى هذه الحياة التى تصورها السينما على خير ما يكون التصوير.

تؤمن الأستاذة اعتدال ممتاز بأهمية الخبرة المباشرة كسبيل للنجاح ، وهى هنا تبدو مختلفة تماماً عن معظم السيدات الناجحات اللائى نقابلهن فى الحياة العامة وهن يرجعن أسباب النجاح إلى مواهبهن وقدراتهن وحدسهن ، أما اعتدال ممتاز النموذج المشرف للمرأة العاملة المصرية فتسجل لنا فى أول كتابها القول بأن عملها فى الرقابة طيلة ثلاثين عاماً هو الذى مكنها من النجاح فى هذا الجهاز الذى كانت هى نفسها بمثابة أول مَنْ تولوا رئاسته من بين العاملين فيه سواء الرجال والنساء. هكذا مكنها العمل نفسه من النجاح ، ولم تمكنها شخصيتها من النجاح.

ولا يقف إيمان صاحبة هذه المذكرات بالخبرة عند هذا الحد ، ولكنها تثبت هذا بأقصى ما يمكن للمرء أن يتحصل عليه من دلائل الإثبات ، فهى تعمد إلى الكتاب كله وتجعله سجلاً متواصلاً لهذه الخبرة.

ونحن نجدها توظف تسلسل الأحداث فى إثبات أن مجانبة الصواب جاءت من قلة الخبرة ، ولا تفتقد المؤلفة صاحبة التجربة الشجاعة فى أن تسلط هذا الاتهام على رقاب أكثر الناس قدراً من وزراء أو مديرى رقابة أو نقاد.

(٢)

ولا تقتصر مميزات كتاب الأستاذة اعتدال ممتاز على هذا الخلق البارز من الإيمان العميق والمتأصل بالخبرة ، والذى هو كفيل بالنجاح التام فى الوظائف المهنية جميعاً ، لكنها تضيف

إلى هذا الإيمان خلقاً آخـر لا يقل عنه أهمية فى حالة الوظائـف المهنية التى يكون من سلطة شاغليهـا الحكم فى الأمور كوظيفة الرقـابة التى تولتها ، أعنى بهذا القـدرة على التجرد من الأحكام المسبقة ، ولهذا الخلق ـ كما عسانـا نعرف ـ أهمية كبيرة جداً حين يريد الإنسان أن يروض نفسه على العـدل المطلق مـهمـا كان إيمانه ويقـينه بالحق وبالصـواب ، ولهذا فـإن اعتدال ممتـاز تعترف بكل تواضع وبكل ثقـة فى ذات الوقت بأنها كانت تقـرأ وترى أعمالاً فنية مخـتلفة منها ما يستـحق القراءة والرؤية ، ومنها ما يجب إلقـاؤه فى سلة المهملات فى الحال ، ولكن ضـمير الرقيب كان يحـتم عليهـا قراءة أو رؤية العـمل الفنى للنهاية بصـبر وتدبر ، حتى يبدى الرأى الرقابى ويبرره ويدعمه.

وهكذا نجـد أنفـسنا فى هذا الكتـاب كله ونحن نتلقى دروسـاً قيـمـة فى الفن والأدب والعلم والقضاء عـلى يدى سيدة أحبت عملهـا وأتقنته ، ثم أجادت التعبير عن هذا الحب وعن هذا الإتقان ، فـإذا نحن فخورون بهـذه السيدة العـربية التى تبوأت منذ مـرحلة مبكرة هذه المكانة عن جدارة ، وأقنعـتنا بهذه الجدارة ثم أقنعـتنا بقدرتها الرائعة على تسـجيل هذه الخبرة الرفيعة فى هذه الفصول السلسة الطريفة.

ومع كل هذا فإن هذه السيدة العظيمة تؤمن تمام الإيمان بأن عملها (ونجاحها بالتالى) لم يكن عملاً فردياً وإنما كان نتيجة طبيعية لتعاونها مع زملائها على مدى الأعوام الطويلة التى قضتها فى هذا المجال.

(٣)

ويزداد تمسك هذه السيدة الفـاضلة بالصدق الجميل حين تُرجع جزءاً كبـيراً من الفضل فى نجاحها إلى زوجهـا العظيم الأستاذ أحمد رشدى صالح ، وتعبـر بصورة رائعة وجميلة عن الشـعور الجـميل الذى يسـيطر على مـعظم السيـدات المصـريات من الانتمـاء الحـمـيم للـزوج ، ولعلها ـ بلا مبالغة ـ أبرز سيداتنا فى هذا التعبـير صدقاً وواقعية فى عصر النهضة الحديثـة الذى اضطر بعض سيداتنا أن يعـتبرن الزوج والزواج كل شىء ، واضطر بعـضهن الآخر أن يتجـاهلن التعبير الصـادق والدقيق عن هذا الشىء ، ولكن الأستاذة اعـتدال ممتاز تقتصد فى تعـبيرها عن مشاعرها بقـدر ما تصدقنا القول ، فإذا هى تقول فى نهـاية تقديمها لكتابها:

«ولا أخفى على القارئ أنى أعـتبر هذا الكتاب إحدى الثـمرات الطيبة لحياة مـثمرة بين

زوجين متفاهمين حانيين بينهما مودة ورحمة ، فكان لتشجيع زوجى طيب الله ثراه ، حافزاً كبيراً لـى ، جاءنى آخره عبر الأثير عندمـا كان يستشفى فى غربتـه بلندن ، بعد قراءته أولى حلقات هذه المذكرات التى نشرت بمجلة المصور ، وذلك قبل وفاته بأيام معدودات وهو فى طريقه إلى أرض الوطن الذى كان يذوب إليه شوقاً ووجـداً ، وكان أحمد رشدى صالح ـ رحمه الله ـ يقـدر ويحترم ويقدس الرباط الذى جمع بين اثنين فى إرادة مـتبادلة ، فلم يكن يوماً عبئاً علىَّ أو على عملى أو معوقاً لى ، بل على العكس كان يحترم إرادتى وتصرفاتى ، وكنا نتبادل احتراماً باحترام وتقديراً بتقدير ، وثقة بثقة ، وتقديساً بتقديس ، تغمد الله روحه الطاهرة بنوره ورضوانه ورحـمته ، أما نحن فنسـأله أن يُفرغ علينا صبـراً ورضواناً إلى يوم يبعثون ، نتحـمل به الرزء العظيم ليتحول حزننا عليه عملاً نافـعاً ينفعه وينفع الناس فنكون بذلك قد قهرنا الموت».



ولهـذا كله فإنى أود أن ألفت نظر القـارئ إلى أن هذه المؤلفـة الفاضلة قـد أهدت هذا الكتاب إلى والدها وإلى زوجها وإلى مصـر ، وإلى أن ألفت نظر القارئ مرة أخرى إلى أن المؤلفة أرجـعت الفضل فى عـملها فى هذا المجـال إلى والدها ، ولكنها لـم تحـدثنا عن هذا الأب العظيم بأكـثـر من نصف سطر فـى أول الكتـاب وبثلاثة سـطور فى آخـره (صفـحـة ٣٤٨).. لعلها ذابت حياءً وخـجلاً ، ولعلها تأثرت بتكنيك الأفلام السينمـائية التى سرعان ما تأخذ بيد القارئ إلى الأحداث.

(٤)

فى هذا الكتاب صـفحات دقيـقة عن تاريخ الرقابة على الـسينما فى مصـر ، وكيف تم تمصيـر الوظائف فى هذا الجهـاز بدءاً بالدكتـورة نور شريف [أستـاذة ورئيسـة قسم الأدب الإنجليزى فى آداب الإسكندرية فيـما بعد ذلك] والدكتورة صفيـة ربيع ثم اعتدال ممتاز. ثم تحدثـنا الأستـاذة اعتـدال ممتاز عن عـلاقة الرقـابة بالوزارات المختلفـة وبإدارة المطبـوعات وتحدثـنا عن الصراع بين وزارتى الشـئون الاجـتمـاعيـة والداخلية من أجل الإشـراف على الرقابة ، والحلول (المصـرية) لمثل هذا التنازع فى الاختـصاص ، وتضرب مـثلاً على هذا بما حدث فى فيلم شمشون ودليلة.

وعلى هذا النحو تمضى المؤلفة فى بقية الفصول أيضاً فى عرض ملخصات وافية وكاملة للآراء المختلفة فى الأفلام المختلفة ، فتمتعنا بثقافة أدبية وفنية وسينمائية وتاريخية وسياسية رائعة ، كما تدرب أذواقنا على الفهم السليم والذوق الرفيع لأنها هى نفسها وصلت إلى هذا ولنقرأ عباراتها حيث تقول:

«وربما لو رجعت بى عقارب الزمن مرة أخرى ، لما ترددت فى اختيار نفس عملى من جديد بكل ما فيه من مرارة وحلاوة ، وألم ومتعة ، فقد أحببت عملى حباً عظيماً ، وتعلمت أن أحترمه وجاهدت فى أن أعلّم آخرين كيف يحترمونه ، بل وقدسته ، لذا كنت أحزن عندما أسمع من يقلل من قيمته وأهميته أو يمس ما له بين شغاف قلوبنا من حنان ورقة».

«كثيرون لم يفهموه ورمزوا له بالمقص البتّار ، فهم لم يكونوا يشعرون بإحساسنا المرهف وآمالنا الصادقة بأن يرى الناس كل العمل الفنى المتكامل الجميل ، إنهم لم يدركوا حيرتنا وصراعاتنا النفسية عندما نتخذ قراراً بحجب أو منع ما يستحق أن يُرى. تجربة فريدة فذة مرت بى على مدى ثلاثين عاماً ، أردت تسجيل بعض منها فى هذا الكتاب، أردت أن أجعل منها إضافة ، فكل جهد صادق إضافة ، وكل إضافة لبنة فى البناء المصرى الشامخ على مدى الأجيال المتعاقبة ، لم أرد لتجربتى الفريدة أن تضيع كالتراب الذى تطؤه الأقدام ليكون هباء منثورا ، فاخترت تسجيلها ولعلى أكون قد وفقت ولعلها تعطى بصيصاً من الضوء إلى تجارب أنفع ، فى طريق لم يكن معلوماً أو ممهداً أو خالياً من الأشواك ، بل كان السائر فيه ـ فى رأيى ـ أشبه بمن يسير على الحبال بين الجبال ، فى طريق صعب مراسه ، محفوف بالمخاطر ، ضحاياه كثيرون ممن لا يدققون فى اختيار موضع أقدامهم ، ويحرصون على انتصاب قاماتهم ، وصدق نواياهم ، وجرأتهم فى الحق ، ابتغاء وجه الله ، فلا يتأثرون بمن يقف أمامهم ، ولا يغيب عن أذهانهم أن الوطن هو الباقى ، وأن الله حى لا يموت».

(٥)

تتحدث اعتدال ممتاز عن الرقابة فى مصر الحديثة فى الفصل الثانى من مذكراتها ، وتروى بعض الوقائع التى تدل على وجود رقابة حتى وإن لم يكن هناك جهاز رقابة ، وذلك منذ عهد الخديوى توفيق :

«وبالرغم من عدم وجود رقابة أيام الخديو توفيق ، إلا أن بعض الأغانى الوطنية مُنعت ومُنع أداؤها ، وكانت إحداها من تأليف الشاعر الكبير إسماعيل صبرى والتى كان «عبده الحامولى» يغنيها والتى يقول فيها «حفظ المعاهدة شرف» ، وبعد ذلك بسنوات مُنعت كذلك أغنية أخرى تمجد الوردانى الذى قتل بطرس باشا غالى عندما أراد أن يمد امتياز «قناة السويس» ، ولقد مُنعت هذه الأغانى بحجة أنها تحرض على ارتكاب الجرائم ، أو بحجة أنها كانت تحبذ مناهضة الاحتلال الأجنبى أو بحجة أنها كانت تشجع على معاداة نظام الحكم الخديوى».

كما تروى صاحبة هذه المذكرات قصة اتصال أحد المسئولين بالسراى الملكية (حوالى عام ١٩٥٠) للسؤال عن اسم الرقيبة التى سمحت بعرض فيلم عن مارى انطوانيت وقوله غاضباً متوعداً : «يجب أن تشنق ، ونعنى كلمة تشنق». وحين بُحث الأمر وجدوا أن الرقيبة الإيطالية طالبت بمنع عرضه إلا أن أحد ضباط القسم السياسى فى وزارة الداخلية هو الذى صرح بعرض الفيلم.

كما تروى قصة فيلم «الفرسان الثلاثة» وما حدث له فى عهد الملكية ثم فى عهد الجمهورية ، وهى من أطرف القصص فى تاريخ الرقابة وتاريخ مصر المعاصر على حد سواء :

«راقبت الفيلم لجنة من رقيبتين (علية فريد وسنية ماهر) ، قررت الأولى الترخيص بعرض الفيلم مع حذف الجملتين الآتيتين: «يجب القضاء على الملك» ، و«أن مركز الملك حرج» ، وكذلك رأت الرقيبة حذف منظر الملكة وهى تقبل رئيس وزرائها ، كما طالبت بحذف عبارة : «إخلاصك للعرش يجعلك تبوء بالفشل» ، كما اقترحت كذلك حذف الجزء الذى يلى إعدام «اللادى دى ونتر» ذلك أنه يظهر ضعف الملك أمام رئيس الوزراء».

«ورأت الرقيبة الثانية منع عرض الفيلم واحتاطت للأمر فاقترحت فى حالة الموافقة على عرض الفيلم أن تحذف نفس الملاحظات السابق ذكرها بالإضافة إلى جملة أخرى هى: «هكذا سيكون جلالته فى قبضة يدى» ، وكذلك عبارة : «ستصل جلالته أخبار بعثتنا فى مدى ساعة».

«ورأى مدير المطبوعات د. يحيى الخشاب وقتها ، أن يراقب الفيلم بنفسه (فى ٣ سبتمبر ١٩٤٩) ، وعندما شاهده قرر وقف عرض الفيلم ، وأعيدت النسخة إلى الجمارك فى ٥ سبتمبر ١٩٤٩ ، إلا أن الشركة تسلمتها وأجرت عليها بعض الحذف ثم أعادتها

للرقابة مرة أخرى لإعادة مراقبتها ، وأمر مدير المطبوعات أن ترى الفيلم لجنة أخرى من رقيبتين مختلفتين (مدام كوينيل الروسية الأصل ، واعتدال ممتاز فى ١٤ سبتمبر ١٩٤٩)».

«وعندما شاهدت هذا الفيلم ، أضفت إلى ملاحظات زميلتى ، أنه ينبغى حذف عبارات أخرى تشير أولاها إلى امتهان الملك ، والثانية تغمز العلاقة غير المشروعة التى كانت قائمة بين الملكة ورجل آخر غير زوجها ، وكان فى الذهن آنذاك أمران: الأول هو ذيوع الشعارات والمقالات التى كانت تمتهن الملك ، والثانى ذيوع شائعة كانت تدور حول علاقة بين الملكة السابقة نازلى وأحمد حسنين (باشا). وكذلك طالبت بحذف العبارة التى قالتها الكونتيسة «لريشيليو» التى تشير إلى أن الأخير «كفء يحيك المكائد وأيضاً هو كفء بالإيقاع بالملك» ، كما طالبت كذلك بحذف العبارة التى قالتها الكونتيسة لريشيليو عن أملاك للملك طالبت بها كمكافأة لها على مؤامرة تقوم هى بها ، مع حذف عبارة أخرى تفيد أن ليس هناك عدل بالدولة».

«وقمت بحذف هذه الجمل جميعاً ووافق مدير الرقابة محمود السيسى على عرض الفيلم ، إلا أن مدير المطبوعات رأى أن يعرض الفيلم مرة ثالثة على لجنة رقابية ثالثة مكونة من الرقيبتين صفية ربيع وكملنتين رندا الإيطالية».

«وفى المرة الثالثة أضافت الرقابة حذف بعض العبارات التى قد توحى بأن «الملك ليس أهلاً لأن يواجه ريشيليو بينما لا يرتدى رجاله الثياب اللائقة» ، ومن هذه العبارات ما طلبه الملك «بألا يقاطعه أحد مادام يتحدث حديثاً منطقياً» ، وقدرت الرقيبة أن هاتين العبارتين توحيان بأن الملك دون مستوى مسئوليته وأنه أضعف من أن يمارس سلطته».

«ولقد كتبت الرقيبة صفية ربيع تعليقاً جاء فيه: «إن الاعتراض الوحيد الذى كان يمكن أن يوجه إلى عرض هذا الشريط فى مصر هو السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها ريشيليو رئيس الوزراء ، ولكن بعد الحذف الذى تم بالإضافة إلى الملاحظة السابقة أرى أن ليس هناك مانع من عرض الشريط وأنه يرينا باستمرار أن الخطط التى كان يقوم بها ريشيليو تبوء بالفشل ، كما أن الشريط ينتهى بأن يمنح الملك رضاءه التام للفرسان الذين كانوا يمثلون القوة التى كانت تناوئ ريشيليو وبهذا يتراجع ريشيليو».

«وعلى هذا الأساس صرح مدير المطبوعات بعرض الفيلم فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٩ ، ورخص بنسختين منه ، ثم نسخة ثالثة رخص بها فى ١٥ يونيو ١٩٥١ ورابعة رخص بها فى ١٩ نوفمبر ١٩٥١».

«ويصور الفيلم كما جاء بتقريرى بالملف الخاص بالفيلم قصة ثلاثة فرسان شجعان ،

يدافعون عن ملك فرنسا وينضم إليهم «دارتينيان» ، رجل ريفى شجاع ، ويقفون جميعاً ضد مؤامرات ريشيليو رئيس الوزراء الذى يريد الزج بفرنسا فى حرب مع انجلترا. وينجحون فى إحباط المؤامرات ويكافئ الملك الرجال كل بما يريد».

«وكان الفيلم من إخراج جورج سدنى ، وتمثيل جين كيلى ، ولانا تيرنر ، وجون أليسون ، وفان هيفيلين».

(٦)

وبعد هذا لا تنسى صاحبة هذه المذكرات أن تقص علينا ما حدث لفيلم الفرسان الثلاثة ، بعد أن سقط النظام الملكى (!!) وتغيرت بالتالى الدواعى والظروف التى كانت تدعو إلى التحفظ فى اتخاذ قرار عرضه ، والاحتياط بحذف بعض العبارات وبعض المناظر على نحو ما رأينا:

«عندما تقدمت الشركة بعد الثورة بطلب التصريح لها بالنسخة الخامسة فى ٢٧ يوليو ١٩٥٢ من الفيلم تكونت فى ٤ أغسطس ١٩٥٢ لجنة مكونة من مدير المطبوعات ومراقب النشر أنور حبيب المدعى الاشتراكى السابق ، والرقيب الحربى الصاغ محمد ثابت ، ورئيس مراقبة الأفلام محمد حلمى سليمان ، وشاهدت اللجنة الفيلم وقررت أن ليس فى الفيلم ما يستحق الحذف ووافقت على عرضه فى مصر عرضاً كاملاً غير منقوص ، ثم توالت بعد ذلك نسخ أخرى من الفيلم عرضت جميعا دون أدنى حذف (النسخة السادسة رخص بها فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٤ والسابعة فى ٢٧ يونيو ١٩٥٩ ، ويلاحظ أن الأستاذة اعتدال ممتاز كانت مديرة لرقابة الأفلام والسيد نجيب محفوظ مديرا للمصنفات الفنية» .

«ثم تقدمت شركة النسر العربى بنسخة جديدة فى ٢٣ نوفمبر ١٩٧٦ من إنتاج جديد لنفس موضوع الفيلم من تمثيل أوليفيار ريد ، وراكيل وولش ، وتشارلتون هاستون ، وإخراج ريتشارد ليستر».

ثم تعقب الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا كله بقولها :

«والخلاصة التى نستخلصها من قصة الرقابة مع هذا الفيلم ، هى أن الرقابة تطبق دستوراً غير مكتوب ـ يشبه الدستور الإنجليزى ـ أى أنها تطبق القواعد التى تلائم زمانها ووقتها وطبيعة الكيان السياسى والاجتماعى السائد فى كل مرحلة من مراحل التاريخ ،

وما يصنعه الرقيب هو ـ كما قلت ـ أن يقوم بعملية موازنة دقيقة تتوزعه دوافع ـ لعل بعضها أن يكون متعارضاً ـ ففي حالة الفرسان الثلاثة كان الرقيب يدرك قيمة هذا الفيلم من الناحية الفنية ، ويقدر أنه مأخوذ عن عمل أدبى عالمى ، وأن من حق الجمهور أن يشاهد روائع الشاشة البيضاء العالمية».

«لكن الرقيب كان أمام اعتبارات أقوى من تقديره للقيمة الفنية والأدبية الخالصة لهذا الفيلم. ومن الواضح أن أكثرية الرقيبات لم تطلب منع عرض الفيلم ، بل طالبن بحذف عدد قليل من العبارات ، التى قد يفسرها من كانوا ملكيين أكثر من الملك تفسيرات ضارة أو تفسيرات مغرضة».

(٧)

ومن أهم الروايات التى يضمها هذا الكتاب قصة صاحبة المذكرات مع المغفور له الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون ، ثم مع المغفور له الأستاذ عبدالمنعم الصاوى وما تعكسه هذه القصة من أهمية إيمان المرأة المصرية بدورها فى الحياة العامة وكيف أن هذا الإيمان (ولا شىء غيره) هو المحدد الأول لنجاحنا كمجتمع.. وأقول هذا رغم أن هذه السيدة المتواضعة لم تقله ، ولكنها أوحت به بكل قوة وهى تقول:

«وظل الحال كذلك إلى أن أصبحتُ مديرة لإدارة الرقابة على الأفلام العربية والأجنبية (عام ١٩٥٩) ، وكنت أول سيدة تشغل هذا المنصب وأول من شغله بين الرجال والنساء من داخل الجهاز».

«وبهذه المناسبة أذكر نادرة قد حدثت لى ، فعندما كانت مصلحة الفنون قائمة ذهبت إلى المدير العام لها يحيى حقى ، فى بعض الشأن وتطرق الأمر إلى ذكر الدرجات ، فسألت لماذا تخطتنى المصلحة فى الدرجة الثالثة؟ هل يوجد ما هو ضدى فى شىء؟ فانزعج الأديب الكبير وقال بصراحته المعهودة: «إطلاقاً ، ولكن هل أعطيك الدرجة الثالثة لتطالبينى بعد ذلك بمركز مديرة الرقابة!؟» ، فضحكت وقلت: «أعدك بأنى لن أطالب بها أبداً..» ، ومرت سنوات وعندما صدر قرار لى بتعيينى مديرة لإدارة الرقابة الأجنبية والعربية ، حادثنى تليفونياً مهنئاً «ومشفقاً» قائلا: «ولكن ماذا ستصنعين مع الفنانين والرقباء بكل هذا الهدوء.. وهذه الرقة؟! أليس هذا المنصب متعباً لك؟!».

«وأذكر أنه بعد أن قضيت حوالى الشهر ونصف الشهر فى منصبى أن نادانى وكيل

وزارة الثقافة (عبد المنعم الصاوى) واستأذننى فى أن أتنازل عن هذا المركز لأحد الزملاء (فؤاد العرابى) ، وكنت خالية الذهن تماماً عما يريد عندما قابلته ، فكظمت غيظى ، وتملكنى الأسى وقلت: لماذا؟ هل أنا التى طلبت أن أعين مديرة للرقابة؟ والآن وقد وضعتمونى تحت الأضواء.. ماذا يقال؟ إنها لم تُفلح لأنها سيدة ؟! هل أسأت؟ هل أخطأت؟ ماذا بالله فعلت؟ كأنى بك قد سلطت علىّ الضوء ثم وجهت إلىّ ضربة ، وكأنك تقول علناً: إنى أتهمك.. فاعتذر وكيل الوزارة وتركت مكتبه بعد أن طيب خاطرى، والغريب أننى وجدت خارج المكتب جمعاً من موظفى وزارة الثقافة أكاد لا أعرفهم هنأونى كما قالوا على انتصارى فى معركة «الشرف!!».

(٨)

وتقدم لنا صاحبة هذه المذكرات نبذة هامة عن مشكلة العلاقة بين الرقابة وبين الجهات التعليمية التى تقدم عروضاً فنية فى نطاقها المحدود وذلك من خلال حديثها عن عرض مسرحية «الفخ» فى الجامعة الأمريكية ومسرحية «الانسجام» فى كلية آداب الإسكندرية.

وتناقش المؤلفة بمنتهى الصدق والموضوعية ، قانون الأحداث الصادر سنة ١٩٥٤ والذى أدى إلى قيام الرقابة بتقسيم الأفلام إلى نوعين: للكبار فقط وللعرض العام ، وهنا تجأر الرقيبة بصوت عال بالشكوى من الأفلام المصرية التى أنتجتها مؤسسة القطاع العام وتقول فى كل صراحة ووضوح فى صفحتى ٤٧ و٤٨:

«... أرادت الرقابة أن تطبق قرار تصنيف الأفلام إلى ما يجوز عرضه على الكبار فقط، وما يصلح للعرض العام ، تطبيقاً عاماً يشمل كافة الأفلام التى تعرضها دور السينما بدون أن تميز بين الفيلم المصرى والفيلم الأجنبى ، لأن المصلحة التى تعلو فوق كل اعتبار هى تأمين المجتمع ، لكن أعمدة غير قليلة فى صناعة السينما المصرية ، اهتزت غضباً واعتراضاً ، وفى رأيى أن هذا الغضب والاعتراض كانا بمثابة ستار من الدخان يتستر وراءه أولئك الذين كانوا يتحينون الفرصة لإغلاق السوق على الإنتاج المحلى وحده ، بصرف النظر عن مستواه ، أو ما قد يحمله من مؤثرات ضارة ، ولست أريد أن أشير بإصبع الاتهام إلى شخص معين أو أشخاص معينين ، وإنما أريد أن أكشف الستار عن الدوافع الحقيقية التى جعلت القطاع العام ممثلاً فى مؤسسة السينما يتخذ لنفسه حصانة عرفية ضد القانون ، بل المسئولية الوطنية التى تقتضى أن ينهض القطاع العام فى السينما بدوره البناء ، وليس

بدور التاجر الذى يجرى وراء الربح السهل ولو جاءه هذا الربح فوق أشلاء النفوس البريئة ، وجثث ضحايا الأفلام التى تمنع بعض البلاد الأوروبية عرضها ، وكم أحزننى وأحزن الكثيرين من المواطنين أن تضيع آلاف الجنيهات فى مثل هذا الإنتاج المليء بالإيحاءات والإيماءات الخادشة والمناظر الخارجة أو المرعبة ، والكلمات الجارحة حيث أصبح من طابع أغلب الأفلام المصرية أن تظهر السيدات نصف عرايا أو عرايا تقريباً ، والمرأة المصرية متسمة دائماً بالسقوط سواء كانت ابنة أو زوجة أو أماً ، وكأن الدنيا ضاقت ولا يوجد أبطال غير الراقصات والمنحرفات».



ثم تمضى الأستاذة اعتدال ممتاز لتعبر عن أسفها الشديد لعجز الرقابة فى ظل القوانين والقواعد التى كانت سائدة وقائمة عن أن تقوم بواجبها المفروض فتقول:

«ولم تتمكن الرقابة من حماية النشء من الفيلم المصرى الفاضح أو الذى يستحق موضوعه المعالجة بعيداً عن الأطفال ، فى أن تفرض عليه قانون للكبار فقط ، فقد سبقت المؤسسة بشكواها وإلحاحها بأن الفيلم هو تسلية الأسرة المصرية جميعها بكل أفرادها ، وزعمت المؤسسة أن قصر عرضه على الكبار فقط يؤثر على تسويقه ، وإنها إذا استطاعت أن تلتزم به فى دور العرض الأولى فإنه يصعب تنفيذه بالنسبة لدور العرض الثانية والثالثة. ولقد ضاقت الرقابة ذرعاً بأعذارها والتى تمثل بها القطاع الخاص ، وضاق مع الرقابة مجلسها ، وضاق معهما وزراء متعاقبون لوزارة الثقافة كذلك. ولا أكاد أذكر طوال حياتى العملية أن فيلماً مصرياً واحداً استقر عليه الرأى للكبار فقط ، وكأن الأفلام المصرية فوق الشبهات أو أن لها حصانة تضعها فوق القانون. ومثال الأفلام الواجب وضعها للكبار فقط كثيرة ، منها: قصر الشوق ، شقة مفروشة ، الناس اللى جوه ، قاع المدينة ، امرأة ورجل ، زوجتى والكلب ، حمام الملاطيلى ، السراب ، جنون الشباب.. إلخ إلخ».

ثم تأخذ المؤلفة مثالاً تدلل به على عجز الرقابة عن تطبيق القانون الخاص بحماية النشء وهى تضرب المثل على ذلك بفيلم «السراب» الذى حاولت الرقابة تطبيق قاعدة «للكبار فقط» عليه دون جدوى!!.

(٩)

وتصور هذه المذكرات إحدى المشكلات التى نشأت عن دخول الدولة فى مجال الإنتاج

السينمائى فى الستينيات ، وما ترتب على هذا من تزايد معاناة اللجان التى كانت تتولى فحص الأفلام كما تفاقم عجز الرقابة ومجلسها ، بل والوزير نفسه ، عن مقاومة نفوذ مؤسسة السينما فى تمرير وتصدير أفلامها التى لم تكن تراها الرقابة صالحة للتصدير ، ولكن ماذا بوسع «الحكومة» أن تفعل فى «إنتاج الحكومة»(!!):

«... ولم تقف الرقابة بما لها من قوة ولا المجلس بما له من تأثير ولا الوزير بما له من سلطة ، ضد تصدير الأفلام غير المرغوب فى تصديرها رغم ما وجد فيها من أسباب لمنع تصديرها ، فكانت المؤسسة تجد دائماً أسباباً ومناسبات ومنافذ للتصدير. وكانت تتخذ أسباباً لأعذارها مثل حاجة البلاد إلى العملة الصعبة أو غلق السوق الخارجى أمام الفيلم المصرى ، إذا هى لم تصدر أفلاماً بعينها منعت تصديرها الرقابة أو أنها كانت تلوح بإفلاسها هى كمؤسسة».

«وكانت المؤسسة العامة للسينما لا تعدم من يؤيد رأيها ولو بعد سنوات ، ربما بعد أن تكون قد هدأت العاصفة على إنتاج الفيلم السيئ ، أو ربما يكون تخلصاً من إلحاحها أو حرصاً على عدم زيادة خسائرها المادية ، أو الاستجابة لأعذارها أو لتغيير فى قيادتها أو قيادات الوزارة أو لغير ذلك من أسباب لم تزل معلقة كعلامات الاستفهام».

(١٠)

بعد هذا قد يظن القارئ أننا نريد أن نقول إن الأستاذة اعتدال ممتاز كانت من «الصقور» فى الرقابة ، لكنها فى الحق كانت نموذجاً للاعتدال الممتاز ، ولكل مسمى من اسمه نصيب.. وها هى اعتدال ممتاز تروى فى الفصل الثالث من كتابها قصة أفلام ممتازة كانت ضحية للضغوط المختلفة التى أثرت على ظهورها أمام المشاهد المصرى. ومن هذه الأفلام فيلم «كليوباترا» وتروى صاحبة المذكرات على مدى الصفحات (٩٠ ـ ٩٩) آثار الأخذ بسياسة مقاطعة الأعمال الفنية على قرارات الرقابة:

«... وعندما عرض على الشاشة البيضاء ، وبقاعة الرقابة ، لم أستطع ولم يكن فى استطاعة أى رقيب أن يوافق على عرضه ، بالرغم من أنه لم يسيئ إلى شخصية كليوباترا ، بل لقد كان هذا الفيلم يمجد ملكة مصر القديمة».

«وقد يسأل القارئ إذن: لماذا لم يعرض هذا الفيلم؟».

«الجـواب ببسـاطة أن اليـزابيث تايلور كانـت إحدى الفنانات والفنـانين الذين تبرعـوا لإسرائيل ، وأدلت بتصريحات اعتبرتها الدوائر السيـاسية المصرية والعربية معادية للحقوق المشروعـة للجانب العـربى وقتهـا ، بالإضافـة إلى دعمهـا للنشاط الصـهيـونى فى المحافل الدولية والأمـريكية ، وكان مكـتب مقاطعـة إسرائيل بالطبع قد أدرج اسم اليـزابيث تايلور ضمن قائمة الفنانين الممنوعين من عرض أعمالهم بدور السـينما العربية ، وتطبيقاً لهذا كله صدر قرار بمنع عـرض فيلم «كيلوباترا» بالرغم من أننا كنا على يقين من أن هـذا الفيلم قد عرض على المستوى العالمى أمام جمهور كبير».

«والأمر العجيب أن الفيلم الذى اعتبره العرب معـادياً لهم اعتبرته إسرائيل فيلماً معادياً لها كـذلك ، لأنه يمجد شخـصية مـصرية عظيـمة ، هى كيلوباترا. لذلك منـعت الرقابة فى إسرائيل عـرض هذا الفيلم ، وهكذا لم ينجـح الفيلم الممتـاز فى أن ينال إعجـاب الجانبين المتحـاربين على الأرض ، وهو عمل فنى يحلّق إلى حـيث يخاطب الإنسـان من حيث هو إنسان».

ثم تتساءل اعتدال ممتاز :

«هل انتـهـت حكاية فـيلم كـيـلوباترا عند القـرار الصـادر بمنعـه فى البـلاد الـعـربيـة وإسرائيل؟».

«وكيف تمت دورة مراقبة هذا الفيلم فى مصر؟».

«بدأت قصـة الرقابة مع فيلم كيلوباتـرا عندما تقدم مدير إنتـاج الفيلم فى مصرجـمال مدكـور بطلب إلى الرقابة يطلب فيـه تصدير اللفات التى صـورت بعض المناظر التجريبـية بمنطقة الشيخ بإدفو ، وذلك لتحميضهـا بالخارج ووافقت الرقابة على التصدير (مدير رقابة المصنفات الفنية وقتها كان محمد لمعى)».

«وكانت الشـركة قد أرسلت إلى مـصر بعض المعدات تمهيـداً لتصوير الفـيلم وأنفقت الشركة على بعض المناظر التى صورت بمصر ٣٣٨,٠٠٠ من الجنيهات ، إلا أن السلطات المصرية منعت دخـول الممثلة الأولى للفيلم وبطلتـه ، وهى اليزابيث تايلور ـ كمـا ذكرت ـ حتى أننا سمعنا أنها وصلت المطار فعلاً ومنعت من دخول البلاد».

«وكانت جريدة الجمـهورية (بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٩٦٠) قـد نشرت أن الممثلة اليزابيث تايلور ستصل إلى مصر فى الأسبوع الأول من شهـر نوفمبر سنة ١٩٦٠ . كما نشرت مجلة نيوزويك (فى ٢١ أغسطس ١٩٦٠) أن هذه الممثلة ستصل إلى مصر لتمثل دور البطولة فى

فيلم كليوباترا ، وأنهـا ـ أى الممثلة ـ صرحت «بأنها سـوف لا تلاقى متاعب على الإطلاق وأن شركـة فوكس للقـرن العشرين رتبت مسألة ذهابهـا إلى مصر والحصول على عـشرة آلاف رجل من الجيش المصرى لتمثيل دور كتائب كيلوباترا».

«كما نشرت صحيفة الرقـيب الليبية (فى ٤ يوليو ١٩٦١): «أن الممثلة اليزابيث تايلور فازت بجائزة الأوسكار وأنها تتبـرع بما يقرب من نصف إيرادها سنوياً لإسرائيل» وقد وجه إليها أحد الصحفيين السؤال التالى:

«هل تعتقدين أن سلطات مصر ستسـمح لك بالقيام بتمثيل دور كليوباترا فى الأراضى العربية؟ وماذا تفـعلين لو منعت من دخول الجمهورية العربية المتحـدة لميولك المعروفة وهى عطفك على إسرائيل وتأييدك المطلق المنقطع النظير لها؟»

«وقد أجابت اليزابيث تايلور:

«إنى سأدخل أراضى مـصر وسأقوم بتـمثيل دور كليوباترا هـناك ولن تستطيع سلطات الـمصر. منعى.. إن هناك طرقاً خاصة سأتبعها وأنا متأكدة من نجاحها».

«هذا بالإضافة إلى أن مـجلة لوك الأمريكية (فى ١٥ أغسطس) نشرت تصـريحاً لهذه الممثلة هذا نصه:

«إننا ذاهبون لمباشـرة العمل فى مصر (فى فيلم كليـوباترا) ومن ثم سنذهب إلى إيطاليا ومنها سنعود إلى هوليود. ذات مرة منعنى ناصر من الدخول إلى مصر لأنى يهودية ، ولكن فجأة سمح لى بالدخول ولا أعلم الأسباب ، إنهـا مسألة عمل بالنسبة لى وإنه لمن المضحك أن أكون أول ملكة يهودية لمصر».

«وعندما تقدمت شـركة فوكس للقرن العشرين (فى ٥ أكتـوبر ١٩٦٣) بالفيلم لإجازة عـرضه لـم يوافق الرقبـاء على العـرض ولم أوافق أنا أيضـاً ، وأيد المنع (فى ٣٠ أكتـوبر ١٩٦٣) مدير المصنفات الفنية عبدالرحيم سرور للأسباب السابقة المتعلقة ببطلة الفيلم».



وتروى صـاحبـة هذه المذكرات تفـصيـلات مـا حدث عـقب حرب يونيـو ١٩٦٧ من التصـريح بعرض هذا الفـيلم فى القاهرة ثم إيقاف هذا الـتصريح ومـوقف عدد من الدول العربية من عرض هذا الفيلم ، وهى تفصيلات فى غاية الأهمية لتاريخنا السياسى المعاصر:

«وبعد مضى ما يقرب من أربعة أعوام ونصف العـام تقريباً شاهد مدير الرقابة مصطفى درويش وقـتها الـفيلم وذلك بناء على طلب جـديد من الشركـة (فى ١١ فبـراير ١٩٦٨)

وأجاز عرضه عرضاً عاماً (فى ١٩ فبراير ١٩٦٨) دون أية ملاحظات مبدياً أسبابه للعرض وهى:

«أولاً: الفيلم يمجد مصر وموقفها السياسى من الاحتلال الرومانى».

«ثانياً: لأنه ينفى عن العرب المسلمين تهمة حرق مكتبة الإسكندرية».

«ثالثاً: لأنه ممنوع فى إسرائيل الأمر الذى يدل على أنه من المصلحة عرضه فى الجمهورية العربية المتحدة».

«وبناء على ذلك أحضرت الشركة نسخة من الفيلم مقاس ٧٠مم ونسختين ٣٥مم وقامت بالدعاية للفيلم التى تكلفت عشرة آلاف دولار ، ونشرت جريدة أخبار اليوم (فى ١٦ مارس ١٩٦٨) تحت عنوان «كليوباترا فى القاهرة» ما نصه:

«تقرر السماح بعرض فيلم كليوباترا فى القاهرة. اتخذت هذا القرار الرقابة على المصنفات الفنية ، قال مصطفى درويش مدير الرقابة: «وافقنا على عرض الفيلم.. إلخ» ، وأوردت الأسباب السابق ذكرها».

«كما نشرت وكالات الأنباء العالمية نبأ موافقة مدير الرقابة على المصنفات على عرض الفيلم».

«وبعد ذلك أرسل المكتب الإقليمى لمقاطعة إسرائيل خطاباً مطولاً من أربع صفحات يؤكد ضرورة منع الفيلم وجميع الأفلام التى تشترك فى تمثيلها الممثلة ذات الميول الصهيونية اليزابيث تايلور».

«وعلى ذلك قررت الرقابة (فى ٢٩ أبريل ١٩٦٨) سحب ترخيص عرض الفيلم وتنبه على الشركة بذلك ، إلا أنها تظلمت من قرار الرقابة إلى وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة ، الأمر الذى جعل وكيل الوزارة حسن عبدالمنعم يطلب عرض الفيلم على مجلس الرقابة فى أول اجتماع (الاثنين ٢٧ مايو ١٩٦٨)».

وتعقب اعتدال ممتاز على هذا بقولها :

«ومما يذكر أن مجلس الرقابة كان قد أنشئ حديثاً بعد إلغاء ندب مدير عام الرقابة الفنية على المصنفات مصطفى درويش الذى سبقنى مباشرة ، وحتى لا ينفرد مدير الرقابة بالرأى بمفرده بعد الخطوة الجريئة منه فى عرض أفلام أثناء وبعد النكسة التى اعتبرها البعض خارجة فى موضوعاتها ومناظرها ، الأمر الذى أثار مجلس الشعب [تقصد: مجلس الأمة] والرأى العام ، والغريب فى الأمر بالنسبة لفيلم كليوباترا أنه برغم أن

مقاطعة إسرائيل كانت متشددة بالنسبة لمنع عرض الفيلم بالبلاد العربية إلا أنه عرض فى الأردن (فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٥) والجزائر (فى ١٧ مارس ١٩٦٦) والمغرب (٢٦ نوفمبر ١٩٦٤) وتونس (١١ نوفمبر ١٩٦٥)».

«وعندما استوضحت الأمر من المكتب الإقليمى لمقاطعة إسرائيل اعتذر أن الفيلم عرض بالمغرب وتونس لأنهما لم يصدرا بعد قانون المقاطعة الموجود ولم تنشأ بهما مكاتب إقليمية للمقاطعة» ، أما بالنسبة للجزائر فإنه لم يوجد لدى المكتب الإقليمى لمقاطعة إسرائيل ما يؤيد عرضه بها» ، وقال المكتب بأن الأردن بدأ عرض الفيلم وبمجرد صدور قرار منع عرضه بالدول العربية تقرر إيقاف العرض به».

«أما بالجمهورية العربية المتحدة فهى باعتبارها عضواً فى جامعة الدول العربية ملتزمة بتنفيذ قراراتها وذلك طبقاً لميثاق الجامعة وبروتوكول إسكندرية فقد جاء بند «أولاً» من بروتوكول إسكندرية ما نصه:

«قرارات جامعة الدول العربية ملزمة لمن يقبلها».

«كما جاء فى المادة السابعة من ميثاق جامعة الدول العربية:

«ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة فى الجامعة.. وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله.. وفى كلتا الحالتين تنفذ قرارات المجلس فى كل دولة حسب نظمها الأساسية ، وحيث إن الجمهورية العربية المتحدة قد وقعت على الميثاق (فى ٢٢ فبراير ٩٤٥) فقد أصبح تشريعاً من تشريعاتها واجب الالتزام به» ، وكذلك قرر مجلس جامعة الدول العربية فى اجتماعه الثانى والثلاثين ضرورة تنفيذ قرارات حظر التعامل مع الأشخاص الأجانب (طبيعيين واعتباريين) الذين يثبت لمؤتمر ضباط الاتصال مخالفتهم لقانون ومبادئ المقاطعة من قبل المجلس بالإجماع فى الوقت الذى يحدد لذلك».

«وعليه أصبحت الجمهورية العربية المتحدة ملزمة بتنفيذ قرارات الحظر ضد الأشخاص الطبيعيين والاعتباريين التى يصدر بها قرارات مؤتمرات ضباط اتصال لمقاطعة إسرائيل».

(١١)

وتتحفنا الأستاذة اعتدال ممتاز فى هذه المذكرات بمجمل آراء أعضاء مجلس الرقابة تجاه

هذا الموضوع ، وتزيدنا هذه الآراء اطلاعاً على عقليات هؤلاء الأعضاء وأنماط تفكيرهم منذ مرحلة مبكرة ، ومن حسن الحظ أن من بينهم الأستاذ نجيب محفوظ نفسه:

«وفى محاولة يائسة أثرت مسألة قرارات مكتب مقاطعة إسرائيل الملتزمة بها الجمهورية العربية المتحدة فى أول اجتماع لمجلس الرقابة».

«وعندما طرح مقرر المجلس (حسن عبدالمنعم) الموضوع على الأعضاء طالب بدراسة هذه المسألة إذ من غير المعقول أن تمنع جميع الأفلام بهذه الطريقة ، وطالب بتغيير هذا المبدأ، إذ أن السلبية فى معالجة القضايا لم تحقق شيئاً ، وضرب بذلك مثلاً لممثلة مثل اليزابيث تايلور فهى لم تخسر شيئاً بسبب مقاطعة أفلامها لأنها قد حصلت على أموالها وأجرها من الشركة المنتجة ، كما أن نسبة توزيع الفيلم فى الشرق الأوسط تعادل ٢٪ من التوزيع العالمى ، وعليه فإن هذا القرار لن يضرها بل بالعكس فهى تستغل هذا القرار بالتشهير بقضايا ومصالح البلاد العربية».

«وكان من رأى أحد أعضاء المجلس أن المسألة تحتاج إلى إقناع الممثلين لكسبهم إلى صف البلاد العربية ، وليس عن طريق منع عرض أفلامهم ، فمنع المصنفات الفنية يخسرنا نحن ولا يعود على إسرائيل بخسائر كبيرة ، ولقد خسرت مصر العمالة ، والعملة الصعبة ، التى كان مفروضاً أن تصرف فى البلاد عند تصوير الفيلم فى مصر».

«ورأى عضو آخر (سامى داود) أن الوقت (عام ١٩٦٨) غير مناسب لعرض الفيلم وإذا كانت البلاد العربية الأخرى قد عرضته فى عام ١٩٦٥ ، فقد كانت الظروف التى تمر بها البلاد تختلف اختلافاً كلياً ، وأن عرض الفيلم فى تلك البلاد العربية ليس مقياساً لضروة عرضه عندنا باعتبار أن مصر هى المرآة للبلاد العربية ، وعلى ذلك اقترح تأجيل مناقشة الموضوع لأنه لا يجوز التنازل عن قرارات المقاطعة التى شملت شركات متعددة مثل شركات أدوية.. إلخ. واستثناء الممثلات من القرار قد يفسر سياسياً بأنه تنازلات سياسية».

«وأيد الرأى عضو ثالث (نجيب محفوظ) واعتبر أنه إذا كانت الجامعة العربية قد اتخذت قراراً بمنع عرض أفلام بعض الممثلين فلا يجوز لمجلس الرقابة أن يصدر قراراً مناقضاً لقرار الجامعة ، وطالب عضو رابع (الدكتور حسن الساعاتى) بإرجاء المناقشة باعتبارها مشكلة سياسية تعبر عن موقف سياسى ، إلا أن وكيل الوزارة (حسن عبدالمنعم) تساءل ولماذا لا يأخذ المجلس المبادأة باعتبار أن الموضوع سيعرض على وزير الثقافة

(الدكتور ثروت عكاشة) الذى قد يعرضه هو بمعرفته على مجلس الوزراء بعد أن يستوفى البحث؟».

«إلا أن أغلب أعضاء المجلس طالبوا بتأجيل النقاش فى الموضوع.. ولكنى ذكرت للمجلس كيف أنى أخذت رأى بعض الشركات الأجنبية المستوردة لأفلام منعت بسبب اتخاذ موقف من بعض الفنانين الذين يشتركون فيها، وفيما إذا كانت هذه الشركات توافق على أن يسمح لها بعرض تلك الأفلام الممنوعة مقابل خصم ٥٠٪ من حصيلة الإيرادات لصالح اللاجئين من العرب، فكان جواب هذه الشركات جميعاً بالإيجاب، إلا أن أحد أعضاء المجلس (سامى داود) اعترض على ذلك باعتبار أننا فى مصر لسنا وحدنا المنفذين لقرارات المقاطعة»، وعليه اتخذ الرأى فى الاستمرار بتأجيل عرض الفيلم ورفضت المقاطعة اقتراح الـ٥٠٪».

(١٢)

ثم تروى اعتدال ممتاز أنها ظلت حريصة على موقفها المحبذ لعرض فيلم «كليوباترا» على الجمهور المصرى وتقول:

«وعاودت الكتابة إليها - أى إلى الإدارة المسئولة عن المقاطعة - عدة مرات لصالح الفيلم، كما كتبت إلى كل من وزارة الثقافة والإعلام والهيئة العامة للسينما، فيما إذا كان من الممكن فعل أى شىء بحيث يعرض هذا الفيلم، وكان أن ردت المقاطعة بالشروط الواجب توافرها لإمكان السماح بعرض أفلام الممثلين والممثلات الأجانب الذين حظر عرض أفلامهم من دخول البلاد العربية بما يلى:

- ❑ أولاً: من حيث المبدأ ووفقاً لأحكام المقاطعة فإنه لا يجوز النظر بالسماح بعرض فيلم لممثلة أو ممثل ممنوع ما لم يرفع اسم الممثل أو الممثلة من قائمة الممنوعين وتزول الأسباب التى أدت إلى إدراجه».
- ❑ ثانياً: ولثبوت أن اليزابيث تايلور قد قامت بأعمال لصالح إسرائيل، بصرف النظر عن أنها اعتنقت اليهودية فى فترة من فترات حياتها، وقد ثبت هذا بالقطع للأسباب الآتية:

«أولا: أنها اشترت سندات إسرائيلية بمائة ألف دولار قبل أن يمنع عرض أفلامها بالبلاد العربية».

«ثانيا: قامت بمجهود ضخم لترويج السندات الإسرائيلية مستغلة شهرتها».

«ثالثا: تبرعها بمبلغ سبعين ألف دولار لبناء مسرح فى تل أبيب».

«هذا ولقد قامت بأعمال لاحقة بعد الحظر؛ منها: أنها قامت بتمثيل الأفلام الضخمة الدعائية الإسرائيلية منها فيلم (Sone of the star) عن مغامرات مزعومة قامت بها فصيلة من الجيش الإسرائيلى أمام الجيش المصرى بكامله ، هذه الأفلام التى ترمى إلى تمجيد إسرائيل والحط من قيمة العرب».

«وعليه لا يجوز رفع الحظر عن أفلامها ما لم تقم بالآتى:

«١ ـ التبرع لهيئات عربية بمبالغ تعادل ما سبق أن تبرعت به لإسرائيل ومن حسابها الخاص وليس نتيجة عرض فيلم لها فى البلاد العربية».

«٢ ـ قيامها بالمشاركة الفعالة فى جمع التبرعات لمصلحة الفلسطينيين الذين شردتهم إسرائيل».

«٣ ـ أن تبدى استعدادها للقيام بتمثيل فيلم لصالح القضية الفلسطينية مقابل الأفلام التى أنتجتها لصالح القضية الصهيونية».

«وأقلقنى السؤال.. هل سيظل الحكم على فيلم كيلوباترا بألا يراه كل من المشاهدين: العربى والإسرائيلى؟ ، وكان فى اعتقادى أنه كلما عادت الأحوال إلى مستواها العادى الذى لا يتصف بشدة الحساسية أو لا يتأثر بالصراع الشرس الذى استمر على مدى ثلاثين سنة بين العرب وإسرائيل ؛ انفتحت آفاق لا أدرى كم تكون واسعة أمام عرض هذا الفيلم الممتاز فى الجانبين العربى والإسرائيلى».

«وتركت الرقابة.. وكانت المبادرة التاريخية الشجاعة فى إحلال السلام بين البلدين المتحاربين.. وتوقعت أن اليوم الذى سيشاهد فيه جمهور الشرق الأوسط هذا الفيلم لن يكون بعيداً ، وتحققت إحدى أمنياتى الرقابية فى عرض الفيلم بسينما كايرو فى عام ١٩٧٩».

(١٣)

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب نرى صاحبته وهى واعية تمام الوعى للفروق

الجوهرية بين الأعمال الفنية المختلفة ، وهى ترى أن بعضها متميز وأن بعضها الآخر غير متميز ، وهى لا تجد حرجاً فى أن تسمى الأشياء بأسمائها ، وهى تخصص الفصل الرابع من كتابها للحديث عن موقف الرقابة من هذه الأفلام غير الممتازة ، وتأخذ لهذا نموذجاً فيلم «قصر الشوق» الذى أنتجته مؤسسة السينما وهو نموذج واضح ومعبر عن معاناة الرقابة مع مؤسسة السينما تماماً كفيلم آخر هو «امرأة ورجل» ، وترى الأستاذة اعتدال ممتاز بكل وضوح وصراحة وشجاعة أنه مأخوذ عن قصة لها قيمتها الأدبية وكاتبها هو أحد كبار أدبائنا المرموقين ، ولكن الفيلم أهدر القصة الأصلية وهى تقول ما نصه :

«فهذا الفيلم ـ رجل وامرأة ـ مأخوذ عن قصة لها قيمتها الأدبية وكاتبها هو أحد كبار أدبائنا المرموقين (يحيى حقى) لكن الفيلم أهدر القصة الأصلية ، وعند عرض الفيلم (فى ٢ يناير ١٩٧١) على لجنة الرقباء ، تقرر بإجماع الآراء أن يقتصر عرض الفيلم على الكبار فقط مع حذف بعض المناظر التى حددتها التقارير».

«وعندما راقبت الفيلم أصابتنى الحيرة.. فالفيلم مستواه الفنى هابط لدرجة كبيرة جداً ، وهابط فى مخاطبته للجنس وفى مناظره الجنسية المكشوفة ، وأصبحت سمة من سمات الفيلم المصرى فى ذلك الوقت مخاطبة الغرائز الجنسية. واعتبرت هذا الفيلم من أكثر الأفلام المصرية المثيرة التى صادفتنى من هذا النوع».

ورأيت أنه ربما كان أسلم الطرق وأقصرها أن أهذب الفيلم بحيث يصبح لائقاً بالعرض الجماهيرى ، كما اتخذت قرارى بأن يكون التصدير بنفس حالة العرض المحلى».

«ولم أصل إلى رأى مع صاحب الشركة الذى طالب بالاحتكام إلى مجلس الرقابة لأنه أراد الاحتفاظ بجزء من الفيلم رأيت فيه خروجاً على الآداب العامة ، كما أنى لاحظت أن هذا الجزء تقليد لمنظر أخذ من فيلم أجنبى ، باسم (Quarry) كان من الأفلام التى رخص بها مدير عام الرقابة السابق (مصطفى درويش) ، وتقرر بعد إلغاء ندبه إعادة مراقبة الأفلام التى رخص بها ، وكان هذا الفيلم ضمنها ، وحذف الجزء المشار إليه من الفيلم».

«وعرضت الفصل الذى به الجزء المختلف عليه من الفيلم على المجلس (الجلسة ٨٠ بتاريخ ٤ مارس ١٩٧١) بعد أن حذفت جزءاً كبيراً منه ، ولكنى كنت أرى أنه مازال مخلاً بالآداب العامة ورأى عضوان (نجيب محفوظ وسامى داود) من المجلس أن لا بأس من ترك هذا الجزء ، بينما اعترض عليه عضو ثالث (أحمد الحضرى) ، واستقر الرأى على عرض الفيلم كاملاً فى جلسة قادمة (جلسة ٨١ فى ١١ مارس ١٩٧١) ليكون الحكم عليه سليما».

«ويتلخص موضـوع الفيلم فى أن جاسـر أحب حميدة الغـازية ، وقتل متـولى غريمه ، وحكم عليه بالسـجن خمس سنوات ، وعندما خـرج عاش فى ضيـافة ابن خاله إسمـاعيل المتزوج من نرجس اللعـوب ، واشتغل جاسـر قاطع حجارة بمحجـر ووقع فى غرام نرجس التى أغرته بمعاشرتها ، كما أغرت كثيرين غيره عن طريق خميس شيخ الخفر».

«قام جاسر بتدبـير مقتل إسماعيل وتزوج من نرجس بعد فـسخ خطوبته من صالحة ابنة صاحب المحجر ، وحاولت حميدة الغازية إعادته إليها لكنه مضى يقاومها».

«فقد جاسر بصره أثناء عمله ، وأتيحت الفرصة لنرجس لتذهب إلى بيت خميس شيخ الخفر القواد ، وهناك لحق بها جاسر واستطاع أن يقتلها ويقتل خميس».



وتقدم صاحبة هذه المذكرات صورة حية لاختـلافات الأذواق والعوامل الحاكمة للتقييم واتخاذ القـرار من خلال روايتـها لموقف مـجلس الرقابة من كـثير من الأفـلام المـعروضـة عليـه ، ومن هذه المواقف نقرأ ما ترويه عن فيلم «رجل وامرأة» وذلك حيث تقول:

«... وبعد الـعرض على مجلـس الرقابة رأى أغلب الأعـضاء أنه لا بأس من السـماح بعرضـه عرضاً عـاماً بعـد أن هذبت الرقابة مناظر الفيـلم ، إلا عضواً واحـدا (سامى داود) اعتـبر أن عـرض الفيلم إسـاءة إلى صورة الحـياة فى مـصر الريفـية ، وأنه يهـدم كل قيـمنا الاجتماعية من صداقة وقرابة وحياة زوجـية ، ويهدرها جميعاً ، بالإضافة إلى أنه قائم على مسـائل جنسية مـفضـوحة جداً تـكشف عن الهدف الوحـيد من الفـيلم ، وأن من واجب المجلس عرض الموضوع على الوزير مع الإشارة إلى هبوط مستوى الفيلم المصرى».

«وكلف المجلس العضـو المعترض بكتـابة تقرير مفـصل توطئة لعـرضه على الوزير مع إبداء الرأى فيما يتبع مستقبلاً فى أمثال هذا الفيلم».

«وعند عـرض محـضر مـجلس الرقابة عـلى الوزير أشر وكـيل وزارة الثقـافة (حـسن عبـدالمنعم كامل) ومـقرر الجلسـة بالآتى (مسـألة هبوط مـستـوى الأفلام واتخاذهـا ذريعة للرفض باعـتبـار أن ارتفاع المسـتوى يدخل ضـمن مـصالح الدولة العليـا ، إعمـالاً للنص القانونى ، موضوع يثور فيه جدل ويقتحـمه بعض السادة أرباب الأقلام الصحفية بين مؤيد ومعارض ، من قبيل هذا ما حدث من أيام حين اتصل بى أحدهم وهو السيد رءوف توفيق تليـفونيـاً فى صيـغة المحـاسبة عـلى توصيـة المجلس بالنسبـة لفيلم «لعـبة كل يـوم» وقرار سيادتكم بمنع عرضه لهبوط مستواه.. وهكذا».

«وأشر السيد الوزير (بدر الدين أبو غازى) (ينتظر تقرير الأستاذ سامى داود ولا سبيل إلى رفع مستوى الفيلم المصرى ما لم نأخذ بأسباب الحزم والتشدد بالقياس إلى ما هو هابط من هذه الأفلام)».

«وفى الجلسة التالية (جلسة ٨٢ فى ١٨ مارس ١٩٧١) نوقش تقرير العضو الذى جاء فيه:

«السبب فى عرض هذا الفيلم على المجلس ، اختلاف الرقابة مع منتج الفيلم حول مشهد واحد من مشاهده ، يمارس فيه البطل والبطلة الفعل الجنسى كاملاً ، وتلتقطه عدسة الكاميرا من خلال حاجز متموج شفاف ، إخفاء للتفاصيل مع إبقاء الحركة المثيرة بكل ما توحى به من خيالات».

«وقد رأى المجلس مشاهدة الفيلم كاملاً ليتبين ما إذا كان هناك ما يبرر إبقاء المشهد أو تخفيفه.. أو إقرار الرقابة على حذفه».

«وقد وضح لدى مشاهدة الفيلم ، أن الشركة المنتجة لم تستهدف منه سوى عرض مناظر الإثارة الجنسية ، ومشاهد العنف الشديد .. مع التجاوز الكامل عن طبيعة وأخلاقيات البيئة التى تجرى فيها أحداث الفيلم ، وهى بيئة القرية فى صعيد مصر».

«إن بطل القصة يثير خيالات نساء القرية وفتياتها ، لأنه قتل رجلاً ندد بعلاقة بينه وبين غازية القرية .. ودخل السجن .. فتطلق عليه نساء القرية اسم «جاسر بتاع حميدة».. ويتهافتن عليه لدى عودته من السجن .. ويطلقن الزغاريد .. وكأنما هو لم يقتل رجلاً من رجالهن ، إن هذا البطل لا يكاد ينعم بضيافة ابن خاله الفلاح وإيوائه له بعد خروجه من السجن ، حتى ينصب شباكه لزوجته ، وتجاريه الزوجة ، وتتفنن فى إغرائه بشتى المغريات ، حتى وزوجها نائم فى البيت».

إن الزوجة لا تجد مانعاً يمنعها من أن ترقص فى عرس عشيقها ، أمام زوجها وأمام الرجال الآخرين».

«إن من اليسير فى هذه البيئة ، أن تمارس الزوجة تجارة الجسد ، فى بيوت العُزاب من سكان القرية.. وأن يكون قوادها فى هذا العمل هو شيخ خفر القرية بزيه المعروف».

«إن العنصر «الشريف» الوحيد الذى يشمئز من عمل الزوجة ، ويندد به هى غازية القرية.. أما باقى الرجال والنساء.. فيلاحظون ويسكتون وكأن شيئاً غير عادى ولا مألوف ولا مستنكر يجرى فى محيط قريتهم».

«أما مناظر العنف والقتل بالجملة ، فتبلغ الذروة».

«وقد كان السؤال الذى فرض نفسه عقب مشاهدة هذا الفيلم ، هو كيف أجازت الرقابة تصويره بعد عرض السيناريو عليها.. خصوصاً أن تقارير الرقباء لا تشير إلى وجود أى خروج من الفيلم على السيناريو المعد».

«أما الإجابة السائدة ، فكانت أن معظم المخرجين لا يلتزمون عند تصوير الأفلام بالسيناريو المكتوب .. وأن الرقابة درجت على التساهل فى هذه الناحية ، وأن الفيلم ليس أسوأ من كثير من الأفلام المصرية التى تعرض فعلاً».

«على أن قراءة السيناريو قد أوضحت ما يلى :

«أن جميع مشاهد الإثارة الجنسية المعروضة فى الفيلم ، لا وجود لها على الإطلاق ولو من قبيل الإشارة العابرة فى السيناريو المكتوب .. وذلك ما عدا مشهدا واحدا فى مقدمة الفيلم ـ قبل العناوين ـ أشار إليه السيناريو بكلمة «جاسر فى خلوة مع حميدة».. وطلبت الرقابة حذفه ، ومع ذلك أصر المخرج عليه».

«إن قصة جديدة كاملة قد أُدخلت على الفيلم ، هى قصة البطولة النسائية الثانية فيه: «حميدة الغازية».. إن هذه الشخصية لا وجود لها على الإطلاق فى السيناريو بعد اللقطة الوحيدة المشار إليها فى مقدمة الفيلم .. وقد لا يكون هناك اعتراض رقابى على هذه القصة المستخدمة فى الفيلم.. لكن مجرد استخدامها كاملة بكل علاقاتها والمشاهد التى تظهر فيها ، يشير إلى خلل فى العمل الرقابى يجب تلافيه .. خصوصاً أن تقارير الرقابة لا تشير إلى شىء من هذه المخالفات».

«وخلاصة الرأى أن التشدد واجب عند النظر فى الترخيص بعرض هذا الفيلم ، إذا كانت وزارة الثقافة جادة فى الارتفاع بمستوى الفيلم المصرى ، وأخلاقياته».

«ولقد كانت الرقابة تتساهل مع أفلام القطاع العام ، حرصاً منها على اقتصاديات مؤسسة السينما المملوكة للشعب ، ودرج القطاع العام على القول بأنه مضطر إلى مجاراة أفلام القطاع الخاص.. التى تنافسه أمام شباك التذاكر ، ويستطيع القطاع الخاص بناء على هذا ، أن يستمر فى إغراء القطاع العام: إذا ظل يجد من الرقابة تساهلاً فى الترخيص بعرض أفلامه التى لا يستهدف منها سوى الربح من أى طريق مهما كانت المخالفات التى يقوم عليها إنتاجه».

«والمسئولية بعد هذا ستظل مسئولية وزارة الثقافة ، وأجهزتها الفنية والرقابية التى يجب

عليها أن ترسم طريقاً جديداً للفيلم المصرى ، يتناسب مع أهداف شعبنا وأخلاقياته وقيمه.. ومع خطورة العمل السينمائى وتأثيره البالغ».



وتصل الأستاذة اعتدال ممتاز إلى رواية تفصيلات جديدة كانت كفيلة بزيادة تعقيد هذه المسألة:

«وقد اتضح من هذا التقرير أن الفيلم موضوع المناقشة مخالف تماماً للسيناريو المرخص به من الرقابة ، بل هناك مشاهد أضيفت بالكامل دون أن يكون لها سند فى السيناريو».

«وقد رأى وكيل وزارة الثقافة أنه كان فى وسع الرقابة أن تؤدى واجبها وتعفى المجلس من عرض هذا الموضوع لو أن الرقباء قد أوضحوا فى تقاريرهم أن هناك خلافاً بين الفيلم والسيناريو».

«عندئذ ذكر عضو المجلس (أن الرقابة قد رخصت بسيناريو الفيلم بشرط حذف مشهد جاسر فى خلوة مع حميدة ، وحتى عند الترخيص بعرض الفيلم لم يحذف هذا المشهد ، عندئذ قررت مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية أن هذا المشهد الموجود فى الفيلم قد قامت الرقابة بتخفيفه ، كما أنها خففت مناظر كثيرة من الفيلم كانت موضوع اعتراض ، ولكن عضو المجلس (سامى داود) قرر أنه كان من الواجب حذف هذا المشهد بأكمله طالما أن الرقابة سبق أن قررت حذفه نهائياً فى السيناريو».

«وذكرت المدير العام (اعتدال ممتاز) للرقابة أن الرقابة لحد ما تعتبر أن المخرج فنان مثله كمثل من يصور صورة بالزيت قد يعن له أن يلمس هذا الجزء أو ذاك بأن يضيف عليه أو ينتقص منه ، فهى تتسامح طالما أن ليس هناك اعتراض رقابى ، أما إذا وجد أى اعتراض رقابى فهنا تحاسب الرقابة الشركة المنتجة».

«وعلق عضو آخر من المجلس (نجيب محفوظ) بأن منتجى الأفلام العربية يرون قدراً كبيراً من التسامح فى الأفلام الأجنبية ، والرقابة قد يكون لها بعض العذر فى السماح بعرض بعض المشاهد الجنسية فى الأفلام الأجنبية على اعتبار أنها تمثل بيئة غير بيئتنا ، لكن المنتج المصرى قد يستغل ظهور هذه المشاهد ويطالب بالقياس وبذلك يعطى المتفرج المصرى جرعات جنسية غير مناسبة».

«فاعترض العضو الأول (سامى داود) وذكر بأن الأذى الذى يصيب المتفرج من الأفلام الأجنبية أو العربية واحد ، ولكن خطورة الأفلام العربية تكمن عند عرضها فى الخارج أنها

تسيئ إلى سمعة الشعب المصرى على اعتبارها تمثل البيئة المصرية ، فمثلاً شيخ الخفر المصور فى هذا الفيلم قد صور على أنه قواد وهذا ما لا يقبله العقل إطلاقا».

«وقد رأى عضو ثالث (كمال الملاخ) أن شيخ الخفر قد ظهر بالفعل على أنه شخص سلبى جداً وكان المفروض فيه أن يزجر حميدة لا أن يقوم بعملية القوادة».

«لذلك رأى العضو المذكور أن يعدل الفيلم على الوجه التالى :

«١ ـ قص المغالاة فى إظهار شخصية شيخ الخفر والاكتفاء بظهوره مرة واحدة فقط».

«٢ ـ حذف المشهد بين «جاسر وحميدة» الذى يسبق أسماء الممثلين رغم أن هذا الجزء قد سبق الحذف منه بمعرفة الرقابة».

«٣ ـ حذف المشهد الجنسى كله بين «جاسر وعروسه» فى رقصة الخلخال».

«وقد رأى عضو المجلس أن يعرض الفيلم بعد الحذف المشار إليه محلياً وعدم الموافقة على التصدير إلى الخارج حيث إنه لا يمثل البيئة المصرية».

«وعاد العضو المعترض (سامى داود) يقول إنه إذا كانت الرقابة جادة فى عملها ، فإنه يجب أن يكون الفيلم مطابقاً تماماً للسيناريو المرخص به ، وإذا أريد أى تغيير فلا بأس من استئذان الرقابة ، مع ضرورة إخطار منتج هذا الفيلم لإعادة تعديله بحيث يطابق السيناريو المرخص به وحذف جميع المشاهد التى أضيفت والاستئذان فيما أضيف وكان جيدا».

«ووافق المجلس على الرأى واعتمده الوزير. وبناء على هذا حررت الرقابة خطاباً للشركة (فى ٢٦/ ٤/ ١٩٧١) قالت فيه: «تأسف الرقابة إذ تخطركم بأن الفيلم لم يأت مطابقاً للسيناريو المرخص به من الرقابة حيث أضيف إليه ما يلى:

١ ـ مشاهد الإثارة الجنسية.

٢ ـ شخصية حميدة الغازية.

٣ ـ كما أن الشركة لم تقم بحذف مشهد جاسر مع حميدة فى أول الفيلم والذى طلبت الرقابة حذفه من السيناريو المرخص به».

«ولما كان هذا مخالفاً لأحكام القانون ٣٠ لسنة ١٩٥٥».

«لذا قررت الرقابة إرجاء الترخيص بالفيلم لحين قيام الشركة بالالتزام بالسيناريو السابق الترخيص به من الرقابة».

وعلى نحو ما نمت خبرتنا بمثل هذه الأمور بفضل مدارستنا لمذكرات الأستاذة اعتدال ممتاز فإننا نستطيع أن نتصور كل قضية من هذه القضايا الرقابية وهى تحتمل كثيرا من الإجراءات التى لا تنتهى:

«ولكن الأمر لم ينته عند ذلك الحد ، بل استمرت المناقشات بين الرقابة والشركة المنتجة التى أرسلت مذكرة إلى الرقابة (فى ٢٨/ ٤/ ١٩٧١) توضح فيها أن قصة الفيلم من الأعمال الأدبية القيمة للأديب المعروف يحيى حقى ، ونظراً لأنها قصة قصيرة لا تتعدى الصفحات القلائل فكان لابد من معالجة السيناريو مع تحريك الشخصيات الجانبية حتى ولو ذكرت فى القصة الأصلية فى عبارة واحدة».

«لذلك بعد الكتابة الأولى للسيناريو وجدنا أن كل شخصيات الفيلم شريرة ، وأن عنصر الخير غير ممثل على الإطلاق فخلقنا شخصية حميدة الغازية من كلمة عابرة فى القصة الأصلية ، ورغم أنها غازية إلا أنها تتصرف مع جاسر بطيبة فطرية ، وخير وإنسانية ، فخروج الفيلم إذن عن السيناريو المصرح به من الرقابة جاء لتحقيق الجوانب الخيرة فى نموذج بشرى(الغازية) الذى تنتظر منه دائما السلوك المشين. وقد عمدنا إلى ذلك لتدعيم المصنف الفنى وليس امتهاناً له ، وإننا إذ نضع دائماً نصب أعيننا التعاون مع إدارتكم والتزام تعليماتكم من حيث الممنوع و المباح ، لذلك نرجو التفضل بالموافقة على التعديلات التى أضيفت إلى السيناريو».



وعند هذا الحد تحرص اعتدال ممتاز على أن تبرر قرارها النهائى فيما يتعلق بهذا الفيلم فتقول :

«وعلى هذا ، وافقت شخصياً على العرض مع الحذف والتخفيف للمشاهد السابقة موضع اعتراض الرقابة ، واستأذنت المجلس فى ذلك إنقاذا للفيلم مع إخطار كافة الشركات بالالتزام بالسيناريو المرخص والاستئذان فى كل ما يعن لها من تغيير أو إضافة ، واعتبر المجلس خطاب الشركة استئذاناً عن المضاف على السيناريو وتم حذف المشاهد المطلوب حذفها من الفيلم والترخيص به للعرض العام فى ٣/ ٥/ ١٩٧١».

(١٤)

على أننا نرى صاحبة هذه المذكرات وهى حريصة على أن تضمن مذكراتها ما ينبئ عن

أنها كانت تعنى عناية شديدة بالناحية الفنية لا بالناحية الأخلاقية فحسب ، وقد رأيت أن أختار أحد الأمثلة الدالة على هذا الخلق فى ممارستها ، ولم أجد خيراً من ذكرياتها عن موقفها من فيلم «ثم تشرق الشمس» إخراج أحمد ضياء الدين ، حيث نجد روحها المتحمسة للفن والإتقان الفنى تطالعنا بوضوح شديد:

«... عند عرض الفيلم علينا بالرقابة تملكنى غيظ شديد ، لأن الفيلم من الناحية الفنية يعتبر من الأفلام جيدة المستوى ، إلا أن قيمته الفنية لم تكتمل ، وجاء الفيلم - فى رأيى - مشوهاً لوجود تخلخل به نتج عن عدم التزام القصة بالفترة الزمنية التى ترخص بها السيناريو ، لأن أحداث الفيلم المفروض فيها أن تكون قد وقعت قبل الثورة ، بينما جاء الفيلم مصوراً بجميع الأحداث والمتغيرات التى حدثت وقت تصوير الفيلم ، بل حرص الفيلم على أن يحدد فترة الأحداث بعد موت جمال عبدالناصر ، لأنه ركز على صورته مجللة بالسواد ، كما أظهر صور أمناء الشرطة ، والسيدات يرتدين الملابس القصيرة جداً حسب موديلات الوقت».

«ولم يقتصر الأمر على الأوضاع الشكلية فقط ، بل إن عدم الالتزام بالزمن أوجد التخلخل بالقصة أيضاً لما تأكد من معانى وانطباعات أخلت بالمجتمع المصرى فيما بعد الثورة الاشتراكية ، الأمر الذى أوجب الاعتراض رقابياً على الفيلم ، فنجد أن البطل يسخط على الفقر رغم أنه على مستوى معيشى مرتفع ، ونجد أيضاً أن النماذج الأسرية فى الشرف والنبل مركزة كلها فى كبار الأغنياء والإقطاعيين ، الأمر الذى لم توافق عليه الرقابة إطلاقاً فى ترخيصها بالسيناريو ، ولا فى تحفظاتها عليه».

«وفى نقاشى مع المؤلف والمنتج والمخرج أكدت هذا المعنى ، وبكل العطف والتفاهم بينت وجهة النظر الرقابية ، ورغم تأكيدى لهم بتخفيف مناظر الجنس ، والجنس للجنس حفاظاً على الآداب العامة ، لم يكن هناك التزام بذلك عند تنفيذ الفيلم ، والأكثر من هذا أضيفت إلى الفيلم بعض المشاهد والأحداث الجانبية ، الأمر الذى اعتبرته الرقابة خروجاً على الآداب العامة ، لأن جرعة الجنس جاءت كبيرة وضاغطة ، واحترت ماذا أصنع ، وبيت أمرا».

«رأيت أن أضع المؤسسة المصرية العامة للسينما أمام مسئولياتها: ولم أبد فى الفيلم رأياً معيناً أو قاطعاً ودون إخلال فى واجبى أشرتُ فى تقريرى بأن الفيلم لم يلتزم بالسيناريو المرخص ، وأن جرعة الجنس به كبيرة ولم أنس أن أشير بالتقرير إلى أن الفيلم رغم ذلك على مستوى فنى جيد فيما يختص بالتصوير والألوان والإخراج ، وطالبت بعرض الفيلم

على مجلس الرقابة وكأنى أسأله المشورة بينما أردت فى قرارة نفسى أن أشعر وزارة الثقافة باستهانة المؤسسة بمقومات صناعة الأفلام وبديهياتها ، وأولاها المحافظة على ما توحى به الفترة الزمنية التى اختارها المؤلف إطارا لأحداثها وشخصياتها ، وأردت أن أبين أخطاء المؤسسة بأعمالها ، حتى تكف المؤسسة المصرية العامة للسينما ، عن الضجيج بالشكوى من الرقابة واتهامها زوراً للرقابة بأنها تُفشل أعمالها ، حتى يتبين للجميع أن الرقابة ليست متعصبة معها ، بل تكمن فيها هى نفسها أسباب فشلها».



وقد آثرت أن أقتبس للقارئ هذه الفقرة المطولة من هذه المذكرات لأنها تعكس تماماً الروح السائدة فى هذا الكتاب واللهجة الغالبة على حديث هذه السيدة الرقيبة ، وقد يَعجب قارئ كتابنا هذا من أن يدور مثل هذا الصراع على هذا النحو (ولكن هكذا كانت الأمور تسير ، وقد قُدم هذا الفيلم للرقابة فى يونيو ١٩٧١) ، وليس هذا مجالاً لعرض سلبيات مؤسسة السينما التى انتهت من الوجود وقد أودت مثل هذه التصرفات بوجودها فى النهاية ، ولكننا نُواجه فى هذا الكتاب لأول مرة بنصوص مكتوبة حافلة بالموضوعية إن لم تكن صورة من صور الموضوعية فى أرفع صورها ، ولهذا فإننا نشكر للسيدة اعتدال ممتاز هذا الجهد فى مذكراتها ، الذى يوفر على متخذ القرار فى المستقبل القريب والبعيد سنوات عديدة من التجربة والنجاح والفشل ، أقصد الفشل والفشل الذريع.

وهكذا تلخص لنا صاحبة المذكرات قصة فيلم «ثم تشرق الشمس» مع الرقابة ، وتشيد بالموقف الذى وقفه الدكتور إسماعيل غانم وزير الثقافة ، ولكنه ـ على حد تعبيرها ـ لسوء الحظ لم يطل الأمر به بالوزارة ، ونقل مديراً لجامعة عين شمس ودون أن تتمكن الرقيبة (الأستاذة اعتدال ممتاز) من أن تعرف المشاهد التى اعترض عليها بالفيلم.

وتشير صاحبة المذكرات بعد هذا فى فقرات متوالية إلى تدخل بعض أقطابنا المثقفين من أجل تمرير عرض هذا الفيلم ، ثم تدخل الدكتور عبدالقادر حاتم نائب رئيس الوزراء لحذف بعض لقطاته.

(١٥)

وتحرص الأستاذة اعتدال ممتاز على أن تشير إلى الأثر الذى كان ينشأ عن كثرة التغيرات

الوزارية حيث تعود مناقشة الملف لتبدأ من نقطة البداية ، وكأن ما مضى لم يكن شيئا مذكورا ، وفى هذا الإطار فإنها تروى لنا قصة فيلم «شقة مفروشة» على مدى عدة صفحات ، كما تورد نصوصاً شبه كاملة لمناقشات مجلس الرقابة التى يدين فيها هذا الفيلم إدانة شديدة.. ولكن سرعان ما تغير الوزير(!!):

«... والفيلم من إخراج وإنتاج حسن الإمام قصة أبو السعود الإبيارى وسيناريو سعد الدين وهبة تمثيل أحمد مظهر وماجدة الخطيب ومحمد رضا ، من توزيع شركة القاهرة للتوزيع السينمائى ـ مؤسسة السينما».

«... ويتناول موضوع الفيلم قصة «زينب» مدرسة موسيقى بالمنصورة التى نقلت إلى القاهرة لتعمل مدرسة بمعهد الموسيقى العربية ، تبحث عن شقة مفروشة فتجدها عند العالمة نجف ، وتدور أحداث الفيلم ونعلم أن الشقة مؤجرة فعلاً لمذيع انتدب للعمل بالإسكندرية ويترك الشقة ليلاً. يعود المذيع ليكتشف أن المعلمة سمحت لزينب بالسكن فى الشقة ، ذلك أنها تعمل بالنهار. وتبدأ المشاحنات والمواقف التى تنتهى بوقوع كل منهما فى حب الآخر ثم النهاية السعيدة».

«والمفروض أن الفيلم كوميدى ، وفى رأيى أنه عرض صورة جو العالمة القديمة صاحبة الشقة بصورة هابطة ، كما تعرض للشخصيات المختلفة بصورة أكثر هبوطاً كزوجها والخادم والخادمة.. إلخ ، أما من الناحية الفنية فكان فى الفيلم من السذاجة والاستهتار بالجماهير ، سواء فى الحوار أو التصوير أو الإخراج ما جعلنى أحتار فى أمره ، وأخيراً اتخذت قرارى الآتى والذى دونته فى التقرير بالملف: «(الفيلم من إنتاج خاص ممول من المؤسسة ، وهو فيلم دون المستوى ، بل فى رأيى من الأفلام الهابطة ، وأرى الترخيص به بالعرض كما هو حتى يكون الحكم عليه من الجماهير.. ولا أوافق على تصديره)».

«إلا أن الشركة وعلى غير المعتاد بالنسبة للأفلام المصرية ، طالبت بترخيص تصدير الفيلم قبل ترخيص العرض المحلى جماهيرياً ، وعندما أبلغت برفض الرقابة بتصدير الفيلم (فى ٥ مايو ١٩٧٠) ، طالب مدير الإدارة العامة للتوزيع الداخلى (محمد لمعى) برجاء إعادة النظر فى قرار الرقابة نظراً لارتباط الشركة بتعاقدات كثيرة على استغلال الفيلم المشار إليه فى الخارج ، الأمر الذى يترتب عليه منع تصديره ليس فقط خسارة كبيرة للمؤسسة وللدولة من العملات الصعبة ، بل أيضاً اهتزاز ثقة العملاء فى معاملاتهم مع الشركة والمؤسسة!».

«وكنت قد طلبت من مجلس الرقابة مشاهدة فصلين من الفيلم للوقوف على مدى

تفاهة الإنتاج وهبوط الإخراج ، وعلى الأخص أن الفيلم من تمويل المؤسسة وتوزيع شركة القاهرة للتوزيع السينمائى (أى أن تمويل الفيلم وتوزيعه تتحمله الخزانة العامة)».

«وعندما عُرض محضر مجلس الرقابة على وزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة (الجلسة ٥٠ من محاضر مجلس الرقابة فى ٢٧ أبريل ١٩٧٠) أشر بخطه: (لا يعرض فيلم شقة مفروشة إلا بعد مشاهدته بواسطة المجلس ومعاملته المعاملة الموضوعية بصرف النظر عن تمويله بواسطة المؤسسة ثم إخطارى بالنتيجة)».

«وعندما شاهد مجلس الرقابة الفيلم كاملا (الجلسة ٥٤ فى ٢٨ مايو ١٩٧٠) قرر الأعضاء عدم الموافقة على الترخيص به إطلاقاً بالإجماع للأسباب الآتية:

١ ـ الفيلم يمثل عقوبة للمشاهد.

٢ ـ فيلم يمتهن كل أوليات العمل السينمائى.

٣ ـ فيلم ينحدر بالسينما إلى ما قبل الثلاثينيات.

٤ ـ فيلم فيه من السذاجة والإسفاف ما لا يغتفر لمبتدئ.

٥ ـ فيلم يشوه صورة المجتمع المصرى كأفراد وكمجموعات وكمسئولين.

٦ ـ الفيلم يعتبر خسارة تستحق تحديد مسئولية المؤسسة فى تمويله.

٧ ـ لم ينفذ مخرج الفيلم التعليمات الرقابية الواردة فى السيناريو والمطلوب حذفها رقابيا.

٨ ـ أضاف المخرج إلى الفيلم مشاهد دون ترخيص من الرقابة حيث لم يرد نصها ضمن السيناريو المرخص.

٩ ـ حذف المخرج من السيناريو مشاهد دون ترخيص من الرقابة.

«اعتمد الوزير المحضر وأشّر «يجرى تحقيق لتحديد المسئولية عن ظهور هذا الفيلم وتوقيع عقوبة رادعة لمنع تكرار هذا الاستهتار والإسفاف» ، وأرسل صورة من المحضر إلى رئيس مجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للسينما (بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٧٠) ، وبلغت الشركة بالمنع إلا أنها تظلمت لدى لجنة التظلمات المشكلة بالقانون الرقابى (التظلم فى ٢١/ ٧/ ١٩٧٠)».

«وعند نظر الموضوع أمام اللجنة ، استعرضت أسباب المنع واستطلعت رأى حسن الإمام فقرر أنه أنتج هذا الفيلم اعتماداً على اسم كاتب السيناريو سعدالدين وهبة ، كما

قـرر أنه اشتـرى القصـة من المؤسسـة ، وأن الموضوع كـوميـدى سيـدر ربحـاً وفيـراً على المؤسسة ، كما قرر أن الفيلم أحسن بكثير من الأفلام الكوميدية التى عرضت».

«وبعد أن شاهدت اللجنة الفيلم قررت بأنه جد هابط ويتضمن من السذاجة والإسفاف ما لا يُقبل فـى عصر أصبحت فـيه السينما تمثل الصـور المرئية للنهضة والـتقدم ، ولكن إذا كانت هناك أية كلمة إنصاف له فإن هذه الكلمـة لا تخرج عن كونه يماثل الكثير من الأفلام المصرية».

«والأمـر كـذلك ينبـغى على المسئـولين عـن السـينمـا المصـرية وقـف هذا الانحـدار والإسفـاف ، وغنى عن البيـان أن الارتفاع بمستـوى الفيلم المصـرى هو مسئـولية المؤسـسة المصرية العامة للسينما فيكون من المؤسف أن يشارك في إنتاج هذه الأفلام الجهة التى يرجى منها الإصلاح».

«لذلك يتعين مـساءلة المتسبب أو المسئـول عن اشتراك المؤسسـة فى تمويل هذا الفيلم أو ما يماثله من الأفلام الهابطة الرديئة».

«وقد رأى رئيس اللجـنة منع عرض الفيلم للأسـباب السابـق ذكرها ، إلا أنه نظراً لأن القضـاء بمنع عرض الفيلم يتضـمن خسارة شديدة علـى المنتج فى وقت نرى أن هذا الفيلم يماثل الكثير من الأفلام المرخص بهـا ، لذلك راعت اللجنة ما تقدم ، وارتأت بناء على رأى نائب مجلس الدولة وممثل نقـابة السينما ، تخـفيف المشاهد المطولة التى قـد تكون من شأن تعديلها أن يصبح الفيلم مقبولاً بعض القبول ويمكن عرضه».

«وعليه رأت اللجنة إبلاغ وزير الثـقافة بالتوصيـة بإجراء تحقيق مع المسئـولين بالمؤسسة المصرية العامة للسينما حسبما أشرنا إليـه فيما تقدم» ، وتصادف أن مؤسسة السينما أحالت على الرقابة فى ذلك الوقت عدة أفلام هابطة المستوى غاية فى الهبوط ورديئة سواء كان من إنتاجها أو توزيعـها مثل فيلم آدم والنساء ، سوق الحريم ، أبطال ونساء ، شـقة مفروشـة ، الناس اللى جوه ، أوهام الحب ، برىء فـى المشنقة ، موسيـقى ، حب وجاسوسية ، الحب والفلوس.. إلخ».

«وكنت اعترضت على تصدير بعض منها وعـرضت الأمر على مجلس الرقابة (الجلسة ٦٦ فى ٢٢ أكتـوبر ١٩٧٠) الذى خالـف رأيى وكان ما حـدث من اعتـراض الوزير على رأى المجلس».

«وحدث تغـييـر وزارى وعين وزير آخر لوزارة الثـقافـة وبعد قـرار الرقابة بمنع الفـيلم

بحوالى ستة شهور تساءلت المؤسسة عما تم فى أفلامها الثلاثة : شقة مفروشة ـ الناس اللى جوه ـ آدم والنساء».



وتبدو معركة صاحبة هذه المذكرات من أجل الذوق والأخلاق وصيانة المجتمع وكأنها قد تحولت إلى معركة مستمرة ومتواصلة بينها (أو بين الرقابة) من ناحية ، وبين مؤسسة السينما التى هى مؤسسة الدولة (القطاع العام) المسئولة والمعنية بإنتاج الأفلام ، ونحن نرى هذه المؤسسة وقد تحولت إلى أكبر كيان مخالف لأوليات القيم والذوق والفن ، ويتأكد هذا المعنى من خلال مطالعتنا للعرض المتواصل الذى تقدمه الأستاذة اعتدال ممتاز لسلبيات المؤسسة المصرية العامة للسينما واستخفافها بالجمهور وبالقيم (على حد تعبير اعتدال ممتاز) فى المعارك التى دارت حول هذه الأفلام التى اتخذتها صاحبة هذا الكتاب مجالاً لعرض خلافاتها مع المؤسسة فى مواضع كثيرة ، بل إنها تفرد الباب الخامس من كتابها للحديث عن «المؤسسة المصرية العامة للسينما: مالها وما عليها» ، وهذا الفصل بلاشك نموذج ممتاز للدراسات الموضوعية التى تهم الاقتصاديين والاجتماعيين والمشتغلين بالعمل الثقافى ، لأنه يبين بوضوح عن كثير من خفايا ودقائق التاريخ الطبيعى لمثل هذه المؤسسة التى أوجدتها الحكومة للقيام بدور معين ، فإذا هى ـ أى المؤسسة ـ لا تقوم بهذا الدور وإنما تضع الدولة فى موقف حرج حين تنتج باسم الدولة ما لا ترضى عنه الدولة.

وتناقش المؤلفة الأساليب المختلفة التى انتهجتها هيئة السينما فى الإنتاج والإنتاج المشترك والإنتاج الخارجى والتصدير وتأخذ مثلاً عل ذلك فيلمى «الخرطوم» (صفحات ١٩٣ ـ ١٩٨) ، و«أبو الهول الزجاجى» (صفحات ١٩٨ ـ ٢٠١) ، وأفلام «الهيبز» وما هو أسوأ منها ، كفيلم «جنون الشباب» (صفحات ٢٠٤ ـ ٢٠٨) ، وأفلام العنف وأفلام الجريمة (صفحات ٢٠٨ ـ ٢١٣) ، وليس أصدق فى التعبير عن مدى معاناة هذه السيدة مع هذه الأفلام من أن ننقل للقارئ هذه الفقرة مما كتبته الأستاذة اعتدال ممتاز:

«... وفى اليوم التالى سألنى وزير الثقافة تليفونياً عن أسباب منع تلك الأفلام ، وفى نفس اليوم زارنى وكيل وزارة الثقافة بمكتبى ، وسألنى عن نفس الأفلام الممنوعة وعرضت عليه ملفاتها ، كما عرضت عليه الأفلام ، وبعد أن شاهدها انزعج منها انزعاجاً شديداً وأيد وجهة نظرى ، وانفرجت أساريره ، وبدا طبيعياً بعد أن كان يتخذ سمت الجدية والتحدى وقال لى بثقة وود: «تعرفى كلمة فى سرك الدكتور ثروت قال لى إيه: روح

شوف الست دى بتهبب إيه فى الأفلام .. الآن .. أنت على حق ومن غير الممكن عرض هذه الأفلام».

وكتب فى مذكرته إلى الوزير: «بعد مشاهدتى فيلمى «يانكى والسيسكو» أوافق الرقابة على منع العرض لما «يؤكدانه» من الحقد والثأر وفوز الجريمة وبشاعة القتال ، ويحسن أن يتنبه على الشركات كلها مراعاة عدم استيراد أفلام بهذه البشاعة والتفاهة».

(١٦)

وتحرص صاحبة هذه المذكرات على أن تحدثنا عن موقفها كرقيبة تجاه نوع آخر من الأفلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف وهو «أفلام الكاراتيه» ويشى حديثها عن هذه الأفلام بنفس الروح من الإخلاص للآداب العامة وللوظيفة العامة فى نفس الوقت ، وإذا بنا ونحن نتصور الرقابة وظيفة ممتعة نفاجأ ونكتشف أن أداء بعض الوظائف يمثل نوعاً من العذاب المستمر لصاحب الوظيفة ، ومعاناة لا تقل عن معاناة الجنود فى ساحات القتال:

«... وهناك نوع آخر من الأفلام له طابع يرتبط فى رأيى ارتباطاً وثيقاً بأفلام العنف هو: «أفلام الكاراتيه وأذكر أن أول فيلمين وصلا منها إلى الرقابة هما فيلما «The Chinese Boxer» و«Big Fight» ، وهما من إنتاج هونج كونج ، وعند مراقبة الفيلمين ولأول وهلة ترددت فى إجازة عرضهما جماهيرياً ، وتأرجح الرأى عندى بين الإجازة والرفض ، الرفض لما يتسم به الفيلمان من مناظر القسوة والبشاعة والقتل وإراقة الدماء ، علاوة على أنهما على مستوى فنى هابط ، وأن ليس بهما قيمة ثقافية أو فنية ، والإجازة لأن هذا النوع من الأفلام لون جديد انتشر بالخارج وتكلمت عنه الصحف ، ومن حق المشاهد المصرى رؤيته ، كما أنها تتناول لعبة الكاراتيه ، وهى لعبة رياضية أصلا وتستخدم فى الدفاع عن النفس ومباحة وتدرس بالنوادى الرياضية والجيش».

«وأخذت رأى وكيل وزارة الثقافة (حسن عبدالمنعم كامل) فى أمر أفلام الكاراتيه وأوضحت له مخاوفى بالنسبة للشباب والأطفال لسهولة محاكاة حركات هذه الأفلام وفى لقاء بمكتبى عرضت عليه الفيلمين وشاركنى هذه المخاوف ونصحنى بالتريث فى إجازة الأفلام».

«وفى خلال زيارة أخرى فى يوم آخر زارنى رئيس مجلس إدارة هيئة مجلس السينما

والمسرح والموسيقى (عبدالحميد جودة السحار) ، وطالبنى رئيس مجلس إدارة الهيئة بعدم ترخيص أفلام الكاراتيه مؤقتاً وتعطيل إجازتها لحين وصول أفلام الهيئة لأنه توقع لهذه الأفلام ربحاً وفيراً ورواجاً عظيماً فى مصر وعلى الأخص أنها رائجة جداً ببيروت ، وأن وصول أفلام الشركات الأخرى قبل أفلام الهيئة سيضيع عليها سوق تلك الأفلام ، وعلى الأخص أن هناك سيلاً منها قد وصل الجمارك فعلاً وليس من بينها أفلام هيئة مؤسسة السينما والمسرح والموسيقى».

«وعندما واجهته بما نص عليه القانون باعتبار الأفلام مجازة إذا لم يبت فيها خلال ثلاثين يوماً ، أخبرنى بأن هناك خطابا فى الطريق إلىّ يطالبنى بعدم إجازة أفلام الكاراتيه».

«وجاء الخطاب غير ما تحدث به معى ، وكان مجرد إخطار بظهور أفلام بالأسواق التقليدية للفيلم المصرى ، أفلام من هونج كونج تعرض فى مظاهرها رياضة الكاراتيه ، وهى رياضة صينية ، لكنها فى الحقيقة أفلام تتسم بالعنف ، وأن هذه الأفلام أثرت على توزيع الأفلام المصرية فى تلك الأسواق ، وأن النجاح المادى لتلك الأفلام دفع بعض الموزعين المصريين بل بعض المشرفين على التوزيع فى هيئة السينما إلى استيراد بعض هذه الأفلام» ، وأن السماح بعرضها فى مصر سيؤثر ولا شك على الأفلام المصرية ، لذلك يقترح عدم إجازة مثل هذه الأفلام».

«وكان هذا الخطاب فى رأيى تغطية من رئيس مجلس إدارة هيئة المسرح والموسيقى لمجرد تعطيل الترخيص بأفلام الكاراتيه ولحين ورود أفلام الهيئة منها».



وتستطرد المذكرات إلى وصف المسارات الحكومية التى كانت الرقابة تجد نفسها مدفوعة إليها حين يلجأ إليها الآخرون من أجل إحقاق الباطل أو تضييع الوقت:

«واقترح وكيل وزارة الثقافة أخذ رأى المجلس الأعلى للشباب فى أفلام الكاراتيه ومدى صلاحيتها للعرض على الشباب والجماهير ، وأعتقد أن هذا من جانب الوكيل كان ليس لمعرفة رأى المجلس الأعلى فحسب ، بل كان يهدف كذلك إلى إعطاء المؤسسة فرصة حتى تصل أفلامها».

(١٧)

ويبدو أن صاحبة المذكرات كانت حريصة على أن تشير إلى أن تعويق عمل الرقابة لم

يكن يأتى فحسب من المؤسسة المصرية العامة للسينما بسبب تورطها فى الإنتاج ، ولكنه كان يأتى أيضا من خلال بعض أجهزة وزارة الثقافة نفسها ، وهى تخصص الفصل السادس من هذه المذكرات المتميزة لتجيب عن سؤال وضعته عنوانا للفصل: «كيف قاومت المؤسسات الفنية بوزارة الثقافة القوانين الرقابية؟» ، وبعد كثير من الأفكار النظرية التى تعكس تجربة صاحبتها المتميزة مع هذه الجهات ، تحدثنا الأستاذة اعتدال ممتاز عن قصة فيلم «العصر الحديث» لشارلى شابلن ، حيث قُدم للرقابة فى نسخة رديئة (محلية) فاعترضت عليه (فى ١٩٦٧) فاستجابت الشركة لملاحظاتها وأحضرت نسخة أخرى واضحة مستوردة.. ولكنها بعد سنوات (١٩٧٣) وجدت سيلاً من النسخ المطبوعة محلياً لأفلام عالمية وبالطبع كانت كلها دون المستوى المتوقع أو المطلوب.. إلخ.

كما تتناول الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا نماذج لمشكلاتها مع كل من الهيئة العامة للمسرح ، والموسيقى ، وإدارة العلاقات الثقافية الخارجية ، وقصور الثقافة الجماهيرية .

وفى شأن هذه الأخيرة نورد بعض فقراتها:

«ولاحظت أن قصور الثقافة الجماهيرية والتابعة لقصور الثقافة ، تقوم بنشاط فنى ، فتقدم عروضاً جماهيرية تشمل المسرحية والفيلم السينمائى والحفلات الترفيهية ، سواء فى مقار هذه القصور أو تحت إشرافها فى المسارح ودور السينما فى عواصم المحافظات أو القرى التى تقع فى دائرتها».

«وكانت تلك القصور تقدم عروضها الفنية بالمجان أو بأجور رمزية ، ولوحظ كذلك أن بعضا من العروض المسرحية التى تقدمها قصور الثقافة الجماهيرية سبق أن قدمتها فرق معروفة فى القاهرة والإسكندرية ، والبعض الآخر مسرحيات على المستوى المحلى يشترك فى أدائها الهواة من المترددين على قصور الثقافة أو الدارسين فى الأقسام الفنية فى تلك القصور ، وقد حدث فى مرات كثيرة أن شاهد الجمهور تلك العروض بغير أن تجيزها الرقابة [خضوعاً لأحكام القانون الرقابى] ولم يكن مديرو تلك القصور يخطرون الرقابة على المصنفات الفنية ببرامج العرض أو مواعيده وأيامه أو اسم الفرقة المسرحية أو أسماء أعضائها».

«ولم تكن قصور الثقافة الجماهيرية تراعى فى موضوعاتها التى تقدمها على مسارحها الظروف المختلفة ، فلوحظ أن الكثير مما كانت تقدمه الثقافة الجماهيرية كان موضع اعتراض الرقابة لعدم التزامه بالسياسة التى تنتهجها البلاد وقت العرض».

وتصل صاحبة المذكرات فى النهاية إلى أن تبلور فى وضوح شديد مدى أسفها وحزنها من أن تتولى بعض الجهات الثقافية القيام بأدوار تسىء إلى الوطن ، فضلا عن إهدارها للمال العام:

«... هكذا تتوالى الأمثلة الداعية للأسى والتفكير خاصة إذا أردنا أن نضع الأمور فى نصابها ، وأن تؤدى مؤسسات أو إدارات وزارة الثقافة مسئوليتها فى حدود واضحة قانونية وتحت محاسبة ناجزة ، لأن هذه الهيئات جميعها تنفق المال العام ، وينبغى لها أن تقدم إذا كان لا مفر من أن تنهض بإنتاج بعض الأعمال التى يعجز عنها القطاع الخاص ، أقول ينبغى لها أن تقدم ما يليق ببلدنا ، وطموح فنانينا وحاجات هذا الشعب الذى يحتاج فى سائر أنحاء حياته إلى أضواء هادية ، وفن نافع ، وعلم أنفع ، واستهداف حقيقى للمصلحة العامة ولا شىء غيرها».

(١٨)

وتولى صاحبة هذه المذكرات دراسة العلاقة بين «الرقابة ووسائل الإعلام»باهتمام شديد، وهى تتناول فى صراحة ووضوح ما لا تزال تذكره من امتعاضها من دور هذه الوسائل ـ أى وسائل الإعلام ـ فى محاربة الدور الذى تقوم به الرقابة من أجل الأخلاق العامة فتقول:

«... لكنى لاحظت على امتداد عملى فى الرقابة ، أن كثيراً مما كانت تنشره الصحف حول الرقابة والمصنفات الفنية من أفلام ومسرحيات وأغان ، كان جديراً بالتساؤل عن دوافعه وأسبابه ، مثلاً ظهرت مقالات تدافع عن فيلم أو أفلام بعينها وتتجنى على الرقابة فتوجه إليها اتهامات لا تقوم على معرفة بطبيعة عمل الرقابة ، ومع أنى مع حرية الرأى إلا أنى مع الحرية المسئولة ، حرية التعبير الصادر عن معرفة ، والنابع من دافع موضوعى لا شخصى ، ونسى أو تناسى بعض المحررين والكتّاب والنقاد أن كثيرين منهم مؤلفو قصص وكتّاب سيناريو وحوار للسينما والمسرح. بل منهم من دخل ميدان الإخراج ، وكان يحلو للبعض أن يكتب الحوار والأدب المكشوف ، والقصص الفاضح ، بل منهم من صور المناظر المعترض عليها والتى يندى لها الجبين ، وكانت خلوا حتى من الجمال أو الفن ، وكلما رفضت هوجمت الرقابة لأنها لا تملك أقلاماً لتدافع عن نفسها».

وتردف الأستاذة اعتدال ممتاز حديثها هذا بقولها :

«ولا أحب أن أستطرد إلى نوع العلاقات التى استطاع بعض منتجى الأفلام ومستورديها ونجومها بل والمؤسسة المصرية للسينما ، أن تقيمها مع عدد من الصحفيين ، وكان واضحاً أنها علاقات مدفوعة بدوافع بعيدة تماماً عن الصالح العام ، وبعيدة بالمثل عن تقاليد الصحافة ، هذه الوسيلة العظمى التى تستحق أن يشرف بالكتابة فيها أصحاب الرأى الحقيقى وحملة الأقلام النظيفة التى ينبغى أن تخدم قراءها بأن تقول لهم رأياً موضوعياً تبصرهم بالأخطاء وتتناول بالتقدير الأعمال الفنية الجيدة ، وتنقد نقداً حراً ومسئولاً الأعمال التى لا تصل إلى مستوى الإتقان المطلوب».

(١٩)

وعلى نفس النمط من الإنصاف والصراحة والموضوعية الذى تناولت به صاحبة المذكرات علاقة الرقابة بالصحافة تتناول علاقة الرقابة بالإذاعة ، وهى تعبر لنا عن الحيرة التى انتابتها فى كثير من الأحيان تجاه كثير من التصرفات التى كانت تجدها لا تمت بأية صلة للصالح العام ولا للذوق ولا للجمال ولا للفن ، فتقول:

«... وحدث كثيراً أن تقدمت بعض الشركات أو الأفراد إلى الرقابة على المصنفات الفنية بنصوص أغنيات بغرض تسجيلها أو أدائها بعد أن تكون قد أذيعت وشاعت بين الجماهير لسبب أن هيئة الإذاعة قد أذاعتها. وكان لدى من الأسباب ما يجيز لى الاعتراض على بعض كلماتها ، أو طريقة أدائها ، أو لهبوطها من الناحية الفنية ، أو مستوى اللغة المستخدمة ، ومع ذلك ظللت مكتوفة الأيدى فى مأزق بين أمرين: الأول أن الأغنية أذيعت وسمعها الجمهور وانتشرت بينه ، فأصبحت لا أملك الحق الكامل فى منعها أو الاعتراض عليها ، والأمر الثانى أنى لست فى حالة اقتناع بحيث أرضى عن إجازتها لسبب من الأسباب التى أبديت ، ومثال لذلك أغنيات «الطشت قال لى» و«سلامتها أم حسن» و«السح الدح امبو» وغيرها ، ورغم ذيوع هذه الأغنيات وانتشارها لم يكن قد تقدم بها أصحابها إلى الرقابة على المصنفات الفنية بنصوصها لتسجيلها أو ما إليه. وعندما قدمت تلك النصوص رجحت عندى كفة المنع ، وكان عذرى أن هذا الإجراء منى ربما حد من رقعة انتشارها بمنع تسجيلها ، ورأيت عرض رأيى هذا على مجلس الرقابة ، لكنه قرر

عكس ما أردت وأباح تسجيلها باعتبارها انتشرت بالفعل وأصبحت معروفة لدى الجماهير ولا داعى للتضييق عليها».



وتستأنف صاحبة المذكرات حديثها مكررة ما سبق لها الإشارة إليه من موقف الصحافة العدائى من الرقابة فى ذلك الوقت ، فتعبر عن أسفها لهذا الموقف:

«... وهاجمت الصحف وقتها الرقابة على المصنفات الفنية هجوماً شديداً بسبب هذه الأغنيات ، وقبل أن يتقدم أصحابها بنصوصها إلى الرقابة ، ولم يكبد الذين تصدوا بالنقد أنفسهم أن يتقصوا الحقائق قبل أن يشنوا هجوماً على الرقابة غير قائم على أساس ، وإنه لأمر محزن حقاً أن يحدث مثل هذا النقد المبنى على الجهل ، ليس فقط بالنسبة للرقابة على المصنفات الفنية ولكن بالنسبة لجوانب حياتنا المختلفة ، وإذا جاز لى أن أبدى رأيى فى النقد الذى يليق بالصحف أن تنشره ، فإنى أتصور أن الناقد الحقيقى يجمع فى قدراته بين أمرين: الأول المعرفة العلمية أو المعرفة الموضوعية المتكاملة. والثانى: أن يضع نفسه فى موضع القاضى العادل ، بمعنى أن رمز العدالة هو رمز معصوب العينين يحمل بيديه موازين دقيقة حتى لا يتأثر بما يرى أو بمن يرى وحتى يأتى حكمه أو رأيه رافداً قوياً ، يثرى علم النقد ويثرى الفن أيضاً ، ذلك أن النقد فى نهايته هو نوع من الاجتهاد العلمى والإبداع ما فى ذلك شك».

(٢٠)

وعلى صعيد ثالث تتناول صاحبة المذكرات علاقة الرقابة بالتليفزيون ، وتحكى لنا ملخص رأيها فى أحد مشاهد فيلم «الخرساء» ، وهى تجاهر بقولها:

«... إن التليفزيون وسيلة اتصال جماهيرى سريعة التأثير ، سريعة الانتشار ، ولما كان التليفزيون أداة توجيه وتثقيف ، وليس أداة تسلية فحسب ، كان لزاماً أن نفكر مرة ومرات فيما يقدم من برامج ، وإذا كانت الرقابة على المصنفات الفنية تتحرز فى عرض الأفلام بالنسبة لدور العرض السينمائى مرة ، فعلينا أن نُعيد التفكير عشرات المرات بالنسبة للتليفزيون ، لأن المشاهد حر فى اختيار دار العرض السينمائى التى يريد ، بينما التليفزيون

يقتحم البيوت على أصحابها اقتحاماً ، بكافة المستويات الثقافية وكافة الأعمار والقطاعات ، فارضاً برامجه وعروضه على الناس كافة».

«ورأيت أن تناقض الإذاعة والتليفزيون مع الرقابة على المصنفات الفنية من الأوضاع المعيبة التى تصيب أجهزة هامة مخلصة من أجهزة الدولة بالتصدع والتخبط ، وهى فى النهاية تعمل كلها من أجل هدف وطنى واحد هو بناء الإنسان المصرى بناءً سليماً صحيحاً ، ورأيت أن من واجبى أن أنبه إلى الخلل الذى لمست ، ولهذا كنت أثير تلك المسألة بصفة مستمرة مع وزراء الثقافة كلما أتيحت لى الفرصة».

(٢١)

ولا تقف صاحبة هذه المذكرات عند حدود علاقة الرقابة بأجهزة الفن والإعلام وأجهزة الإنتاج الفنى ، لكنها تتطرق إلى ما تطرقت إليه علاقات عملها وخبرتها بالفعل من احتكاك حاد ببعض الأجهزة السياسية والبرلمانية ، وهى تقص علينا إحدى قصصها مع الاتحاد الاشتراكى وهى قصة جديرة بالقراءة لأنها تطلعنا بكل وضوح على مناخ قدر لمصر أن يسيطر عليها فى وقت من الأوقات:

«... وأذكر ذات مرة أن أوقفتنى موقف المتهمة زميلة دراسة ووزيرة سابقة لوزارة الشئون الاجتماعية ومسئولة وقتها عن لجنة الثقافة والفكر بالاتحاد الاشتراكى العربى ، فذات صباح دق جرس التليفون لتقول لى: «أنت متهمة بإفساد السينما والمسرح والأدب فى مصر!! ومطلوب حضورك إلى الاتحاد الاشتراكى لتدافعى عن نفسك ، ضحكت ما شاء الله لى أن أضحك ، وقلت مداعبة: أفهم أنى قد أكون مسئولة عن إفساد السينما.. جائز!! وأفهم أنى قد أكون مسئولة عن إفساد المسرح أيضاً هذا جائز!! ولكن بالله عليك كيف أكون مسئولة عن إفساد الأدب فى مصر؟؟!! هل أنا أمسك بيد الكتّاب فيكتبون ما أشاء؟! هل أملى عليهم فيطيعون؟! هل لدىّ عصا سحرية مؤثرة على كل كتّاب مصر.. ولا أدرى؟! وهل أنا فاسدة إلى الحد الذى أفسد معه الأدب جميعا ؟! يا إلهى».

«وذهبت إلى الاتحاد الاشتراكى فى الميعاد الذى تحدد وجلست أمام اللجنة الثقافية به ، وجلس أمامى خمسة أو ستة من الشبان لم أعرف حتى أسماءهم والسيدة التى ذكرت ، وشعرت لدقائق بمأساة حقيقية ، فكيف يكون هؤلاء الشبان هم المسئولون عن الثقافة

والفكر وتوجيههما فى البلاد؟! وأى حق يعطيهم مساءلتى واتهامى؟! ولكن لا بأس ، فلعلها فرصة لأن أشرح لجهاز مفروض فيه أنه جهاز هام بالدولة: ماذا أفعل؟ وما هى مهمة الرقابة».

«افترضت فيهم الجهل التام ابتداء ، وعلى مدى ثلاث ساعات ونصف أخذت أشرح وأبين للجنة المذكورة ودون أن أقاطع ولو مرة واحدة (ماهية الرقابة).. مفهومها وعملها وأين تقف حدودها ، والقوانين المنظمة لها ، وقصورها بالنسبة للتطبيق ، والإجراءات المتبعة ، والقائمين على الرقابة ، والمفاهيم الرقابية المفروضة والمطبقة بالفعل ، وسبب تخلف بعض الرقباء ، وخطأ تعيينهم بالقوى العاملة ، ومتاعب الرقابة وقصور أجهزتها والأخطار التى تتعرض لها ، والضغوط المختلفة التى تقع عليها وعدم فهم مهمتها ، والإغراءات.. إلخ إلخ».

«وعندما انتهيت من حديثى قالت: «نحن فعلاً كنا نجهل ماهية الرقابة وعملها ، والآن أنت براءة.. ومظلومة فعلاً».

«واتجهت إلى مكتبى وكأنى كنت فى معركة حامية ، وحمدت الله أن عدت إليه سالمة ، لكن حزناً شديداً قد ملأ كيانى كله.. فأنا أعمل فى ميدان مجهول كلية لدى الخاصة من الناس ، والذين يمسكون بزمام الأمور ، فكيف الحال مع الكافة منهم؟!».

(٢٢)

وفى موقف آخر تعاود صاحبة المذكرات الحديث عن الاتحاد الاشتراكى ، وتذكر ما دار بشأن فيلم «ميرامار» ، ومع أنى أعلم أن قصة هذا الفيلم أصبحت من «الكلاسيكيات الشائعة» فى تاريخنا الثقافى ، وبخاصة بعد فوز الأستاذ نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، إلا أن رواية اعتدال ممتاز لهذه القصة تظل ذات طابع خاص متميز بما فيها من دقة شديدة ، ومن ناحية أخرى فإنى حريص على أن أعترف فيما أكتبه الآن أننى كنت كثيراً ما أستشهد لأصدقائى على حقيقة تمتع الرئيس السادات بثقافة حقيقية وإحساس سليم وراق بما تضمنته القصة التى روتها الأستاذة اعتدال ممتاز عن موقفه الذكى من صورة المرأة فى هذا الفيلم حين كلفه الرئيس عبدالناصر بمشاهدة هذا الفيلم وإبداء الرأى فيه.

وسنقرأ بعد قليل فى الفقرات التى ننقلها عن الأستاذة اعتدال ممتاز كيف أن السادات

كان منتبهاً جداً إلى ما قد نسميه فى الأدب والفن «صورة المرأة على الشاشة» ، ويؤسفنى وأنا أكتب هذا الفصل أن أقرر أننا لم نصل بعد إلى المستوى اللائق بنا من هذا الفهم ، ويؤسفنى مرة أخرى أن أكتب هذا فى هذا الكتاب بالذات الذى يتناول مذكرات المرأة المصرية.

وسننقل للقارئ الآن فقرة الأستاذة اعتدال ممتاز التى تروى فيها نهاية صراعها مع الاتحاد الاشتراكى حول فيلم «ميرامار» حيث تقول:

«... وهوجمت هجوماً شخصياً من أعضاء الاتحاد الاشتراكى باعتبارى مسئولة عن كل ما جاء بالفيلم ، وكأنه من صنعى ووضعى ، حتى إنهم كانوا فى حوارهم معى يوجهون إلىّ الحديث بقولهم أنت تقولين بالفيلم كذا وكذا ، وأنت وضعت فى الفيلم مشهد كذا وكذا ، وأحاول إفهامهم مهمة الرقابة وانحصارها فى موافقتها أو عدم موافقتها على ما يُقدم لها من مصنفات فنية تم إعدادها خارج الرقابة التى لا تصنع أفلاماً ، دون جدوى ، واحتدم النقاش ، واشتد الغضب وانصرفوا ملوحين ساخطين دون الوصول إلى حل بالنسبة لعرض الفيلم ، وشعرت أن الأمر كاد يفلت من الرقابة ، وتوجهت إلى منزلى وقد بيت أمراً ، إن مسئولية عرض الفيلم قد تشعبت ، وترك الأمر هكذا سيوسع الدائرة أكثر وأكثر ، وسيترك المجال للكثيرين للتدخل فى شئون الرقابة ، وكنت قد علمت أن رئيس الجمهورية الأسبق (الرئيس عبد الناصر) قد بدأ يضيق بالاتحاد الاشتراكى ومستغليه من الأعضاء الانتهازيين ، وفى الصباح أرسلت إليه برسالة شخصية عن الفيلم وما دار حوله ، وإنى شخصياً أعتقد أن مثل هذا الفيلم سيمتص غضب الجماهير تجاه الاتحاد الاشتراكى وليس لدىّ شخصياً ما يمنع من إجازة عرضه ، واتصلت بى رئاسة الجمهورية وعلمت أن رئيس مجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) وقتها سيحضر إلى الرقابة لمشاهدة الفيلم وحسم الأمر ، وبلغت وكيل الوزارة بذلك».

«وبعد أن عرض الفيلم على رئيس مجلس الشعب (الرئيس السادات) وأضيئت الأنوار ، صمت قليلاً وفى ثقة وهدوء شديدين أبدى احتجاجه على الفيلم ، لأن به ملاحظة هامة لم ينتبه إليها أحد ، وأخذت أجول بفكرى وأستعرض مواقف الفيلم المختلفة وتسلسل أحداثه وما يمكن أن يكون موضع الاعتراض ، ولكنى لم أفلح ، وأخفق الحاضرون كذلك ، فقال لائماً ومداعباً فى جدية وحزم: كيف يسمح لفيلم كهذا أن يحقر من شأن المرأة ويسبها هكذا؟! أليست المرأة شريكة لنا فى الحياة وفى العمل وفى الكفاح؟! أو ليست النساء شريكات لنا فى المسئولية ، وإنى أراهن هنا أن معنا مَن يبدين الرأى

والمشورة ، فكيف يسمح بسبهن؟ وكان بالفيلم أحد بائعى الجرائد الذى أحب الخادمة وأراد أن يتزوجها ولكنها انصرفت عنه فسبها بقوله: «الستات حيوانات».

«وضحكنا وقد تنفست الصعداء وشكرت له اهتمامه بالمرأة وتقديره لها ، وقلت له: «نيابة عن المرأة المصرية أقدم لكم شكرى وتقديرى» ، واعتبرت أن هذا التوجيه منه هو ضوء أخضر لى جديد يؤيد رأيى فى منع السباب والشتائم بوجه عام من المصنفات الفنية ، علاوة على وجوب العناية بمكانة المرأة ورعايتها.

ووافق رئيس مجلس الشعب [أى الرئيس السادات] على عرض الفيلم عرضاً عاماً فيما عدا الجملة التى اعترض عليها ، كما اقترح وكيل الوزارة حذف كلمة أخرى هى كلمة «شيوعية» فوافق على ذلك ، وهكذا ترخص بعرض الفيلم وتصديره إلى الخارج بكل ما جاء به عدا ما ذكرت».

(٢٣)

ومن المهم بعد هذا كله أن ننقل للقارئ أيضاً صورة أخرى حرصت الأستاذة اعتدال ممتاز فى كتابها «مذكرات رقيبة سينما» أن تنقلها لنا عن موقف الدكتور محمد حلمى مراد وهو وزير للتربية والتعليم من فيلم «شقة العازب» ، وهو الفيلم الذى تحول بسبب تشدده من فيلم يصور قيمة اجتماعية إلىٰ شىء آخر ، ونحن نجد أنفسنا بعد قراءة ما ترويه اعتدال ممتاز نقارن بين حكمة قرار الرئيس السادات الذى صدر بعد روية وبعد مشاهدة فعلية ، وبين عصبية قرار الدكتور محمد حلمى مراد الذى صدر عن سماع ، وترتب عليه نوع من تضييع القيمة الفنية دون مقابل تربوى يذكر:

«... واتصل بى تليفونيا وزير الثقافة ، وسألنى عما فعلت بالفيلم ، وكان قد سبق له أن شاهده فى عرض خاص ، وذكرنى أنه رأى منظراً مخلاً ، فقصصت عليه ما فعلت بالفيلم ، وكان الفيلم ، قد مر على عرضه يوم واحد لا يزيد بدار العرض وانتهى الأمر مع الوزير واقتنع بقولى ».

«وبعد قليل اتصل بى وكيل الوزارة تليفونيا أيضاً ثم جاء مكتبى وأفهمنى بأن وزير التربية غاضب ويشكو من أن بالفيلم مناظر مخلة ولابد من حذفها ، ولم أقتنع بما سمعت

لأنى أنا التى قمت بنفسى بعملية الحذف والمونتاج ، وحاولت الدفاع عن كيان الفيلم دون جدوى...».

«وسحبت الفيلم من دار العرض مغلوبة على أمرى ، وحذفت الجزء الباقى القليل جداً ، والذى أردت أن أبقى عليه بالفيلم كإشارة عابرة لاعتداء الرجلين على العشيقة ، حتى احتفظ للفيلم بسياق القصة وبالتالى أحافظ على ما به من قيمة فنية وأدبية وأخلاقية ، ففى إرهاب الزوج ومذلته بالاعتداء على معشوقته التى صحبها دون مراعاة لحقوق الزوجية وافتضاح أمره مهانة لرجولته ، وتهديد الشابين له بزيارة زوجته أقسى عقوبة له ، ولو فكر لحظة أن آخر يفعل بزوجه ما فعل بمعشوقته لما أقدم على فعلته النكراء ، ولذا تنازعه صراع نفسى رهيب وهو جالس مكتوف الأيدى مشدودا إلى كرسيه ، وقد فجر الرجلين بفعلهما كل عوامل الصراع النفسى الرهيب الذى انعكس على وجهه ، وقد أصبح فى حالة عجز تام عن حماية المرأة التى صحبها وعن حماية زوجته ، وعن تخليص نفسه».

«وبعد حذف البقية الباقية من المشهد المعترض عليه تغير مضمون الفيلم تماماً وسياقه واختل المعنى الأخلاقى بالدرجة الأولى ، وأصبح الحوار غير مفهوم لأن جزءاً كبيراً منه بتر بتراً ، وبدا الرجل وهو يتفصد ألما ، مقيداً على كرسيه بالشريط الحريرى .. وكأنه يتألم من قسوة ذلك القيد الحريرى... ياإلهى ، وضاع منى جهد ساعات طويلة ، حاولت فيها دون جدوى المحافظة على القيمة الفنية للفيلم وتسلسل الأحداث والصورة دون تشويه كبير ، دفاعا عن حق الجمهور فى رؤية فن جميل عالمى دون إخلال بالأصل بقدر ما أستطيع ، وفى إطار الآداب العامة ، والتقاليد».



وتبلور الأستاذة اعتدال ممتاز شعورها بالأسف تجاه ما خرجت به من هذه التجربة فتقول:

«وشعرت وكأننى مخلب قط ، وأنا أقوم بما لا أرضى عنه ولن أغفره لنفسى أبداً ، وهكذا ظلم أحد الأفلام العالمية والذى يحمل قيمة فنية كبرى ، وقيمة أخلاقية أكبر ، وظلم الجمهور الذى لم يفهم الفيلم وأخيرا ظلمت الرقابة...وظلمت نفسى».

«والآن وبعد سنوات من هذا الحادث ، أرى أنه لو لم تؤخذ الأمور بعصبية ، وحدة ، لأمكن إرضاء جميع الأطراف دون تعنت أو خسائر أو تشويه ، وأن فيلما واحدا من هذا

الطراز أفضل عندى - فنيا وأدبيا وأخلاقيا - من كثير جدا من أفلام محلية أنتجت وظهرت وسافرت مهرجانات ، فى تلك الفترة ، وبأموال مصرية - سواء كانت أموال القطاع الخاص أم العام - وأساءت إلى النشء وأساءت إلى الدولة...!».

(٢٤)

ولا تجد الأستاذة اعتدال ممتاز فى كثير من صفحات هذا الكتاب أى نوع ولا أى قدر من الحرج فى أن تجأر بصوت عال من الانتقاد للدور الذى قام به سلفها (هو المستشار مصطفى درويش) فى منصب مدير الرقابة ، ونحن نعرف أن الأستاذ مصطفى درويش ناقد سينمائى ذو ثقافة فنية رفيعة ، وهو من رجال القضاء وقد انتدب ليتولى هذ المنصب قبل أن تصل الأستاذة اعتدال ممتاز إليه ، ولكنه يحظى بكثير من النقد الذى توجهه إليه صاحبة هذه المذكرات ، فهى تنتقد على سبيل المثال توسعه بل جرأته فى الترخيص بعدد كبير من الأفلام التى لم يكن غيره ليرخص بعرضها وهى تقول:

«... ومن أولى الأزمات التى تعرضت لها فى حياتى العملية ، ما كان بعد تعيينى مديرة عامة للرقابة على المصنفات الفنية بقليل ، إثر إلغاء ندب المدير السابق للمصنفات الفنية ، وكان قد رخص - كما سبق وذكرت - بأفلام ومصنفات فنية اعتبرت على قدر من الجرأة ، سواء فى الحوار أو المناظر أو الموضوع ، وثار مجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) ثورة عارمة ضد وزارة الثقافة التى طالبتنى بإعادة تقييم ومراقبة جميع الأفلام التى أجازها المدير السابق ، سواء منها ما عرض جماهيرياً أو لم يعرض بعد».

«وكانت هذه الفترة قاسية شديدة القسوة ، فالمهمة شاقة ومملة ومحزنة ، والنكسة ما تزال رابضة بكل عنفها وقسوتها وآلامها ، والرأى العام ثائر على الأفلام والرقابة وهى حيرى لا تدرى فيم السماح بالترخيص وفيم المطالبة بالمنع ، ومجلس الشعب (تقصد مجلس الأمة) غاضب كل الغضب ، والمسئولون عن وزارة الثقافة فاقدو أعصابهم أو كادوا.. وكنت فى محك التجربة ما أزال - على حد تعبيرهم - وعلىّ أن أثبت جدارتى ورسوخ قدمى فى الرقابة ، وكفاءتى كأول سيدة تتقلد منصب مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية فى ظروف غاية فى الصعوبة والدقة ، ولكن أسئلة كثيرة دارت فى رأسى ، لماذا تُرك المدير السابق ليرخص بكل هذه الحصيلة من الأفلام على مدى شهور والتى

أصبحت مثار سخط واعتراض المسئولين بعد إلغاء ندبه؟! ولماذا بكل هذا العنف.. ولماذا لم يُعتَرض عليه أثناء وجوده ومطالبته بوقف هذه الموجة من الأفلام التى سموها بالأفلام الجنسية؟».



ولا تترك اعتدال ممتاز الحديث عن علاقاتها وعلاقات الرقابة بالبرلمان دون أن تروى هذه الواقعة الطريفة التى تتعلق بقصة فيلم «الحب أقدم مهنة فى التاريخ» الذى كان قد رُخص بعرضه، فإذا أعضاء مجلس الشعب (الأمة) يعترضون على عرضه، فلما صدر قرار وزير الثقافة بوقف عرضه طالب أعضاء مجلس الشعب (الأمة) بتأجيل رفعه يوماً إلى أن يتمكنوا من رؤيته!!

(٢٥)

وفى خضم كل هذا الحديث عن الرقابة والفن والإدارة والصراعات السياسية لا تغفل الأستاذة اعتدال ممتاز التعبير عن شعورها الوطنى، ونحن نرى كتابها وهو يحتوى نسيجا متصلا من المشاعر والانفعالات تجاه تاريخ وطنها فى الفترة التى كتبت عنها مذكراتها، وسأكتفى بواحد من النماذج الكثيرة التى عبرت فيها صاحبة المذكرات عن مشاعرها الوطنية وهى تلك الفقرات التى تعبر عن المشاعر القاسية التى كانت تنتابها وهى تؤدى وظيفتها فى حذف اسم مصر أيام الوحدة مع سوريا، وإنى لأعترف أن الألم كان يعتصرنى وأنا أقرأ للسيدة اعتدال ممتاز هذه الفقرة مرة بعد مرة فى التجارب المطبعية، ولكنى أجدنى فى ذات الوقت حريصاً على أن أثبتها للقارئ حتى نتعلم هذا الدرس من دروس التاريخ:

«... ولعل هذه الفترة كانت من أقسى فترات حياتى العملية وأشدها مرارة، لأنه كان لزاماً علينا كرقباء شطب اسم «مصر» الحبيب من كل المصنفات الفنية المختلفة السابق إجازتها واللاحقة، كيف يمكن أن يكون هذا؟! وكيف يلغى من الوجود هذا اللفظ الحبيب وبأيدينا، واختيارنا، إنه نبض الحياة ذاتها. ووزعت على الرقباء التعليمات التى بلغت لى لتنفيذها، وجاءنى نفر منهم غاضب معترض، وحاول مناقشتى، ولكنى أغلقت باب المناقشة تماماً.. فكيانى كله مهتز حزين ولا أستطيع أن أقنع إخوانى وأبنائى بما لم أقتنع أنا

به شخصياً ، فأنا أقدر تماماً قسوة وعنف ما طلب منا ، ولابد من تنفيذه ، ورجوتهم فى هدوء أن يشيروا فقط فى تقاريرهم إلى الاسم الكريم وأن يحددوا مكانه.. كنت أشعر نحوهم شعور الأم الرحيم ، التى تريد أن ترفع المعاناة وقسوتها عن أبنائها ، ثم أترك مكتبى وأنزل إلى الطابق الذى يليه ، وأدخل حجرة الحذف ، وأغلق بابها علىّ وقد أظلمت الحجرة تماماً ، وأمسك بالفيلم وعلى ضوء الجهاز الخافت أحدد المكان ، وأمسك بمقص الرقيب وقد سالت دموعى ، وأبكى ما شاء الله لى أن أفعل ، وأستبعد الجزء الذى يحمل الاسم الحبيب «مصر» ، وأشعر وكأنى طعنت كل أبنائى وأهلى وعشيرتى ، وأرفع يدى إلى السماء أسأله الغفران والسؤدد والسداد لأولى الأمر منا».

(٢٦)

وعلى الرغم مما يحفل به هذا الكتاب من تعبير واع وغير واع عن تقديس الأديان والقيم السماوية ، إلا أن صاحبة المذكرات حريصة على أن تضمنه بعض النصوص الصريحة المعلنة عن احترامها العميق لكل القيم السماوية وتمسكها بكتاب الله وأحكامه ، وهى تخصص أحد فصول مذكراتها للحديث عن علاقتها بالقضايا الدينية من خلال الرقابة ، وهى تعبر فى سعادة عن أن التفاهم بينها وبين مَنْ احتكت بهم من رجال الدين الأفاضل كان على أحسن ما يكون ، وتقدم لنا صاحبة المذكرات عرضاً تاريخياً ممتازاً لالتقاء السينما بالمفاهيم والموضوعات الدينية بدءاً من ١٩٢٦ ، كما تقدم لنا تفاصيل الضجة التى ثارت حول مسرحية «ثأر الله» للأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى ، ولنقرأ هذه النبذة التى تبدو وكأنها نبذة تاريخية لعلاقة الرقابة بعلماء الدين:

«لقد سرت بالرقابة بنظرة حضارية متفتحة بالنسبة للدين ، ورأيت أن أتمسك بكتاب الله وأحكامه فى غير تزمت أو عصبية ، وأعتقد أن التفاهم بينى وبين من احتككت بهم من رجال الدين الأفاضل ، سواء الدين المسيحى أو الإسلامى ، كان على أحسن ما يكون».

«إنا لا ننكر أن الدوائر الدينية الإسلامية لها تأثيرها القوى بالدعايات الكلامية أو الإعلامية ضد السينما العربية وتأثيرها على أخلاقيات ومثاليات الجماهير».

«حدث عام ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ أن عارض كبار رجال الأزهر الأفاضل مفهوم السينما فى مصر للشعور بعدم الاحترام والامتهان بظهور محمد (ﷺ) والصحابة والنبيين على الشاشة البيضاء».

«وفى عام ١٩٣٠ أبدت جمعية الشبان المسلمين احتجاجها فى الصحافة ولدى رئيس الوزراء عندما أبدت إحدى الشركات الأجنبية رغبتها فى تصوير قصة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والخلفاء الراشدين».

«كما حدث عام ١٩٥٤ أن ارتفعت بعض الأصوات معترضة ومطالبة بتشديد القبضة على بعض مشاهد الفتيات بالملابس المكشوفة ومناظر تعاطى الخمور ، وجاءنا من لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف فتوى تفيد عدم ظهور النبى (صلى الله عليه وسلم) وبعض رجال الصحابة بشخوصهم على الشاشة البيضاء».

«والتزمنا بهذه الفتوى تماماً ونفذناها ، ولم نكتف بهذا فحسب ، بل إنا كنا نستشير دائماً رجال الأزهر الشريف فى كثير من الموضوعات الإسلامية أو الحوار الدينى أو القصصى ، سواء فى القصة أو المسرحية أو الأغنية ، مما تعالج نواحى أو موضوعات دينية لا تتضح لنا أبعادها وحدودها تماماً ، أو أى مصنف أُشكِل علينا دينيا ، أو أردنا التأكد من صلاحيته للعرض الجماهيرى لتعرضه لموضوعات أو شخوص دينية».



و تصل اعتدال ممتاز إلى بلورة تجربتها مع رجال الأزهر ورجال الكنيسة فى عبارات واضحة:

«ولم نجد من رجال الأزهر الشريف إلا كل عون ورحابة صدر وإقبال تام على مساعدتنا» ، ولم يكن الحال بالنسبة لرجال الكنيسة بأقل حماساً أو عوناً فيما يختص بالديانة المسيحية».

وتصل اعتدال ممتاز إلى أن تبلور معاناة أصحاب الأديان من الأخطاء المغلوطة التى تقدمها بعض الأفلام السينمائية:

«إن عشرات أو مئات الأفلام مرت على الرقابة بها تشكيك أو مغالطات دينية أو عقائدية ، سواء كانت متصلة اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بالدين الإسلامى أو الدين المسيحى أو الديانة اليهودية ، وكلها رفعت الرقابة أمامها يدها محتجة ومنعتها حفاظاً على سلامة العقيدة وصحة الدين ، ومن الأفلام الصارخة ضد الدين الإسلامى أذكر فيلم (Angelique et le Sultan) وتقدمت به المؤسسة العامة للسينما (بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٧٠) وهو من إخراج Bernard Borderi ».

«والفيلم كله مغالطات دينية وافتراءات على الإسلام والمسلمين بشكل سافر».

«وفـيـلم (Ioe Dio) الذى يشكك فى الديانات المخـتلفة ، ويفـقد الثقـة فى النواحى والمعتقدات الروحية».

«وفـيلم (The Last Valley) الذى صور الصراع المسـيحى بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى مستغلاً هذا الصراع فى التشكيك فى وجود الله داعياً إلى الإلحاد على لسان أبطاله».

«وغير هذه الأفلام كثير كثير».

(٢٧)

وفى هذا الإطار الذى يحيط بالتناول الفنى للأديان فإن صاحـبة هذه المذكرات تقدم لنا نموذجاً لفيلم دينى مهم هو فيلم «زوجة القـسيس» وهى تلخص أحداثه وسيرته مع الرقابة منبهـة وموحية إلى أن الاعـتبارات الاجتـماعية والأمنيـة كثيراً مـا تكون ذات شأن بارز فى مواءمة عرض الأفلام التى تتعلق بالدين من قريب أو بعيد ، وفى هذا الصدد تقول الأستاذة اعتدال ممتاز:

«وفيلم «زوجة القسيس» من الكوميديا الاجتماعية ، ويتخلص موضوعه فى الآتى :

«فتاة تقبل على الانتـحار بسبب حبها لأحد الشبان لمدة أربعـة أعوام ، ثم يتضح لها أنه متزوج ، وفى أثناء تناولها حبوباً منومة بقصد الانتحار ، تقع عيناها على نمر تليفون لمكتب المساعـدات ، وينصحها صـوت قس من خلال الهاتف بالعدول عن الانتـحار ، وتنقل إلى إحدى المستشفيات وهناك تطلب مقابلة نفس القس».

«وتتوالى اللقاءات ويتحابان وتنشأ بينهما علاقة. ولأن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية تمنعه من الزواج ، يحاول الحـصول على إذن خاص من الفاتيكان ، فـيسعى إلى مقـابلة البابا فى روما ، وهناك يعلم أنه فى الطريق إلى الترقية إلى منصب كاردينال».

«تذهب إليه الفتاة ليتم زواجها ولتخبره بحملها منه ، إلا أنه يذكرها بأن الكنيسة ليست فى عجلة لإصدار مـوافقتها على هذا الزواج ، ويعـرض عليها أن تسكن فى الشقـة الخالية بجوار مسكنه وبذلك يستمـران فى الاستمتاع معاً بالحياة ، فتـرضى الفتاة العرض وينشغل القس فى أعماله الدينية».

وتورد اعتدال ممتاز رأيها فى هذا الفيلم معترفة بأنها عانت من أجل فهم الفيلم بسبب لغته الإيطالية وبسبب أنه عرض فى بلاد الفاتيكان نفسها:

«وعندما عرض ملف الفيلم علينا ، توجست منه خيفة ، خشية أن يكون به ما يمس إخواننا المسيحيين ، وكان الفيلم ينطق باللغة الإيطالية التى لم أتعلمها ، وكنت متعبة ولدىّ أعمال كثيرة ضاغطة ، فآثرت مناقشة الرقيب المختص والخبير فى اللغة الإيطالية ، وشرح مبررات عرض الفيلم من وجهة نظره :

«أولاً: إن الفيلم إيطالى ، مصنوع فى بلد الفاتيكان ، وعرض بإيطاليا نفسها وفى جميع بلاد العالم».

«ثانياً: إن الفيلم يعالج مشكلة محلية خاصة بإيطاليا وبالكنيسة الإيطالية التى ظهرت فيها بوادر أزمة تعانى منها الكنيسة الكاثوليكية من وقت ليس ببعيد ، وهى المطالبة بإباحة الزواج لرجال الدين الكاثوليكى. ومن المعروف أن ثمة مشكلات أخرى أثيرت من قبل وهى حبوب منع الحمل التى قامت أجهزة الإعلام الجماهيرية الإيطالية بحملاتها المتواصلة حتى وافقت الكنيسة فى النهاية على تناولها».

«ثالثاً: إن مجرد مطالبة الكنيسة بالمرونة فى مسألة حقوق رجال الدين الكاثوليك بالزواج ، هو تأييد وتقارب من الطريق الذى ينتهجه رجال الدين المسيحيون فى مصر والذى يبيح لهم الزواج».

«رابعاً: إن المشكلة التى يتناولها الفيلم لها جذورها بين الأحزاب الإيطالية والحزب الديمقراطى المسيحى ممثل الغالبية (وقت عرض الفيلم) فى البرلمان ، وسبق أن أثير حدث إيفاد الكنيسة إرساليات لشراء فتيات من الهند ومن القارة الأفريقية ، ونشر هذا فى جميع الصحف العالمية وقتها ، ومؤداها عدم إقبال الفتيات على الرهبنة لعدم كفالة الكنيسة لهن الحقوق الزوجية المشروعة».

«خامساً: إن الفيلم «زوجة القسيس» لم يتعرض بالصورة للعلاقة بين القس والفتاة ، بل إنه اكتفى بالتلميحات اللفظية فقط مثل عرض الراهب على فتاته للإقامة فى شقة مجاورة لحين حصوله على قرار الإعفاء ، ولم يشر بالصورة إلى علاقة فعلية قد حدثت بينهما ، وهذه التلميحات إنما تهدف إلى دعم الفكرة بأن العلاقة قد تتحول افتراضاً إلى علاقة خفية لكنها فى النهاية علاقة قائمة فعلاً ، وتدخل هذه التلميحات فى إطار الموضوع العام فى مطالبة الكنيسة بإباحة الزواج ولا يقصد منها النيل أو التعريض برجل الدين نفسه».

«سادساً: وأيضاً إن هناك أفلاما ومؤلفات كثيرة تناولت من قريب أو بعيد مشاكل رجال الكنيسة الكاثوليك مثل فيلم «High Infidelity» والفيلم عبارة عن بعض القصص التى تتناول إحداها محاولة إغراء صاحبة فندق لسكرتير الراهب وتصحبه بحيلة ماكرة إلى حجرة نشاهدها فيها بنصفها العارى جالسة فى الفراش ومعها سكرتير الراهب».

«وكذلك فيلم «La Religieuse » الذى أثار ضجة فى فرنسا وكانت السلطات قد وقفت ضده إلى أن أباحت عرضه أخيراً وصدر إلى الخارج ، ويتناول قصة فتاة شريدة واجهت ألوان الشذوذ المختلفة عندما ترددت على أحد الأديرة للراهبات ومنعناه هنا فى مصر».

«وكذلك قصة زوربا اليونانى وورد فيها فصلان عن العلاقة بين قسيسين انتهت بقتل أحدهما للآخر ، وقد جاء هذا المشهد تلميحاً فى الفيلم عندما وقع أحد الأحجار وظهر قسيسان من أسفل الجبل يجريان».

«واعترافات جان جاك روسو وما ورد فى طياتها .... ، وغيرها من الأعمال الفنية التى تناولت مشاكل رجال الدين المسيحى بالنقد البناء».



وتنتهى اعتدال ممتاز من هذا كله إلى ما انتهت إليه الرقابة من الموافقة على عرض الفيلم ، ولكنها ، كما كان ضميرها أو عقلها يحدثها ، تفاجأ باعتراض القساوسة المصريين عليه!! وهى تروى كل هذا بذاكرة دقيقة ومشاعر مرهفة فتقول:

«... ولذا رخصت الرقابة المصرية بفيلم «زوجة القسيس» (بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٧١) وعرض الفيلم بدار سينما راديو ، ولم يمض يوم وبعض يوم حتى جاءنا وفد من القساوسة الأفاضل يحتجون على عرض الفيلم ، وكان البعض لم ير الفيلم والبعض الآخر رآه ، وكنت أنا شخصيا ، كما سبق وذكرت ، لم أشاهد الفيلم اكتفاء بمناقشة الرقيب الذى شاهده هو ومديرة الأفلام الأجنبية المسيحية الديانة».

«وفى نفس اليوم (٣١ مارس ١٩٧١) عقدت لجنة برئاسة وكيل وزارة الثقافة ومدير عام الرقابة على المصنفات الفنية وبعض رجال الكنائس المسيحية الأفاضل للنظر والتشاور فى فيلم «زوجة القسيس». وبعد الانتهاء من العرض اعترض أحد القساوسة بأنه ليس من المستحسن عرض الفيلم فى دولة إسلامية نظراً لأن الأغلبية لا تعرف حقائق الدين المسيحى، وقد يؤدى عرض الفيلم إلى الإساءة إلى رجال الدين المسيحى،كما أن فى عرضه احتمال تقليل من القيم الروحية التى تعمل البلاد على تقويتها ، كما أن هناك أيضاً

احتمال إثارة النعرة الدينية بين المواطنين في الوقت الذى يتطلب تكاتف جميع القوى المسيحية والإسلامية ضد القوى المعادية للبلاد».

«ثم أبرز أحد القساوسة نشرة أجنبية عن الفيلم مطبوعة بمطبعة أغلب الظن أنها بالخارج، بها بعض الصور الكاريكاتيرية وفيها سخرية من بعض القساوسة ، وقدمها القس على أنها عينة مما أرسل بالبريد إلى بعض الأسر ، الأمر الذى اعتبر إهانة للدين المسيحى».

«وأدركت لتوى أنها شرارة يراد بها إشعال فتنة طائفية ، وكانت هذه النشرات فى الواقع مفاجأة لى ، شعرت معها أنها مدبرة للتفرقة بين عنصرى الأمة المصرية المسلمين والمسيحيين ، وهمست فى أذن وكيل الوزارة الذى كان يجلس بجانبى أن من الواجب رفع الفيلم فى الحال ، فوافقنى فوراً وأعلن إيقاف عرض الفيلم مباشرة ، وكان قد استشعر مدى غضب إخواننا المسيحيين».

«وتم إيقاف الفيلم فى حفلة الثالثة والنصف وكانت الساعة قد تعدت الثالثة بقليل ، وكنت قد اتصلت بدار السينما قبل عرض الفيلم وقبل بدء الاجتماع خشية أن نضطر إلى وقف عرض الفيلم ـ الأمر الذى حدث ـ وحتى لا تضطر السينما إلى تأخير العرض والوقوع فى مأزق».



ويبدو أن الأمر لم ينته ولم يكن له أن ينتهى بقرار وقف عرض الفيلم ، فقد تظلمت الشركة ووجدت من أحد أعضاء مجلس الرقابة وهو مسيحى سندا لها فى استمرار العرض .. ومع هذا فإن مجلس الرقابة بإجماع الآراء وافق على استمرار المنع:

«وتظلمت الشركة الموزعة (بتاريخ ٣ أبريل ١٩٧١) من إيقاف عرض الفيلم ، وتقرر (بتاريخ ١٠ يونيو ١٩٧١) عرضه على مجلس الرقابة الذى أقر بالإجماع منع العرض ، وذكر أحد الأعضاء (سامى داود ، وهو مسيحى العقيدة) أن أحداث الفيلم تدور حول مشكلة زواج قسيس فى الفاتيكان المسيحية الغربية ، وأن هذه المشكلة مثارة داخل الكنيسة الكاثوليكية لكنها غير موجودة فى مصر ، حيث إن المسيحيين الشرقيين تبيح ديانتهم زواج القسيس ، بل يشترط زواج القسيس فعلا قبل رسامته قسيساً ، وإن كانت الكنيسة الأرثوذكسية لا تبيح زواجه مرة أخرى فى حالة وفاة زوجته التى عقد عليها قبل رسامته قسيس».

«أما بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية فالخدمة الكنسية كلها قائمة على الرهبان والقساوسة ، وهو غير مسموح لهم بالزواج حتى الآن».

«كما أضاف العضو بأن انحراف رجل الدين هى قضية موجودة عالجتها الآداب العالمية كثيراً كنوع من العلاج الاجتماعى ، وذكر على سبيل المثال رواية «تاييس» ومسرحية «تارتوف» لموليير ، التى مصرت فى مصر بقلم المرحوم محمد عثمان جلال ومثلت على المسارح المصرية عدة مرات».

«قرر المجلس بإجماع الآراء الموافقة على استمرار المنع خصوصاً مع ما لوحظ من إصرار الشركة الموزعة على اتخاذ أسلوب الخطابات المتضمنة صوراً مطبوعة لا تمثل الفيلم فى شىء ودون إذن من الرقابة ودون اعتبار ما يمكن أن تثيره هذه الصور من استفزاز لمن تصل إليهم».



ولا تنسى الأستاذة اعتدال ممتاز بعد هذا كله أن تشير إلى أنها عند زيارتها لإيطاليا وجدت إعلانات الفيلم قريبا من «الفاتيكان» ، وإلى أنها حاورت رجال الفاتيكان كى تطلع على تجربتهم وأسلوبهم فى الرقابة:

«وعندما زرت إيطاليا لاحظت وجود بعض إعلانات زوجة القسيس على إحدى دور العرض القريبة من الفاتيكان ، وكنت قد عنيت أن أقابل بعض رجال الدين المسئولين فى دولة الفاتيكان بروما للوقوف على مدى تدخلهم فى الأفلام والمصنفات الفنية ، فوجدت أنهم يتبعون أسلوب الترشيد والتوعية غير المباشرة ، فهم مثلاً لا يعنون أن يكون من بينهم رقباء مباشرون أو خلافه ، وإنما يصدرون توصيات معينة أو نصحاً وليس بالضرورة الأخذ به ، وعندما سألت سؤالاً مباشراً عن فيلم «زوجة القسيس» ، قيل لى إن الفاتيكان لا يتدخل تدخلاً مباشراً احتراماً للسلطات المدنية».

«وهكذا عرض فيلم «زوجة القسيس» عرضاً جماهيرياً بإيطاليا رغم ما أسداه الفاتيكان من نصح بألا يعرض».

(٢٨)

ومع كل هذا الزخم الذى تحفل به المذكرات فإن صاحبتها حريصة على ألا يفوتها أن تطلعنا على بعض الخطوط التى تمثل الخبرة العالمية فى مجال عملها على نحو ما نقلنا عنها فى الفقرة السابقة من حرصها على الاطلاع على خبرة رجال الفاتيكان ، وهى حريصة على

تأكيد هذا المعنى وعلى الاعتراف به فى كثير من المواضع فى مذكراتها الحافلة ، بل إنها تخصص الفصل التاسع من كتابها القيم للحديث عن« الرقابة فى لندن وباريس» ، ومن اللافت للنظر فى خبرة هؤلاء الرقباء الإنجليز والفرنسيين أنهم كانوا منتبهين منذ مرحلة مبكرة إلى حقيقة الخطورة فى أفلام العنف وإلى أنها تفوق بكثير خطورة أفلام الجنس ، وتنقل لنا عن مدير مجلس الرقابة بلندن قوله:

«إنه برغم كل شيء فإن من رأيه أن الخطر الداهم ليس فى أفلام الجنس بل فى أفلام العنف وروايات العنف ، ولقد بلغت إحصائيات مشاهدى الأفلام سنويا ٢٥٠ مليون مشاهد فى السنة ، منها ٦٠ مليون تذكرة لمشاهدى أفلام للكبار فقط ، وهم الذين يزيدون على الستة عشر عاما».

والحق أن الأستاذة اعتدال ممتاز قد قدمت من خلال هذا الفصل دراسة قيمة لطبيعة الرقابة ودورها فى المجتمع البريطانى.

وتتناول صاحبة المذكرات الرقابة فى فرنسا بنفس القدر من الدراسة الواعية والمتعمقة التى تفيد أبناء وطنها من تجارب الأمم الناهضة ، وعلى سبيل المثال فإنها تقدم لنا فى صفحة ٣٣٥ قائمة بأسماء الأفلام التى منعتها الرقابة الفرنسية فى عام واحد ، ويبلغ عددها تسعة أفلام «تتناول الجنس بأسلوب مكشوف أو شذوذ جنسى أو عنف وقسوة أو تؤثر على النفس تأثيرا سيئا أو تكشف طريق المخدرات أمام الشباب. وتذهب صاحبة المذكرات خطوات أبعد من مجرد الحديث عن تجارب الآخرين ، فتعقد مقارنة بين موقف الرقابة الفرنسية والرقابة المصرية من فيلم «ملائكة جهنم» ، وكانت المؤلفة تعترض على عرضه كما اعترضت رقابة باريس ، ولكن المجلس الرقابى فى مصر وافق على عرضه ، ولم يكن أمام الوزير د. ثروت عكاشة إلا أن يكتب مقرراً السماح بعرض الفيلم نزولاً على رأى المجلس الرقابى الموقر» ، وتعلق اعتدال ممتاز قائلة:

«وهكذا شاهد الجمهور المصرى ما لم يشاهده الجمهور الفرنسى».

وتعود المؤلفة لتفرد صفحات طوال للحديث عن رقابة المسرح الإنجليزى فى دراسة شاملة وعميقة ومتأنية لابد أن نفيد منها الإفادة التى لا نفيدها للأسف من كثير من الدرر المتاحة أمامنا فى كثير من النصوص الجميلة التى تلخص لنا تجارب الأجيال السابقة علينا.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

7

مذكرات طبيبة

للدكتورة نوال السعداوى

دار الخيّال

(١)

تتمتع الدكتورة نوال السعداوى بشخصية قوية ، قد تكون هذه القوة بمثابة رد فعل أو انفعال ، وقد تكون قوة غريزية ، وقد تكون قوة فطرية لم يصبها الإضعاف أو التوهين الذى يصيب قوة الأنثى فى المجتمع الشرقى ، ولكنها على كل حال سعيدة بهذه القوة ، ولكنها تجمع إلى هذه السعادة قلقاً من نظرات الآخرين تجاه هذه القوة ، فهى تريدهم أن يصدقوا أن هذه القوة أمر طبيعى وليس بمستحدث ، ولكنها لا تكاد تقنع نفسها أنهم صدقوها ، وتظن نفسها شأن كل المجيدين والمجيدات فى حاجة إلى مضاعفة الجهد للوصول إلى الهدف المنشود ، فإذا بها تواصل طريقها فى استعراض قوتها واستعراض مقدرتها على أن تثبت للناس جميعاً أن هذه القوة شىء طبيعى أو فطرى أو غريزى ، وأنه ليس بالخلق المستحدث ولا الناشئ ولا المكتسب.

وتجد الدكتورة نوال السعداوى نفسها فى حلقات متواصلة من العمل على إثبات هذه الحقيقة التى اعتنقتها واقتنعت بها عن نفسها ، فإذا بها تعيد توزيع اللحن مرة بعد أخرى برهافة شديدة فى التعبير وتطوير التعبير ، وإذا بهذه الرهافة تجعلنا نتشكك فى القوة التى تزعم أنها تعبر عنها بلحنها.

ولكنها تنجح أيما نجاح فى إبراز القدرة على تجسيد الشخصية الرقيقة وغير القابلة

للكسر فـى ذات الوقت الذى يتكرر فيه لحنها حول المعـانى الأولى من دون أن ينطلق إلى معان أخرى متغايرة.

وهذه هى الدكتـورة نوال السعداوى تـكتب كتاباً بعنوان «مـذكرات طبيـبة» فتـبدأ أول جملة فيه بقولها:

«بدأ الصـراع بينى وبين أنوثتى مبـكراً جداً .. قـبل أن تنبت أنوثتى وقبل أن أعـرف أى شىء عن نفـسى وجنسى وأصلى .. بل قبل أن أعـرف أى تجويف كـان يحتوينـى قبل أن ألفظ إلى هذا العالـم الواسع. كل ما كنت أعرفـه فى ذلك الوقت أننى بنت كمـا أسمع من أمى. بنت! ولم يكن لكـلمة بنت فى نظـرى سوى مـعنى واحـد .. هو أننى لست ولداً .. أخى يقص شـعره ويتركـه حراً لا يمشطه وأنا شـعرى يطول ويطول وتمشطه أمـى فى اليوم مرتين وتقيده فى ضفائر وتحبس أطرافه بأشـرطة .. أخى يصحو من نومه ويترك سريره كما هو ، وأنا علىّ أن أرتب سريرى وسريره أيضـاً ، أخى يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمى أو أبى ويعود فى أى وقت .. وأنا لا أخرج إلا بإذن».

«أخى يأخذ قطعـة من اللحم أكبر من قطعتى ويأكـل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مـسمـوع وأمى لا تقـول له شيـئاً .. أمـا أنا .. فـلأنى أنا بنت! علىّ أن أراقب حـركـاتى وسكناتى .. علىّ أن أخفى شهيتى للأكل فـآكل ، ببطء وأشرب الحساء بلا صوت .. أخى يلعب .. يقفز .. يتشقلب .. وأنا إذا ما جلست وانحسـر الرداء عن سنتيمتر من فخدى فإن أمى ترشقنى بنظرات مخلبية حادة فـأخفى عورتى .. عورة! كل شىء فىّ عورة وأنا طفلة فى التاسعة من عمرى!».

«حـزنت على نفـسى ، أغـلقت باب غـرفـتى علىّ وجلست أبـكى وحـدى .. لم تكن دموعى الأولى فى حـياتى لأنى فشلت فى مـدرستى أو لأنى كسـرت شيئاً غـالياً .. ولكن لأنى بنت! بكيت على أنوثتى قبل أن أعرفها..».

«فتحت عينى على الحياة وبينى وبين طبيعتى عداء».

هذا هو جوهر الصراع الذى قد تتولاه أو تتمحـور حوله رواية كاملة يتوزع فيها النزاع على أرجاء الرواية بصورة عادلة ، ولكن هذه السيـدة القوية تختزله فى هذه العبارات التى تبدو كأنهـا كوبليهات مترادفـة ومتعاقبة فى أغنـية طويلة تتحدث بصورة شعـرية عن حياة وحيوات ممتدة إلى اللانهاية ، وهى تستغل مثل هذا الحوار أو الصراع الداخلى المكثف أبرع استـغلال بأن تبدأ به مـذكرات طبيبـة الذى من المفروض كمـا ينبئ عنوانه أنه كتاب سـيرة ذاتية.

(٢)

هكذا تعكس الصفحات الأولى من هذه المذكرات ما عرف عن الدكتورة نوال السعداوى من حرصها على التعبير على أنها ظلت تعيش القلق تجاه وضع المرأة فى المجتمع المصرى المعاصر ، وهى تتأمل فى هذا الوضع فإذا بها تتنقل بهذا القلق فى الزمان لتذهب به إلى فترة طفولتها ، وكأنها كانت تعيش هذه القضية بدرجة حادة جداً إلى الحد الذى يجعلها تتساءل فى بداية كتابها فتقول:

«وإذاً ... وإذا كانت أمى تحبنى حباً حقيقياً هدفه سعادتى وليس سعادتها ، فلماذا تكون كل أوامرها ورغباتها تتعارض مع راحتى وسعادتى؟».

وعلى هذا النحو تروى لنا نوال السعداوى مبررات ودوافع بعض قراراتها المبكرة المتمردة ، ومنها ذلك القرار الذى اتخذته بتقصير شعرها فتقول:

«خرجت لأول مرة فى حياتى من البيت دون أن آخذ إذن من أمى .. مشيت فى الشارع وقد منحنى التحدى نوعاً من القوة ولكن قلبى كان يخفق من الخوف .. ولمحت لافتة كتب عليها: حلاق للسيدات .. ترددت لحظة ثم دخلت..».

«نظرت إلى خصلات شعرى وهى تتلوى بين فكى المقص الحاد ثم تهوى إلى الأرض .. أهذه الخصلات هى التى تقول عنها أمى إنها تاج المرأة وعرشها؟ أيخر تاج المرأة هكذا صريعاً فى لحظة إصرار واحدة ؟ شعرتُ باستخفاف شديد نحو النساء .. رأيت بعينى رأسى أنهن يؤمن بأشياء تافهة لا تساوى شيئاً..».

«ومنحنى هذا الاستخفاف بهن قوة جديدة جعلتنى أعود إلى البيت وأنا أسير على قدمين ثابتتين ، واستطعت أن أرفع قامتى وأنا أقف أمام أمى بشعرى القصير .. صرخت أمى صرخة عالية وناولتنى صفعة حادة على وجهى .. ثم تلتها صفعات وصفعات .. وأنا أقف كما أنا..».

ونحن بعد هذا الحديث السريع عن بعض ملامح الطفولة التى تحرص صاحبتها على إبرازها نفاجأ بصاحبة التجربة وهى تمضى فى حياتها أو فيما ترويه عن حياتها من ذكريات حتى تصل بسرعة إلى دراستها بكلية الطب وإذا بها فى المشرحة وإذا بها تجد الرجل عارياً أمامها فتقول:

«كان هذا أول لقاء سافر بالرجل والرجولة .. فيه فقد الرجل هيبته وجلاله وعظمته الموهومة .. نزل الرجل من فوق عرشه وارتمى على منضدة التشريح بجوار المرأة .. ».

«لماذا كانت أمى تضع هذه الفروق الهائلة بينى وبين أخى وتصنع من الرجل إلهاً علىَّ أن أقضى عمرى كله أطبخ له الطعام؟ ، لماذا يحاول المجتمع دائماً أن يقنعنى بأن الرجولة امتياز وشرف وأن الأنوثة مهانة وضعف؟ ، هل يمكن لأمى أن تصدق أننى أقف وأمامى رجل عار وفى يدى مشرط أفتح به بطنه ورأسه؟ ، هل يمكن للمجتمع أن يصدق أننى أتأمل جسد الرجل وأشرحة وأمزقه دون أن أشعر أنه رجل؟».



ونمضى على هذا النحو مع صفحات الكتاب فنجد صاحبة التجربة وهى تبدأ الحديث عن قلبها بقدر أقل من الكبرياء الذى تحدثت به عن عقلها ، وها هى تعيش ، بعد ذلك الإدراك ، مع حقيقة الإنسان الحى فإذا هى تظل تتساءل طوال ليلها ولا تصل إلى قرار:

«الليل أصبح طويلاً .. والأوهام والخيالات تعشش كل ليلة حول سريرى .. ذراع طويلة قوية تلتف حول خصرى .. ووجه رجل يقترب منى .. له عينان تشبهان عينى أبى .. وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى .. ولكنه ليس أبى وليس ابن عمى . ترى من يكون؟».

كما أنها ، حسب ما تصوره لنا بدقة وقدرة على التعبير والتصوير ، تبدأ فى التأثر (سواء بالسلب أو الإيجاب أو القلق) بالأحاديث التى تسمعها من حولها:

«أحاديث البنات فى المدرسة تطفو على سطح ذاكرتى .. التنهدات .. الشهقات .. أحلام المراهقات .. كأنى لم أشرح جسد الرجل .. كأنى لم أعريه .. كأنى لم أر قبحه وبشاعته .. هل نسيت ؟ لا أدرى .. ولكنى نسيت .. وعاد إلى الجسد الحى سحره وغموضه .. كيف نسيت ؟! لعل أنوثتى خرجت من زنزانتها عنيفة جامحة طوحت فى طريقها بكل ذكريات العقل».



هكذا تجيد صاحبة المذكرات تصوير طبيعة الفرق الذى نعرفه جميعاً بين القلب والعقل، فهذا العقل الذى يجعلها ترى الرجل ممدداً على المشرحة يتنازل للقلب حين يصبح الأمر متعلقاً بالعواطف حيث تخرج الأنوثة من الزنزانة بكل العنف والجموح ، وحيث يعود فى ذات الوقت للجسد الحى سحره وغموضه!

وهكذا تصدقنا نوال السعداوى القول وهى تتباهى ، وتصدقنا القول أيضاً وهى تتنهد بعد تفكير ! ولكنها بعد أن دخلت قفص الزوجية تعود إلى التمرد على ما فرضته على نفسها ، وعلى ما ارتضته لنفسها وإذا هى تقول:

«عالمى الخاص .. حجرة نومى .. لم تعد حجرتى وحدى .. وسريرى .. الذى لم يشاركنى فيه أحد .. أصبح هو يشاركنى فيه .. كلما تقلبت أو تحركت ارتطمت يدى برأسه الخشن أو بذراعه أو ساقه اللزجة .. وصوت أنفاسه إلى جوارى يملأ الجو من حولى بالعويل .. لا شيء يربطنى بهذا الرجل وهو مُغمض العينين .. لا شيء أراه فيه إلا جثة هامدة كتلك الجثث التى رأيتها فى المشرحة .. ولكن إذا ما فتح عيناه [تقصد: عينيه] ونظر إلىّ بنظرته الضعيفة المستجدية التى تثير أمومتى وتخمد أنوثتى أشعر أنه طفل ولدته من صلب كيانى فى مكان وفى زمان لا أدرى عنهما شيئا».

(٣)

على هذا النحو تحرص الدكتورة نوال السعداوى على أن تنشئ علاقة ارتباط قوية وحاسمة بين استجابتها للعاطفة وبين يقظتها ، وهو معنى يبدو مبتكرا ، فهى لا تدرك أمومتها لزوجها إلا حين يستيقظ من نومه ، ويفتح عينيه ، وينظر إليها نظرته الضعيفة المستجدية ، وإذا بصاحبة المذكرات تصل بعد صراع طويل إلى قرار خطير فإذا هى تقول لنفسها بعد خمس صفحات من حوار داخلى:

«لقد ضيعت أمى طفولتى ، والتهم العلم صباى وفجر شبابى ولم يبق لى من شبابى إلا سنوات .. لن أضيعها ولن أدع أحداً يضيعها».

❑

وإذا بالدكتورة نوال السعداوى بعد تجربة طويلة ممتدة مع المجتمع ومع نظراته وكلامه وتعليماته وآرائه تحدث نفسها مرة أخرى بصوت عال وتقول:

«وضعت رأسى بين يدى وجلست أفكر .. هل أخوض المعركة مع المجتمع الكبير أم أخضع له وأنساق وراءه ؟ وأحنى له رأسى وأغلق على نفسى جدران بيتى وأحتمى فى رجل ككل النساء؟ لا .. مستحيل! لن أخضع للمجتمع .. ولن أنساق وراءه .. ولن أحنى

رأسى ولن أحتـمى فى رجل! سأخـوض المعركة وسـأحتمى فى نـفسى .. وفى ذاتى. وفى قوتى .. وفى علمى. وفى نجاحى».

هكذا تأخذ الدكتورة نوال السعداوى قرار الصراع ، أو هكذا هى تحدثنا عن أنها أخذت هذا القرار فى هذا الوقت المتأخـر من شبابها ، وأنها أخـذت القرار بعد تردد وتفكيـر ، أى أنه لم يكن رد فعل وقتى أو نـزوة .. لكنها وضعت من أجلها رأسهـا بين يديها .. وأخذت تفكر ، وها هى ذى تقـرر أن تخوض المعـركة على نحـو ما نعـرف من سيـرة حياتهـا التى كتبتها، وعلى نحو ما نعرف من حديثها الذى لا تزال تكتبه.

ولكن الدكتورة نوال السـعداوى تعترف لنا أنها ، بعد أن بدأت تخـوض المعركة وتحس النجاح المقبل عليها فيها ، عادت لتعانى مرارة الوحدة ، فكأنها خرجت من مرارة إلى مرارة أخرى ، وهى تروى على صفحات هذه المذكرات فى شجاعة وصراحة حقيقة مشاعرها فى تلك اللحظة فتقول:

«... ووضـعت رأسى على سـور النافذة .. مـا أبرد الوحـدة! ما أقـسى السكون! مـاذا أفعل؟ هل أقفز من فوق قمتى ؟ ولكن عنقى سيدك فى الأرض دكاً .. هل أعود أدراجى؟ ولكن عمرى سينقضى ولن أبلغ ما أريد .. انتهت المعارك وآن لى أن أجلس بلا حراك .. آه .. ما أفظع الفراغ! لماذا قفزت فوق سلم حياتى؟ لماذا لم أرشف كأس حياتى رشفة رشفة؟ لماذا لم أقضم عمرى قضمة قضـمة؟ لماذا جريت شوطى قفزاً ولهثاً؟ لماذا تركت مكانى فى الصف وقفزت فوق الصفوف؟».

على هذا النحـو من التساؤلات المنطقـية تطرح علينا صـاحبة هـذه المذكرات رؤاها عن مرحلة مـهمة من مراحل سـلوك الإنسان ذى المعتقـدات الخاصة ، حين يبـدأ فى المعاناة من معتـقداته ومن ممارساته لها ، فلا تنـجو نفسه من لوم النفس على هذا النحـو الذى تعبر عنه صاحـبة هذه المذكرات تعـبيراً بديعـاً لا ينقصه أى قـدر من التمكن فى التـعبيـر الدقيق عن الخلجات الصعبة للنفس الإنسانية فى لحظات الحرج النفسى.

(٤)

ومن باب مـا يطلق عليـه «إدعاء الحكمـة بأثر رجعـى» ، يبدو حـرص الدكتـورة نوال السعداوى على أن تصـور نفورها من العلاقة التقليـدية بالرجل فى إطار الزواج التقليدى ،

وتراها ـ أى هذه العلاقة ـ أو تصورها نوعاً من أنواع المؤامرة. وها هى تحدثنا عن أول تجربة لها فى هذا الصدد :

«سكتت جـدتى العجـوز عن الثرثرة ونظرت إلى صـدرى .. ورأيت عينيـها المتـآكلتين تتأملان البرعـمين الجديدين البارزين وتزنهما .. ثم رأيتهـا تهمس لأمى بشىء ، وسمعت أمى تقـول لى: ارتدى الفستـان اللبنى لتـدخلى ولتسلمى على الضـيف الذى مع أبيك فى الصالون».

«وشممت رائحة مؤامرة فى الجو».

«وكنت أقابل معظم أصدقاء أبى وأقدم لهم القهوة .. وأحياناً أجلس معهم وأسمع أبى وهو يحـدثهم عن تفوقى فى المدرسـة ، فأشـعر بالفـرحة وأحس أن أبى باعـترافه بذكائى ينتشلنى من دنيا النسـاء الكئيبة التى تفوح منها رائحه البـصل والزواج ، ولكن لماذا الفستان اللبنى؟ ذلك الفستـان الجديد الذى أكرهه .. فى صدره كـشكشة غريبة تستـقر على نهدى وتزيد من بروزهما».

«ونظرت إلىّ أمى تتفحصنى .. وقالت: أين الفستان اللبنى؟»

«ورددت فى غـضب: لن ألبســه! ولمحت بوادر التمـرد فى عـينى فنظرت إلىّ فى أسى وقالت: ساوى حاجبيك إذن».

«ولـم أنظر إليها .. وقبل أن أفتح باب الصالون لأدخل ، عبـثت بأصابعيى شعر حاجبى فنكشتـهما» ، وسلـمت على صديق أبى وجلست .. ورأيت وجهـاً غريبـاً مخيـفاً له نظرة مدققة فاحصة تشبه نظرة جدتى».

«وقال أبى: إنها أولى فرقتها هذا العام فى الابتدائية».

«ولـم أر فى عينى الرجل أى تعبـير عن إعجاب بهذا الكلام .. ورأيت نظراته الفـاحصة تحوم حول جسدى وتستقر فى النهاية على صدرى ، فوقفت مذعورة وخرجت من الحجرة أجرى كـأنما عفريت يطاردنى ، وتلقـتنى أمى وجدتى على الباب بلهـفة وشوق وقـالتا فى نفس واحد : هيه .. ماذا فعلت؟».

«وصرخت فى وجـهيهمـا صرخة واحـدة وجريت إلى غرفـتى وأغلقت الباب علىّ .. وذهبت إلى مـرآتى أنظر إلى صـدرى ، كـرهتـهمـا! هذان البـروزان! تلكمـا القطعـتـان الصغيرتان من اللحم اللتـان تحددان مستقبلى! وددت لو أجتثهـما من فوق صدرى بسكين

حاد! ، ولكنى لم أستطع .. استطعت فقط أن أخفيهما .. أن أضغط عليهما بمشد سميك ليبطهما».



ونحن نرى صاحبة هذه المذكرات حريصة على هذا المعنى ذاته حين تروى تجربة إقدام ابن عمها على تقبيلها فإذا هى تقذف بذراعها فى الهواء وتصفعه :

«لم أشعر به حين دخل إلى حجرتى ووقف إلى جوارى وأنا أجلس إلى كتابى إلا حين قال:

«ألا ترغبين فى الترويح عن نفسك قليلا».

«وكنت قد قرأت طويلاً وشعرت بالتعب ، فابتسمت قائلة:

«أريد أن أتمشى فى الخلاء».

«إلبسى معطفك وهيا بنا».

«أدخلت نفسى فى المعطف بسرعة وجريت إليه .. كنت على وشك أن أضع يدى فى يده وننطلق نجرى معاً كما كنا نفعل ونحن أطفال ، لكن عينىّ تعلقتا بعينيه فتذكرت فجأة السنين الطويلة التى لم ألعب فيها ، ونسيت خلالها قدماى الجرى ، وتعودتا السير البطىء كالكبار .. فوضعت يدى فى معطفى وسرت إلى جواره فى بطء».

«وسمعته يقول:

«لقد كبرت».

«وأنت أيضا».

«هل تذكرين أيام كنا نلعب معاً؟».

«كنت تسبقنى فى الجرى دائماً».

«وكنت تكسبين دائماً فى «البلى».

«وضحكنا طويلاً .. ودخل هواء كثير إلى صدرى فأنعشنى وجعلنى أحس أننى أسترجع بعض طفولتى المدبرة».

«وقال: أريد أن أسابقك فى الجرى».

«قلت فى ثقة: سأسبقك».

«قال: لنرى ..!».

«ورسمنا خطاً على الأرض .. ووقفنا متجاورين .. وصاح قائلا: واحد .. اثنين .. ثلاثة .. فانطلقنا نجرى الشوط ، كنت على وشك أن أصل إلى النهاية قبله ، لكنه أمسكنى من ملابسى من الخلف فتعثرت قدمى ووقعت على الأرض ووقع إلى جوارى .. ورفعت عينى إليه وأنا ألهث فرأيته ينظر إلى بنظرة غريبة جعلت الدماء تصعد إلى وجهى .. ورأيت ذراعه تمتد ناحية خصرى .. وهمس فى أذنى بصوت غليظ: سأقبلك».

وها هى صاحبة العقل تحدثنا عن صراع العقل والقلب فيما تواجهه من تجربة التعبير عن الصراع بين الحب والإرادة :

«انتفض كيانى انتفاضة عنيفة غريبة ، وتمنيت ، فى لحظة وَمضَت فيها أحاسيسى كالبرق ، أن تمتد ذراعه أكثر وتضمنى بقوة .. بقوة .. ولكن رغبتى العجيبة الخفية تحولت حين خرجت من أعماقى إلى غضب شديد ، وزاده غضبى إصراراً فأمسكنى بيد من حديد.. ولم أدر من أين واتتنى هذه القوة التى جعلتنى أقذف بذراعه فى الهواء بعيداً عنى وأرفع يدى إلى فوق ثم أهوى بها على وجهه فى صفعة عنيفة».

وتعود صاحبة المذكرات لتشركنا معها فى تأمل هذا الذى حدث فنراها حريصة على أن تبرز نفسها وكأنها تكاد تخلط خلطا تاما بين كل ما هو حقيقى وما هو خيال ، وهى تستعين على هذا الخلط بالمناخ الذى تدير فيه حديثها المسترجع للتجربة ، وذلك حيث تقول:

«تقلبت فى فراشى حائرة .. مشاعر غريبة تجتاح كيانى .. وخيالات كثيرة تمر أمامى .. ولكن خيالاً واحداً يستقر أمام عينى ، ابن عمى وهو راقد على الأرض إلى جوارى وذراعه تكاد تلتف حول خصرى ونظراته الغريبة تخترق رأسى ، وأغمضت عينى لأسبح مع خيالى الذى راح يحرك ذراعه حتى التفت حول خصرى بقوة .. وحرك شفتيه حتى لامستا شفتى وضغطتا عليهما بعنف».

«ودسست رأسى تحت الغطاء ، أيمكن أن أصدق؟! يدى التى ارتفعت وصفعته هى نفسها يدى التى ترتجف فى يده الموهومة؟!».

على هذا النحو تصل الدكتورة نوال السعداوى إلى محاولة الفصل بين مشاعر متصارعة ، فإذا هى غير قادرة على هذا الفصل ، وإذا بها تستدعى التكذيب فى محاولة للحل ، وتحاول الدكتورة نوال السعداوى ، بعد هذا ، أن تدلنا على أسلوب تعاملها تجاه هذه التجربة التى تظنها جديدة عليها والتى تحاول الهروب منها بينما الأمر لا يستدعى

الهـروب ، ومن أبدع مـا يمكن أن تلجـأ الدكـتـورة نوال السـعـداوى إلى النهـار وضـوئه لتجعلهما بمثابة المنقذين اللذين أنقذاها من الأوهام التى سيطرت عليها فى الليل وظلامه:

«وأحكمت الغطاء حـول رأسى لأحول بينه وبين هذا الوهم الغريـب ، لكنه تسرب من تحت الغطاء إلىّ .. فوضعت الوسادة على رأسى وضغطت عليه بكل قوتى لأخنق فيه ذلك الشبح العنيد .. وظللت أضغط على رأسى حتى خنقنى النوم».

«فتحت عينى فى الصباح حين بدد نور الشمس الظلام بكل ما يجوس فيه من أشباح».

«وفتحت النافذة .. ودخل الهواء المنعش إلى صدرى فـقضى على الآثار العالقة بخيالى من أوهام الليل ، وابتسمت فى سخرية من نفسى ، هذه النفس الجبانة التى ترتعد خوفاً منى وأنا يقظة ثم تتسلل إلى فراشى فى الظلام فتملأ السرير من حولى خيالات وأوهاماً!».

(٥)

وقرب نهـاية كتابهـا نرى الدكتورة نوال السـعداوى تمضى فى الطريق نفـسه بخطوات مسرعـة واثقة وكأنها تحاول أن تصل من الشك إلى اليـقين ، لكنها مع هذه المحاولة لا تزال تستمتع بالشك الذى يعذبها وهى تقول :

«إن صفـوف الناس تزحف فى الطريق .. تزحف كالسلحفـاة ، لكنها ستـصل يوماً .. وإن الحياة تسير إلى الأمـام .. تسير ببطء لكنها ستبلغ حتمـاً ما تريد .. لقد انقضت ملايين السنين حـتى أصبـحت «الهـيولة» هواء .. وحـتى أصبـح الهواء مـاء ، وحتى أصـبح الماء جمـاداً .. وانقـضت ملايين أخرى حتى أصـبح الجماد أميبا تتحـرك وحتى أصبح للأميبا زوائد حـية .. وانقـضت مـلايين أخرى لـتصـبح الزوائد زعـانـف ، ثم لتـصبح الزعـانف أجنحـة ، ثم لتصبح الأجنحة أذرعا وذيلاً .. وانقضت ملايين أخرى ليصبح للأذرع أصابع ولينقرض الذيل ويقف القرد على قدمين اثنتين».

على هذا النحو تلجأ الدكتورة نوال السعداوى إلـى التاريخ الطبيعى محاولة أن تستلهم منه أمثلة تصور بهـا ما حدث لها ، وما حدث لنفـسيتها وكأنها تحـاول بهذه الأمثلة أن تقنع نفسها قبل أن تقنع قرائها الذين هم فى الغالب أكثر دراية بالتطور النفسى من درايتهم بهذه الأمثلة التى تضربهـا صاحبة المذكرات التى تظن أن تفـصيلات أو حقائق علوم البيـولوجيا

قادرة على أن تقدم لـها الأمثلة الكفيلة بتـقريب الصورة إلى أذهان القراء ، بيـنما الأمر غير ذلك.



وتطرح الدكتورة نوال السعداوى على نفسهـا ، بعد هذا ، بعض الأسئلة التى تعبر عن حيرتـها ، وإن كانت حريصـة على أن تصبغ هـذه الأسئلة بنوع مـن الفذلكة المعـروفة حين يضمن بـعض الأدباء كلامهم بعض المـصطلحات العلمـية الحديثة وكأنهم يـأخذون بأيدى قراءهم إلى اختراق مناطق جديدة من الفكر والشعور:

«لماذا حـزنت فى طفـولتى لأنـى لا أطير فى الجـو كالحمـامة؟ لماذا ضـقت بتلـك الأيام الدامية التى تلوث النساء كل ثلاثين يوما ؟ لماذا تمردت على التاريخ والقوانين والتقاليد؟».

«لماذا ثرت لأن العلم لم يكتشف سر البروتوبلازم الحى؟».

«سوف تـنـقضى الـسـنون ويغيـر الزمن التـاريخ والقوانـين والتقالـيد» ، سوف تـنـقضى السنون وتكـتشف الحياة طريقة نظـيفة جميلة تنضـج بها البنات الصغار .. سـوف تنقضى السنـون ويخف جسـم الإنسان فيـطير .. سوف تـنقضى الـسنون ويهـتدى العلـم إلى سر البروتوبلازم الحى .. إن ركـب الزمن يسير .. وإن الحياة تعثر كل يوم على شىء جديد. لماذا استبطأت الـزمن فنهشت تروسه أوصـال عمرى؟ ، لماذا تعجلت الحـياة فلفظتنى عـجلاتها وقذفت بى إلى فوق .. فوق .. إلى قمة عالية حقاً لكن الوحدة تغلفها ويكسوها الجليد..».

«آه ..» ما أقـسى الـصمت ؟ ومـا أرق أصوات الـبشر ولـو كانـت ضجيـجا.. مـا أبرد الوحدة ؟ وما أدفأ أنفاس الـناس ولو كان مريضة .. ما أقبح السكـون ؟ وما أجمل الحركة ولو كانت معارك .. ما أفظع الفراغ ؟ وما أحلى التفكير والانشغال حتى بالفشل..».

«حل الفراغ بأعماقى فوجد العملاق مكانـاً ليتحرك .. تلاشى الزحام داخل نفسى ففرد العملاق ذراعيه وساقيه وبدأ يتثاءب ويتمطى».

«ماذا تريد؟ تمردت على كل شىء ورفضت حياة النساء .. سعيت وراء الحقيقة فقادتك الحقيقة إلى أن تغلق على نفسك جدران نفسك».

«والرجال .. قلبت فيهم وفتشت وبعثرت ثم مصمصت شفتيك فى ازدراء».

«ماذا تريد؟ رجـلاً يعيش فى خيـالك ولا يمشى على الأرض؟ ، رجـلاً يتكلم ويتـنفس ويفكـر وليس له جسد الرجال؟ أيمكـن لك أن تنسـى؟ هذه الأجساد الملـقاة على مـناضد

التشريح؟ هذا الشخير الكئيب القريب من وسادتك؟ هذه النظرات اليائسة العاجزة المسكينة؟ هذا الموت الذى يحصد الأطفال؟».

«ألا تغلق عليك باب زنزانتك وتنام مرة أخرى؟».

«لكن الليل أصبح طويلاً .. وأوهام الليل عادت تعشعش حول السرير .. والسرير أصبح واسعاً بارداً مخيفاً .. والعملاق لا يريد أن ينام .. والنجاح ليس له طعم .. والشهرة ليس لها معنى .. والمال مجرد أوراق ميتة لا تدب فيها الحياة».

(٦)

وفيما بعد هذا كله تهتدى نوال السعداوى إلى مَنْ تظن أنه يستحق أن يكون شريك حياتها أو هكذا هى تريد أن توهمنا أو تقنعنا ، ولسنا فى موضع يمكن لنا من خلاله أن نحكم على اختيارها ، لكننا على الأقل لا نزال فى الموضع الذى يسمح لنا بتأمل مبرراتها فى اختيارها أو مسوغاتها فى إقناعنا بهذا الاختيار ، فمن حقنا بعد أن عشنا معها هذه التجربة أن نقتنع بالنهايات التى تختارها .. وهى ، فى واقع الأمر ، لا تحدثنا كيف اهتدت إليه وهل كان هذا صدفة أم نتاج مجهود ، وإنما هى تكتفى بتصوير لحظة اتفاقهما من خلال الجدل ، وهى تكتفى بأن تقدمه على أنه الرجل الذى يقول لها بكل حنان:

«لم أر امرأة مثلك أبداً .. قلت: لماذا ؟ قال: النساء دائماً يخفين مشاعرهن أو ملامحهن بستائر كثيفة مصنوعة .. أما أنت فلا تخفين شيئاً .. حتى وجهك لم تضعى عليه المساحيق..

قلت: أنا أحب حقيقتى ، أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها.

قال: أنا أحب المرأة الصريحة الصادقة.

قلت: كثيرٌ من الرجال يعتقدون أن الصراحة تفسد أنوثة المرأة .. إنهم يحبون المرأة المتخفية المراوغة فيمارسون معها غريزة المطاردة والصيد.

قال: إنهم لا يفهمون من المرأة شيئاً سوى أنها متعة حسية.

قلت: قليل من الرجال مَنْ يفهم أنوثة المرأة الذكية ذات الشخصية القوية.

قال: أعتقد أن المرأة مهما بلغ جمال جسمها فإنها تفتقد الأنوثة إذا كانت غبية أو ضعيفة الشخصية أو متصنعة أو كاذبة.

قلت: وماذا عن الرجولة؟

قال: معظم النساء لا يعرفن عن الرجولة سوى أنها كفاءة الرجل الجننسية.

قلت: الرجل فى رأيى يفتقد الرجولة مهما بلغت كفاءته الجنسية إذا كان غبياً أو ضعيف الشخصية أو متصنعاً أو كاذباً.

وعند هذا الحد يصل الطرفان إلى نقطة الالتقاء التى بحث كل منهما عنها طويلا فإذا بهما يصلان إليها من خلال هذا الحوار الذى عبر لكليهما عن توافق أفكارهما ومعتقداتهما:

ونظر إلىَّ طويلاً وقال: أين كنت كل هذه السنين؟

ـ كنت مشغولة بالبحث.

ـ عن أى شىء؟ ألم تنالى ما تريدين؟

ـ الذى أريده لم أنله أبداً.

ـ نحن لا نحصل على كل شىء فى الحياة.

ـ عشت فى حرمان دائم.

ـ الحرمان يجعل أوتار أعصابنا مشدودة نستطيع العزف عليها .. أما الإشباع فيجعلها ترتخى فلا تخرج لحناً».



ونرى الدكتورة نوال السعداوى بعد هذا كله وهى تنتقل من الحوار إلى الاعتراف الذى تريد أن تقدمه لاجئة إلى السرد ، تاركة تيار وعيها يتحدث عما حدث يومها من انفعال نفسى ، وتيار الوعى يحدثنا حديثاً جميلا ، ليس فيه انتقال حتى وإن كانت صاحبته حريصة على أن تضمنه معتقداتها وأفكارها ومعاييرها فى الحكم على الأمور من قبيل أن الرجل الذى أحبته لم ينظر أبداً إلى ساقها أو صدرها .. وهى تعرف أنها تحدثنا بهذا الحديث لتنبئنا عن معتقداتها ومعاييرها ، لا لتروى لنا ما حدث بالضبط ، فهذا لا يأتى إلا فى المحل الثانى بالطبع ، وربما لا يأتى.

وعلى الرغم من هذا الوضوح فى عرض الفكرة فإن صاحبة المذكرات تقدم لنا عبارات

محملة بكل ما تريد أن تقوله ، وهى تقدم لنا هذه العبارات ضمن السياق الذى يجعلنا نتصور أن السياق لم يكن ليمضى بدون هذه العبارات:

«كان يكلمنى .. وكان ينظر فى عينىَّ دائماً .: لم أره مرة ينظر إلى ساقىَّ .. لم أره مرة يختلس النظر إلى صدرى .. وكنا وحدنا .. والأربعة جدران مغلقة علينا .. ولكننى لم أشعر أنه يرى الجدران أو يحس بها .. كان يحلق فى سماء عالية .. وكنت أجلس إلى جواره بلحمى ودمى .. لكنى لم أحس أنه يخاطب جسدى .. كان يخاطب عقلى وقلبى .. وأغمضتُ عينى فى راحة واطمئنان..».

(٧)

وهكذا فإننا نكاد نرى حقيقة الدكتورة نوال السعداوى فى هذه العبارات ، فهى تثبت لنا ما أرادت إثباته من قبل ومن بعد فى حياتها ، إنها لا تتمرد على الطبيعة ، لكنها تتمرد على نظرتنا للطبيعة ومفهومنا لها ، وإنها تؤمن بالأسرة كما نؤمن جميعاً أو بأفضل مما نؤمن جميعاً. وإذا بهذا الكتاب ينتهى بالأنثى كما بدأ بها ، ولكنها فى النهاية تقول نهاية ما تصل إليه حكمة البشرية كلها:

«آه. . وأخفيتُ رأسى فى صدره .. أحتمى فيه .. وألتصق به .. أحسست أننى تجردت من عمرى الذى فات وعدت طفلة تحبو وتتعلم المشى .. أصبحتُ فى حاجة إلى يد حانية تسندنى .. لأول مرة فى حياتى أشعر بالحاجة لأحد .. حتى أمى لم أكن أشعر بالحاجة إليها .. ودفنتُ رأسى فى صدره وبكيت .. بكيت فى راحة وهدوء».

ومع كل هذا فإن أحاسيس ومشاعر الأنثى فى الدكتورة نوال السعداوى تتبدى لها فى كثير من هذه المواقف التى انتقتها لتحدثنا بها عن ذكرياتها ، ونحن نقرأ لها هذه العبارات الشديدة الإيحاء التى تعبر فيها عما كانت تشعر به وهى التى تتوق فى بعض الأحيان إلى الآخر وإلى وصاله وذلك حيث تقول:

«تقلبت فى فراشى مؤرقة .. أصبح السرير خشناً مليئاً بالحصى والمسامير ، تركت الفراش وأخذت أمشى فى الحجرة .. أحسست أن الحجرة ضيقة كالزنزانة والجو خانق كحبل المشنقة ، خرجت إلى الشرفة ووقفت لكنى لم أطق الوقوف: جلست .. لكن لم

أطق الجلوس .. فوقـفت ومشيت إلى حجرة الـطعام .. حاولت أن آكل شيئـاً ، لكن مذاق الطعام كـان متغيـراً غريباً ، كأنه مـصنوع من المطاط» ، أصبحت لا أحـتمل أى شيء .. لا الجلوس ولا الوقوف ولا المشى ولا النوم .. أصبحت لا أجـد طعماً لأى شيء .. لا الطعام ولا الماء ولا الهواء ، والأشـياء التى كانت تملأ وقتـى أصبحت تافهـة فارغة .. واهتمـاماتى التى كانت تبتلع نهارى ابتلعها شعورى الجديد».

«سـؤال واحـد يجـوب آفـاق عــقلى وروحى ، هل أطلبـه؟ هل أكلـمـه؟ هل أبدأ أنا الحديث؟؟».

«ونظرت إلى الآلة الصغيـرة .. تلك الكتلة المربعة السوداء التى كنت أنقلهـا بيد واحدة من مكان إلى مكان .. وأخرسها بأصبع واحد حـين أريد .. تلك الكتلة أصبحت الآن شيئاً رهيباً .. جـهازاً سحرياً خطيراً ، أنظر إليـها من بعيد فى حذر .. وأقـترب منها فى وجل .. وألمسها بأصبعى فتمس عقلى وقلبى كهربة عنيفة كأنما مست يدى سلكا كهربياً عاريا».

«أتتغير الأشياء إلى هذا الحد حين تتغير نظرتنا إليها؟؟».

«وجلست إلى جـوار التليـفون أفكر .. وتذكـرت كلمـاته حين كتب لى رقـمه ، قـال: اطلبينى حين تريدين».

«إنه يحترم إرادتى .. لماذا لا أحترم إرادتى إذن؟؟».

«لقد كنت أحترم إرادتى دائماً .. أليـست إرادتى هى التى تحكمنى وليست إرادة الغير؟ ألـم يحاول رجل أن يمتلك حـياتى فلم أملكه شيئـاً لأنى لـم أكن أريد؟ ألم يحاول رجل أن يعطينى حـيـاته فلم آخـذ شيـئـاً لأنى لـم أكن أريد؟ أليـست إرادتى هى التى تحـدد عطائى وأخـذى؟ وأنا أريد أن أراه الآن .. نعم أريد ، ودارت أصابعى الـثابتـة فى ثقوب القـرص ست دورات .. وجـاءنى رنين عال مـتواصل ، وفجـأة انقطع الرنين فـانقطع الدم من قلبى وسمعت صوته العميق يقول: ألو».



وتحرص الدكتورة نوال السـعداوى على أن تبدو وكأنها تعترف أنهـا كانت صريحة فى تعبـيرها عن الرغبة ، مع وعـيها بأن هناك أساليب أخـرى أكثر فعـالية فى التعبـير عن هذه الرغبـة ، ومن حق القراء عليـها أن تستـوعب بعض ضجرهم من هـذا التعبـير المركب عن

مشـاعر مركـبة ، كـما أن من حق الرجال الـذين مروا فى حيـاتها أن يدركـوا وهم يقرأون المذكرات حقيقة ما التبس عليهم فى بعض اللحظات:

«لم أفكر فى أسـاليب الدلال .. لم ألجأ إلى مـا تلجأ إليه النسـاء من لف ودوران .. لم أتظاهر بأننى أسأل عـليه لمجرد السؤال .. لـم أضع البرقع على وجهى وأغـمز له من وراء الباب .. لم أصطنع السذاجة والغباء».

«قلت له فى صراحة وصدق: أريد أن أراك».

«متى ؟».

«الآن».

«أين؟».

«أى مكان. لا أهمية للمكان».

«أين أنت الآن؟».

«فى بيتى».

«سأكون عندك بعد قليل».

«تهاويت على المقـعد كأنمـا انسحبت منى الحـياة .. وتلفت حولى أنظـر إلى أثاث بيتى وجدرانه كأنما أنظر إليها لأول مرة».

على هذا النحو كانت صاحبة المذكرات قادرة على أن تعبر عن لحظات الشوق والتطلع والترقب ، وذلك من دون أن تفقد حريتها أو تحررها.



ثم تتحـدث الدكتـورة نوال السعدواى بقـدر أكبر من الإجـادة عن أكثـر من مظهر من مظاهر شـعـورها (المفـاجئ) بالحب ، ونحن نرى هذا الشـعـور الذى تعبـر عنه صاحـبـة المذكرات كأنه هو نفسه نفس الشعور الذى تعودناه من المرأة فى الحياة وعلى شاشة السينما أو على خشبة المسرح:

«ودب النشـاط والحمـاس فى كيـانى فـجأة ، هذه الصـورة يجب أن أنقلهـا هنا .. هذا الكرسى يجب أن أضـعـه هناك .. هذه الزهرية يـجب أن تمتلئ بالورد .. وأرسلت الخـادم ليشـترى باقـة من الورد .. ولبسـت الفوطة ووقـفت فى المطبخ .. وصنعت كعكة بالـبيض

واللبن وضعتها فى الفرن .. وصنعت قالباً من الجيلى وضعته فى الثلاجة» ، أخذت أجرى كـالطفلة الصغيرة من الفرن إلى الثلاجة .. ومن الثلاجة إلى زهرية الورد ، ومن زهرية الورد إلى صورة الحائط .. ومن صورة الحائط إلى الفرن ، تصبب العرق من وجهى وسال إلى فمي ، لكنى وجدت له طعماً جديداً لذيذاً .. ارتفع صدرى وانخفض فى أنفاس لاهثة متقطعة كجواد سباق لكنى نسيت أن لى رئتين .. وضعت يدى داخل الفرن ولم أشعر بلسع النار كأنما نسيت خلايا مخى ألم الحرق ، التوى ظهرى من الانحناء تحت الموائد والانثناء فوق الرفوف ، كأنما تلاشت عظام عمودى الفقرى .. ثم دق جرس الباب دقة واحدة رنت فى قلبى رنيناً غريباً رهيباً كأنى أسمع صوت الجرس لأول مرة فى حياتى».

وهكذا تعود «المرأة» لتبدأ «الحياة» من جديد.

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

8

يوميات أمرأة عاملة
إقبال بركة

دار الخيّال

(١)

تتمتع الروائية الأستاذة إقبال بركة بقدرتين رائعتين : قدرتها على التعبير الواضح الصريح الملتزم بكل قواعد اللغة والبيان ، وقدرتها كذلك على التعبير القوى عن أفكار واضحة حاسمة وجريئة .. وهى مع هذا كله لا تفتأ تزداد قوة فيما تكتب وفيما تعتقد أيضاً ، وقد يعتريها ما يعترينا جميعاً من بعض الانصراف عن المشاركة فى الكتابة العامة والقضايا العامة ، ولكنها تعود دائما لتثبت أنها لم تكف إلا طلبا لبعض الراحة التى تؤهلها للجديد وللمزيد من العطاء.

وحين طالعت نبأ صدور كتابها «يوميات امرأة عاملة» منيت نفسى فى البداية بكتاب سيرة ذاتية حية أو معاشة لشخصية معاصرة معروفة وبدأت أحدس ماذا ستكتب فيه.. ثم إذا بى أتذكر أنها كانت تستخدم هذا العنوان لبعض كتاباتها الأسبوعية ، ثم إذا بى أجدها فى مقدمة الكتاب تنوه أن هذا الكتاب هو مجموعة مقالاتها تلك ، ولكنى أمضى مع فصول الكتاب فأجدها تقريباً تضم فصولاً من كتابين مختلفين لم تشأ صاحبتهما أن تفصلهما وإنما سارعت بضمهما: كتاب يضم بعض مشكلات سيداتنا المصريات عرضنها على السيدة إقبال بركة يلتمسن رأيها ، فإذا هى تشرك الجمهور فى الخبرة والتجربة والرأى ، وكتاب آخر يضم سيرتها الذاتية هى ، بيد أنه لا يزال فى حاجة إلى استكمال. وإذن فكتاب السيدة إقبال بركة مزيج من تجارب شخصية بحتة ، ومن تجارب إنسانية لاقت صداها فى فكرها ووجدانها على نحو ما عبرت لنا فى هذا الكتاب.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يضم واحداً وستين مقالاً ما بين تجربة شخصية وإنسانية ، إلا أنه يتميز بكثير بل بكثير جداً من الخصائص التى تجعل منه كتابا حقيقياً لا مجموعة فصول فحسب .. فهذه التجربة الشعورية التى تجتاح الكتاب وتسيطر عليه هى ذاتها التجربة الشعورية التى تجتاح مؤلفته وتسيطر عليها سيطرة تامة ,... إنها كما تقول : «تصبو أن تحقق ذاتها كإنسانة وليس فقط كأنثى .. إنها لا تريد أن تكون شمعة تحترق .. ونحن اليوم فى عصر الكهرباء..»

تعرض لنا الأستاذة إقبال بركة في وضوح فكرة ووضوح لفظ بعض المشكلات التى نعرفها جميعاً وندركها جيداً فإذا هى تعمق من فهمنا للحياة على حين تمر بنا الحياة كل يوم ونحن لا ندرى.. ومن السهل على الناقد المتعجل أن يستنتج أن إقبال بركة قصرت حديثها على بعض المشكلات العامة جداً فى حياة السيدة المصرية العاملة ، ومن السهل على الناقد أيضاً أن يأخذ قضية كقضية «المواصلات» ويحصى المقالات التى كتبتها عنها إقبال بركة بدءاً من المقال الأول الذى تحكى فيه قصة صراعها بين «الغواية» وبين «حل أزمة ذهابها وعودتها من عملها كل يوم».. ثم المقال «المفتاح فى يدى أنا» الذى تحكى فيه كيف تشجعت (المرأة العاملة) على أن تقود سيارتها بعدما استطاع زوجها أن يؤجل ذلك مراراً حين كان يجاورها وهى تقود فى المرات الأولى .. على الرغم من الرمز والمغزى الواضح فى هذا المقال أو فى هذه القصة.. ومروراً بالمقال الثانى الذى تقارن فيه بين شعورها حين مرّ عليها زميلُها فى الصباح لأول مرة ليلتقطها من أمام باب العمارة فإذا هى تفكر فيما سيقوله عنها البواب وزوجته ، والشعور الآخر حين عاد بها فإذا هى لا تتردد فى أن تتركه يوصلها إلى باب منزلها أيضا «وافقت بلا تردد فمن خلال ممارستى لعملى ، خاصة ذلك العمل ، عادت إلىّ ثقتى فى نفسي ووجدتنى قادرة على المواجهة.. ليس فقط عيون الناس ، بل وأفكارهم أيضا».



كأنى أريد أن أقول إنه من السهل على الناقد المهاجم أن يأخذ من مثل هذه الملاحظات السريعة مبرراً للقول بأنها تدور فى محاور محدودة ، وأنها لا تلتفت إلى ما وراء الحياة من حكمة ، ولا تتعمق بأكثر مما تعرضها عرضاً سريعاً يتواءم مع المساحة المحدودة المتاحة لها فى كل مقال .. ولكنى أعتقد أن مثل هذا الشعور هو أبعد الأحكام صواباً عن حقيقة كتابات إقبال بركة التى يموج فكرها بفلسفة لا تيأس من أن تلحظ وتسجل الاستقطاب حتى على سطح التجربة من خلال ما تدركه من آيات الحركة فى الحياة من حولها فى كل آن.

ومشكلة المرأة عند إقبال بركة مرتبطة تمام الارتباط بحركتها فى الحياة .. وهذه الحركة بالطبع تقودها إلى وسائل المواصلات ، وقد كتبت إقبال بركة مقالاتها حين كانت مشكلة المواصلات فى القاهرة تمثل ما كان يمثله مثلاً مرض السل فى عهد الأدباء الروس الشوامخ .. وقد نعجب إذا سمعنا طبيباً يقول إن مرض "المواصلات" قد يفوق فى تأثيره العميق على الشعور الإنسانى تأثير الوباء الذى يجتاح البشرية أو المرض المتوطن الذى يطول به الأمد فى بيئة ما..... وعلى هذا النحو لا بد لنا أن نفهم طبيعة المادة التى نسجت منها إقبال بركة وقائع النسيج الاجتماعى الذى أرادت التعبير عنه فى كتابها ومقالاتها من قبل.

(٢)

وقد كنت أود أن أعرض للقارئ بعض فصول هذا الكتاب ولكننى تراجعت عن هذا لأننى أعتقد أنه لن يترك هذا الكتاب من دون أن ينتهى منه فى يومه أو غده ، ولكنى أحب مع هذا أن أتناول المحاور الرئيسية التى تناولتها إقبال بركة فى كتابها وأن أنقل عنها بعض لقطات من حديثها المفعم بالمشاعر عن كثير من القضايا وأحب أن أوزع فصول كتابها جميعا على ثمانية محاور:

المحور الأول: المرأة والغواية: يستغرق هذا المحور ثمانية مقالات (فصول) من الكتاب ، ويدور حول فكرة الغواية المحببة إلى النفس التى تجد مبرراً واضحاً لها من استلطاف الشريك أو الزميل أو الميل إليه .. أو العودة إلى أحلام فترات سابقة وعلاقات سابقة ، كما تضم أيضاً الحديث عن الفرص التى تأتى عن طريق أزواج الصديقات .. ونجد الكاتبة فى غالب الأمر تنتصر للفضيلة ، وتبرر انتصارها بأسباب أخرى غير الفضيلة نفسها ، وإن كانت الفضيلة تطل علينا بوضوح من أعماق كتابتها كقيمة مطلقة عليا لا تسمح لها الكاتبة بالضياع أو بالتفريط أو بالدنس أبداً .

المحور الثانى: الأمومة فى حياة المرأة العاملة: لا يبدو فى حديث إقبال بركة عن الأمومة اختلاف بين أمومة المرأة العاملة وغير العاملة إلا فى عنصر واحد هو عنصر الانشغال الوقتى أو الارهاق البدنى من العمل ، ولكنها مع ذلك لا تنمى الحديث فى هذه النقطة عن عمد ، وإنما تتناول فى حديثها أحاديث «الأم» بصفة مطلقة وهى حريصة على أن تظهر فيها عاطفة الأمومة الرشيدة بحيث تتبدى هذه العاطفة واضحة كل الوضوح .. هل تريد السيدة إقبال

بركة أن تربط بين رشد الأمومة وبين العمل ... ربما .. ولكن كتابتها على كل حال لا تعمد إلى إبراز هذه الفكرة بالقدر الكافى وإن أرادت ذلك بالطبع ، لعلى أقصد أن اقول إن بوسعها أن تتعمق مثل هذا المعنى فيما سيلى من كتاباتها .

المحور الثالث: فى فلسفة العلاقة بين الرجل والمرأة: وهى تعبر عن رؤيتها لهذه العلاقة فتقول:

«إن الرجل يبحث عن المرأة الكاملة .. فى هذا العالم الناقص .. هل يحلم الرجل بالمستحيل .. أم أشعر أنا باليأس الشديد».

وتبدو إقبال بركة حريصة على أن تعرض حيرتها بأكثر من حرصها على إبداء آراء قاطعة ، وقد أصابت التوفيق باتخاذها هذا المنهج خصوصاً فى مثل هذه القضية.

المحور الرابع: المشكلات الاجتماعية العامة: ونحن نلاحظ المؤلفة فى هذا الكتاب مُقلة فى حديثها عن مثل هذا النوع من المشكلات ، وذلك بحكم انصرافها المقصود إلى التجارب الذاتية ولكنها فى مقالها « أفراحنا والعوالم» تلفت نظرنا إلى خطورة انتشار وتنامى بعض الاتجاهات المظهرية والاستهلاكية حتى بين من يفترض أنهم من أصحاب الفكر المتحرر حين تعبر عن خيبة أملها حين حضرت حفل زفاف إحدى قريباتها المتميزات من معيد بالجامعة على قدر كبير من التحرر الفكرى وتقول الكاتبة:

«كنت أتصور أن زواج مثل هذين الشخصين لا بد أن يحتفل به بطريقة عصرية واعية تتفق مع عقليتيهما وأفكارهما المتحررة .. لكنى فوجئت بنفس المشاهد التى تتكرر فى كل أفراحنا .. الأضواء المبهرة التى تزغلل العيون ، والميكروفونات العالية ، الاستعراض بالأزياء والحلى والفراء الغالى والبوفية العامر...».

المحور الخامس: تجارب ذاتية من الحياة اليومية: وفى هذا الصدد يمكننا أن نحصى أكبر عدد من الفصول التى تندرج تحت عنوان محور من المحاور التى قسمنا إليها كتاب السيدة إقبال بركة .

المحور السادس: المرأة العاملة ووظيفتها: وهو محور مهم من محاور حديث إقبال بركة، بل إنها اختصته دون غيره من المحاور بعنوان الكتاب ، وفى مقالها «والشمس لا تشرق إلا فى السماء» تتحدث إقبال بركة بحماس عن قيمة اعتزازها بنفسها فتقول: «الحق أنى اكتشفت حقيقة عميت عنها كل السنوات الماضية .. إن الإنسان إذا ألغى نفسه فلسوف ينتهى الأمر بأن يلغيه الآخرون أيضا ، أما إذا وقف على قدميه وقاوم وأثبت وجوده المنتج الفعال ، فإنه لاشك سيجنى ثمرة كده تعزيزاً وإعجاباً بلا حدود».

أما كيف ترى السيدة إقبال بركة الانتصار على مشكلات الحياة التى تواجه الأنثى فإنها تحدثنا عن مشكلة اختيار الزوج فى «الأسلاك الشائكة» حديثا يتسم بالحكمة وإن لم يفقد الحماس ، كما تتناول مشكلة تقدم السن بالمرأة فى مقالها «عمرى .. مشكلة» وتجاهر فى نهايته بقولها:

«أما امرأة الأربعينيات فهى بحر يزخر بالحنان والعطاء .. ».

وعن اضطهاد الرجل للأنثى تخصص إقبال بركة عدداً من المقالات التى تحكى تجارب المرأة فى الوظيفة.

المحور السابع :العلاقة الزوجية: تخصص إقبال بركة لهذا المحور عدداً من المقالات. وتعلق فى أحد المقالات قائلة :

«ضحكت بشدة على سذاجة بعض الرجال الدين يتفاخرون بتعاون زوجاتهم فى نفقات المعيشة .. ثم يسخرون من الرجل الذى يتعاون مع زوجته فى مسئوليات البيت.. عجبى».

المحور الثامن :العلاقات النسائية: فى الفصل الذى عنوانه «نحن وشاطئ الحياة» نجد السيدة إقبال بركة تصرح لنا بما نسمع الهمس به عن ندرة الصداقات الحميمة بين النساء فى مقالها ثم تقول:

«... الآن أعرف لماذا تنتهى صداقات النساء بسرعة ولماذا تعيش كل منا فى جزيرة معزولة لا تلمح شاطئ الحياة ولا يعنيها الوصول إليه».

(٣)

وبعد ... فهذا كتاب يتحدث عن تجربة واحدة من سيداتنا المثقفات والعاملات من أجل المرأة خلطت أو مزجت أو زاوجت فيه بين تجربتها الشخصية والإنسانية على خير ما يكون التوفيق حين يكون ، أبرز ما فيه هو الرضا النفسى العميق حتى فى حالات الثورة من أجل القيم ، والقيم الجديدة التى تريد أن تنتصر لها ، ونحن نجدها على الدوام سعيدة بما اعتقدت ، وبما اختارت ، وبما فعلت ... وهذا موطن من مواطن التقدير. ويكفينا للتدليل على مشاعرها وعقيدتها أن نقرأ ما كتبته فى المقدمة :

«لقد كرم الله الإنسان بالعقل .. وحباه من الصفات والمواهب والقدرات ما يجعله أرقى كثيراً جداً من بقية الكائنات الحية ، وبداخل كل منا ـ كما أثبت العلم ـ رجل وامرأة .. أى هرمونات ذكورة وهرمونات أنوثة .. الفرق فقط فى أن البعض تتغلب عليهم هذه الهرمونات أو تلك ، والحفاظ على النوع واحدة من الغرائز الأساسية التى تحرك وجدان البشر وتهيمن على حياتهم ، ولكن الفرق بين الجنس البشرى والأجناس الحيوانية الأخرى يكمن فى تلك الجوهرة الغالية التى تحرك غرائزه وتسيطر على مسيرتها: العقل».

«الغريب أن أجيالاً لا حصر لها ظلت تتجاهل هذه الحقيقة وتنظر إلى المرأة من ذلك المنظور الضيق فقط .. أنوثتها ، والأغرب ، أن المرأة نفسها لم تقاوم تلك النظرة .. بل أكاد أقول شجعتها وحرصت كل الحرص على أن تغذيها لدى الرجل».

«الخطأ إذن ليس من جانب واحد.. والتوجه لابد أن يكون للطرفين معاً.. للمرأة التى لا تقدر ذاتها ولا تعى إمكانياتها ، وبالتالى لا تعترف بالمسئوليات الملقاة على عاتقها ، وللرجل ، الذى ينظر إلى الحياة بعين واحدة ، هى عين الذكر ، فلا يرى فى المرأة سوى جانب الأنثى».



والواقع أن الأستاذة إقبال بركة كتبت هذا الكتاب بثقة شديدة وبقدرة أشد على إبراز هذه الثقة فى كل فقرة من فقرات الكتاب ، كما أننا لحسن الحظ لا نراها نادمة فى هذا الكتاب كله ـ إلا مرة واحدة ـ تصورها فى الندم على التخلى عن حب زميل واعد أهملت حبه فى أول حياتها:

« ها هو زميل الأمس يصبح رجلاً ناجحاً مرموقا ، وقفت بجانبه امرأة أخرى أكثر منى شجاعة أو لعلها هى الأخرى تركت من أجله رجلاً آخر مازال فى بداية الطريق .. ترى هل كانت حياتى ستتغير لو كنت وقفت بجانب زميلى وناضلنا معا ؟ .. لا أعرف .. ولكننى أعرف الآن كم نسيئ إلى أنفسنا عندما نئد عواطفنا تحت ركام المادة الزائلة ».

هكذا تروى صاحبة المذكرات وهى فى ندمها كما نرى تعبر عن أول ما ينبغى للمرأة أن تتحلى به : الشجاعة ، فإن لم يكن فالشجاعة الأدبية .

(٤)

ومع هذا كله فإن الأستاذة إقبال بركة تؤمن بربة البيت إلى الحد الذى تشخص فيه مشكلات المجتمع المصرى بأنه يحتاج إلى ربة بيت ، ولهذا فإنها تقترح تعين سيدة فى منصب محافظ القاهرة:

«الشارع المصرى» يبدو لى كبيت غابت عنه ربة الدار! ، الفوضى والضجيج والأنانية سادت فى كل مكان ، وخلا لها الجو فمضت تعبث بكل شىء .. وتبعثر راحة الناس وأمنهم .. وأصبحت الحالة معدية ، فالجميع يسيرون فى تيار اللامبالاة كأن قوى شريرة عاتية تجرفهم وتشل إرادتهم .. الأسوأ من هذا أننا منساقون إلى التعود على تلك الحال الفظيعة التى وصلت إليها شوارع القاهرة .. فلا أحد يتحرك أو يفعل شيئاً ، الجميع ينتظرون الحكومة كى تأتى وتكنس لهم أمام عماراتهم ومحلاتهم .. والحكومة هى التى يجب أن تراقب أصحاب الضمائر الميتة .. فإذا غابت عينها الساهرة مضى أصحاب السيارات يدقون بإلحاح على أبواق سياراتهم ، ويركنونها فوق الأرصفة ، ويسدون بها الطرق الضيقة والشوارع الواسعة ، ويتخطون الإشارات الحمراء ، ويتسابقون فى الطرق المزدحمة مهددين حياة الآخرين».

«ذلك هو المشهد اليومى الذى أجدنى مضطرة لمعايشته كل يوم. فأنا امرأة عاملة. وتعاملى مع الشارع المصرى يومى ومتكرر. لقد أصبح له تأثيره القوى على أعصابى وصحتى. أصبحت له بصماته على شخصيتى ذاتها.. وعلى علاقاتى بالآخرين. وعلى الرغم من أنى أقضى نصف يومى تقريباً فى الشوارع ، إلا أنى لم أتعود بعد على حالتها السيئة .. إن أول مشهد تلتقطه عيناى فى الصباح الباكر هو منظر أكوام الزبالة التى سكنت جوانب الأرصفة. . وعندما آخذ نفساً عميقاً تصطدم أنفى برائحتها العطنة .. وأحاول بصعوبة أن أشق طريقى وسط السيارات التى أصبحت تحتل الأرصفة وجانباً كبيراً من الطريق بعد أن ضاق بها الجراج الوحيد فى الشارع. وكثيراً ما انحشر كعب حذائى فى حفر الرصف ، وتلتوى قدماى ، أو أسقط على وجهى .. فلم يعد هناك رصيف واحد يصلح للسير فوقه».

«إن «الشارع المصرى» ينقصه «ربة بيت» شاطرة .. فلماذا لا نجرب ولو مرة واحدة أن يعطى منصب محافظ القاهرة لامرأة!!».

مذكرات المرأة المصرية

الثورة والحرية

9

بعض أوراقي

للسيدة سلوى العناني

دار الخيّال

(١)

«بعض أوراقى» كتاب أدبى مع أنه قد لا يندرج تحت أية طائفة من الكتب التى تصنف تحت نطاق القصص أو المسرحيات أو الروايات .. إلخ) وهو مع هذا كتاب أدبى لأنه استكمل معظم مقومات العمل الأدبى ، ففيه من العاطفة صدقها ، ومن البيان جودته ومن المعانى توليدها ، ومن الأفكار استحداثها ، وقبل كل هذا فيه من روح الأدب ما هو كفيل له بأن يكون من أحسن كتب الأدب موضوعاً وتقديماً .

ثم إن هذا الكتاب ينبض بحرارة أخرى ، قد تكون حرارة الأدب وقد تكون من باب أولى حرارة المرض ، ولكنها فى الغالب حرارة الصبر ، الصبر حين يكون صاحبه مقاسياً للآلام ولا يجد أمامه خيراً من الصبر ولا أولى باللجوء إلى كنفه منه ، وهو مع هذا يعانى من الصبر ، مع أنه قد لا ينتهى به إلى الغاية فهو لا يحقق هذه الغاية على نحو ما يحدث فى حالات السفر حين يمنى المرء نفسه مثلاً بأنه سيصل إلى غايته ، فهو لهذا يتحمل مشقة وسيلة المواصلات حتى تنتهى المشكلة بوصوله إلى غايته ، وفى بعض الأمراض تغيب الغاية عن المريض وعن الطبيب أيضاً ، فيصبح الصبر طريقاً قد ينتهى بالأمل وقد لا ينتهى به .. وهو وضع يخلق فى الحالة النفسية أمزجة وانفعالات قد يصعب فهمها ، وقد يصعب التعبير عنها ، ولكن هذا الكتاب يحاول أن يعبر عنها فيفلح فى التعبير ، ويجيد الصياغة ، وينجح فى الوصول بالقارئ إلى حالة من التفاعل مع ما قرأ .. ولهذا يمكن لهذا الكتاب أن يرتفع بقامته بين الكتب الأدبية ؛ بفضل ما استطاع أن يحققه.

أما مؤلفة هذا الكتاب الأستاذة سلوى العنانى فهى طراز واضح للنموذج الأقل وجوداً بين الأجيال المصرية الجديدة التى تقبلت ما فرض عليها من أن تمضى فى قناة أنبوبية ضيقة تتحكم فيها طريقة الصدفة المنظمة التى لم يكن أمام الحكومة مهما كانت قدرتها ومهما كانت رغبتها فى العدل أن تختار عنها بديلاً لصياغة مستقبل وحياة ومعيشة آلاف مؤلفة دفعت بهم ذات الحكومة إلى التعليم العام فالعالى فالوظائف العامة (دون أن تخطو التنمية خطوات موازية قادرة على استيعاب كل هؤلاء فيما ينمى التنمية نفسها).

تنتمى الأستاذة سلوى العنانى إلى هذا الجيل حقيقة ولكنها لم تخضع أبداً للفلسفة النمطية التى لاقت قبول الجيل الذى انتمت إليه بحكم مولدها ونشأتها ولكنها كانت من أولئك (المتمردين البناءين) إن جاز أن يكون بين البشر من يحمل هذا اللقب ، فإن جاز ذلك فسلوى العنانى من أبرز هؤلاء على المستوى الشخصى ومن أبرز هؤلاء فى تاريخنا المعاصر ، وأمثال السيدة سلوى العنانى ليسوا هم وقود الثورات ولا حاملو شعلتها وإنما هم الأمثلة الفردية على الصدق مع النفس ، الصدق معها فى حالة الطموح حين يكون عليهم أن يستجيبوا لطموحهم مهما يكن شأنه ، والصدق معها فى حالة الوصول إلى الرغبة فى التغيير لأنه لم يعد فى وسعهم أن يمارسوا ذات العمل الذى هم فيه ، والصدق معها بعد ذلك حين يخلو الواحد منهم (أو الواحدة) إلى القلم أو الورق فيكتب رسائله الإخوانية أو الذاتية .

كان لهذه السيدة سبق إلى العمل كمضيفة فى الطيران ، ثم فى وكالة أنباء الشرق الأوسط (فى الصحافة الهادئة) ثم فى الأهرام بدءاً بمكتب المغفور له الأستاذ توفيق الحكيم. وهى فى كل هذا تعانى من ظروف لا تشجع على التنقل حتى وإن دفعت إليه ثم يبتليها الله بالمرض فإذا هى وقد أصبح عليها أن توجه طموحها بحيث يتوازى مع قدرات البدن الذى أرهقه المرض ، وإذا هى مع ذلك لا تنسى أن لها قلماً ، وأن فى وسع هذا القلم أن يعبر عن التجارب التى تواجه صاحبه أكثر الوقت .. ولهذا كله تتضح لنا أقدار متفاوتة من شجاعة سلوى العنانى وقدراتها وأفكارها البناءة ، وتفكيرها غير التقليدى .



كل هذا قد يهون عند أهل الأدب الذين يُعنون بالنص نفسه بل وعند أولئك الذين لا يعنون بحياة الكاتب إلا بالقدر الذى يساعد على فهم هذا النص .. ولكنه قد لا يهون عند النقاد الذين يوجهون أقداراً [مهما تكن متفاوتة] إلى ضرورة أن يعبر الأدب عن كل الجزئيات الصغيرة التى قد تشغل حياة بعض البشر [مهما صغرت نسبة هذا الجزء] بحيث

يتـواجد فى الوعى الـقومى قـدر واضح عن جوانـب كثـيرة من الأمـور التى تصـوغ حيـاة النـاس ، قدر يصبح معـه من السهولة على أولئك الذين يتمتعون بسـعة الأفق [الذى يتقبل دائماً] الامتداد بهذه السعة .

وليس هذا بمقلل من شأن كتاب يحكى تجربة شخصية لابد أن نحترمها وأن نحترم قدرة صاحبتـها على التعبير عنها ، وقبل هذا قـرارها بالتعبير عنها ، فالإرادة هنا هى مـفتاح مثل هذا العـمل الأدبى ، ذلك أن هذه الإرادة تمثل الخط الفـاصل بين بقاء الـتجـربة فى محـيط الحكى المتصلة ، أو المتـقطعة ، أو المتكررة ، وبين تحولهـا إلى المعانى الساميـة التى تتبلور فى كتابة واضحـة ، قد يعتريها بعض الغمـوض ، وقد ينقصها بعض الوضوح ، ولكن شـفافية روح هذه الكتـابة لا تتمثل فـى جوهر الروح فحـسب ، ولكنها تتـضح أيضاً فى واجـهتـها كذلك على خـير ما تكون الشفـافية والصفـاء ، وحين تصف سلوى العنانى موقفـاً فهى لا تنجو مـن التألم وهى تصف مـا صادفت أو ما عـانت ، ولكنها ـ وهذا هو الأهـم ـ تضيف عنصر الصدق إلى التجربة الانفعالية ، صدق التعبير وصدق التجربة.

(٢)

ثم إنه ينبـغى لنا ـ بعـد كل هذا التـقديم ـ أن نسـأل أنفـسنا سـؤالاً آخر : هل لو كـان لسلوى العنانى أن تؤجل كـتابة هذا الكتاب خمس سنـوات مثلاً أو تقدمـه خمس سنوات هل كانت لغة العاطفة تتغير فى هذا الكتاب ؟ هذا هو السؤال الذى قد نجد له إجابة وقد لا نجد ، وفى الحـالين فإننا سنكون قادرين بما قـد نجد وبما قد لا نجد من إجـابة على دراسة أثر الزمن فى الألم على نحو مـا يتراءى من تجربة صاحب الألم حين يـتحدد موقعـها من زمن الألم نفسه.

ولست أشك فى أن الـنقـاد ودارسى الأدب قـد درسـوا مـثل هذه الإشكـاليـة من قـبل دراسات ذات جدوى ، وذات قيمة ، ولكنى أعترف بحكم مهنتى وعملى كطبيب أنى أجد الشعـور تجاه هذا الموقف يتجـدد مع كل مريض ، بل ومع كل قـريب لكل مريض ، ونحن نجـد درجات الـتعـبير عن الـتألم لألم صـاحب المرض وهى تتـفـاوت عند الناس تفـاوتا ملحوظا ، كما نرى فى كل حين مشاعـر الحب واللهفة والجزع وهى تنتاب الأهل بدرجات قد تكون أكـثر تعبـيراً وأكثـر صياحـاً من ألم صاحب المرض نفسـه .. ولكننا مع هذا نظل نعانى من ندرة تعبير المريض عن مرضه حين يزمن المرض معه ويستمر ويتأبد.

ولا تقتصر مخاطبة السيدة سلوى العنانى فى كـتابها على قرائها وإنما هى تتحدث كثيراً إلى نفسـها وتتحدث كـثيراً أيضاً إلى أطيـافها ، ويتـراوح هذا الحديث بين طيف واسع من الأمانى والمـعانى المهمـة ، وتعطى الأستـاذة سلوى العنانى درسـاً للأطباء جـميعـاً يلخص تجربتها مع عدد كبير منهم حين تقول :

«معظم الأطبـاء يفشل فى أن يقدم للمـريض ما يحتاجـه فعلاً ، معظمـهم يفشل فى أن يصبح صديقاً لمرضاه ، يفشل فى أن يغـزل خيوط الحب بينه وبين هؤلاء المرضى التعساء .. فى استـقبال مرضـاه بابتسامة وفى توديعـه بأخرى .. تحت ضغط العـمل ينسى الطبيب أنه يتعامـل مع إنسان ضعيف سـعى إليه طلباً للراحة والأمـان .. وكل أمله بعد هذه الزيارة ألا يقول (آه)».

و هذه العبارات نقرؤها لمريضة تحتفظ بعـدد كبير من الصداقات مع الأطباء .. وهى قد جربت المرور على عدد أكبر من هؤلاء الأطباء ، لأن من استـبقت علاقتها بهم كانوا بعض من مرت بهم لا كل هؤلاء .. وهؤلاء الكثـرة الذين تحتفظ بصداقـتهم ليسوا إلا الاسـتثناء من المعظم الذى كررت الإشارة إليـه فى كل جملة من جملها حتى وإن اخـتصرنا نحن فى النقل عنها.

هذه الالتفاتة التى عـبرت عنها صاحبـة هذه المذكرات تمثل لمحة إنسانية ينبـغى أن نشيد بقدرة صاحـبتها على الالتـفات إليها وهى تدير قلمهـا بالحديث عن تجربة إنسانيـة كهذه ، فبمثل هذا التدفق الشعورى الصادق الجميل يكون للأدب محله الذى لا ينبغى أن يفرط فيه فى الرقى بأخـلاق المهن والثقـافات .. ولكن هل حـقاً يقـرأ معظم (أو بعض) الأطبـاء فى بلادنا مثل هذه الكتب التـى تسجل عليهم مثل هذا الانـتقاد الصريح ، أو تهـدى إليهم هذا التوجيه الواضح ؟ وهل لو قرأوا يستجـيبون ، قد يظن القارئ أنى سأقول لا أظن ، ولكنى فى الحقيقة أظن بل أعتقد.

(٣)

وفى موضع آخر مـن الكتاب تخصص الأستاذة سلـوى العنانى فقرات مهمـة للحديث عن قطرات الـدم التى تنتـقل إلى الإنسـان فى عـمليـات نقل الدم وتـتـأمل بـشىء من الاسترجاعات : لمن كان هذا الدم يوما «هل هو قلب رجل قوى احترف بيع دمه وتعود أن

يعطى فيأخذ ، وصار الدم عنده سلعة ؟» هكذا تمضى سلوى العنانى فى تصوير واقعنا الطبى المعاصر فى شىء من الحكمة التى تمليها الملاحظات ، وفى شىء من الشفافية التى تشيع فيها روح من التفاؤل والمرح ، وعلى هذا النمط نقرأ لسلوى العنانى تعجبها أيضاً من أن تكون بعض أقراص الدواء على شكل مسدس الأضلاع (ص ٢٨) فتقول:

«وإن كنت لا أدرى لهذا الشكل هدفاً أو معنى» .

وحين تتغلب الظروف القاسية على سلوى العنانى ، وتنتصر عليها بعض لحظات الضعف فإنها سرعان ما تعود إلى ربها لتجأر بالدعاء تسأله الغفران من اليأس وتقول:

« رب... سامحنى إذا تسلل بعض اليأس إلى قلبى وأنا بشر وأنت الذى جبلتنا على الضعف وليس لنا من قوة إلا بك ... سامحنى يارب ولا تضعف إيمانى بقدرتك . إلهى .. اجعل لى من ظلمة الليل نوراً يغمرنى ، ومن قوة الألم فى جسدى حناناً منك يملأ قلبى واجعل لتراتيلى فى حبك صوتاً يعلو على صوت الآهات »... إلخ هذه الأدعية الجميلة التى تجمع فى موسيقاها الداخلية الإحساس بالإيمان وجدواه ، وفى موسيقاها الخارجية تلك المقابلات التى تتعهد كل الظواهر الطبيعية بالملاحظة .



وهكذا نمضى مع صفحات هذا الكتاب الممتع حتى نأتى إلى صفحة لا تخاطب فيها سلوى العنانى (المؤلفة) قراءها ، ولا ربها ، ولا نفسها وإنما توجه خطابها ، «إلى الطبيب العظيم ... أخصائى القلب الذى تظن أنك تعرفه جيداً» [الخطاب موجه للطبيب بما يملك من أجهزة وسماعات ... إلخ] وهى تلتفت لتسأل :

لكن هل تعرف إلى أين تتجه هذه النبضات .. ولمن ؟ هل تعرف متى تتراقص هذه النبضات ... وماذا يعربد داخل صدرى ؟ تقول دائماً يا سيدى إن قلوبنا تنقسم إلى قسمين رأسيين وآخرين أفقيين لكنى لا أشعر بهذا ولا أجده ، إنما أشعر أن فى القلب مطارح كثيرة وأن به قاعات واسعة ، وكهوفاً ضيقة ، ففى قلوبنا يا سيدى بساتين مثمرة ، وصحار مقفرة .. على جدران قلوبنا يا سيدى صور ولوحات ، بعضها من دفتر الذكريات وبعضها من بصمات الأيام ، وأغلبها من مخلفات الليالى .. فى هذا البهو الفسيح ركضت طفولتى وعبثت أصابعها البريئة بكل ما قابلها تكتشف العالم ، وتتعرف على أسرار الحياة .. فوق هذا الدرج العالى حاول الغصن الصغير أن يحبو صاعداً تاركاً خلفه آثار دماء ، وزهور

ذابلة ، وأوراق ممزقة بللتها الدموع . فى ظل هذا الأيك آثار حبيبين ، ورسم منمنم ، وكلمات قليلة ، هى كل ما ظل باقياً من قصيدة طويلة كان لحنها هو دقات قلبيهما معاً . وهناك آثار طعنات هى من فعل سيوف وخناجر الأيام ».



وهكذا تؤكد لنا الأستاذة سلوى العنانى مرة أخرى وطالما أكدت فى هذا الكتاب المعنى القوى الواضح الذى بذلت من نفسها كل ما بذلت لتعلنه بكل الوضوح والقوة ، وهو معنى واضح جلى قد لا يقف عند حدود الإيمان القوى الذى يضمه القلب ولا عند حدود الأمل الواسع فى رحمة الخالق التى يرجوها هذا القلب وإنما يتسع ليشمل كل المعانى التى نسميها «الروحانيات» .

أليست هذه هى المعانى التى يمكننا أن نفهمها من حديث السيدة سلوى العنانى عن طبيبها الراحل وهى تخاطبه فتقول :

«لم تكن فيلسوفاً بقدر ما كنت معلماً ولم تكن أستاذاً ، قدر ما كنت صديقاً ، كنت فى حاجة إلى إنسان يحس آلامى لقد جعلتنى أعيش فقط على الأمل ......».

ولكن كلمات صاحبة التجربة نفسها تنتكس فجأة وهى تخاطب طبيبها المغفورله الدكتور نور الدين بهجت فتقول :

«زرعت الأمل فى قلوب المئات .. ومات الأمل فى قلبك لأنك كنت تعلم حقيقة ما بك ، ولم يستطع أحد أن يغطى الصورة أمامك» .

وهى فكرة تبدو صعبة الفهم بعد كل هذا الأمل ، فهل لا يكون أمل إلا إذا انتفى العلم بأبعاد المشكلة الحقيقية ؟ سؤال يحتاج كثيراً من التحليل من المؤلفة بل ومن الأطباء.

ولست أبالغ إذا قلت أنه يحتاج كتاباً ثانياً تنجو فيه المؤلفة من مثل هذا الشعور .. وبخاصة أنها هى التى حدثتنا قرب نهاية الكتاب فقالت:

« الصبر ... كلمة حروفها قليلة يعرفها كل الناس ولا يعرفها منهم إلا القليلون فهى السهل الممتنع أو هى الممكن المستحيل ..؟».

ما هو إذاً الفرق ، إنها قضية أخرى تستأهل من مؤلفتنا ، وهى السيدة الرقيقة المعنية بالمشاعر الرقيقة ، أن تواصل هذا الجهد الممتاز فى امتاعنا بمثل هذه الصفحات من الأدب الراقى ومن التعبير عن التجارب الإنسانية الحقيقية .

(٤)

ومن المهم ، بعد هذا كله ، أن نقرأ لصاحبة هذه الذكريات ما ترويه عن إحدى محاولاتها المتعددة للحصول على الشفاء .. وهى تروى قصتها مع الطبيب الفلبينى الذى شاع أمر علاجه للناس بدون جراحات فتقول:

«فى عام ١٩٧٣ سمعت قصة أغرب من الخيال .. كان بطلها هو الطبيب الذى يعالجنى ، وهو أستاذ مشهود له بالعلم والخلق والأمانة ، وكان يعانى فى أواخر أيامه من مرض عضال .. وزار كل أطباء العالم المتخصصين فى حالته وكان هو يعلم كطبيب أن حالته من الصعب شفاؤها إلا بمعجزة من الله وحده».

«وأشار عليه بعضهم أن يسافر إلى الفلبين وسافر بالفعل وسمعت حول هذه الرحلة عجباً .. لم يكن هو مصدر هذه الرواية لكنه أحد أصدقائه ، وملخص هذه القصة أنه زار أحد الممارسين لمهنة العلاج فى إحدى كنائس الفلبين حيث أجريت له ولزوجه عمليات جراحية بدون مشرط ولا ألم .. واستخرج هذا المعالج من بين أحشاء الطبيب المريض أوراماً وتليفات وأكد له بعدها أنه سيصبح سليماً معافى ، وأن هذا الرجل لا يتعاطى أجراً عن جراحاته هذه ، ولكن هناك صندوق للنذور فى الكنيسة ويمكن للشخص إذا أراد أن يضع فيه ما تجود به نفسه».

«وعاشت القصة فى ذاكرتى إلى أن أتيح لى أن أزور بعض الدول المجاورة للفلبين .. وعادت إلىّ القصة بتفاصيلها وقررت أن تكون (مانيلا) ضمن العواصم التى أزورها فى رحلتى. أرسلت قبل وصولى تقريراً بحالتى .. وجاءنى الرد بأن العلاج ممكن .. وكأى مريض لا يسأل الله أكثر من العافية .. راحت أحلام الشفاء تزورنى .. ورحت أتذكر طبيبى رحمه الله الذى لجأ يوماً ما إلى هؤلاء طلباً للشفاء وهو أستاذ الطب الكبير الذى تخصص فى دراسة خفايا التكوين البشرى. فلماذا لا أجرب مثله وأرجو أن يكون لى حظ أحسن من حظه».



وتعترف السيدة سلوى العنانى أنها عاشت هذه التجربة بشعور مزدوج كصحفية وكمريضة ، وأن هذه المعايشة المزدوجة للتجربة جعلتها بالطبع تصل إلى ما لم تكن تصل إليه لو أنها كانت قد عاشت التجربة من جانب واحد فقط:

«وبمجرد وصولى إلى مطار مانيلا غلبت علىّ طبيعة مهنتى كصحفية وبدأت أجمع المعلومات حول هذا الموضوع المثير ، وعرفت أنه ليس طبيباً واحداً .. بل إنهم مجموعة يمكن أن يكونوا أصحاب مهنة واحدة هى (إجراء جراحات بدون مشرط ولا ألم .. وهم متخصصون .. فبعضهم متخصص فى علاج الأسنان والبعض متخصص فى إجراء جراحات العظام ونسبة كبيرة منهم متخصصة فى الأمراض الباطنية والصدر وجراحات المخ والأوعية ، بعض هؤلاء يقيم فى منازلهم وفى عيادات قريبة من الكنائس ، وبعضهم يقيم فى فنادق الدرجة الأولى حيث خصصت لهم جناحاً أو أكثر ، وهى لفتة سياحية بارعة حيث يسهل على المريض السائح زيارة طبيبه خاصة إذا كان عاجزاً عن الحركة».

«فى الصباح ذهبت فى صحبة صديق فلبينى لزيارة هذا المعالج الذى وصفوه لى وكان يقيم فى أحد الفنادق الكبرى المطلة على خليج الصين العظيم».

«فى أحد الصالونات الكبيرة جلست أنتظر بين عشرات الأوروبيين و الأمريكيين الذين كان يبدو عليهم المرض فعلاً .. وأغلبهم يعتمد على عكاز أو كرسى متحرك ومعظمهم يصطحب معه مرافقاً يعينه على الحركة .. تركنى الصديق الفلبينى وانتحى جانباً بأحد مساعدى الرجل المعالج وأخبره أننى صحفية وأنى أرغب فى مشاهدة بعض العمليات قبل أن يقوم الطبيب بعلاجى. وأذن لى فدخلت غرفة العمليات».

«حجرة بسيطة ليس بها إلا بعض المقاعد وسرير طبى مرتفع نسبياً ، استقبلنى الرجل الأسمر بابتسامة مريحة ورحب بى بانحناءة خفيفة ثم عاد إلى مريضه الذى يرقد أمامه فدقق النظر إليه وراح يتمتم بصلاة قصيرة وتحسس موضعاً فى جسده بكف يده الصغير .. وبعد تدليك خفيف غرس سبابته اليمنى فى جسم المريض وبكفه اليسرى ضغط قليلاً فخرج دم متجلط وضعه فى وعاء به بعض الماء كان أحد مساعديه يمسك به وأعاد الضغط وأخرج مزيداً من الدم المتجلط ثم سحب أصبعه ومسح الجرح برفق ثم انتقل إلى موضع آخر وجاء مساعد آخر بفوطة بيضاء مبللة فأزال آثار الدم .. وتأملت مكان الجرح أحاول أن أجد علامة أو دليلاً على ما رأيت فلم أجد..».

«وكرر الرجل العملية فى موضع آخر من الصدر فأخرج منه ما يشبه «الشغت» أو الألياف وكرر الضغط ثم مسح على الجرح فأخفاه..!!».

«جراحة أخرى فى رأس طفلة تعانى من الشلل الخلقى [أى: الذى يولد الطفل به] .. أزاح الرجل شعر رأس الفتاة ثم مسح على رأسها بيده قليلاً ولما انغرست سبابته اليمنى فى

رأسها خـرج جزء من المخ ما يماثل حجـم الليمونة المتوسطة .. انتـزعه الرجل وألقى به فى الوعاء».

«هنا أحسـست بالدوار وكدت أسقط وأنا لا أدرى هل أصدق مـا أرى وهو خارج عن نطاق التفكير والمنطق العقلى ، أم أكذبه وليس فى يدى دليل على كذبه؟»

«راقبت كفى الـرجل قبل أن يضعهمـا فى جسم المريض .. راقبت مسـاعده الذى يضع (الفوطة) المبتلة ليمسح بها الدم .. حاولت أن أكون ماكرة وذكية ولـم أتوصل إلى شىء».

«وبعـد أن شاهدت بنفسى أربع أو خـمس عـمليات ، دعـانى الرجل لكى أرقـد على السرير أمامـه .. ارتجفت وكدت أصرخ من الخوف ، لكنه ابتـسم لى فى هدوء وسألنى إلى أى الأديان أنتمى .. فقلت له .. أنا مسلمة».

«قال: إذن فأنت تؤمنين بالله .. اتركى أمرك له وهو الشافى وساعدنى حتى رقدت».

«كانت صـور المسيح عليه السلام مـعلقة على الجدار أمـامى .. ووقف هو إلى جوارى يصلى وسرت فى قلـبى سكينة واستسلمت له وأنا أدعـو الله أن يجعل شـفائى على يده .. قرأت المعوذتين وجزءاً من سورة ياسين حتى يبتعد الخوف عنى».

«أحسست سـبابته تنغرس فى أسفل عنقى بـين عظمتى الترقوة .. إنه يسحب شـيئاً من داخلى ، وهذا الشىء يخـرج ليضـعه فى الوعـاء الذى يحمله مـساعـده ثم هو يمسح برفق مكان الفتـحة ويتركـها ليكرر العمليـة فى الجهة اليـمنى من صدرى .. فى هذه المرة رأيت بعينى ما أخرج الرجل. لقد كان شيئاً يشبـه الشغت وهو يسحبه فيستجيب له بدون ألـم فى صدرى وإن كنت أشعر وكأن ديداناً تتحرك بين أصابع الرجل».

«كنت بين يديه فى سكينة وهدوء مستسلمـة لا أتحرك .. حملق طويلاً فى وجهى ودقق النظر إلى عينى ، وكلما فعل هذا كانت السكينة تزداد فى نفسى».

«أجرى لى ثمانى جراحات فى مواضع مخـتلفة من جسمى ليس من بينها موضع واحد أشكو منه الألـم .. ثم دعانى للـنهوض فنهضت وسألتـه أن يعالج لى مفـصلى الرسغ وهما مركز الألـم فى جسمى كله ، فأمسك يدى بين يديه وراح يصلى وهو يتمتم ثم قال بإنجليزية ركيكة:

«بعد حوالى شهر ستكونين على ما يرام .. وإذا شكوت شيئاً آخر تعالى إلىّ مرة أخـرى .. أهلا بك».

«أمام المرآة قمت أصلح من شأنى وأحاول أن أرى موضع الجراحة التى أجراها فلم أجد

أثرا ، وضعت مبلغاً مناسباً فى يد الرجل ومضيت ورأسى يدور .. كيف أصدقه ولماذا أكذبه .. كنت أتمنى أن يكون صادقاً لتنتهى رحلة متاعبى».

«ولما عدت إلى القاهرة سألنى عشرات بل مئات عن تجربتى المثيرة فى مانيلا .. وقرأت عشرات المقالات والتحقيقات التى كتبها زملائى نقلاً عن رواية بعض شهود العيان .. وقرأت ما هو أغرب ، فقد نظمت إحدى الشركات السياحية رحلات علاجية إلى مانيلا للباحثين عن الشفاء».

«كان علىّ أن أصمت طويلاً وأن أقاوم كثيراً رغبتى فى الكتابة حتى لا أظلم نفسى ولا أظلم الرجل ، صممت أن أصبر حتى تمر الفترة التى حددها لى .. ثم منحته فترة سماح مماثلة للفترة التى حددها .. حاولت أن أوقف تعاطى الأدوية كما نصحنى هو فلم أستطع .. فبدون الدواء كانت معاناتى تزيد عن قدرة البشر على تحمل الألم ، ثم وجدت لزاماً علىّ أن أدلى بشهادتى فى هذه القضية التى تشغل الناس كثيراً ، فهذا الرجل الذكى الهادئ يستطيع أن يعطى للمريض إحساساً بالأمان حتى يسلمه نفسه وهو مطمئن .. ثم هو يعطيه إحساساً بأنه قد انتزع منه أسباب مرضه ومتاعبه وأنه قد أصبح صحيحاً معافى ، هذا الإحساس يحقق أحياناً نتائج علاجية كبيرة فى حالات الأمراض ذات الأسباب النفسية والعصبية ، أما الأمراض ذات الأسباب العضوية فهو بغير شك فاشل فى تحقيق أى نجاح فيها».

(٥)

على هذا النحو من التأمل المستمر والتفاعل مع ابتلاء الله لصاحبة المذكرات ، نرى السيدة سلوى العنانى وقد نجحت فى تسجيل مشاعرها وتأملاتها وخبراتها على نحو كفيل بأن يثير فينا كثيرا من المشاعر والانفعالات الخصبة التى نتفاعل معها فنتوافق أو نوافق أو نعمق من إحساسنا وإدراكنا لمثل هذه التجارب من دون أن نشتط فى تأويل ما أرادت صاحبة المذكرات الحديث عنه ، ولابد أن نشير إلى أن الفضل فى نجاحها هذا يرجع فى المقام الأول إلى حرصها على التبسط والمباشرة فى رواية ما مر بها من دون أن تضفى عليه أفكارا سابقة التجهيز ، أو أحكاما جديرة بالوقوف أمام دقتها وإحكامها ، وليس أدل على هذا من أننا نرى السيدة سلوى العنانى وهى تلخص فلسفتها فى الحياة فى مقدمة كتابها فتقول :

«ليست هذه شكوى .. فأنا لم أشك فى حياتى قط .. لم أشك حتى إلى الله .. كم ناجيته شاكرة .. وكم رفعت إليه رأسى بدموعى حامدة .. كم توسلت إليه أن يغفر لى ضعفى ولأننا جميعاً نعانى فقد تجد نفسك قارئى بين هذه الأوراق .. قد تجد أقرب الناس إليك وقد رسمت حروفى صورته .. فهذه التجربة هى أنا وأنت .. هى نحن منذ وجدنا وإلى يوم الدين».

«وفى أوراقى رسالة خاصة أكتبها لكل من يدعو الله أن يتوج أيامه بتاج العافية بعد أن سلبته معاناته هذا التاج .. رسالتى إليه تحمل كلمتين .. (لك الله) أوسدها أوراق زهرة بيضاء توشك أن تتفتح .. وتتحمل كلماتى أمانة وضعها فوق صدره».

وهى قبل أن تسجل هذه العبارات تحرص أن تورد أبياتا مترجمة لشاعر تذكر أنها تجهل اسمه يقول فيها :

«من فاته أن يتذوق خبزه مع الألم .. ومن لم يقض ساعات سوداء يترقب باكياً طلوع النهار المتثاقل .. هذا الإنسان لا يستطيع أن يدرك عظمة قوة السماء».

كما تورد فى هذا المقام أيضاً قول جوتة :

«لا تعجب إذا رأيتنى أرقص

ولا تندهش إذا رأيتنى أغنى

فإنى إنما أرقص وأغنى

لأمنع نفسى من البكاء»

(٦)

ونحن نستطيع من هذا المنطلق أن ندرك أن صاحبة هذه المذكرات كانت على الدوام حريصة على أن تعبر عن الإيجابيات التى تجدها فى واقعها ، وتجد هذا الواقع من أجل ذلك ، يستحق حمد الله عليه :

«وتصحو إرادتى فى أعماقى لتوقظ التحدى فيمنحنى الشجاعة على مواجهة واقعى الذى أدركت ساعتها أنه واقع يجب أن أحمد الله عليه كثيراً فمازالت لى هذه الرغبة فى الحياة .. ومازالت فى داخلى هذه الجذوة المتقدة من الإيمان أبدا .. وعشت أياماً أحسست

فيهـا أنى مثل أوزوريس الذى عادت إلى جسـده الروح بعد أن مزقته قـوى الشر وحكمت عليه بالفناء لكن إرادة الحب تغلبت فعاد أوزوريس مثالاً لانتصار الحق والخير والجمال».

«ومثل نائم طال نومـه وتزاحمت عليه الأحلام المفـزعة .. استيـقظت أنفض عن نفسى تراب اليأس وأواصل مسيرة حياتى مثل بقية البشر .. ولكنى لم أعد مثلما كنت..».

لقد عدت أقوى وأكثر طموحاً .. عاد قلبى أكبر وأكثر حباً .. عدت أحمل تجربة المعاناة والألم والضعف».

عادت الصورة وقد حددتها الخطوط السوداء فزاد نورها نورا».

«وعدت إلى حبى القديم».

عدت إلى قلمى تحتضنه أصـابعى بقوة رغم وهنها .. عدت إلى صفحاتى البـيضاء وقد جعلت من دمـوعى مداداً .. وكتـبت صفحـات فى دفتـر أيامى ليس فيهـا إلا صدق وأمل وحب».

مذكرات المرأة المصرية
الثورة والحرية

10

ثريا رشدى
ومحاولة لتسجيل
ومضات من حياة زوجها

دار الخيّال

(١)

أبدأ هذا الفصل بأن أشير إلى ملحوظة طريفة تكاسلت عمدا عن الحديث عنها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وربما يرى بعض القراء أنه كان من الأحرى أن أتكاسل عنها عن قصد فى هذه الطبعة أيضا ، ولكنى وجدتنى لا أستطيع هذا التكاسل وأحيانا يكون التكاسل عملا إيجابيا ويكون عدمه سلبيا ، وإن صح هذا فإنى ألجأ إلى العمل السلبى فأشير إلى أن هذا الكتاب يتحدث عن مذكرات عشر من سيداتنا ، وبالطبع فإن فى حياة كل من هؤلاء السيدات رجل أو أكثر ، ولكن المفارقة أن اثنتين من أصحاب المذكرات العشر التى نتناولها تديران مذكراتهما حول شخص واحد كان بمثابة الزوج الأول والوحيد لإحداهما (السيدة ثريا رشدى) والزوج الثانى للثانية (الدكتورة لطيفة الزيات).

ونحن نكاد نرى صورة هذا الرجل على نحو ناصع ومشرق فى مذكرات السيدة ثريا رشدى ، لكننا فى المقابل نراه محل شكوى من صاحبة المذكرات الأخرى الدكتورة لطفية الزيات ، وسوف تتضح لنا من قراءتنا للبابين أن الرجل هو الرجل لكن طابع السيدتين انعكس بشدة على تصويرهما للرجل نفسه فى صورتين تكادان تكونان متناقضتين.

(٢)

هذه قصة سيدة أحبت زوجها أقصى ما يكون الحب ، وبذلت كل ما فى وسعها من أجل الحفاظ على هذا الحب ، فى الحياة وبعد ممات الحبيب ، وهى سعيدة بكل هذا الذى هى فيه ، والذى كانت فيه ، والذى تتمنى أن تبقى فيه . مرض زوجها وحبيبها فأخفت عنه مرضه حتى مات ، ثم هى تحدثنا عن هذا المرض ، ثم تثوب إلى نفسها فتقول:

«وأخفيت عن الجميع أن زوجي مريض ، وكان دورى الأهم الذى يجب أن أقوم به هو الاتصال بالأطباء المعالجين لتحديد ميعاد ، وأن أرجوهم (وكانوا جميعاً متفهمين لموقفه وعلى أرقى مستوى من الإنسانية) .. إذا اكتشف أن قلب زوجي مريض أن لا يخبره وأن يحرر له روشتة بها بعض الفيتامينات ، على أن تحرر الروشتة العلاجية وأتسلمها أنا بطريقتى ويخبرنى أنا شخصياً بنوع المرض وطريقة العلاج».

«حتى طبيب التحاليل كان يكتب تقريرين ، تقرير يعرض على الطبيب المعالج وتقرير آخر يعرض على زوجي ، وهكذا عاش رشاد رشدى ثلاث عشرة سنة منذ مرضه ما بين الأشعات والتحاليل والأطباء الذين يعاودونه على الأقل مرتين فى الأسبوع إلى أن رحل إلى جوار ربه وهو لا يعلم أن هذا القلب الكبير الذى امتلأ بحب جميع البشر والمخلوقات أنه كان قلباً ضعيفاً مذبوحاً».

«هل ذبحته أحزان من رحلوا عنا .. هل ذبحه الأصدقاء أم خيانة الأحباء؟»

«فلتغفر لى يازوجي الحبيب أنى لأول مرة أبوح بحقيقة مرضك الذى لم يعلمه أثناء حياتك مخلوق على وجه الأرض سوى الله والأطباء المعالجين وأنا .. فلم أكن لأغفر لنفسى أن يكون هذا النبع الفياض .. المبدع المعلم .. الأستاذ .. العملاق ؛ موضع شفقة من أى إنسان حتى من نفسه على نفسه».



هكذا تتضح لنا طبيعة الحدود التى يدور فيها حديث طويل يستغرق الصفحات الطوال من كتاب «رشاد رشدى» الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بأقلام عدد من تلاميذ الراحل ومعهم زوجته السيدة ثريا رشدى صاحبة الكلمات السابقة.

في هذه الصفحات يجد القارئ العربى نفسه أمام تجربة جديدة حين يجد الزوجة تتحدث عن زوجها ، وبهذا الأسلوب ، وبهذا العمق ، وتروى التاريخ الذى كان بينهما فى شىء غير قليل من الاعتزاز والفخر والشعور بالرضا .. وحديث اليوم ليس حديث اللوعة ولا اليأس ولكنه استعراض (للبطولات المشتركة والانتصارات المتتالية) التى أسهم الحب فى صنعها وتغذيتها ومدها بأسباب البقاء والقوة.

هى صفحات لم يرتفع قلم صاحبتها عنها إلا ليعود إليها ، حتى وإن أبطأ هذا القلم فى كتابتها لأنه لم يتعود الكتابة من قبل ، وحتى لو تعود فهى مشاعر وخلجات يصعب التعبير عنها بروح الصدق والرضا من المرة الأولى ، وحتى لو تغلب الإنسان على قدرته على الاحتفاظ بشىء ما لنفسه ، فهو مع ذلك عاجز أمام شىء من الخجل الذى هو فى النفس البشرية ، وفى الشخصية الشرقية على نحو أخص ، شىء من الخجل قد يكون هو الحياء ، وقد يكون ما هو أقل من ذلك ، وقد يكون ماهو أكثر ، ولكنه مع ذلك من العوامل التى ترجع لعجلة القيادة التى تحرك القدرة على التعبير ، خوفاً من أن تصطدم بقوى قد تقف أمام الصراحة ، أو أمام الوضوح ، أو أمام التعبير الصادق عن المشاعر الصادقة.

كل هذه العوامل بلاشك قد خالطت قلم السيدة ثريا رشدى وهى تكتب لنا هذه الصفحات التى تحكى فيها قصتها الخاصة جداً مع زوجها الدكتور رشاد رشدى ، وهو رجل أوتى حظاً عظيماً من المكانة الاجتماعية وفى الحياة الثقافية والفنية فى مصر المعاصرة ، ولكن ثريا رشدى تنجح فى أن تتغلب على هذه القوى الداخلية وفى أن تحيل حياتها الخاصة إلى جزء بارز فى نسيج الحياة العامة التى كان لزوجها فيها مكانة ، وتنجح فى أن تجعل هذه المكانة ذات قدرة على لعب دور واضح أيًّا ما كان هذا الدور ، بحيث يخرج القارئ بعد أن يقرأ ، وفى ذهنه بكل تأكيد فكرة ـ غير مبهمة ـ عن دور لهذا الحب فى صناعة شىء ما على أرض هذا البلد الذى يعيش القارئ فيه.

وتأبى السيدة ثريا رشدى إلا أن تسجل للناس احتفاظها بهذا السر:

«فقد كنت اعتبر قصة حبنا سر أسرارنا المقدسة كما علمتنى أنت فلم يكن أحد [يعلم] ممن يحيطون بنا غير ما يراه بعينيه .. لقد احتفظنا بها أنت وأنا كطفلنا الحبيب الذى لم نلده داخل أعماقنا وليس لأحد أن يطلع عليه سوانا نحن».

(٣)

ومع هذا فإن السيدة ثريا رشدى تأبى بعد هذه المقدمة إلا أن تبدأ مع القارئ قصة حبها منذ البداية ، وتسارع بذكاء شديد إلى حديث القارئ عن فارق السن بينها وبين رشاد رشدى:

«... أكتب عن رشاد رشدى خاصة لمن قالوا لن يعمر هذا الزواج فكيف يعيش الخريف مع الربيع تحت سقف واحد ، نعم لقد كانوا محقين ، ولكن ما حدث أن الربيع قد احتوى الخريف وحوله إلى واحة غناء وفيرة العطاء ، لقد كنت أنت ياحبيبى الربيع الذى يلفنى فى موجة من الحب والحنان والرقة والأمان والسكون ، السكون الهادئ الجميل».

وهى تبدأ كتابتها بأن تورد نص خطابه الأول لها حيث يقول ما نصه:

«... أنت حبيبتى التى لم أحب غيرها ، والفتاة .. فتاة صباى وأحلامى ، حتى ليخيل إلىّ أنى عرفتك طوال حياتى ، وأن كل النساء هى أنت ، وأننى قد سرت معك فى شوارع القاهرة كلها بل وشوارع الدنيا بأجمعها».

«وعندما أرى عينيك تتفتح الدنيا كلها أمامى وكأنى لم أرها من قبل .. كم أنعم بحبك الذى لا نهاية له ، وكيف تكون له نهاية ، وقد كتب له أن يكون وأن نكون هكذا .. من وقت لا أعرف له تحديداً ، فهو خارج عن الوقت وعن الزمن .. وفى أى مكان ألقاك فيه سأكون لك وستكونين لى .. ولو كان هذا قبل أو بعد مئات السنين».

«يا حبيبتى وحبيبة العمر وما بعد العمر..».

وتواصل صاحبة هذه المذكرات لمحاتها الذكية فتستأنف إجاباتها عن الأسئلة المثارة فى وجدان القارئ عن هذا الزواج الذى قد يبدو غير متكافئ بالمرة .. ولكن السيدة المحبة تفاجئ قراءها بقصة الحب على نحو ما تمت فعلاً:

«... وكان لقاؤنا هذا هو أول قطرة ماء يصبها فى شجرة عمرى الذابلة ، وتفتحت أول ورقة خضراء فى بداية أيامى السعيدة ، وكبر حبه لى كمارد جبار انشق عنه فجأة الغبار .. حدث هذا فى صيف سنة ١٩٦٢ حينما ذهب رشاد إلى ميناهاوس ليخلو إلى نفسه بعيداً عن كل الناس ليكتب مسرحيته الثالثة «رحلة خارج السور» ، وقد تعودت أن أذهب إليه

يومياً فى الساعة السادسة مساء ونظل سوياً إلى العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، يقرأ لى ما فرغ منه من المسرحية ونناقشه سوياً ونتجـول ونتسامر فى حديقة الورد ، وكان رشاد يعشق حديقة صغيرة من الزهور سميت زهرتها باسم ثريا..».

قال لى: «إنى تعودت كل صـباح أن أنزل إلى هذه الحديقة لأكتب مسـرحيتى .. فكيف لا أكتب أجـمل أعمـالى وأنا محاط بـزهرتى الجميلة ثريـا .. وكان مقـدراً أن تنتهى كـتابة المسرحية فى خلال شهر .. وذهبت له فى اليوم الثالث والعشرين.

قال: عنـدى لك مفاجـأتان .. الأولى: انتهـيت من كتـابة المسرحـية .. ورقـصت دموع الفرحة فى عينى .. ها أنا ذا أستقبل أول مولود لحبيبى يضعه بين يدى وركبنا العربة وطفنا بها نطوى شوارع القاهرة ، والـكون يتسع ويتسع أمامنا حتى يستطيع أن يحـتوى فرحتنا .. وتوقفنا فى حلوان وتركنا العـربة ، وتشابكت أيدينا وأخذنا نجوب الشـوارع الهادئة إلى أن استقرينا فى أحد الكازينوهات الصغيرة.

وقال: لم تسألنى عن المفاجأة الثانية؟

قلت: ألا تنتظر أن تهدأ دقات قلبى من فرحتها بمفاجأتك الأولى حتى أستعد للثانية..؟

قال: فلنتزوج.

قلت: لِمَ ؟

قال: أريد أن أحـتويك ، أحتوى سـنوات عمرك التى مضـت وسنواته الآتية .. تكونى ملكاً لى وحدى.

قلت: ولكننا تزوجنا بالفعل .. لقـد عقدت روحانا قرانهـما برباط لن ينفصل إلى الأبد وهذا ما يهمنى.

قـال: وهل سـأقف مكتـوف اليـديـن وأنا أراك ترفـضين خطيـبـاً وراء الآخـر دون أن تستطيعى الإفصاح عن السبب الحقيقى ، لا ، ستكونين زوجتى أمام الله ولنعلن للعالم كله حبنا.

قلت: أمام الله نعم .. ولكن ماذا يهم الناس من حبنا نعلنه أو نخفيه.

قال: الزواج شرعيته الإشهار.

قلت: إشهار مَنْ يهمهم أمرى .. عائلتى .. أبى .. أمى .. وأخوتى .. أهلى .. نعم ولكن الناس لا .. لن يكون فارق السن بيننا هو الخنجر الذى يقتل به حبنا على مرأى منا ، سأحتوى حبنا هذا فى أحضانى وندخل به جنتنا ، آدم أنت وأنا حواؤك التى أوجدها الخالق من ضلعك ، وفى جنتنا هذه لن نعصى الله ولن نخالفه ، سنصلى له ونعبده ، حتى لا يطردنا منها. لقد منَّ الله علينا بها لنعيش فيها ونعمرها بحبنا ، سأجعل أبناءك الذين سوف تضعهم بنات أفكارك يملأون الأرض ويعمرون تراث البشرية وحينما يشتد عود حبنا ويقوى سنعلنه للملأ ، حينئذ لن يقوى ولن يقدر إنسان على مواجهته.

قال: مهرك يا عروسة.

قلت: أغلى مهر .. مسرحية كل عام .. إنه ليس كأى مهر.

قال: وأنت لست كأى عروس.

وتزوجنا».

(٤)

هكذا استطاعت السيدة ثريا رشدى أن تخرج بالقارئ سريعاً من جوهر العلاقة وشكلها وصياغتها الصيغة التى انتهت إليها .. إلى الحديث عن ثمار هذه العلاقة.

وقد يلاحظ القراء أن السيدة التى لم يُعلن كتابها للناس أنها لم تكتب قبل هذا ، قد نجحت فى أن تجيد تناول النقاط التى تحب هى أن تتناولها ، وبدون أن تغرق فى الرومانسية التى قد يظن أنها لم يعد لها مجال اليوم ، ولا فى المرثيات التى لن تكون للكتاب قيمة لو أنها تغلبت عليه وأحالته رثاء ، وإنما هى فى ذكاء شديد تتحدث عن إنجازات زوجها فى الفترة التى عاشاها معاً ، فتحقق بذلك فخراً بالذات وفخراً بمن تحب ، وفخراً بما أثمرته علاقة زوجية قامت من أجل الحب واستمرت بالحب ، وهى تحكى عن بداية معرفتهما بتقدير شديد لكل الخطوات التى مضت فيها هذه العلاقة سريعاً حتى تُوجت بالزواج ، وتقول:

«ومرت أيامى الجديدة فى المجلة تحمل الفرحة بالحياة بالكون ، رغم أنى كنت لا أعرف ماذا حدث لى .. ولم أع أننى أحب» ، وكان هو رئيساً للتحرير ، ويتطلب عملنا جميعاً أن ندخل مكتبه ونناقشه فى بعض أعمالنا وننفذ تعليماته ، وكنت أدخل عليه أحياناً مكتبه لضرورة العمل ، ولكنى كنت أفاجأ بمجرد دخولى إلى مكتبه أنه يقوم من على مكتبه ليستقبلنى فى مدخل الغرفة ويصحبنى إلى الفوتيه المواجه له ، ثم يتوجه إلى مكتبه ويجلس عليه ونبدأ مناقشة ما جئت أنا من أجله من عمل ، لم يتفوه أحدنا ولو بكلمة تشير من بعيد أو قريب إلى ما يشعر به كلانا».

«ومرت الأيام مشرقة بديعة ، وعقدت صلحى مع الحياة ومع الكون ، إلى أن جاء مساء يوم وكنت أغادر مبنى المجلة مع صديقة لى ، وكانت زوجة لأحد كبار الكتاب ، وكانت فى نفس الوقت على معرفة وثيقة بالدكتور رشدى».

هنا تصل السيدة ثريا رشدى صاحبة هذه الذكريات إلى حديثها عن نقطة الذروة فى علاقتها بالرجل الذى أحبته ، ومع أن القصة تبدو وكأنها بعيدة عن جو الدراما إلا أنها تعبر تماماً عن المشاعر الرومانسية لجيلها كله تجاه مثل هذه العلاقة :

«وعند باب المجلة مددت يدى لأسلم عليه مودعة .. وإذا به يطلب من صديقتى هذه أن نصحبه على فنجان شاى فى أحد الفنادق .. ومن منطلق صداقته لها ولزوجها فقد وافقت ووجدت نفسى لأول مرة أوافق بدون أى تردد ، مع أنها المرة الأولى فى حياتى التى أذهب فيها إلى أى مكان غير عملى وبيتى ، لم أكن أعرف أياً من هذه الأماكن ولا كيفية التردد عليها ، ووجدت نفسى معه أوافق على الفور».

«وذهبنا إلى الكافتيريا ، وجلس على المنضدة فى مواجهتنا ، وانشغلت صديقتى بالتحية والسلام والحديث مع بعض أصدقائها الذين كانوا متواجدين بالكافتيريا فى ذلك الوقت ، ولمحته ينظر إلى وجهى متأملاً من عالم بعيد».

«قال: أين كنت طوال هذه السنين؟».

ها نحن قد أدركنا كيف وصلت العلاقة فى هذه اللحظة ، وفى سرعة بالغة ، إلى الذروة التى بدأت بها حياة زوجية سعيدة استمرت واحداً وعشرين عاماً حتى فارق حبيبها الحياة.

(٥)

والشاهد أننا ، فيما قبل هذا وفيما بعده ، نرى صاحبة المذكرات وهى تتحدث بحب وهيام ووجد عن تعمق علاقتها بحبيبها وزوجها طيلة واحد وعشرين عاماً هى عمر زواجهما ، ثم طيلة الأعوام التى انقضت منذ رحيله وحتى كتابتها لمذكراتها وهى تجيد التعبير المتدله عن هذه العلاقة فتقول:

«ورحلت أنت عنى وتركت لى سرنا .. حبنا .. عشقنا .. وحملته فى أعماقى ورفضت أن يعرفه أحد أو حتى يطلع عليه .. ولكن أيها العاشق المتصوف بعد مرور هذه السنوات ، أدركت أنك ليس لى وحدى ، فأنت ملك للإنسانية وللتراث ولكل من أحبوك وبرهنوا بالدليل القاطع خاصة بعد رحيلك على حبهم ووفائهم لك ، لقد عرف كل هؤلاء رشاد رشدى أستاذ الجامعة ، والكاتب المسرحى ، والمفكر والناقد ، ورئيس تحرير العديد من المجلات المصرية مابين عربية وأجنبية ، وأحد المسئولين الكبار عن الثقافة والفكر و الفن ، وبعضهم عرف رشاد رشدى الإنسان .. ولكن هل عرفوه حقيقة ، ومن أجدر بمعرفة رشاد رشدى الإنسان بكل حقيقته .. بقوته وضعفه .. بصموده وحزنه .. بعبقريته وطفولته .. سوى الزوجة».

هكذا نرى صاحبة المذكرات وهى تجد نفسها ، بحكم العشق ، ملزمة بأن تقدم لوحة كاملة تكمل بها اللوحات المتاحة عن رجل تمتع بحياة ثرية بالصورة والانطباعات:

«ولذا وجدت أنه لزاماً علىّ أن أكمل اللوحة التى رسموها لك ليعرفك كل الناس على حقيقتك بدون رتوش وبدون أية مجاملات.



والشاهد أن ثريا رشدى تمضى على هذا النحو فى تصوير كثير من الجزئيات والتفصيلات التى تحفل بها حياتها مع زوجها مازجة ، فى براعة ومهارة ، على نحو ما نتوقع ، بين العام والخاص ، ونراها وهى تحكى للقراء باستفاضة ممتعة عما خفى عن بعضهم من تفصيلات بعض الأحداث الثقافية ، وهى تفعل هذا باعتزاز تبدو معه كما لو كانت تروى ذكرياتها عن الحياة الثقافية التى قدر لها أن تعيشها مع زوجها فى عهدى

عبدالناصر والسادات ، ونحن نراها منحازة تماماً لزوجها ولإنجازاته ، وليس لنا ولا لغيرنا أن ينتقدها فى هذا الانحياز لأنها فى واقع الأمر تحكى قصة حب وحياة ولا تروى قصة الثقافة أو تاريخها:

«وتسلم الدكتور رشدى مسرح الحكيم وكان خراباً ينعق فيه البوم ، وأصبح وأمسى أكبر منارة ثقافية فى مصر ، فرأس تحرير مجلة المسرح ، تلك الموسوعة التى تحولت إلى تراث سوف يمدنا بالمعرفة دائماً ، ولم تطفأ أنواره يوماً واحداً طوال رئاسة رشاد رشدى له».

«وأنشأ لأول مرة وآخر مرة فى مصر ما يسمى بنادى المسرح ، يقدم فى ندواته كبار الكتاب والنقاد والدعوة عامة».

«وصمد رشاد رشدى أمام حقدهم على مسرح الحكيم حتى لا ينتصروا عليه كما حدث فى تنحيته عن رئاسة تحرير المجلات الأجنبية».

وفى وسع القارئ أن يطالع مذكرات الدكتور سمير سرحان «على مقهى الحياة» ليدرك أن ثريا رشدى لم تبالغ فيما تصف به إنجازات زوجها فى مسرح الحكيم.

(٦)

ثم تحدثنا صاحبة المذكرات عن طبيعة انفعالها هى وزوجها فى مواجهة أقسى هزيمة واجهت وطننا ، وكيف كان زوجها الدكتور رشاد رشدى حريصاً ـ بعد تأمل وتدبر ـ على أن يحول انفعاله النفسى إلى ما يرى أنه بمثابة الانفعال المناسب فى هذه الظروف فتقول:

«... وتأتى هزيمة ١٩٦٧ : «ولكن الابتسامة لم تعرف طريقها إلى شفتيه طوال ثلاثة شهور كاملة ، وطلب منى أن أرتدى الألوان الغامقة ولا أتزين ، لا مانع ، لا يهم ، ولكن ما كان يهم فعلاً هو هذه الصرخات الملتاعة المكتومة التى كان يصدرها بمجرد أن يخلد إلى نومه فى الليل..»».

وقد يتململ القارئ من رواية هذه التوجعات ، على الرغم من أنه يعرف أنها كانت أقل ما يمكن لأى إنسان حساس أن يواجه بهذه الهزيمة النكراء التى داهمت وطننا ، ولكن ثريا رشدى بذكائها تتدارك الموقف ، فتجعل لهذه المعاناة بعض فائدة ، إذ خرجت بسببها واحدة من أروع أعمال رشاد رشدى وآثاره:

«وبدأ يخرج من عقله الباطن الخطط الرئيسية لمسرحية جديدة وما أن انتهت أجازتنا فى مرسى مطروح حتى كان قد انتهى من كتابة الفصل الأول والثانى من مسرحية «بلدى يابلدى» ، وحينما حضرنا إلى مصر اتصل به الصديق المخرج جلال الشرقاوى وطلب منه المسرحية على أن يقوم هو بإخراجها ، وخرجت «بلدى يابلدى» إلى النور بعد صراع مرير مع مَنْ يتسمون باليسار والتقدمية رغم أن مضمونها كان مثالا للتقدمية لو كانوا يفهمون ، ودخلت الجرائد وبعض المجلات طرفاً فى الصراع .. وتدخل أكثر من مسئول ولم يبق مسئول فى مصر ممن كانوا يسمون باللجنة المركزية والاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء وجهاز المخابرات إلا وحضر لمشاهدة المسرحية .. «ونجحت المسرحية نجاحاً لم يسبق له مثيل».

ثم تروى السيدة ثريا رشدى انطباع الشاعر العربى الكبير نزار قبانى حين حضر عرض المسرحية:

«وقد حدث فى يوم أن حضر الشاعر نزار قبانى لمشاهدة المسرحية وقبل انتهاء العرض بحوالى ٢٠ دقيقة انطفأ النور فى المسرح وفى شارع عماد الدين بأكمله مما سبب ارتباكاً للممثلين .. فصرخ الجمهور ـ استمروا ـ مخاطباً الممثلين ، وصعد الكثير منهم على جانبى خشبة المسرح وبيد كل منهم عود كبريت أو ولاعة أو شمعة .. واستمروا فى وقفتهم هذه ينيرون المسرح إلى أن انتهت المسرحية ، فنظر الصديق الشاعر العربى الكبير إلى رشاد رشدى وقال له:

«اليوم اكتملت حياتك ورسالتك .. لو حدث لى هذا ما طلبت أكثر منه ، ولو مِتُ فى هذه اللحظة لاعتبرت أن حياتى اكتملت..».



ولكن السيدة ثريا رشدى تعود بعد ثلاث صفحات لتوالى الحديث عن مسلسل

الفواجع فى حياة زوجها الراحل .. فقد جاءت السبعينيات ومعها طائر الآلام والحزن .. ففى منتصف ١٩٧٠ رحل والدها ثم شقيق رشاد الأكبر (أو بالمعنى الحقيقى) والد رشاد الذى أشرف على تربيته منذ أن كان فى السادسة ، ولحق بهما شقيق لى ، وفى مارس ١٩٧١ ماتت ابنة رشاد رشدى ، وهى تروى أن زوجها كان حريصا على أن يتجاوز مشاعر الحزن على ابنته هذه بطريقة وجدانية متسامية:

«أصر رشاد أن تُشعل لها شموع الفرح ، وينثر على موكبها الورد الأبيض وهم يودعونها إلى مقرها الأبدى».

(٩٥)

ولا تغفل السيدة ثريا رشدى الحديث عن إنجازات زوجها فى الميدان الأدبى والفنى فى الفترة التى سبقت حرب أكتوبر ١٩٧٣ والفترة التى تلتها مباشرة ، وقد كان رشاد رشدى فى ذلك الوقت من كبار أهل الثقافة الذين أثروا البقاء فى مصر ومواجهة الأمر الواقع بكل صعوباته فتقول :

«وأذكر أنه كان قد انتهى من كتابة مسرحية «شامينا» قبل حرب ١٩٧٣ بأربعة أشهر ، وقد بدأت البروفات وفيها كان قد تنبأ بانتصار الشعب المصرى على عدوه أبناء سليمان ، ونادى فيها بالحب والسلام ، وخرجت المسرحية إلى النور فى اليوم الثالث من شهر يناير سنة ١٩٧٤ .. وكان أول أيام عيد الأضحى ، وكعادتنا كنت دائماً أحضر معه البروفات وبعض أيام العرض خاصة يوم الافتتاح. لكنه فى يوم افتتاح هذه المسرحية طلب منى أن لا أصحبه إلى المسرح ، فالجمهور اليوم جمهور عيد والمسرحية باللغة الفصحى وحتماً سينفض الجمهور عنها قبل أن ينتهى الفصل الأول ، وهذا سوف يؤلم مشاعرك ، وذهب إلى المسرح مع بعض زملائه وقبل أن ينتهى الفصل الأول اتصل بى تليفونياً وطلب منى الحضور فى الحال ، فما سوف أراه لا يصدقه عقل ، وذهبت إلى مسرح الأزبكية وجدته كامل العدد حتى أعلى التياترو ، وكأنه لا يوجد إنسان يتنفس ، الكل فى حالة إنصات تام والعيون جميعها متطلعة إلى خشبة المسرح».

«وما أن انتهى الفصل الأول حتى كان التصفيق المدوى .. وتلاه الثانى والثالث وأنا أرى الممثلين العظام: سميحة أيوب ـ عبدالله غيث ـ حمدى غيث ـ فردوس عبدالحميد وغيرهم وهم ينحنون احتراماً وحباً لجمهور شعب مصر ابن مصر الصادق الطاهر».

«ورأيت طوال أيام عرض المسرحية أبطال مصر من جنود وضباط بملابسهم العسكرية يحضرون العرض سعداء مهللين وهم يبحثون عن زوجى ليعانقوه ويقبلوه ، وكانوا دائماً يقولون له : «احنا النهارده عبرنا تانى يادكتور رشدى».

«ورأيت العشرات من أبناء فلسطين الحبيبة برداء رأسهم المميز .. وعرف الجميع كيف تصل الرسالة الصادقة إلى عقل ووجدان كل إنسان مهما اختلفت الألوان ، وكان زوجى كل يوم يمسح دمعة حب إيماناً واعترافاً بفضل شعب مصر العظيم».



وتحرص صاحبة المذكرات على أن تروى لنا كيف أن الدكتورشاد رشدى قد عُين مديراً لأكاديمية الفنون على غير رغبة منه كما تقول (سنة ١٩٧٥) ، فقد كان قد رتب حياته (الباقية) على التفرغ للكتابة والإبداع الفنى:

«فى أوائل سنة ١٩٧٥ ، كان الدكتور رشاد رشدى وقتها يعمل أستاذاً متفرغاً بالجامعة بعد بلوغه سن المعاش ، بجانب عمله كعميد لمعهد الفنون المسرحية منذ ١٩٦٩ ، حينما اتصل به تليفونياً وزير الثقافة فى هذا الوقت ليبلغه بقرار تعيينه رئيساً لأكاديمية الفنون ، ولم يسعد بهذا التعيين ، بل كاد أن يرفضه بعد أن كان قد نظم حياته على أن يتفرغ للكتابة والإبداع الفنى ، والتف حوله الأصدقاء والأهل بالإقناع وبأنه قد تعود أن يكتب أعماله الفنية بجانب أعبائه الإدارية ، وأنه لابد أن يؤجل معايشة فترة خروجه على المعاش قليلاً ، فهى فترة «الملل» ورفض الحياة بالنسبة للرجل ، وقبل زوجى ، وتسلم أعباء الأكاديمية ويالها من أعباء .. فهل يستطيع أى إنسان فى مصر الآن أن ينجح فى أى عمل إلا إذا أعطاه عصارة تفكيره ، وجوهر وقته ، ورحيق دمه».

«بكل خبرة العمر وحكمة الزمن وعصارة الحب كانت الأكاديمية فى عصر رشاد رشدى».

(٨)

وتحرص السيدة ثريا رشدى على أن تضمن مذكراتها تفصيلات مهمة وموحية عن أول لقاء للرئيس السادات مع رشاد رشدى ، ويجد القارئ تركيزاً شديداً من الكاتبة على ما تروى أنه كان بمثابة الحوار الذى دار بين الرجلين فى هذا اللقاء ، والذى لم يكن ، فى نظر بعض القراء ، بمثابة الحوار الذى دار بالفعل ، ولكنه صورة لذلك الحوار بعدما حمل بصمات صاحبة المذكرات ورؤيتها ، ونحن نلاحظ هذا بسهولة شديدة ، ونحن نراها على سبيل المثال تؤكد ما لا يحتاج إلى تأكيد ، كما نرى بالطبع بصماتها المعرضة عن أشياء لابد أنها تداعت فى أثناء الحوار ، ومع هذا فإنه من المفيد للقارئ وللتاريخ ، وللنقد الأدبى نفسه أن نستعرض مع السيدة ثريا رشدى هذا الحوار الذى أدارته بين الرجلين ، فهى تمزج فيه رؤيتها الشخصية المتأثرة برؤية زوجها بالطبع للفروق بين رجلين توليا أمر هذا البلد ، أنور السادات وجمال عبدالناصر ، كما أنها تملى على القارئ إحساس زوجها أو تصوير زوجها الراحل لعمق علاقة حب السادات لعبدالناصر ، ولكن الغريب من أمر هذا الحوار أن السيدة ثريا رشدى قد اقتصدت فى عبارات السادات إلى أقصى الحدود ، واقتصرت فى النص على تعليقاته إلى الحد الذى جعلت فيه الديالوج مونولوجاً من كلامها قبل أن يكون من كلام رشاد رشدى! قد تكون هذه نقطة ضعف فى هذا الجزء من النص ، ولكن المؤكد أن النظرة الأعمق والأرحب إلى الموضوع سوف تعفيها من هذا الحرج ، فهى تتحدث بلسان رشاد رشدى الذى قد يمنعه (البروتوكول) قبل أن يمنعه (الموت) من أن يقول كل هذا الذى قالته وصرحت به.

ونحن نرى السيدة ثريا رشدى حريصة على أن تورد على لسان رشاد رشدى حديثاً له عن رأيها فى تصويره للرئيس عبدالناصر فى ١٩٧٥ وذلك من خلال هذا الحوار الذى يقدم به رشاد رشدى للرئيس السادات مسرحية «عيون بهية»..وهى تنسب إلى زوجها قوله :

«لقد انتهيت من مسرحية غنائية جديدة .. هى «عيون بهية». وبهية هنا هى مصر ، وإذا تعرضت للكتابة عن مصر وحربها مع إسرائيل ، فبالتالى لابد أن أتعرض لشخصية عبدالناصر مرة أخرى .. وفيها كتبت:

«الشعب: يا أميرنا .. أزل كربنا .. أنت أملنا».

«الأمير: اتركوا الأمر لى وانصرفوا أنتم إلى أموركم».

«الشعب: لكن السفينة تغرق ، ونحن ركابها دلنا يا أميرنا على شط الأمان».

«الأمير: (لنفسه) ما العمل .. لابد من يد تعيد إليهم الأمل».

«(وكأنه وجد الحل) يد الصاحب صديق الأحرار .. نصير الثوار».

«(ويأتى الصاحب من وراء البحار ويعيش فى المدينة الجميلة ذات المآذن والقباب .. ويرتع فيها ويستولى على خيراتها ثم يلتفت إلى الأمير أو صاحب البيت ويقول:

«الصاحب: ما الذى أتى بك إلى هنا».

«الأمير: ماذا؟ هذا بيتى».

«الصاحب: اخرج من هنا».

«الأمير: صاحبى .. ماذا حدث؟»

«الصاحب: اخرج ، قلت لك ألا تفهم»

«أنت الآن من الخدم»

«وأنا من الأرباب»

الأمير: فريسة أنا تقصد».

«الصاحب: نعم وأنا أسد الغاب».

«(وينهار الأمير ويصرخ قائلاً :

«آه يا شعبى المسكين».

«لم فعلت بك ما فعلت».

«وإلى أى مصير بك رميت».

«آه يا شعبى المسكين .. آه ياشعبى المسكين».

«وأكمل رشاد حديثه للرئيس الراحل».

«هكذا صورت عبدالناصر بعد ثمانى سنوات من الهزيمة ، وبعد ٥ سنوات من رحيله عن دنيانا».

وتستطرد السيدة ثريا رشدى فيما ترويه عن حديث الدكتور رشاد رشدى إلى الرئيس السادات فى لقائهما إلى ما ترويه من قوله زوجها عن علاقته ورأيه فى الرئيس عبدالناصر:

«لقد أحب عبدالناصر مصر وأعطاها حياته .. عبد الناصر لم يكن السبب فى هزيمة مصر عن ضعف أو عن كره أو عن سوء تخطيط .. بل عن سوء اختيار .. لقد هزمه رجاله وأعوانه قبل أن يهزموا مصر ، ومات عبدالناصر كمداً وحزناً على مصر ، وأنت تعلم ياسيادة الرئيس أنه رغم آلام عبدالناصر التي أصابت قلبه من غدر الصديق والرفيق ، فقد كان فى هذا القلب نور ومتسع كبير للحب».

«أنت تعلم ياسيادة الرئيس كيف بكى وكم حزن عبدالناصر وكأن الطعنة أصابت قلبه حينما بلغه انتحار صديقه والسبب الحقيقى لهزيمة الجيش المصرى المشير عبدالحكيم عامر. ومع ذلك بكاه فى مجالسه الخاصة ، ومع نفسه ، لم يبكه للشعب المصرى متاجراً بالوفاء ، بل بكاه مع نفسه دمعة حزن صادقة على رفيق غال».

«هذا هو عبد الناصر ياسيدى الرئيس فى داخل أعماقى بالنسبة له .. فأنا لن أجاملك ، بل سأكون صادقاً معك فيما له وفيما عليه ، فأنا صاحب قلم وصاحب كلمة لابد أن أكون أولاً صادقاً مع نفسى لكى أستطيع أن أكون صادقاً مع جمهورى».

هكذا نرى ثريا رشدى وهى تنحاز بقصد إلى الرؤية الرسمية التى تلقى بالهزيمة على عاتق المشير عبد الحكيم عامر وتحرص على تبرئة الرئيس عبد الناصر منها ، ثم إذا بهذا الرئيس يبكى صديقه المشير مع نفسه.

وهكذا ترى ثريا رشدى أن زوجها قد صور مأساة عبد الناصر فى علاقته بعبد الحكيم عامر على هذا النحو فى مسرحية «عيون بهية» وهو تصور قريب جداً من آراء شائعة بدرجة كبيرة عند مجموع المصريين بفضل طغيان وسطوة الرؤية الرسمية المفضلة عند أجهزة الدولة فى ذلك الوقت.

ومع هذا كله فلا ينبغى للمرء أن يتخطى هذه الفقرة إلى الفقرة التالية التى يورد فيها عبارات ثريا رشدى من غير أن يشير إلى أن رشاد رشدى كان فى السبعينيات وفى أوائلها بالذات من أوائل الذين ساعدوا على توظيف الأدب والصحافة لتسليط الأضواء الكاشفة على عهد عبد الناصر (ويمكن لآخرين أن يضعوا تعبير: كشف عهد عبدالناصر بديلاً عن عباراتنا المهذبة: تسليط الأضواء الكاشفة ، كما يمكن لآخرين أن يقولوا تشويه) ، وعلى الذين يريدون أن يدركوا مدى حجم الجهد الذى قدمه رشاد رشدى فى هذا المجال أن يتناولوا الأعداد الأولى من مجلة الجديد التى صدرت فى مطلع عهد الرئيس السادات وترأس رشاد رشدى تحريرها.

لا علينا من هذا كله ، ولنتأمل مرة ثانية بروح الديكارتيين السر وراء هذه العبارات

الطويلة التى أوردتـها لنا السيـدة ثريا رشـدى على لسـان رشـاد رشدى يحـدث بهـا أنور السادات عن عبدالناصر .. هل تريد السيدة الوفية أن تنأى بزوجها عن أن يكون كما صوره أعداؤه مـجرد معول من مـعاول الهدم السـاداتية فى التجـربة الناصرية ؟ ولم لا ؟ ومع أن رشاد رشدى أكبر من أن يكون معولاً من معاول الهدم ، فـإن الحقيقة السياسية التى تفرض نفسها لا تترك مهـمة المعاول لمجرد الأنفار البسطاء فى دنيا الحياة العـامة ، وإنما تجد السياسة من بين قمم الحـياة الأدبيـة من يتزعمـون تياراتهـا المتلاطمة .. وفى هذا الصـدد تكون ثريا رشـدى قـد نجـحت فى أن تبين للناس إطاراً آخـر يفسـر العـلاقـة التى كـانت بين ثلاثة: عبـدالناصر والسـادات ورشاد رشدى حـتى لا يعتقـد الناس أن رشاد رشـدى هو صاحب الفكرة التى جعلت كـتابات السادات تنطق وتعـترف بما كان عليـه عبدالناصر من حـقد لا ينتهى ، ولا أن السادات هو صاحب إجراء تلك «الفكرة» على قلم الدكتور رشاد رشدى.



كل هذه تفـصيـلات قد تنأى بالقـارئ عن فهم المعـانى البسـيطة والموحيـة التى أرادت السـيدة ثريا رشـدى أن تجريهـا أمام القـارئ ، حين تحـدثت عن اللقاء الأول بين السـادات ورشاد رشدى فقالت:

«... وفى ٢٥ ديسمـبر من نفس العام (١٩٧٥) كـان قد حُدد لـه ميعاد لمـقابلة الرئيس أنور السادات لأول مـرة ، وكان زوجى وقتهـا يمر بوعكة صحية ، وبسـببها كـان قد تناول بعض العقـاقيـر المخدرة ، وذهب لمقابلـة رئيس الجمهـورية ، لأول مرة يرى الرجل وجـهاً لوجه ، وكان تحت تأثير المخـدر ، وبالطبع لم يشعر بهيبة الحكم والحـاكم ولاقاه كما يلاقى صديقـاً عزيزاً عليه. فمنذ انـتصار أكتـوبر ١٩٧٣ ورشاد رشدى يرى مصـر فى السادات ، أحبـه (كما كـان رشاد يقول دائمـاً) لأن مصر انتـصرت بيديه وعـلى يديه .. لأن السادات وضع مصر فى الصفوف الأولى لدول العالم فأعاد اكتشاف العالم لمصر».

«وقال له :

«يادكتـور رشاد أنا كان نفسى أقـابلك من زمان ولكنى كنت أتردد فى المقـابلة ، واليوم عيـد ميلادى ، وقلت لم لا أستن هذا الـعام نوعاً جـديداً من الاحتفـال .. ولأقابل فى هذا اليوم إنسـاناً لم أقابله ولـم أعرفه من قـبل ، وكان أول تفكيرى أن أقـابلك أنت هذا العام ، وبمقابلتك حـققت الاحتفـال بعيد مـيلادى. أنا متأكـد الآن بعد لقائك وتلقـائيتك هذه أننا سنكون أصـدقـاء .. ولكن لى عندك رجـاء .. ودهش رشاد حين وجـد الرئيس السـادات يقـول له: أنا أحب عبـدالناصر فـهـو أستـاذى فى كلية أركـان حرب وصـديق عمـرى ..

وصاحب أكبر فضل عليّ .. ألم يكن هو الذى عيننى نائباً لرئيس الجمهورية .. وبذلك أصبحت الآن رئيساً للجمهورية. لولاه لما كنت أى شيء .. فأرجوك إذا كانت مشاعرك متحاملة ضد عبدالناصر .. أن لا تفصح عن هذا أمامى .. وأن تجاملنى فيه».

ها نحن قد وصلنا إلى الذروة في دراما هذا الحوار بين الرئيس والمفكر ، وهو حوار ترويه صاحبة المذكرات على الرغم من أن بعض غلاة الناصريين لا يظنونه حدث على هذا النحو ، فلا هم يؤمنون أن السادات كان وفياً لعبدالناصر ، ولا هم يؤمنون أن رشاد رشدى كان مؤمنا بعبد الناصر حسبما تقدمه صاحبة المذكرات فى نصوصها متعمدة أن تقدم لنا صورة أخرى غير تلك الشائعة ، وقد تكون هذه الصورة أكثر صدقاً من كل ما هو شائع :

«قال رشاد : لا يا سيادة الرئيس .. حتى وإن كان عقلى الواعى يُحمل عبدالناصر أن الهزيمة قد حدثت فى عهده ، فإن عقلى الباطن يرفض هذا ، بدليل أنى كتبت رواية «بلدى يابلدى» فى أواخر سنة ١٩٦٧ .. وكان بطلها الرمزى السيد البدوى ، هو يرمز للقائد والمعلم الذى عاش عمره ليعلم تلاميذه كيف يحملون الرسالة ، كيف يعيدون للناس الروح التى فقدوها ، وكيف يستطيعون أن يبنوا ما هدم فى الماضى ، ويعلموهم العمل الصالح الذى هو العمل من أجل الغير. ولكن أعوانه ضللوه وبسهم من سهامهم الخبيثة أصابوه ، وكان النور والإيمان بالإنسان .. وضعوا الجمرة المتقدة التى لا تنطفئ فى صدره ، وكانت صرخة السيد البدوى أو صرخة الزعيم لماذا جعلتم الناس تبيعنى أرواحها ، النور الذى فى قلوب الناس كنت أظن أنكم قد بصرتموهم فرأوه ، ولكنكم أطفأتموه فعميت البصائر وعم الظلام ، سوف تشتد الظلمة ويشتد كرب المسلمين .. إن مَنْ حولنا هم الذين يصنعوننا .. هم الذين يملكون أن نكون أو لا نكون كما يريدون .. اذهبوا فلم يعد عندى ما أقول..».

«هذا هو جزء ياسيدى الرئيس من مسرحية «بلدى يابلدى» ، وكيف كان تصورى فى هذه الفترة بالذات لشخصية عبدالناصر».

(٩)

على هذا النحو البديع قدمت هذه السيدة فى هذه المذكرات رؤية مهمة وجديدة لنظرة كل من الدكتور رشاد رشدى والرئيس أنور السادات إلى الرئيس عبدالناصر ، وهى نظرة تدعمها آراء الرجلين وما سجلاه من روايات مكتوبة أو مذاعة ، وهذه هى زوجة رشاد

رشدى نفسها تروى هذه الرؤية من خلال رواية اللقاء الأول بين الرجلين فتثير فينا مشاعر التقدير للرجال الثلاثة ، ومشاعر الازدراء تجاه بعض الذين كانوا من حول الحاكم!!

فلندع ما كان من علاقة الأديب بالرئيس ، ولنعد إلى علاقة الحبيب بالمحبوب ولنقرأ مع ثريا رشدى نفسها تساؤلاتها عن العلاقة بينها وبين زوجها الراحل ، وهى تتأمل فى هذه العلاقة بعد أن روت كثيراً من هامشيات السياسات.

«بماذا نسمى ما حدث بيننا؟ الاحتواء..! هل احتوى كل منا الآخر .. لم حدث هذا..؟ الحب الذى جمعنا! وما كنه حبنا..؟ تسابق فى العطاء .. نعم تسابق فى العطاء .. لم يعرف أحدنا أبداً ماذا يأخذ من الحب .. بل عرف كلانا كيف يعطى ويسبق الآخر فى العطاء .. وتوحدنا وأصبح يدور بيننا حوار طويل لساعات دون أن نتكلم ودون حتى أن ينظر أحدنا فى عينى الآخر لقد تخطينا حتى حديث العيون ووصلنا إلى حديث تراسل الأفكار».



وتمضى صاحبة هذه المذكرات لتطرح علينا ـ وعلى نفسها ـ بعض التساؤلات المعبرة عن سعادتها بالحيرة فى الصفات والوجوه المتعددة لزوجها الحبيب ، وهى تؤكد على أنها عرفته بكل وجوهه ، وأنها شاركته الرأى والفكر والمشكلات ، وأنه كان فى المقام الأول حريصا على أن يفيدها بتجاربه المتعددة ، وأن يجعل منها تلميذته التى يصنعها بيديه وتقول:

«مَنْ كان زوجى بينهم .. رشاد رشدى أستاذ الجامعة .. أم الكاتب المسرحى .. أم الناقد .. أم الرائد لأجيال كاملة من الشباب؟! لقد كان كل هؤلاء .. وقد كان حريصاً من اليوم الأول لحياتنا الزوجية أن يشركنى معه فى كل شىء يعمله أو أى فكرة تطرأ على ذهنه .. أو أى مشكلة يمر بها .. نعم كان أحياناً يأخذ برأيى ولكن كان شاغله الأول أن يجعل منى تلميذته التى يصنعها بيديه كما يريدها أن تكون .. وكان نعم الأستاذ..».

(١٠)

ومن السهل علينا أن ننتقد الملامح الفنية أو البيانية فى هذا الكتاب فى بعض مواضع ، لكن الأولى أن نقدر للسيدة ثريا رشدى هذه النقلات (العاطفية) أثناء كتابتها ، فهى على وجه التقريب قد جعلت قلمها يسترسل فى الكتابة يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة

حسبما أخذ هذا الفصل الطويل من وقتها من دون أن تعيد الترتيب أو تجعل للتقديم أو التأخير سبيلاً إلى التحكم فى كتابتها الرشيقة المؤثرة والتى تجمع إلى هذين الخصلتين خصلة لشباب الكتابة حين لا يعترى بنيان الكتابة حكمة أولئك الذين استطاعوا أن يدركوا كيف يتحكمون فى القلم ، ثم فى ترتيب ما خطه القلم.

وها هى ذى ثريا رشدى تعود فى صفحات متتالية لتعبر لنا عن (الذوبان) الذى كان يتحقق لها فى شخصية زوجها الراحل

ففى صفحة ١٣٩ تحدثنا عن ذلك الحوار الذى دار بينها وبينه فى القطار إلى نيويورك:

«وأكملنا (الأربعة أيام) الأخرى فى المستشفى ثم تركنا واشنطن نفسها وكأننا نهرب من سجن قُيدنا فيه بأغلال الألم واليأس .. وفى القطار إلى نيويورك .. أمسك بيدىَّ وقال ثريا .. ونظَرت إليه ، وابتسمت عيناه لى وقال ولأول مرة يتكلم: وصلتنى كل رسائلك .. خفت عليك .. تألمت من أجلك .. بكيت فى صمت .. تعذبت .. آسف ياحبيبتى : مددت يدك إلىّ ، ولكنى لم أستطع أن آخذ بها لأنقذك ، فأنا أغرق ولا أريدك أن تغرقى معى .. لم أستطع هذه المرة أن أعدك كما وعدتك دائماً .. أنى سأعيش بك ولك .. الأمور كانت قد خرجت من يدى .. اعذرينى ياحبيبتى فأنا لا أملك الآن سوى حبى لك. قلت: حبيبى ..•أنا لم أجزع عليك .. ولم (أخف) أن يزورنى الموت فيك ، فهو مازال بعيداً بعيداً ، فأمامنا أيام وسنوات طويلة .. أمسكت يدك حينما مددتها لى .. وضعت رأسك المثقل بالحزن واليأس فى صدرى .. أخفيتها بين حنايا ضلوعى حتى لا تصلها إرهاصات البشر .. كنت مطمئنة عليك .. هل تخشى ياحبيبى المرض .. أنت رشاد رشدى بإرادتك وعزيمتك القادرة».

وهذه صورة غير مسبوقة فى أدبنا الذى قرأناه:

«ضعينى فى رحمك ولا تلدينى» ما هو المعنى: هل هو الخوف من الحياة بكل ما فيها؟ أم هو الإحساس بزيادة الأمان معها إلى الحد الذى يهون معه كل الأمان الذى فى الحياة؟

هذا هو السؤال الذى نجحت عبارة ثريا رشدى أو رشاد رشدى نفسه (لا نعرف فقد امتزجت الشخصيتان) فى أن تجعلنا نبحث له عن جواب .. ثم إن ثريا رشدى تستأنف الحوار موجهة حديثها إلى زوجها الراحل وتقول:

«ووضعت رأسك المتعب على كتفى ونمت كما ينام الطفل (على) صدر أمه إلى أن وصلنا إلى نيويورك».

كل هذا وغيره من فلسفات الجمال والحب والفكر والفن تطالعنا به الصفحات قبل أن نصل إلى نهايات لم يكن فى حسبان السيدة ثريا رشدى أن تصل إليها فى حياتها ، فالمرض يتقدم ويقسو على زوجها ، ويسافر للعلاج ، ويعود ، ولكن الأقسى من هذا ما نجده فى التياعها وهى تحكى قصة خروج رشاد رشدى من رئاسة الأكاديمية والتى تعبر عنها بروح الحب (إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية) ، واتصل رشاد بوزير الثقافة والإعلام (الذى كان قد طلبه وهو نائم) فأبلغه الوزير وهو يعتذر أن السادات أبلغه أن يتصل بالدكتور رشدى ويتفق كلاهما على كتابة صيغة إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية على أن تصدر فى صفحة أولى فى جرائد الغد ، وفى لوعة شديدة تحكى السيدة ثريا فتقول:

«حدث هذا فى الجزء الأول من سنة ١٩٨٠ .. فقد كان انتداب رشاد رشدى رئيساً للأكاديمية ينتهى فى يوليو سنة ١٩٨٠ ، وكان الرئيس السادات يؤكد له فى كل لقاء تقريباً أنه لابد أن يستمر رئيساً للأكاديمية مدى الحياة ، خاصة أن رشاد قد رفض منصب الوزير عدة مرات ، وكان رشاد يطلب منه أن يعفيه أيضاً من رئاسة الأكاديمية ، فصحته أصبحت لا تقوى على تحمل مثل هذا العبء الإدارى».

«ولكن كان أنور السادات يقول له:

«يارشاد لو انفض المثقفون العلماء أمثالك من حولى فكيف لى أن أحكم هذا البلد».

«بأقزام العلم والثقافة ، أنت تعلم أنك أول من اخترته مستشاراً لرئيس الجمهورية للشئون الثقافية ، وتلاك الفريق الجمسى ، والفريق محمد على فهمى مستشارين عسكريين ، والدكتور فاروق الباز مستشارى العلمى ، فهؤلاء وأمثالهم من أريد أن يكونوا معى وحولى ولأحكم البلد من خلالهم ، ولو أن هذا المنصب بدون أى عائد مادى ولكنى متأكد أنكم تؤدونه على أكمل وجه».

وتستأنف صاحبة المذكرات بعد هذا الاستطراد :

«ونعود إلى قصتنا .. ففى مساء يوم من أيام أبريل سنة ١٩٨٠ ، اتصل بى وزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت وطلب مكالمة رشاد .. واعتذرت له أن هذا وقت نومه وحينما استيقظ زوجى أخبرته بالمكالمة وأبلغته أن وزير الثقافة منتظر منه تليفون ، واتصل به رشاد ليبلغه الوزير وهو يعتذر أن الرئيس السادات أبلغه أن يتصل بالدكتور رشدى ويتفق كلاهما على كتابة صيغة إلغاء انتداب رشاد من رئاسة الأكاديمية على أن تصدر فى صفحة أولى فى جرائد الغد».

«ولما كان الوقت متأخراً فقد اضطر السيد الوزير وهو يعتذر أن يكتب هو الصيغة ليرسلها إلى الجرائد حتى يستطيع أن ينفذ أوامر السيد الرئيس! .. جرائد الغد .. لمَ؟ نحن الآن فى شهر أبريل والانتداب ينتهى فى آخر يوليو .. لم هذه العجلة .. وصفحة أولى فى جميع الجرائد ؟ ، ومطلوب بأمر رئيس الجمهورية من الإنسان الذى طلب منه أن يترك العمل .. أن يكتب الصيغة بنفسه. أى زمان حل بك يامصر؟! أن يصدر الذى سيُعدم حكم إعدامه بنفسه حتى ينشر فى جميع الجرائد صفحة أولى قبل إعدامه بأربعة أشهر؟! ومطلوب منه أن يستمر فى العمل طوال هذه الشهور».

«وحلت شهور صيف هذا العام وذهب أنور السادات إلى الإسكندرية ثم عاد فجأة يطلب من رشاد مرافقته هناك .. وتناسى رشاد كل شىء .. بل هو لم يكن يذكر شيئاً».

«كان رشاد يذهب إليه يومياً فى الصباح ويعود حوالى الخامسة أو السادسة مساء يسيطر عليه الإعياء والتعب .. وفى يوم حضر فى حوالى الثالثة يستند على ذراعى اثنين من حراسة الرئيس ورجلاه لا تحملانه».

(١١)

وتحرص صاحبة المذكرات على أن تتحدث باستفاضة عن رد الفعل النفسى على رشاد رشدى وخطوته الإيجابية فى هذا الصدد ، وأسفها هى لانهيار هذه الخطوة الأخيرة وهى فى لوعة شديدة تخاطب الراحل فتقول:

«ومرت الأيام ونسيت يارفيق عمرى المرارة والألم ، وفتحت صدرك للناس جميعاً وضممتهم بين يديك ، وكأن شيئاً لم يحدث. وبدأت مع مرور الأيام تبنى سوراً صغيراً داخل سور المجتمع الكبير .. كان هذا السور الجديد مأوى لك ليحميك من عواصف الشر التى قد تهب من داخل سور المجتمع الكبير ، لذلك يامعلمى وأستاذى كنت شديد الحرص على كل لبنة من لبناته ، فقد بنيته وتصورت أن من حولك بنوه معك بالحب والوفاء والصدق ، كنت أنت واثقاً من ذلك كل الثقة ، لذلك عشت داخل هذا السور فترة من الوقت كنت تعتبرها أكثر أيام حياتك صفاء وثقة».

«وما هى إلا لحظات قليلة بعد ذلك الوهم حتى فوجئت أن السور انهار بأكمله من حولك ، وتعجبت ، ولكن زال عجبك عندما اكتشفت أن السور الذى حسبت أن مَنْ حولك بنوه بالحب والصدق لم يكن فى حقيقته إلا سوراً من الزيف والخداع وأحسست

وقتها أنك تعيش فى العراء .. وتساءلت مستنكراً .. أيستحيل على الإنسان فى هذه الدنيا التى تكاد تنفجر بسكانها أن يبنى سوراً من الحب .. فليرحمنا الله».

على هذا النحو من تأجج عاطفة الإحباط تعبر ثريا رشدى لنفسها ولزوجها عن خيبة الأمل فيمن وضع فيهم زوجها الراحل أمله ، وهى تصور السور وقد انهار بأكمله .. فكأنما أصبح على بانى السور أن يعود مرة أخرى إلى المجتمع المتلاطم من حوله وقد فقد إلى الأبد حماية هذا السور الذى كان يظنه يحميه من عواصف الشر التى قد تهب من داخل سور المجتمع الكبير(!!)



ثم تصل بنا السيدة ثريا رشدى إلى قمة «التراجيديا» فى قصة حياتها مع زوجها الحبيب ، وقد تكون هذه اللحظات هى نهاية حياة ، ولكن ثريا رشدى تنجح فى أن تصل إلى شاطئ الإيمان الذى نفهم معه أن هذه اللحظات ليست إلا لحظات الانتقال من التعبير عن العلاقات البشرية برموز حية مجسدة ، إلى التعبير برموز حية أكبر من التجسيد ، وهذا هو جوهر العبارات الملتاعة والمطمئنة (فى آن واحد) التى نقرؤها لثريا رشدى فى ختام حديثها ، والتى وصلت فيها إلى أقصى ما يمكن لها أن تصل إليه من بلاغة: بلاغة التعبير ، وبلاغة الصدق ، وبلاغة التعبير عن الصدق ، وبلاغة الإيمان قبل كل هذا :

«وذهبنا زوجى وأنا للفراش».

«ووجدته يمسك يدى ويضعها على شفتيه فى قبلة طويلة ثم ينظر إلى عينى ليقول:

«ثريا .. أنت هنا فى قلبى وضعتك داخله من قديم الزمان وأغلقته عليك وحدك».

«وبدأ كما تعود كل ليلة قبل النوم أن يضع يده اليمنى مكان الألم فى ذراعه اليسرى ويقرأ بعض آيات من القرآن ثم يستسلم للنوم».

«وبمجرد أن انتهى هذه الليلة من القراءة الصامتة وأنا أقف بجانبه صرخ قائلاً:

«أنا دايخ يا مامى..».

«فى نفس اللحظة كان ممدداً على السرير».

«رميت نفسى بجانبه وقلت : مالك يارشاد ، نظرت فى وجهه..».

«ليست لى خبرة بالموت قبل ذلك.. ولكن أعلمنى الله .. عرفت.

تساءلت: لم يا حبيبى.

احتوتنى رحمة الله وقدرته.

لم أصرخ .. لم أجزع.

لم أستطع منذ اللحظة أن أناديك ولكنى ظللت أناجيك.

تمددت فى أحضانك ، التصق جسدانا ولكنهما فى الحقيقة كانا قد تباعدا .. ظللت أناجيك وأبثك حبى وأشرب من فيك رحيق الموت.

فهل كانت توجد فىّ أنا حياة تشرب منك الموت.

لا يا حبيبى .. إنما كنا نتبادل قبلات موت جسدينا .. كلانا .. وبقى حبنا كل منا ما سوف يبقى إلى أبد البشرية .. بقيت روحانا تتعانقان وتعلو وتصفو فوق الحياة الترابية.

ومرت أربع سنوات الآن على رحيلك وأنا أحمل على صدرى هذا الجسد الميت الذى لم يكفن بعد لنعيش سوياً بين أكفان الذكريات .. بعد أن ذبلت الزهور فوق شجرتى .. وجفت جميع المياه فى نهرى ، ونضبت الثمار فى صدرى ، ولكنى أعيش فقط لك .. أسعى لنشر كتبك وانتشار تراثك وخلود اسمك الذى سيحيا سواء بى أو بدونى .. لأنه اسم حفر تاريخه على جدران مصر ..».



هكذا ينتهى ـ فى هذا الكتاب ـ حديث سيدة قد تكون أولى الذين لم ينطقوا إلا ليقولوا مثل هذا الحديث ، وإن كان عندنا حتى الآن كتب قيمة كتلك السيرة التى نشرتها بنت الشاطئ بعنوان «على الجسر» ، أو بسيطة معبرة كتلك التى كتبتها عفاف أباظة عن والدها عزيز باشا أباظة .. ولكن يبقى لهذا الذى كتبته ثريا رشدى وضع خاص من حيث كتبته سيدة كانت مع كل هذا الحب الذى يستشفه القارئ ، والإخلاص الذى تبعث به كلماتها ثالث زوجة فى حياة رجل عظيم لم تشأ هى كما قالت فى سطورها الأخيرة أن يكون هناك بعده رجل آخر فى حياتها.

أما فقرتها الأخيرة التى تحمل نوعاً من التناقض بين انتشار أدب المفكر الكبير بها أو بدونها ، وبين تخصيص حياتها لنشر كتبه وتراثه ، فهى ليست إلا تعبيراً عن مشاعر التداخل بين روحى الوفاء والتقدير ليس إلا ، وهى واردة على كل حال.

عربية للطباعة والنشر
٧-١٠ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ -٣٢٥١٠٤٣